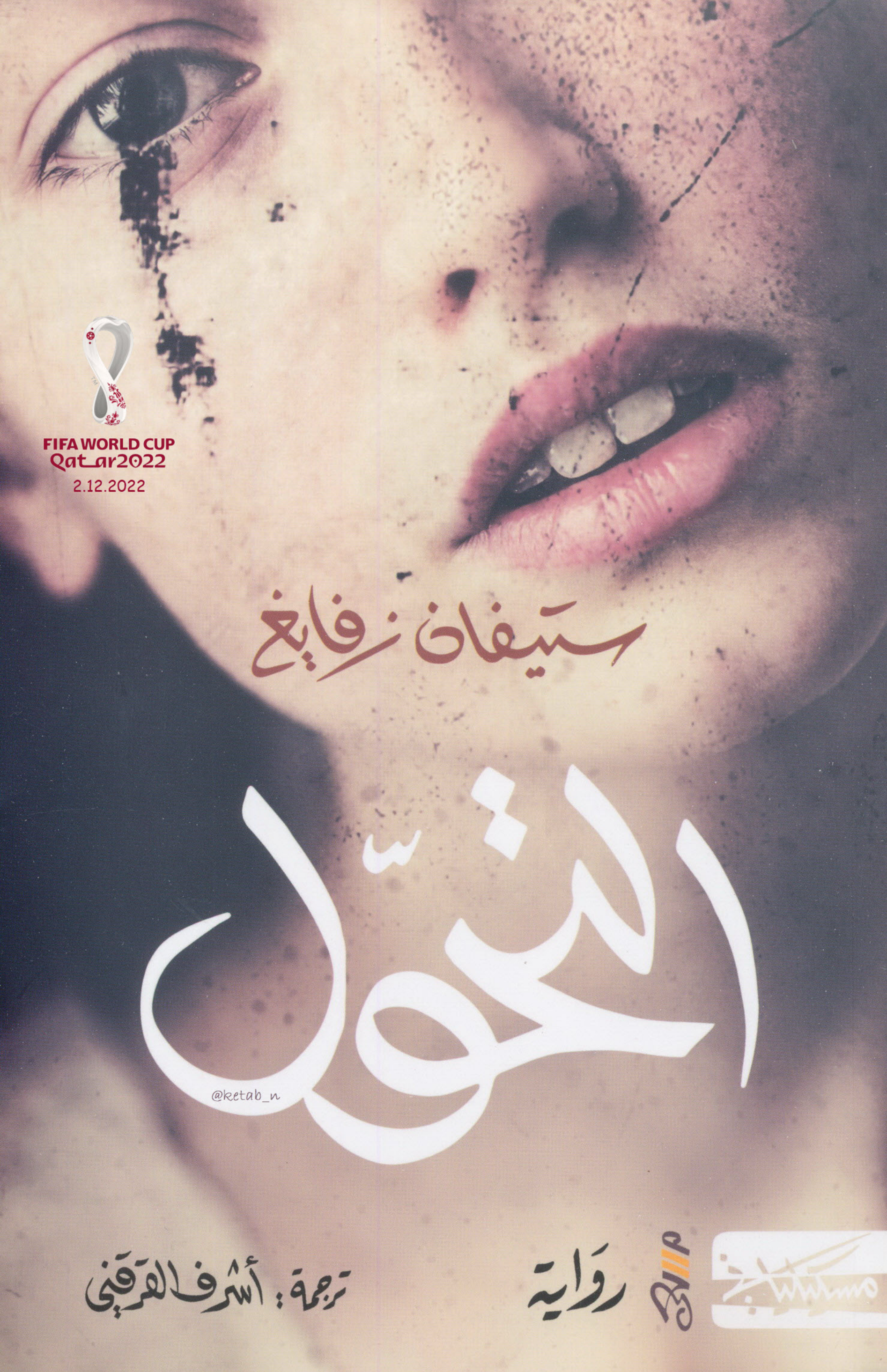


ستيفان زفايغ

التحوّل

رواية

ترجمة: أشرف القرقني

ستيفان زفايغ

التحوّل

ترجمة : أشرف القرقني

مسكيلياني

عنوان النسخة الأصليّة المعتمدة في هذه الترجمة
Stefan Zweig
Rausch der Verwandlung

الكاتب: ستيفان زفايغ

عنوان الكتاب: التحوّل

ترجمة: أشرف القرقني

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-111-2

الطبعة الأولى: 2020

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

مسعى للنشر والتوزيع

Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

(1)

تتشابهُ كلّ مكاتب البريد في قرى النّمسا. إذا رأيتَ واحدًا منها، فلقد رأيتها جميعًا؛ كلّها مُزوَّدة بأثاث قليل جدًّا، متشابه تمامًا، وموزّع كأنّه زيٌّ رسميّ إبّان عهد فرانز جوزيف[1]، بعد أن جُلب من المخزن ذاته. منظره الكئيب الذي يدلّ على بخل الحكومة منتشرٌ في كلّ مكان. ويمكنكَ، حتّى في قرى تيرول[2] الجبليّة النّائية جدًّا المترامية على ضفاف الأنهار الجليديّة، أن تشتمّ تلك الرّائحة التي تميّز الإدارة النّمساوية الرّسميّة بوضوح؛ رائحة التّبغ البالي الرّخيص والملفّات المتربة.

لا يختلف تصميم تلك المكاتب مطلقا؛ فهو عبارة عن حاجز خشبيّ تتخلّله أبواب زجاجيّة صغيرة. ويُقسِّم هذا الحاجز الغرفة إلى قسمين؛ عامّ ورسميّ، وذلك طبقًا لِنسب محسوبة بدقّة. من الواضح تمامًا فشلُ الدّولة في تقدير الوقت الذي يقضّيه مواطنوها في القسم

(1) فرانز جوزف الأول (1830-1916) Franz Josef I: إمبراطور النّمسا-المجر، أعلن الحرب على صربيا، ما أدّى إلى اندلاع الحرب العالميّة الأولى.

(2) تيرول Tyrol: ولاية نمساويّة تقع في قلب جبال الألب.

العامّ. ويتجلّى ذلك في عدم وجود مقاعد للجلوس أو أيّ وسائل راحة أخرى. وفي معظم الحالات تكون قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة في القسم العامّ مكتبا في حالة سيّئة جدًّا يستند إلى الحائط، تغطّي قماشَه المهترئ المصنوع من المشمّع المليء بالثّقوب بقعٌ لا حصر لها من الحبر، رغم أنّه لا أحد يمكنه أن يتذكّر وجود أيّ شيء في المحبرة المجوّفة سوى مادّةٍ سميكة لزجة متجمّدة عفنة غير صالحة للاستخدام. وإذا صادف أن وُجد قلم حبر في تلك المحبرة، فإنّ سنّهُ تكون دومًا ملتويةً عديمة الفائدة. لا تملكُ الخزانة العامّة الشّحيحة أدنى صلة بالجمال أو الرّاحة. فمنذ أن أزالت الجمهوريّة صورة فرانز جوزيف من مكانها، اقتصر ما يمكن تسميتُه بالزّينة الدّاخليّة على الإعلانات المزركشة الملصقة على الجدران البيضاء الوسخة، والتي تحثُّ على حضور معارض انقضت منذ فترة طويلة، أو شراء تذاكر اليانصيب، أو حتّى التّخلّص من ديون الحرب. وبهذه الملصقات الرّخيصة، مصحوبةً بلافتة تحذّر من التّدخين، ينتهي سخاء الدّولة على العامّة.

أمّا المنطقة التي تقع خلف الحاجز الرّسميّ، فمن الواضح أنّها تفرض المزيد من الهيبة. وهنا تحديدا، تعرض الدّولة رموز قوّتها وإمكانيّاتها. إذ تضمّ الخزانةُ الحديديّة الموجودة بأحد الأركان، من وقت إلى آخر، مبالغ كبيرة من المال. وهذا ما تشير إليه، على الأرجح، تلك القضبانُ الموضوعة عند النّوافذ؛ أمّا الزّينة التي تلمع على الطّاولة المتحرّكة، فهي عبارة عن جهاز تلغراف مصنوع من النّحاس الأصفر الصّقيل. وبجواره سمّاعة هاتف متواضعة جدًّا تستند إلى قاعدة

مصنوعة من النيكل الأسود. وقد مُنح هذان الشّيئان مساحةً أوسعَ تشي بالتّقدير والاحترام، لأنّهما يصلان القرية الصّغيرة النّائية بالرّايخ الألماني[1] طولاً وعرضًا عن طريق الأسلاك النّحاسيّة، في حين أنّ الأدوات البريديّة الأخرى محشورة إلى جانب بعضها البعض: ميزان الطّرود وأكياس الرّسائل والكتب وملفّات الأوراق والكراريس والفهارس والمبالغ الصّغيرة والأقلام السّوداء والزّرقاء والحمراء والمشابك والدّبابيس والخيوط والشّمع الأحمر وقطع الإسفنج المبلّلة والورق النّشّاف والصّمغ العربيّ والسّكاكين والمقصّات وحافظات المجلّدات. وكلّ لوازم العمل البريديّ مبعثرة على مكتب لا يزيد عرضه عن ذراع واحدة، بينما تحتوي الأدراج والصّناديق الكثيرة على رزم هائلة من الأوراق والاستمارات المختلفة بعضها عن بعض. ولكنّ التّبذير الذي يُبديه تكوّم تلك الأشياء المتناثرة هو في الواقع أمر خادع، لأنّ كلّ قطعة من هذه الأدوات الرّخيصة مُحصاة من الدّولة بشكل دقيق وسرّيّ، بدءًا من قلم الرّصاص إلى طابع البريد الممزّق، ومن نشّافة الحبر البالية إلى قطعة الصّابون المستعملة في الحوض المعدنيّ، ومن المصباح الذي يضيء المكتب إلى المفتاح الحديديّ الذي يستخدم في إغلاقه. وتتشدّد خزينة المكتب مع الموظّفين في توضيح أسباب استعمال أو استهلاك كلّ قطعة تخصّ الملكيّة العامّة. إذ تُعلّقُ بجوار المدفأة الحديديّة قائمةُ جرد تفصيليّة مطبوعة على الآلة الكاتبة

(1) الرّايخ Reich: استعملت الكلمة على امتداد التّاريخ الألمانّي، بمعنى «الإمبراطوريّة»، وعرفت ألمانيا بين 1871 إلى 1918 (أي حتّى نهاية الحرب العالميّة الأولى) باسم الرّايخ الألمانّي.

ومختومة رسميًّا، تحمل توقيعًا لا يُقرأ وتعيّنُ بدقّة صارمة كلّ الأشياء الموجودة في مكتب البريد حتّى لو كانت تافهة، أو عديمة القيمة. فلا شيء غير مسجَّل في هذه القائمة له مكان في المنطقة الرّسميّة. وعلى العكس من ذلك، فإنّ كلّ شيء في هذه القائمة يجب أن يكون موجودًا ومتوفّرًا في كلّ الأوقات بشكل منظّم وعن طريق السّجلّ... إنّها الطّريقة الرّسميّة التي يسير وفقها العمل.

من المعقول أيضًا أن تحدّد هذه القائمة المكتوبة الشّخص الذي تقتضي وظيفته أن يفتح البوّابة الصّغيرة كلّ يوم في تمام السّاعة الثّامنة. وهو الذي يبثّ الحياة في الأدوات الخاملة، ويفتح حقائب البريد، ويختم الرّسائل، ويتسلّم الحوالات الماليّة المرسلة، ويكتب الإيصالات، ويزِن الطّرود، ويستعمل الأقلام الزّرقاء والحمراء في كتابة حروف هيروغليفيّة غريبة غير مفهومة عليها، ويرفع سمّاعة التليفون ويُشغِّل آلة التّلغراف. ولكن لسبب مّا، فإنّ اسم هذا الفرد المعروف لدى الجميع باعتباره موظّفا في مكتب البريد، أو مديرا له، ليس موجودًا في القائمة. إنّه مدوّن في سجلّ رسميّ آخر موضوع داخل درج في قسم آخر من إدارة البريد، ومحفوظ في ملفّ محيّن باستمرار ومعدّ للمراجعة.

لا يُسمح بأيّ تغيير داخل هذا الفضاء الرّسميّ الذي تُقدِّسه الأرستقراطيّة البيروقراطيّة، حيثُ يُعلّق القانون الأزليّ للنّموّ والانحطاط عند الحاجز الإداريّ. أمّا في الخارج حول المكتب، فتُزهر الأشجار وتعرى؛ ويكبر الأطفال، ثم يموتون شِيبًا مسنّين؛ وتنهارُ المباني حطاما وتُقام مرّة أخرى في شكل جديد، فيما تبرهنُ البيروقراطيّة

على سلطتها التي تُجاوز أيّ سلطة دنيويّة، من خلال ثباتها الأبديّ. ولهذا السّبب، إذا استُهلك أيّ شيء داخل هذا الفضاء، أو تلف من كثرة الاستعمال، أو حتّى فُقِد، فإنّه يُستبدل بشيء آخر مطابق له يُطلب بصفة رسميّة، ويُسلَّم عن طريق وكالة مناسبة. وهكذا يتمّ إمداد العالم المتحرّك بمثال لتفوّق هذه القوى، إذ تعبر المادّةُ ويبقى الشّكل.

هناك رزنامةٌ معلّقة على الجدار، تُمزّقُ منها صفحةٌ كلّ يوم، سبعَ مرّات في الأسبوع، وثلاثين مرّة في الشّهر. وبحلول اليوم الواحد والثّلاثين من ديسمبر تكون قد اُستُنفِدت. فتُطلب رزنامة جديدة بالمقاس والشّكل نفسه والنّمط ذاته. تتغيّر السّنة. لكنّ الرّزنامة تظلّ على حالها. ويظلّ على الطّاولة كذلك دفترُ حسابات جارية مقسّمٌ إلى أعمدة، كلّما امتلأت جهته اليسرى نُقلت المبالغ إلى اليمنى، وهكذا من صفحة إلى أخرى. أمّا إذا امتلأت صفحته الأخيرة، فإنّ دفترا جديدا بنفس النّوع والتّصميم يُفتتح. ولا يمكن تمييزه من الدّفتر القديم. وأيّ شيء يختفي يعود في اليوم التّالي دون تغيير، مثلما يتكرّر العمل ذاته في المكتب كلّ يوم، وهكذا توجدُ نفس الأشياء ثابتةً على سطح الطّاولة نفسها: نفس الصّفحات والأقلام والقصاصات والاستمارات، مختلفةً دوما ودوما هي ذاتها.

لا شيء يغادر عالم الخزانة العامّة هذا. ولا شيء يُضاف إليه. تسير الحياة هنا دون ذبول أو إزهار، أو بالأحرى لا ينتهي الموت هنا أبدًا. تختلف الأشياء الكثيرة المتنوّعة في إيقاع زوالها وتجدّدها فحسب، وليس في مصيرها. يستمرّ قلم الرّصاص أسبوعًا. ثمّ يختفي. ويُستبدل بقلم جديد مماثل له تمامًا. ويصمُدُ كُتيِّب الخدمة البريديّة

شهرا واحدا، بينما يعمل المصباح الكهربائيّ ثلاثة أشهر. أمّا الرّزنامة فلسنة واحدة. وتُحدَّد ثلاث سنوات للمقعد المصنوع من القشّ، قبل أن يتمّ استبداله. أمّا الشّخص الجالس عليه فهو يبذل حياته، طيلة ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة من العمل، قبل أن يسلّم مكانه لشخص آخر سوف يقضّي المدّة ذاتها على نفس الكرسيّ.

سنةَ 1926 في مكتب بريد كلاين رايفلينغ[1]، وهي قرية مهملة حذو كريمس[2]، تبعدُ ساعتين بالقطار عن فيينا، كانت تجهيزاتُ الوظيفة الثّابتةُ هذه، حكرا على النّساء. فلهنّ يُقدّم هذا المنصب البسيط: مساعدة مكتب البريد. وهناك، عبر البوّابة الصّغيرة، يلوح منظر جانبيّ لشابّة شاحبة ولكن لطيفة في ما يبدو، ذات شفاه رقيقة، تظهر تحت عينيها آثار هالات. وفي المساء، عندما تضيء المصابيحُ، يلاحظ من يشاهدها عن كثب بعض البقع والتّجاعيد على جبينها. ومع ذلك، تظلّ هذه الشّابّة، إلى جانب أزهار الخطميّة عند النّافذة وأغصان البلسان التي تضعها في المغسلة المعدنيّة، أكثر الأشياء انتعاشا وجاذبيّة في مكتب بريد كلاين رايفلينغ. كما أنّها تبدو متأهّبة لخمس وعشرين سنة إضافيّة من العمل، سوف ترفع خلالها وتخفض بأصابعها الشّاحبة الباب الصّغير نفسه آلاف المرّات المتعاقبة، وتُلقي بمئات الآلاف أو ربّما الملايين من المظاريف على مكتب إلغاء الرّسائل. وبالحركة الدّائرية نفسها سوف تغلق بعنف الصّندوقَ النّحاسيّ المائل إلى السّواد على مئات الآلاف أو ملايين

(1) كلاين رايفلينغ Klein-Reifling: قرية بشمال النّمسا تطلّ على نهر إنس Enns.

(2) كريمس Krems: مدينة بالنّمسا تقع غرب فيينا بحوالي 70 كيلو مترا.

الطّوابع بالضّربة السّريعة ذاتها. ومن المحتمل أن يتعلّم معصم اليدْ كيف يؤدّي العمل بشكل أفضل في كلّ مرّة، بطريقة آليّة لا إراديّة ومنفصلة أكثر فأكثر عن الوعي. سوف تختلف مئات الآلاف من الرّسائل بعضها عن بعض. ولكنّها تظلّ دوما مجرّد رسائل لا أكثر. وكذلك طوابع البريد، والأيّام أيضا تختلف. لكنّها سوف تبدأ كلّها من الثّامنة صباحًا حتّى الظّهر، ومن الثّانية ظهرًا حتى السّادسة. وسوف تحلّ السّنوات وتمضي، بينما يبقى العمل في المكتب هو ذاته يتكرّر يوما بعد آخر.

ربّما تكون موظّفة البريد الشّقراء، خلف بوّابتها الصّغيرة في هذا الصّباح الصّيفيّ الصّامت، ساهمة تفكّر في هذه الأيّام القادمة، أو ربّما أيضا تكون تائهة في حلم يقظة عابر. إنّها ترفع على أيّة حال يديها الشّاغرتين من مكتبها، وتضعهما في حجرها، حيث ترتاحان، هزيلتين منهكتين وشاحبتين. ففي هذا الصّباح الأزرق الحارّ من شهر يوليو، لم يكن هناك الكثير لتقوم به في مكتب بريد كلاين رايفلينغ. لقد تمّ العمل. وكان هنترفلنر، ساعي البريد الأحدب الذي يلوك التّبغ طيلة الوقت، قد أنهى توزيع الرّسائل منذ فترة. ولم تصل طرود أو عيّنات من المصنع من أجل الشّحن قبل المساء، إذ لا يملك أهل الرّيف الوقت أو الرّغبة في مراسلة أحد. فالفلاّحون مشغولون بزراعة الكروم، مرتدين قبّعتاهم المصنوعة من القش. والأطفالُ يمرحون أثناء إجازتهم الصّيفيّة في الجدول بأرجل عارية. ويمتدّ الرّصيف خاويا خلف الباب في لهيب الظّهيرة الحارق. من الأفضل المكوث بالدّاخل في مثل هذا الوقت، حيث يمكن للمرء أن يحلم.

تظلّ الأوراق والاستمارات الرّسميّة في أدراجها، وعلى الرّفوف تحت ظلال السّتائر المسدلة. وتلمع أدوات المكتب المعدنيّة في سكون عبر الضّوء الذّهبيّ الخافت، ويغطّي الصّمت كلّ شيء مثل غبار كثيف، باستثناء حفلة صيفيّة صغيرة جدًّا تشكّلها أصوات البعوض الشّبيهة بأصوات آلات الكمان، يصاحبها صوت مزلاج النّافذة الذي يعمل عمل آلة تشيلو داكنة. والشّيء الوحيد ذو الحركة المستمرّة في الحجرة -التي انخفضت حرارتها الآن إلى حدّ مّا- هو ساعة الحائط ذات الإطار الخشبيّ المعلّقة بين النّوافذ، والتي تلتهم مقدارًا من الوقت في كلّ ثانية. لكنّه صوت ضعيف، رتيب، يُنعِسُ بدل أن يُحفّز. هكذا تجلس موظّفة البريد، وكأنّها تنعم بغفوة لطيفة في قلب عالمها النّائم الصّغير؛ أرادت أن تقوم ببعض أعمال التّطريز. وهذا واضح من وجود الإبر والمقصّات. لكنّها لا تملك الإرادة ولا القوّة لتلتقط المطرّزات المُلقاة على الأرضيّة في حالة مزرية. لذلك تسند ظهرها إلى كرسيّها بطريقة مريحة، وتتنفّس بصعوبة، مغمضة العينين، عائمة في ذلك الكسل المباح الغريب الرّائع.

تيك! ها هي تبدأ. تعود ثانية بحماس ووضوح وإصرار أكبر. تيك، تيك، تيك! يرنّ صوت التّلغراف بعنف، تئزّ هذه الآلة؛ يحتاجُ هذا الزّائر نادر القدوم إلى كلاين رايفلينغ إلى استقبال حافل. تصحو موظّفة البريد من غفوتها. وتتحرّك بسرعة إلى الطّاولة ذات العجلات. وتبدأ في تسجيل الكلمات. ولم تكد تفكّ شفرة الكلمات الأولى حتّى شعرت بالدّم يتضرّج في وجهها؛ فهي لم تر اسمها مكتوبًا على برقيّة من قبل أبدا. أنهت الآن استلام التّلغراف. فقرأته مرّة واثنتين وثلاثا.

لكنّها لم تفهم شيئًا؛ من عساه يكون هذا؟ من الذي أرسل إليها برقيّة من بونتريسينا[1]؟

«كريستين هوفلينر، كلاين رايفلينغ، النّمسا.

مرحبًا بك في أيّ وقت. اختاري اليوم الذي يناسبك. أرسلي برقيّة بموعد وصولك مقدّمًا. تحيّاتي.

كلير - أنطوني».

فكّرتْ مليًّا، مَن أنطوني هذا الذي ينتظر حضورها؟ أهو موظّف من المكتب يمزح معها بهذه الطّريقة السّخيفة؟ ولكنّها تذكّرت إذّاك ما قالته والدتها منذ أسابيع مضت، عن أنّ خالتها سوف تأتي إلى أوروبا هذا الصّيف، وأنّ اسمها كلارا. أمّا بالنسبة إلى أنطوني، فلا بدّ أنّه زوجها. إذ لطالما ذكرت أمّها اسم أنطون.

نعم، بدأت تتذكّر الآن. فمنذ أيّام قليلة، وصلت رسالة إلى والدتها من شيربورغ[2]. وقد أعطتها كريستين بنفسها لأمّها التي لم تفصح عن محتواها. ولكنّ هذه البرقيّة مرسلة باسمها: كريستين. هل يعني هذا أنّ عليها أن تذهب إلى بونتريسينا لرؤية خالتها؟ لم يُذكر أيّ شيء من هذا. تعيد النّظر إلى الشّريط الذي لم يُلصق بعد، والذي يشكّل البرقيّة الوحيدة التي تسلّمتها باسمها. تقرأ الرّسالة الغريبة. وتُعيد قراءتها في حيرة وفضول وارتباك. لا، لا يمكن الانتظار حتّى موعد الغداء. عليها الآن أن تسأل أمّها عن معنى كلّ هذا. تأخذ

(1) بونتريسينا Pontresina: بلدة جبليّة في كانتون غراوبوندن بسويسرا.

(2) شيربورغ Cherbourg: مدينة بشمال غرب فرنسا.

المفتاح بسرعة. تغلق المكتب، وتركض مسرعة إلى المنزل، وقد نسيت من فرط الحماس أن تفصل ذراع جهاز التّلغراف. ولذلك استمرّت مطرقة النّحاس المنسيّة في الطّقطقة بتوتّر على الشّريط الفارغ دون أن تعيّن أيّ كلمة.

تسري الكهرباء بسرعة كبيرة جدّا، لا يستطيع التّفكيرُ البشريّ أن يدركها. فكلمات الرّسالة الاثنتا عشرة[1] هذه التي نزلت مثل برق أبيض صامت، تتخلّله رطوبةُ مكتب البريد النّمساوي الخاليةُ من الهواء، قد كُتِبت في غضون الدّقائق القليلة التي مضت. وعبرت ثلاث دول في الظّلّ الهادئ الأزرق للأنهار الجليديّة، تحت سماء إنجادين[2] البنفسجيّة الصّافية. ولم يكن الحبر قد جفّ على البرقيّة عندما ظهرت الرّسالة والإخطار فجأة أمام ذلك العقل المرتبك.

وهذا ما حدث بالضّبط؛ لقد أنهى أنطوني فون بولن، وهو هولنديّ يعمل منذ سنوات طويلة في تجارة القطن بجنوب أمريكا، للتّوّ إفطارَه في شرفة فندق بالاس التي يغطّيها الزّجاج والضّوء من كلّ جانب. إنّه شخص حسن الطّبع، لا مبالٍ، أو بعبارة أدقّ رجل بسيط ساذج. وحان إذن موعد الجزء الأهمّ من الوجبة، وهو السّيجار الهافانيّ بلونه البنّيّ القاتم الذي استورده خصّيصا في علبة معدنيّة محكمة الغلق. أراح هذا الرّجل المهذّب السّمين ساقيه على كرسيّ من القشّ. واستنشق النّفس الأوّل والأكثر إنعاشا، وهو في ذروة سرور المدخّن المتمرّس. بعد ذلك، فتح صحيفة نيويورك هيرالد. وأبحر في

(1) عدد كلمات البرقيّة في النّصّ الأصلي 12 كلمة.

(2) إنجادين Engadine: منطقة بجنوب شرق سويسرا.

صفحات سوق البورصة وقوائم السّمسرة. وفي الوقت نفسه جلست أمامه زوجته المَلُولة كلير (كلارا سابقًا) وهي تقطع اللّيمون الهنديّ إلى شرائح. كانت تعرفُ بخبرة السّنوات الطّويلة أنّ أيّ تدخّل مباغت في القراءة المعتادة للصّحيفة أثناء الصّباح الباكر محكومٌ عليه بالفشل. ولذا لم يلق خادم الفندق المضحك، صاحب القبّعة البنّيّة والخدود الحمراء كالتّفّاح، منها سوى التّرحيب، وهو يقف متوتّرا أمامها، حاملا بريد الصّباح. كانت في الصّينيّة رسالة واحدة. ولكن من الواضح أنّها ذات أهمّيّة عظيمة، لأنّها حاولت في النّهاية أن تقطع قراءة زوجها الصّباحيّة، خلافا لتجربتها الطّويلة في التّعامل مع الأمر. وقالت:

«معذرة يا أنطوني، لحظة واحدة».

ولم تتحرّك الصّحيفة. فأردفت:

«لا أريد أن أزعجك. ولكن أنصت إليَّ ثانية واحدة. إنّه أمر عاجل. ماري (ومنحت الاسم صيغة إنجليزيّة على نحو تلقائيّ)، ماري قد أرسلت للتّوّ اعتذارها. وقالت إنّها لا تستطيع الحضور، مع أنّها كانت تودّ ذلك. فحالة قلبها سيّئة للغاية. ووضعها خطير. يعتقد طبيبها أنّها لا تستطيع تحمّل السّفر مسافة كيلومترين اثنين. ويؤكّد ذلك تأكيدا صارما. ولكن إذا كان مناسبًا لنا، فسيسرّها أن ترسل كريستين هنا لمدّة أسبوعين بدلًا عنها. أنت تعرف من هي كريستين. إنّها الصّغرى الشّقراء. لقد رأيتَ صورة فوتوغرافيّة لها ذات مرّة قبل الحرب. وهي تعمل في مكتب بريد. لكنّها لم تحصل أبدًا على إجازة حقيقيّة من قبل. وإذا تقدّمت بطلبها فستنالها في الحال، وبالطّبع،

ستكون سعيدة بعد أعوام كثيرة «بتقديم بالغ احترامها لكما عزيزيّ كلارا وأنطوني... إلخ».

لم تتحرّك الصّحيفة، وقد نفد صبر كلير. وقالت:

«ما رأيك؟ أنطلب منها أن تأتي؟ لن يضير هذه المخلوقة البائسة أن تحصل على نفَس أو اثنين من الهواء المنعش. إنّ الأمر يناسبني على أيّة حال. فطالما أقيم هنا، يجدر بي حقًا أن ألتقي بابنة أختي. إنّ لفظ «عائلة» يوشك ألاّ ينطبق علينا. هل لديك أيّ اعتراضات على دعوتها؟».

أحدثت الجريدة صوتًا خفيفًا. وارتفعت حلقةٌ مستديرة زرقاء من الدّخان أعلى حافّتها. بعد ذلك قال الزّوج بأسلوب سمج لا مبال:

«ليس لديَّ اعتراض مطلقًا. لماذا سأعترض؟».

بهذا القرار الموجز، انتهت المحادثةُ. وشرع مصيرٌ مّا في التّشكّل. أخذت إحدى الرّوابط العائليّة، بعد عدّة عقود، تتجدّد مرّة أخرى، لأنّه بالرّغم من الاسم الذي يبدو أرستقراطيًّا بمسحة هولنديّة بعض الشّيء: «فون»، وبالرّغم من أنّ محادثة الزّوجين كانت بالإنجليزيّة، فإنّ كلير فون بولن لم تكن إلاّ شقيقة ماري هوفليهنر. ومن ثمّ، فهي خالة مساعدة مكتب البريد في كلاين رايفلينغ. كان الغموض يشوب رحيلها من النّمسا منذ أكثر من ربع قرن، حتّى إنّ شقيقتها تذكره بطريقة غامضة. ولم تمنح لبناتها معلومات واضحة عنه. تسبّب الأمر حينها في نوع من الحساسيّة. وكانت عواقب أكثر حدّة على وشك الحدوث لو لم يقم الحكماء والحذرون بكبح فضول النّاس وإطفاء الشّرارة التي كان

من الممكن لها أن تُشعل هذا الموقف بأكمله. كانت السّيّدة كلير فون بولن تُدعى في ذلك الوقت الآنسة كلارا، وتعمل عارضة أزياء بسيطة في متجر بكولماركت[1]. ولكن لأنهّا كانت رشيقة آنذاك، وذات عينين لامعتين، فقد كان لها تأثير قويّ جدّا على بارون متقدّم في العمر، يرافق زوجته في غرفة قياس الملابس. وقد وقع رجل الأعمال الثّريّ، المصون إلى حدّ مّا في تلك الفترة، في غرام هذه الفتاة الشّقراء الجميلة المليئة بالحيويّة في غضون أيّام قليلة. وراح يتودّد إليها بكرم لا مثيل له حتّى في تلك الأوساط الرّاقية. وبعد فترة وجيزة، كانت عارضة الأزياء ذات التّسعة عشر عامًا -بالرّغم من سخط الأسرة الجليلة- تستقلّ عربة يجرّها جواد، وترتدي الفرو وأفخم الثّياب وأشياء أخرى كانت تكتفي من قبل بعرضها أمام المرآة من أجل الزّبائن اللّطفاء الذين يصعُب إرضاؤهم، وقد أصبحت الآن ملكا لها. وكلّما ازدادت أناقتها أسعدت أكثر رجل الأعمال العجوز الذي أصابه التّوتّر جرّاء نجاحه غير المتوقّع في الحبّ، وبات ينفق بسخاء على زينتها. وبعد أسابيع قليلة، أصبح ضعيفًا ليّنًا تمامًا حتّى إنّ أوراق طلاق زوجته قد أُعِدّت سرًّا وصارت جاهزة. وكانت هذه الفتاة في طريقها لأن تصبح واحدة من أغنى النّساء في فيينا؛ ولكن تدخّلت حينئذ بطريقة عدوانيّة حمقاء الزّوجةُ التي تلقّت رسالة تحذير مجهولة المصدر. فقد كانت ساخطة جدًّا من طردها مثل جواد أعرج إلى المرعى بعد ثلاثين عامًا من الزّواج المستقرّ. لذلك اشترت مسدّسا. وذهبت إلى الزّوجين غير الملائمين لبعضهما البعض. اقتحمت عشّ حبّهما، وهو فندق رخيص أُنشئ

(1) كولماركت Kohlmarkt: أحد أقدم شوارع فيينا.

حديثًا. وقامت في الحال بإطلاق طلقتين، طاشت إحداهما، بينما أصابت الثّانية كلارا في أعلى ذراعها، وسبّبت لها جرحا طفيفا. ولكنّ الموقف برمّته كان في واقع الأمر حرجًا: فزعُ الجيران، الصّرخاتُ العالية تطلب المساعدة عبر النّوافذ المحطّمة، الأبواب المفتوحة، حالاتُ الإغماء، المشاجرات، الأطبّاء، رجال الشّرطة، التّحقيقات، جلسات المحاكمة، وخوف كلّ الأطراف من الفضيحة. كلّ هذا لم يكن من الممكن تجنّبه أبدًا. ولكن لحسن الحظّ ليس هناك محامون مهرة في فيينا فحسب، بل في كلّ مكان؛ محامون متمرّسون في إنهاء مثل هذه القصص المرهقة التي تخصّ الأثرياء. ففي الحال أزال المستشار كاربلس -وهو أكثرهم حنكة- أخطار هذا الأمر وشيكة الحدوث. واستدعى كلارا بطريقة محترمة إلى مكتبه. وقد بدت لطيفة جدًّا، وعلى ذراعها ضمّادة تجذب الأنظار. ثمّ تفحّصت بفضول العقد الذي اشترط رحيلها الفوريّ إلى أمريكا، قبل أن تتمّ دعوتها إلى المحكمة، مقابل مبلغ من المال يُقدّم لها دفعة واحدة تعويضًا عن الأضرار التي لحقت بها، بالإضافة إلى مبلغ آخر في مُفتتح كلّ شهر طيلة خمس سنوات، بشرط ألاّ تتفوّه بكلمة؛ ولأنّ كلارا لم تكن ترغب حقّا في العودة إلى عرض الأزياء في فيينا بعد هذه الفضيحة، كما أنّ أسرتها قد رفضتها، فقد نظرت إلى صفحات العقد الأربع الكبيرة دون اعتراض. وبسرعة أحصت المال. فوجدت المبلغ ضخما بدرجة مدهشة. وفكّرت في ما سيحدث إذا طلبت ألف غلدر[1] إضافيّة. واستجاب المستشار لطلبها. وقّعت على العقد بابتسامة سريعة. وسافرت بحرًا. ولم تندم أبدًا على قرارها. تتالت

(1) عملة هولندية.

كلّ فرص الزّواج عليها حتّى أثناء سفرها ذاك، قبل أن تظهر الفرصة الحاسمة. التقت بأنطوني فون بولن في نُزل بنيويورك. وكان في ذلك الوقت مجرّد وكيل تجاريّ لدى أحد المُصدّرين الهولنديّين. لكنّه قرَّر فجأة أن يؤسّس عمله الخاصّ به في جنوب أمريكا، مُستخدمًا رأس المال القليل الذي ساهمتْ به، دون أن يشكّ أبدًا في مصدره. وبعد ثلاث سنوات صار لديها طفلان. ثمّ امتلكت منزلًا جديدا بعد خمسة أعوام. ومع انقضاء السّنة العاشرة، صارت صاحبة ثروة ضخمة؛ لقد كانت الحرب التي تسحق أثرياء أوروبا تنمّي في الآن ذاته ثروات الآخرين وبسرعة هائلة. وبمرور الوقت تولّى ابناهما أعمال التّجارة الخاصّة بوالدهما. وكانا قد نشآ على الرّغبة في ممارسة التّجارة. وبعد سنوات كثيرة استطاع الوالدان أن يقوما برحلة ترفيهيّة طويلة نسبيًّا إلى أوروبا. ومن الغريب أنّه عندما لاحت شواطئ شيربورغ[1] المنخفضة من بين الضّباب، شعرت كلير فجأة في تلك الوهلة بأنّ موطنها قد تغيّر تمامًا؛ لقد أصبحت أمريكيّة بدرجة كبيرة. ومع ذلك فقد أحسّت بحنين غير متوقّع لشبابها لمجرّد أنّ هذه القطعة من الأرض تنتمي إلى أوروبا. حلمت في تلك اللّيلة بالكوخ الصّغير الذي كانت تنام فيه مع شقيقتها جنبًا إلى جنب. واسترجعت آلاف التّفاصيل البسيطة. وفجأة، أدركت أنّها لم تكتب لأختها الأرملة المعوزة ولو كلمة واحدة منذ سنوات. فشعرت بالخجل والانزعاج، ممّا جعلها ترسل لشقيقتها، مباشرة عند وصولها، رسالة تدعوها فيها إلى زيارتها. كما أرفقت مع الرّسالة مائة دولار.

---

(1) مدينة تقع في شمال غرب فرنسا.

لكن، بما أنّ ابنتها هي التي تسلّمت الدّعوة الآن، فقد اكتفت السّيّدة فون بولن بإيماءة من رأسها. وكان خادم الفندق واقفًا هناك مثل مدكّ بندقيّة بنّيّة اللّون. فسمع. وأطاع الأمر المقتضب بإرسال البرقية. وفي النّهاية، أسرع إلى مكتب البريد ممسكا بالورقة، وقبّعته مائلة على أذنيه. وبعد دقائق قليلة تعالى صوت الكتابة على جهاز التّلغراف. وظهرت الكلمات على السّطح النّحاسيّ المهتزّ بسرعة أكبر من سرعة القطارات الصّاخبة، وأسرع كثيرًا من السّيّارات التي تخلّف دوّامات من التّراب. وبرقت الرّسالة عبر ألف كيلو متر من الأسلاك. وخلال فترة لا تُذكر عبرت الحدود ومرّت عبر فورارلبرغ[1] ذات القمم الألف، وعبر ليشتنشتاين[2] الصّغيرة النّشطة، وعبر تايرول ذات الوديان الكثيرة. وبالفعل فإنّ الاتّصال المتنقّل بطريقة مثيرة كان له طنينه الآتي من الأنهار الجليديّة إلى وسط وادي الدّانوب، وإلى المُحوِّل في لينز. وهناك توقّفت الرّسالة لحظة. وبعد ذلك وبأسرع ممّا هو متخيّل، انطلقت عبر السّطح الأعلى في الدّائرة الكهربائيّة في كلاين رايفلينغ إلى جهاز الاستقبال ومباشرة إلى ذلك القلب المشدوه المرتبك والمليء بفضول محموم.

تقيمُ كريستين مع أمّها بالقرب من زاوية إحدى السّلالم المظلمة المتهالكة في حجرة العلّيّة ذات النّافذة الصّغيرة بمنزل ريفيّ ضيّق. كان السّقفُ هرميًّا عريضا يمنع تراكم الجليد أثناء الشّتاء. ولكنّه

(1) فورارلبرغ Vorarlberg: ولاية اتّحاديّة تقع في أقصى غرب النّمسا، على حدود ألمانيا، سويسرا وليشتنشتاين.

(2) ليشتنشتاين Liechtenstein: دولة في جبال الألب تحدّها سويسرا والنّمسا.

في المقابل يحرم الطّابق العلويّ من أيّ شعاع للشّمس، إذ لا يمكن لأيّ شعاع خافت أن يتسلّل ويصل إلى عتبة النّافذة إلاّ قبيل المساء. فالطّقس رطب دوما في هذه العلّيّة الكئيبة التي تصدر منها رائحة سقف وطلاء عفنين. وتخترق هذه الرّائحة القديمة الخشب، وكأنّها فطر. كانت هذه الحجرة تُستخدم في سائر الأيّام مخزنا. ولكنّ أزمة الإسكان الحادّة التي تلت فترة الحرب جعلت النّاس يتقبّلون ظروفا معيشيّة متواضعة. ازدحمت الغرفة بفراشين وطاولة وصندوق قديم. أمّا الأريكة التي ورثاها، فقد شغلت حيّزًا كبيرًا جدًّا. ولهذا اشتراها تاجر خردة بسعر زهيد. في المقابل، اتّضح لاحقا أنّ بيع تلك الأريكة كان خطأ كبيرا، لأنّه عندما تشعر السّيّدة هوفليهنر بالتّعب في قدميها السّقيمتين المتورّمتين، فإنّها لا تجد إلاّ الفراش لتريحهما عليه. ولأنّها استنفدت قواها في سنّ مبكّرة، فقد كانت تشتكي باستمرار من ساقيها المريضتين ومن النّتوءات السّميكة المتورّمة، والأوردة الزّرقاء المنذرة بالسّوء التي تغطّيها ضمّادات من الصّوف، ومن سنتين من العمل قضّتهما في قبو دار مسنّين تفترشُ الأرض، حيثُ أُرسلت للعمل أثناء الحرب (كان على كلّ شخص أن يتدبّر أمر معيشته بمفرده). منذ ذلك الحين، أصبحت هذه المرأة البدينة تتحرّك بصعوبة بالغة. وأيّ مجهود تقوم به أو انفعال تتعرّض له يصيب قلبها على الفور. وكانت تعلم جيّدا أنّها لن تصمد طويلا. ولحسن الحظّ أنّ زوج شقيقتها مستشار المجلس الخاصّ تمكّن من إيجاد وظيفة في مكتب البريد من أجل كريستين دون صعوبة تُذكر، رغم كلّ الارتباك الذي حدث بعد تفكّك الحكم الملكيّ. صحيح أنّ راتبها ضئيلٌ وأنّ مكتب البريد ليس

سوى حفرة نائية. ولكنّ عملها فيه يمنحُها شيئا من الأمان: سقفٌ يحتمى به، وحجرة للتّنفّس، قد يُعتاد عليها في النّهاية، رغم أنّها أضيق من تابوت.

تنبعث رائحة الخلّ والرّطوبة دوما من هذا الصّندوق الضّيّق، ممتزجة برائحة المرض والرّقاد في الفراش. أمّا الباب المؤدّي إلى المطبخ الصّغير المجاور، فلا ينغلق بشكل جيّد. لذلك تتسلّل أبخرة الطّعام المعاد تسخينه مثل ضباب كثيف. وفي الحال تقوم كريستين بفتح الشّبّاك تلقائيًّا حتى إنّ الضّوضاء المفاجئة توقظ المرأة العجوز المستلقية على الفراش، لتشرع في الأنين والتّأوّه كأنّها جذع شجرة مُسقَط على الأرض يُحدث صريرا إذا اقترب منه أيّ شخص. يعرف جسدها الذي يعاني من الرّوماتيزم أنّ الألم قادم. ويتوجّس منه في كلّ حركة يقوم بها. ولذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من التّأوّه. ثمّ تلوّت بقوّة، وقد ثنت ساقيها. وسألت: «ما هذا؟». كانت تعرف، حتّى وهي نائمة، أنّ الظّهر لم يحن بعد وأنّه ليس موعد الغداء؛ لا شكّ إذن أنّ شيئًا مّا قد حدث. تُسلّمها ابنتها البرقيّة. تتلمّس يدُها الواهنة بجهد كبير طريقها في الظّلام عبر الطّاولة المجاورة للفراش المليئة بالأدوية. فقد كانت كلّ حركة تؤلمها. تجد نظّارتها ذات الإطار المعدنيّ، ولكن ما إنْ فهمت ما كُتب على الورقة، حتّى بدا وكأنّ صدمة كهربائيّة قد سرت عبر جسدها الثّقيل. تشهق. وتتنفّس بصعوبة. وتتمايل. وأخيرًا تسقط بكلّ ثقلها على كريستين. وتمسك بشدّة بابنتها المشدوهة. وتهتزّ. وتضحك. وتلهث، محاولة أن تتحدّث. لكنّها لا تستطيع. تغوصُ أخيرًا، بيدين تضغطان على قلبها، في مقعدها، وهي منهكة جدًّا. تأخذ نفسًا عميقًا

للحظة. وبعد ذلك تُخرج من فمها الخالي من الأسنان تيّارًا جارفًا من الجمل غير المكتملة وغير المفهومة، مصحوبة بضحكات مبتهجة. تنهمر دموعها على خدّيها. وتصل إلى فمها المرتخي، وهي تتلعثم وتلوّح بيديها وتُخرج خليطًا من الكلمات الهائجة أمام ابنتها المذهولة. حمدًا للرّبّ! لقد أصبحت الأمور على ما يرام. وتستطيع المرأة المريضة المسنّة وعديمة الفائدة أن تموت الآن في سلام. هذا هو السّبب الوحيد الذي جعلها تقوم بالحجّ إلى الأماكن المقدّسة في شهر يونيو الماضي، إذ صلّت طلبا لأمر واحد، وهو أن تأتي شقيقتها كلارا قبل وفاتها، وتعتني بطفلتها البائسة كريستل. لذلك فهي سعيدة الآن. ولم تبعث شقيقتها برسالة فحسب، بل أرسلت أيضا مبلغا محترما من المال مرفقا بالبرقيّة التي تقول فيها إنّ كريستل يجب أن تأتي إلى الفندق الذي تقيم فيه. كما قامت بإرسال مائة دولار منذ أسبوعين. نعم تحظى كلارا بقلب من ذهب. وهي طيّبة وعطوفة. يمكن لكريستين أن تستخدم ذلك المبلغ في أمور كثيرة غير رحلة السّفر. نعم يمكنها أن تتزيّن كأنّها أميرة قبل أن تذهب لزيارة خالتها في ذاك المنتجع الفخم. ستُلقي نظرة على المكان هناك. وسترى كيف يعيش الأثرياء. لأوّل مرّة ستتمتّع مثل سائر النّاس. حمدا للرّبّ. لقد فازت بهذا بفضل القدّيسين، إذ لم تنل من حياتها شيئا سوى الوظيفة والمسؤوليّة والكدح، بالإضافة إلى تكفّلها برعاية امرأة مسنّة بائسة مريضة عديمة الفائدة، من المفترض أن تكون قد ماتت ودُفِنت منذ فترة طويلة. ولو كانت تعي ذلك حقّا لاستسلمت مرّةً واحدة وإلى الأبد. تكفّلت الأمّ العجوز والحرب الملعونة بتدمير صبا كريستل تدميرًا كاملًا. ولذلك ظلّ قلبها يتمزّق

دومًا، وهي ترى ابنتها تهدر أفضل سنوات حياتها؛ أمّا الآن، فبإمكان الابنة تحقيق أمانيها. عليها فقط أن تحرص على أن تكون مهذّبة مع خالتها وزوجها، مهذّبة دوما ومتواضعة دون حاجة إلى الخوف من خالتها كلارا الطّيّبة التي تتمتّع بقلب من ذهب، والتي ستساعد ابنتها دون شكّ على الخروج من هذه الحفرة الخانقة، هذه المدينة التّافهة، بمجرّد أن تموت وتُدفن. يجب على كريستين ألاّ تتردّد ولو للحظة، إذا عرضت عليها خالتها أن تأخذها معها. عليها أن تترك هذا البلد العفِن وتهجر هذا الخراب، وألاّ تقلق على أمّها. فهي تستطيع دوما أن تجد مكانًا في دار المسنّين، وعلى أيّة حال، كم من الوقت تبقّى لديها؟ آه! تستطيع الآن أن تموت في هدوء. كلّ شيء سيكون على ما يرام.

ظلّت العجوز السّمينة الملفوفة في وشاح وتنّورة تذرع الغرفة بقدميها الهائلتين على ألواح الأرضيّة التي تصرّ بعنف. إنّها تجفّف عينيها بالمنديل الأحمر الكبير، والسّعادةُ تغمرها. تُلوِّح بذراعيها بشدّة. وتتوقّف قليلًا أثناء سيرها لتجلس، وتتأوّه، وتتمخّط، وتحبس أنفاسها كي تُخرج سيلًا جديدًا من الكلمات. ظلّت تفكّر في ما ستضيفه. واستمرّت في الثّرثرة والصّخب والابتهاج والأنين والبكاء أيضا من فرط دهشتها. وفجأة انتبهت، في غمرة تعبها، أنّ كريستين تقف، مذهولة، شاحبة، مرتبكة ومتلعثمة، وعيناها تتساءلان في حيرة، مع أنّ أمّها تمنحها كلّ هذا الفرح. يثير هذا الأمر غضب السّيدة هوفلنر. فتكافح الأمّ مرّة أخرى كي تنهض من المقعد، وتدرك ابنتها المرتبكة، وتُمسك بها بفرح وتقبّلها قبلة طويلة، وتجذبها نحوها وتهزّها، كما لو كانت توقظها من النّوم:

«حسنًا... قولي أيّ شيء! كلّ هذا من أجلك أيّتها الحمقاء. ماذا ألمّ بكِ؟ تقفين هناك كحجر أخرس! يا لها من فرصة.. عليكِ أن تكوني سعيدة! لماذا لست كذلك؟».

تمنع التّعليمات الصّارمة موظّفي البريد من ترك مكاتبهم لأيّ فترة من الوقت، طالما أنّ مكتب البريد مفتوح للعامّة. وحتّى بالنّسبة إلى الأمور الخاصّة والمستعجلة جدًّا، فإنّها تخضع لأولويّات الخزانة العامّة؛ الرّسميّة قبل الخاصّة. إذ يجب تنفيذ نصّ القانون حرفيًّا دون الالتفات إلى جوهره. ولذلك، عادت موظّفة بريد كلاين رايفلينغ بعد دقائق قليلة إلى مكتبها خلف الباب الصّغير متأهّبة للعمل من جديد، دون أن يشعر أحد بغيابها. مازالت الاستمارات تغفو على الطّاولة، حيث تركتها. أغلقت جهاز التّلغراف الذي جعل قلبها يخفق منذ فترة وجيزة، ليمكث أصفر لامعا وسط الحجرة الكئيبة. حمدا للرّبّ! لم يحضر أحد. ولم يحتج أحد إلى شيء. والآن تستطيع موظّفة البريد أن تُمعن النّظر، بضمير مرتاح، في الرّسالة المربكة التي برزت من خلف الأسلاك. رغم كلّ هذه الإثارة، مازالت لا تعرف ما إذا كانت هذه الرّسالة أمرًا مرغوبًا فيه أم مزعجًا لها. وراحت تتفكّر في الأمر على مهل. عليها أن تبتعد عن أمّها لأوّل مرّة في حياتها طيلة أسبوعين أو ربّما أكثر كي تزور أناسا غرباء.. لا، بل خالتها كلارا المقيمة في فندق جميل. ستحظى بإجازة حقيقيّة تستحقُّها. بعد أعوام طويلة جدًّا، ستحصل أخيرًا على فترة من الرّاحة، وترى العالم، وترى شيئًا جديدًا مختلفًا. ها هي الآن تستغرقُ في التّفكير أكثر. إنّها أخبار طيّبة فعلا؛ وقد كانت أمّها محقّة في سعادتها الشّديدة. يجدر بكريستين

أن تعترف بأنّ هذا هو أفضل خبر تلقّته على مدى سنوات طويلة. إنّها هبة من السّماء أن تسنح لها الفرصة للتّحرّر من تلك القيود لأوّل مرّة، وأن تصبح طليقة وترى وجوهًا جديدة وجزءًا آخر من العالم. لكنّها تسمع سؤال أمّها الغاضب الذي يشي بالاندهاش والانزعاج: «لماذا لستِ سعيدة؟».

«إنّ أمّي على حقّ فعلا. لماذا لستُ كذلك؟ أين شعوري بالفرح والإثارة؟» تنصت في انتظار ردّ فعل بداخلها أو استجابة لهذه المفاجأة الطّيّبة. ولكن في المقابل، كلّ ما تشعر به هو الارتباك والخوف وعدم الثّقة. تعتقدُ أنّه من الغريب ألاّ تكون سعيدة في موقف كهذا. وتقول لنفسها: «لطالما أخرجت البطاقات البريديّة مئات المرّات من حقيبة البريد، وتأمّلتها طويلا، تلك البطاقات ذات الصّور التي تعرض المضايق البحريّة النّرويجيّة الرّماديّة، وشوارع باريس الواسعة ذات الأشجار المصطفّة على جانبيها، وخليج سورينتو، وأحجار نيويورك الأثريّة. وكنتُ أعيدها دوما إلى موضعها، وأنا مشتاقة متلهّفة للذّهاب إلى تلك الأماكن. متى يحينُ دوري؟ هل كنتُ أحلم في ما مضى بشيء آخر سوى أن أتحرّر يومًا مّا من هذه الطّاحونة التي لا معنى لها، وهذا السّباق المميت ضدّ الزمن؟ أريد أن أسترخي ولو لمرّة واحدة. أريد أن أحظى بوقت مسترسل لنفسي، دون أن يتقطّع إلى فترات وجيزة ودقيقة جدًّا، يمكنُ للمرء أن يجرح إصبعه بواسطتها. كلّما ابتعدتُ عن هذه الطّاحونة اليوميّة، وجدتُ المنبّه، هادم النّوم، يجبرني على الاستيقاظ، وارتداء ثيابي، وشرب الحليب، وتناول الخبز، وتشغيل المدفأة، والذّهاب إلى العمل، والكتابة، وإجراء المكالمات

التّليفونيّة. وبعد ذلك مباشرة أرجعُ إلى المنزل. أعود إلى طاولة كيّ الثّياب والموقد والغسيل والطّهي وإصلاح الأشياء والتّمريض. وفي النّهاية أنام منهكة جدًّا. لقد حلمت بتحرّري من كلّ هذا ألف مرّة، بل عشرات الآلاف من المرّات، هنا أمام هذه الطّاولة وفي هذه الحظيرة القديمة. والآن، سأتخلّص أخيرا من كلّ ذلك، لأنّني سأسافر بعيدًا. وأكون حرّة. ورغم ذلك، فإنّ أمّي على حقّ. لماذا لستُ سعيدة؟ كيف يُعقل أنّني لم أجهّز نفسي بعد؟».

تجلس، وهي تحني كتفيها إلى الأمام. وتُحملق في الحائط، منتظرة استجابة مّا وشعورًا بالفرح. تحبس أنفاسها. ودون أن تلاحظ حتّى، تنصت إلى جسدها وتغوص في أعماقها مثل امرأة حبلى. ولكن لا شيء يثيرها أو يحرّكها. كلّ شيء ساكن وخاو مثل غابة لا طيور فيها لتصدح عاليًا. تحاول هذه المرأة البالغة من العمر ثمانية وعشرين عامًا أن تستحضر معنى مّا للسّعادة. فتدرك منزعجةً أنّها لم تعد تعرف الإجابة مطلقا، كما لو أنّها تعلّمت لغة أجنبيّة في طفولتها، وهي الآن لا تتذكّر منها شيئًا.

متى كانت آخر مرّة شعرتُ فيها بالفرح؟ تُفكِّر مليّا، وهي تحكّ خطّين صغيرين على جبينها المحنيّ. فجأة، تتذكّر صورة بدت كأنّها ترتسم على مرآة معتمة؛ صورة فتاة شقراء نحيفة السّاقين، تتأرجح حقيبتها المدرسيّة فوق تنّورتها القطنيّة القصيرة، بينما تطوف حولها مجموعة من الفتيات الأخريات؛ يشبه المشهد لعبة كرة المضرب[1]

(1) كرة المضرب Rounders لعبة بين فريقين أشبه بالبيسبول.

التي تُمارس في الحدائق العامّة بضواحي فيينا. كانت تصاحبها، عند متابعة الكرة في الهواء، موجة كبيرة من الضّحك، وروح معنويّة مرتفعة. ها هي الآن تتذكّر كم كان ضحكها بريئًا وطليقا. لم يكن بعيدًا عنها مطلقا: كان يدغدغ جلدها. ويسري في دمها. هزّة واحدة وينسكبُ الضّحكُ من بين شفتيها. لقد كان طليقا تماما، حتّى إنّها تُضطرّ إلى أن تحضن نفسها وتعضّ شفتيها في الفصل لتكتم ضحكها على ملحوظة طريفة أو سخافة مّا في حصّة الفرنسيّة. أيّ شيء بسيط كان بإمكانه أن يُطلق موجات من هذا الضّحك الأنثويّ المرح: تلعثم المعلّم المفاجئ، أو وجه مضحك في المرآة، أو قطّة تحاول أن تمسك ذيلها، أو نظرة ضابط في الشّارع. أيّ شيء بسيط وأيّ هراء لا معنى له يدفعها على الفور إلى الضّحك. كانت هناك دوما أشياء تثير ذلك الضّحك الطّفوليّ البريء. وحتّى عندما تكون نائمة، فإنّ ضحكاتها ترتسمُ على فمها الصغير.

اسودّت الدّنيا بعد ذلك أمام عينيها. وانطفأت مثل شمعة. لقد كانت في مفتتح أغسطس من عام 1914 جالسة في حجرتها المطلّة على حمّام السّباحة، إذ رأت جسدها النّاعم العاري، وهي في السّادسة عشر من عمرها، يظهر من تنّورتها كوميض الضّوء، ناضجًا، ناعمًا، أبيض، متورّدًا، مليئًا بالصّحة. كان من الرّائع أن تسترخي، وتخوض في الماء، وتسبح، وتتسابق مع صديقاتها على الألواح الخشبيّة التي تحدث صلصلة. مازال بإمكانها أن تسمع ضحكات صديقاتها السّتّ البالغات ولهاثهنّ. ركضت مسرعة إلى المنزل، لأنّها كانت بالطّبع قد تأخّرت مجدّدًا. كان من المفترض أن تساعد أمّها في تجهيز حقيبة السّفر.

فخلال يومين ستسافر إلى وادي كامب لقضاء العطلة الصّيفيّة. لذلك صعدت السّلّم بسرعة شديدة؛ ثلاث درجات في القفزة الواحدة. ودخلت مباشرة عبر الباب لاهثة. ولكنّها استغربت أن ترى والديها صامتين عندما دخلت، حتّى إنّهما لم ينظرا إليها. وقد سمعت والدها يتحدّث بصوت مرتفع على غير العادة. بدا أنّه متعلّق بالصّحيفة بشكل مبالغ فيه. أمّا والدتها، فلا شكّ أنّها كانت تبكي، إذ عصرت منديلها بعصبيّة. واندفعت إلى النّافذة. ماذا حدث؟ هل تشاجرا؟ لا، لم يحدث هذا أبدًا. استدار والدها. ووضع يده على كتف أمّها المرتعش. لم تره رقيقا بهذا الشّكل من قبل أبدا. ولكنّ والدتها لم تلتفت. فقد اكتفت هذه الملاطفة الصّامتة بزيادة ارتعاشها. ماذا حدث؟ إنّهما لا يعيرانها أيّ انتباه. كما أنّهما لم يلتفتا إليها حتّى. مازالت تذكر إلى الآن، وبعد مرور عشرين عامًا، كيف أحسّت بالخوف حينها. أهما غاضبان منها؟ وهل اقترفت خطأ مّا؟

ولأنّ الطّفل يشعر دوما بالخوف والذّنب، فقد تسلّلت إلى المطبخ في توجّس لتكتشف الأمر من الطّاهي «بوزينا» و«جيزا» خادم الضّابط المقيم بجوارهم. لا بدّ أنّه يعرف ما قد حدث. قال إنّ الأمر قد بدأ الآن. وسيتحوّل الضّرب الملاعين إلى غولاش[1]. سيضطرّ أوتو إلى الالتحاق بالجيش، بوصفه ملازم احتياط. وكذلك سيفعل زوج أختها. كلاهما سيغادر. وهذا سبب انزعاج والديها. في الحقيقة، كان شقيقُها أوتو واقفًا في الصّباح التّالي وسط غرفته، مُرتديًا

(1) طبخة لحم هنغاريّة.

زيّ المشاة الأزرق، وحزامه المزركش مثبّت حول وسطه، بينما تلفّ أنشوطة ذهبيّة سيفه. ومثل مدرّس بديل لعلم النّحو، اعتاد أن يرتدي نظّارة سوداء غير لامعة من طراز «الأمير ألبرت». كان فتى شاحبًا نحيلًا طويلًا وأشعث الشّعر. وتبدو هيئته مُضحكة كلّما ارتدى زيًّا أسود وقورًا. أمّا الآن، فقد كان منتصب القامة بملامح صارمة في زيّه الضّيّق. وبدا في هيئة جديدة مختلفة تمامًا عن منظره المعتاد. نظرت شقيقته إليه بذاك الفخر السّخيف الذي لا يملكه إلاّ المراهقون. وصفَّقت بيديها قائلة: «عزيزي، تبدو أنيقًا». دفعتها والدتُها التي اعتادت أن تكون لطيفة جدًّا. فاصطدم مرفقها بخزانة الثّياب. ثمّ قالت: «ألا تخجلين من نفسك أيّتها المخلوق عديم القلب؟». كان ذلك انفجار غضب يُخفّف ألمها الذي لا تستطيع أن تُعبِّر عنه. ها هي تشرع في البكاء بشكل أقرب إلى الصّراخ. يرتعش فمها بعنف. وتمسك بابنها الشّاب في يأس وبكلّ قوّتها، بينما يشيح هو بوجهه إلى النّاحية الأخرى، محاولًا أن يتظاهر بقدرته التّامّة على الاحتمال، ويتفوّه بشيء مّا عن الواجب والبلاد. أمّا الأب، فيلتفت صوب النّاحية الأخرى، دون أن ينظر إليه. يُحرِّر الشّابّ ذو الوجه الشّاحب نفسه بخشونة من عناق أمّه القويّ. يغمر وجهها بقبلات سريعة. ثمّ سرعان ما يصافح والده المتسمّر في مكانه، بشكل غير طبيعيّ، ويندفع كالسّهم من أمام كريستين بوداع سريع. ويقعقع السّيف أثناء نزوله على السلّم. مرّ ببيتهم في عصر ذلك اليوم الموظّف المحليّ، زوج شقيقتها، الذي تمّ تجنيده رقيبا للقطارات ليودّعهم. وبالنّسبة إليه، الأمر أسهل بكثير. فهو يعلم أنّه لن يتعرّض للخطر. يبدو كما لو كان

مطمئنًا. يُلقي النّكات ليهوّن الأمر، كأنّ الوضع سيكون مسلّيًا، ثمّ غادر. لكنّهما خلّفا وراءهما شبحين، زوجة شقيقها الحامل في شهرها الرّابع، وشقيقتها بصحبة طفلها الصّغير. كانتا تأتيان كلّ مساء لتناول العشاء. وفي كلّ مرّة يبدو ضوء المصباح كأنّه يخفتُ أكثر فأكثر. كانت كلّ الأعين موجّهة إلى كريستين بصرامة، تتفحّص ما إذا كانت قد تفوّهت بأيّ شيء مرح، بينما تشعر هي على فراشها اللّيليّ بالخزي من الحالة السّيّئة التي وصلت إليها، ومن سلوكها الطفوليّ غير الجادّ. تزداد صمتًا مع مرور الوقت رغما عنها. لم يعد الضّحك يُسمع في غرفهم. ولم يعد بإمكان أحد أن ينام نومًا مريحًا. عندما تستيقظ أثناء اللّيل، تسمع أحيانًا صوتًا هادئًا خافتًا كصوت مخيف لمياه تقطر من الصّنبور بالغرفة المجاورة؛ إنّها أمّها، تركع على ركبتيها أمام الصّورة المضيئة للعذراء، وقد هجرها النّوم. وتصلّي من أجل شقيقها لساعات طويلة بلا انقطاع.

ثم حلّت سنة 1915. وصار عمرها سبعة عشر عامًا. يبدو والداها وكأنّهما قد كبرا عقدا كاملا. تضاءل أبوها، كأنّه قد تآكل من الدّاخل. صار يشقّ طريقه بصعوبة من غرفة إلى أخرى، شاحبًا محنيَّ الظّهر، فيما يعرف الجميع قلقه بشأن العمل. فمنذ ستّين عامًا؛ منذ زمن جدّها، لم يكن بإمكان أحد في المملكة كلّها أن يرتدي ثيابًا من الشمواه أو أن يحنّط الحيوانات مثل بونيفازيوس هوفلينر وابنه. لقد أعدّ والدها تذكارات صيد لحصون آل استرهازي[1]

(1) آل استرهازي Esterházys: أسرة أرستقراطيّة تعود إلى جوزيف إسترهازي في عام 1720.

وآل شفارتسنْبرغ[1] وحتى الأرشيدوقات[2]، وكان لديه أربعة أو خمسة مساعدين يعملون بعناية وصرامة وفخر من الصّباح حتّى وقت متأخّر من اللّيل. ولكن في أوقات مميتة كهذه، يكتفي فيها النّاسُ بإطلاق النّار على النّاس، لا أحد يزوره طيلة أسابيع طويلة. وعلاوة على ذلك، يحتاج حملُ زوجة ابنه ومرض حفيده إلى الكثير من الأموال. انحنى كتفا الرّجل الصّموت أكثر فأكثر. ثم تراخيا تمامًا ذات يوم عندما وصلت رسالة من إيسونزو[3] دون أن تكون بخطّ أوتو، بل بخطّ قائده. لم يكن في حاجة إلى فتحها حتّى يعرف فحواها : موت بطل وهو في مقدّمة رفاقه، ذكرى أبديّة، وهلمّ جرًّا. أصبح المنزل أكثر هدوءا. وتوقّفت أمّها عن الصّلاة. وانطفئ الضّوء فوق أيقونة العذراء. فقد نسيت أن تملأه بالزّيت.

سنة 1916 بلغت الثّامنة عشر من عمرها. وأصبحت عبارة «مكلّف للغاية» مطّردة الاستعمال في البيت. فرّ أبوها وأمّها وشقيقتها من مشاكلهم مُنغمسين في البؤس النّاتج عن مشاكل الفواتير. وأصبحوا غارقين من الصّباح إلى المساء في حساب تكاليفهم اليوميّة القليلة جهرًا. اللّحم مكلّف للغاية، الزّبدة مكلّفة للغاية، زوج من الأحذية مكلّف للغاية... ولا تجرؤ كريستين أن تتنفّس، خوفًا من أن يكون التّنفّس مكلّفا للغاية هو الآخر. تنفلتُ أكثر الأشياء

---

(1) آل شفارتسننبرغ Schwarzenbergs: أسرة أرستقراطيّة عريقة تنحدر أصولها من التشيك وألمانيا.

(2) الأرشيدوق: أمير من أمراء الأسرة الإمبراطوريّة.

(3) معركة إيسونزو Isonzo: مجموعة معارك بين القوات النّمساويّة والقوّات الإيطاليّة في الحرب العالميّة الأولى على نهر إيسونزو بين عامي 1915 و1917.

لزوما لحياة عارية بعيدا عنها وبشكل مرعب جدّا. فتحفر جحورًا كالحيوانات داخل مخابئ الأسعار الباهظة. وعليك أنت أن تطاردها. عليك أن تتسوّل الخبز. وعليك أن تغوي البقّال كي يمنحك حفنة من الخضراوات. أمّا البيض، فيجب أن تأتي به من القرى البعيدة، والفحم عليك أن تنقله بيدك من محطّة القطار. تتنافس آلاف النّساء المتجمّدات من البرد والجائعات بحثًا عن فرائس تصبح أكثر ندرةً كلّ يوم. هناك شيء مّا ليس على ما يرام بمعدة الأب. وهو في حاجة إلى طعام خاصّ يسهّل الهضم. منذ ذلك الحين، أصبح لزامًا عليه أن يزيل لافتة بونيفازيوس هوفلينر ويبيع تجارته. ثمّ لم يعد يتحدّث مع أحد. يكتفي بالضّغط على معدته في بعض الأحيان. ويئنّ حين يفكّر أنّه وحيد. لا بدّ من استدعاء الطّبيب. لكنّ والدها يقول إنّه «مكلّف للغاية»، مُفضّلاً أن ينطوي ويحجب ألمه عن الآخرين.

بحلول 1917 بلغت التّاسعة عشر. دفنوا والدها بعد يومين من بداية العام الجديد. وكان المال الموجود في دفتر الحساب بالكاد كافيًا كي يصبغن ثيابهنّ بالأسود. صارت ظروف المعيشة مكلّفة أكثر فأكثر. أجّروا غرفتين للاجئين من برودي[1]. ولكنّ هذا لم يكن كافيا، حتّى مع عملها إلى وقت متأخّر من اللّيل. في النّهاية، عثر عمّها «عضو المجلس» على وظيفة لوالدتها بإحدى المستشفيات في كورنويبرغ[2]، وأخرى لها في أحد المكاتب. وليت مقرّ العمل كان قريبا! فقد كانت تغادر المنزل عند الفجر في عربة القطار المتجمّد.

(1) برودي Brody: مدينة نمساويّة.

(2) كورنويبورغ Korneuburg: مدينة نمساويّة.

ولا ترجع قبل المساء. ثمّ تبدأ التّنظيف والإصلاح والحكّ والفرك والرّتق والخياطة، حتّى تقع مثل حقيبة مقلوبة في نوم كريه، دون أن تفكّر في شيء أو ترغب في آخر. تغرق في نوم لا تريدُ أن تستيقظ منه ثانية.

في عام 1918 بلغت سنّها العشرين. وكانت الحرب ما تزال مستمرّة. لا يمرّ يوم واحد دون قلق. ليس هناك فرصة حتّى للنّظر في المرآة ولو لثانية، أو لإطلالة على الشّارع. بدأت والدة كريستين في التّذمّر من التّسكّع المستمرّ في أجنحة المستشفى الرّطبة حتّى تورّمت قدماها. ولكن لم يعد لدى ابنتها أيّ قدرة على التّعاطف. لقد عاشت طويلًا مع المرض. وقد تخدّر شيء مّا بداخلها منذ أن أصبح لزامًا عليها أن تكتب كلّ يوم ما يناهز سبعين أو ثمانين سجلاًّ عن عمليّات البتر الوحشيّة. في بعض الأحيان يدخل ملازم من بانات[1] بصعوبة شديدة إلى المكتب، مُستندا إلى عكّازه، كي يراها. ساقه اليُسرى محطّمة تمامًا. وشعره أشقر كالقمح الذي ينمو في موطنه. ولكنّ الهلع محفور في وجهه الطّفوليّ الذي لم يتشكّل بعد. وبلهجته السّوابيّة[2] الطّريفة يروي لها قصص حنينه إلى الوطن. يا له من طفل أشقر بائس تائه! يحدّثها عن قريته وكلبه وجواده. لقد تبادلا القبلات في إحدى الأمسيات على مقعد بالحديقة العامّة، قبلتان أو ثلاث على عجلة بدافع الشّفقة لا أكثر. أخبرها لاحقا أنّه يريد أن يتزوّجها فور

(1) بانات Banat: منطقة جغرافيّة وتاريخيّة بوسط أوروبا.

(2) نسبة إلى سوابيا Swabia: منطقة تاريخيّة قديمة في ألمانيا، تضمّ الآن جزءًا من ألمانيا وفرنسا وسويسرا.

انتهاء الحرب. ولم تجب بشيء سوى ابتسامة متعبة. إذ لم تكن تجرؤ على التّفكير في أنّ الحرب ستنتهي يومًا مّا.

وسنة 1919، حين أدركت سنّها الواحد والعشرين، كانت الحرب قد انتهت فعلا. لكنّ الفقر لم ينته بعد. بل احتجب فقط أسفل وابل من القرارات الزّاحفة بمكر من خلف متاريس ديون الحرب والأوراق الماليّة التي لم يجفّ حبرها بعد. وها هو الآن يزحف إلى الخارج بعيون غائرة وأفواه فاغرة، جائعا، وقحا، يلتهم كلّ ما تبقّى في بالوعات الحرب. كانت جميع الأرقام متبوعةً بأصفار كثيرة تهطلُ من السّماء، مثل ثلوج الشّتاء الطّويل، مئات الآلاف؛ بل الملايين. ولكن كلّ ندفة، كل ألف منها تذوب ما أن تلمس اليد الدّافئة. يتلاشى المال أثناء النّوم. ويطير بعيدا بينما يبدّل المرء حذاءه الممزّق ذا الكعب الخشبيّ، ويركض ثانيةً إلى المتجر. يركُض بلا هوادة، دون أن يتوقّف عن الحركة ليصل متأخّرا دوما. تصبح الحياة مجرّد رياضيّات؛ جمعا وضربا، دوامّةً مجنونة من الأرقام والأعداد، وإعصارا ينتزع آخر الأشياء الثّمينة، ويبتلعها في هوّته النّهمة السّوداء؛ يخلعُ مشبك الشّعر الذّهبيّ من عنق الأمّ، خاتم الزّواج من الإصبع، والقماش الدّمشقيّ من على الطّاولة. ولكن مهما ألقى المرء، فلا فائدة. إذ لا يمكنُ سدّ تلك الهوّة الجهنّميّة السّوداء، ولن يجدي نفعًا السّهر حتّى آخر اللّيل في رتق السّترات الصّوفيّة، أو إيجار جميع الغرف أو حتّى النّوم زوجين اثنين في المطبخ؛ ومع ذلك، يظلّ النّوم وحده ما تستطيع أن تهبه لنفسك، الشّيء الوحيد الذي لا يكلّف شيئا. عميقا في اللّيل، بجسد ممدّد على الفراش، مستنفد، شاحب،

نحيل، لم يمسسه أحد، تمضي السّاعات السّتُّ أو السّبع في غفلة عن أزمنة القيامة تلك.

ثمّ يحلّ عاما 1920 و1921. وتبلغ كريستين من العمر اثنين وعشرين - ثلاثا وعشرين سنة. إنّها زهرة الشّباب كما يُقال. لكنّها لم تسمع ذلك من أيّ شخص، ولا فكرة لديها عن هذا الأمر. هناك فكرة واحدة فقط تمكثُ في رأسها من الصّباح حتّى المساء: كيف يمكن تدبير المال بمبالغ تظلّ تتضاءل باستمرار؟ ومع ذلك، فقد تحسّنت الظّروف لاحقا بشكل طفيف جدّا، إذ ساعدها عمّها مستشار المجلس الخاصّ ثانية. وذهب شخصيًّا لرؤية رفيقه في لعب البوكر في إدارة البريد ليتسوّل لها فرصة عمل مؤقّتة، موظّفةً في بريد كلاين رايفلينغ، وهي قرية بائسة في مناطق النّبيذ. لكنّها تظلّ خطوة إلى الأمام وموطئا لقدميها. لا يكفي أجرها الضّئيل سوى فرد واحد، لكنّها مضطرّة إلى أن تتولّى أمّها، بما أنّه لم يكن لدى زوج أختها غرفة. احتاجت إلى أن تجعل كلّ شيء صالحا لاثنين. ولهذا السّبب، مازالت تستهلّ كلّ يوم بالتّقشّف وتنهيه بالحسابات. فتحصي كلّ عود كبريت وكلّ حبّة قهوة وكلّ مقدار ضئيل جدًّا من الدّقيق المسكوب في العجين. ورغم ذلك كلّه، فهي ما تزالُ تتنفّس. وما تزالُ حيّة.

وتمرّ أعوام 1922، 1923، 1924. ويبلغ بها العمر الرّابعة والعشرين، والخامسة والعشرين، فالسّادسة والعشرين. هل مازلتِ شابّة أم أنّك قد هرمت سلفا؟ ترتسمُ بضعُ تجاعيد خفيفة على صدغيها. وتصابُ ساقاها من حين إلى آخر بالوهن. وتعاني في الرّبيع من ألم غريب في الرّأس. ومع ذلك، فهي تحرز تقدّما مّا. ويتحسّن

وضعها نسبيّا. بحوزتها بعض المال. وتملك وظيفة دائمة. بل إنّ زوج أختها يرسل أيضا لأمّها ورقتين ماليّتين أو ثلاثا في مفتتح كلّ شهر. لقد حان الوقت الآن كي تحاول -ولو بشكل طفيف- أن تستعيد شبابها؛ حتّى أمّها صارت تحثّها على الخروج والاستمتاع قليلًا. وقد توصّلت، في النّهاية، إلى تسجيلها في دروس رقص في القرية المجاورة. ولم تكن هذه الرّقصات الموقّعة سهلة التّعلّم مطلقا. فقد أصبح الشّعور بالإرهاق متجذّرا في كيانها، إلى درجة أنّها تشعر أحيانا كما لو أنّ مفاصلها قد تجمّدت من البرد، ولا يمكن للموسيقى أن تذيب هذا الجمود. إنها تقوم بحركات الرّقص المطلوبة بجهد كبير. لكنّها لا تستطيع أن تستمتع بها حقًّا. إذ يغيبُ عنها الحماسُ. ويراودها شعور لأوّل مرّة بأنّه قد فات الأوان على كلّ هذا. وقد التهم الكدح شبابها. وحملته الحرب بعيدا. لا بدّ أنّ شيئًا مّا ينهش داخلها. ويبدو أنّ الرجال يحدسونه. إذ لم يتودّد إليها أيّ منهم، بالرّغم من مظهر وجهها الجانبيّ الأشقر الرّقيق الذي يبدو أرستقراطيًّا بين الوجوه الخشنة لفتيات القرية؛ وجه مستدير وأحمر كالتّفّاح. ولكنّ فتيات ما بعد الحرب اللاّتي يبلغن من العمر سبعة عشر وثمانية عشر عامًا، لا ينتظرن بهدوء وصبر أن يرغب فيهنّ رجل مّا فيختطفهنّ، بل إنّهن يطالبن بالمرح حقّا من حقوقهنّ. يطالبن به في عجلة، كما لو أنّهنّ لا يعشن شبابهنّ فحسب، بل ينفقن أيضًا حيوات مئات الآلاف من الذين ماتوا ودفنوا تحت الأرض.

كانت كريستين البالغة من العمر الآن السّادسة والعشرين، ترقب مصدومةً كيف تتصرّف أولئك الفتيات اليافعات الوافدات

على القرية. وتتأمّل ثقتهنّ في أنفسهنّ وشراهتهنّ، ونظراتهنّ الصّفيقة الفطنة، والإثارة التي تلوح في أردافهنّ، وكيف يضحكن بقوّة، دون أن يولين أيّ انتباه إلى حركات الفتية الأكثر جرأة، وكيف يصطحبن الرّجال بلا حياء إلى الغابات. كانت تراهنّ، وهي في طريق عودتها إلى المنزل. فيثير مشهدهنّ الاشمئزاز في نفسها. تشعر، وهي محاطة بهذا الجيل الفظّ الشّبق الذي ظهر بعد الحرب، بأنّها عجوز منهكة، عديمة الفائدة قد تجاوزتها الأحداث. لم تكن تملك الرّغبة ولا الإرادة اللاّزمتين لمنافستهنّ. لا حاجة إلى المزيد من المقاومة وتحصيل الألم. يكفي التّنفّس بهدوء، الحلم برفق، إنجاز العمل. سقاية الزّهور عند النّافذة، لا شيء يُرادُ أو يُرجى بلوغه. يكفي الامتناع عن إحداث أيّ تغيير أو مشاعر جديدة، فلا شيء يثير الاهتمام. لقد سرقت الحرب شبابها، ولم تعد لديها الشّجاعة ولا القوّة من أجل البحث عن السعادة.

تتنهّد كريستين، وهي تنحّي هذه الأفكار جانبًا. إذ يصيبها التّفكير في الأهوال التي مرّت بها في طفولتها بالإرهاق. يا لهول المشاكل التي تسبّبت فيها الأمّ! لماذا تذهب الآن لزيارة خالتها التي لا تعرفها أصلا، لتكون بين أناس لا تشعر بالرّاحة بينهم؟ ولكن يا إلهي! ماذا تستطيع أن تفعل؟! هذا ما تريده والدتها. وستشعر الأمّ بالسّعادة إذا استجابت كريستين لإرادتها. لذا لا يجب عليها أن تعترض على ذلك. ولماذا ستعترض على أيّة حال؟ إنّها متعبة، متعبة جدًّا.

تتناول موظّفة البريد، بتثاقل واستسلام، ورقة من القطع الكبير من الرّفّ العلويّ لمكتبها. تطويها بعناية عند المنتصف. وتشرع في الكتابة بخطّ واضح، إلى إدارة البريد بفيينا، تسألهم أن يسمحوا لها

بالحصول على عطلتها القانونيّة، ابتداء من الآن ولأسباب عائليّة، وأن يرسلوا موظّفة بديلة تحلّ محلّها انطلاقا من الأسبوع القادم. ثم تكتب بعد ذلك إلى شقيقتها المقيمة في فيينا تطلب منها أن تحصل لها على تأشيرة لسويسرا، وتقرضها حقيبة سفر صغيرة، وأن تلتقي بها لمناقشة عدّة مسائل تخصّ والدتها. وخلال الأيّام التي تلت، ظلّت تعدّ كلّ تفاصيل الرّحلة ببطء وعناية، ولكن من دون أيّ شعور بالفرح، ومن دون أيّ انتظارات أو اهتمام، كما لو أنّ هذه الرّحلة ليست جزءا من حياتها، بل مجرّد قسم آخر من الشّيء الوحيد المهمّ بالنّسبة إليها، وهو عملها وواجباتها.

انقضى الأسبوعُ كلّه في الإعداد للرّحلة. مرّت الأمسيات في الحياكة الدّؤوبة، والرّتق، والتّنظيف وتجديد الثّياب القديمة. أمّا شقيقتها، فبدلًا من أن تشتري أيّ شيء جديد بالدّولارات التي بعثت بها كريستين إليها، اكتفت بإعارتها بعض الأغراض من خزانة ثيابها. لقد كانت برجوازيّة صغيرة حذرة تعتقدُ أنّ ادّخار بعض الدّولارات أهمّ بكثير من إنفاقها على التّسوّق. أقرضتها معطف سفر أصفر، وتنّورة خضراء ومشبكا فسيفسائيّا كانت والدتها قد اقتنته من مدينة البندقيّة أثناء شهر عسلها، وحقيبة صغيرة من القشّ. اعتقدت كريستين أنّ كلّ هذا سيفي بالغرض. ففي الجبال لا يتزيّنُ المرء. وفي حال احتاجت إلى شيء مّا، ستشتريه هناك على الفور؛ وحلّ في النّهاية يوم الرّحيل. وحمل فرانز فوكستالر -المعلّم بمدرسة القرية المجاورة- حقيبة القشّ إلى المحطّة بنفسه. فهو لا يريد أن يفوّت فرصة إثبات صداقته. ومنذ أن شاع الخبر في القرية، جاء هذا الرّجل النّحيف

ذو الصّحّة الواهنة والعينين الزّرقاوين المتخفّيتين في توجّس خلف نظّارتيه، يعرض خدماته على عائلة هوفلينر. إنّهم الوحيدون الذين يعاملهم بودّ في قرية «الكروم» النّائية هذه. كانت زوجته مقيمة، منذ ما يزيدُ عن السّنة، في مستشفى بلدة آلاند[1] لإصابتها بمرض السّلّ. وقد استسلم كافّة الأطبّاء أمام حالتها، بينما يعيشُ طفلاه مع أقارب في مكان بعيد. لذا كان يجلس كلّ مساء تقريبا في شقّته ذات الغرفتين الهادئتين، ينجز أشغاله البسيطة بشغف؛ يضع بعض النّباتات في المُعشبة[2]، ويخطّ بعض الأسماء اللّاتينيّة بالأحمر والألمانية بالأسود تحت البتلات المجفّفة. يربط بنفسه كتيّباته العزيزة على قلبه، ذات اللّون الأحمر القرميديّ، من إصدارات ركلام[3]، بورق كرتونّي مزركش. ثمّ يستخدم قلم رسم ذا سنّ رفيعة كي يحاكي الحروف المطبوعة على ظهر الكتاب بدقّة فائقة وانتباه إلى التّفاصيل يثير الإعجاب. وفي وقت متأخّر من اللّيل، عندما يدرك أن كلّ جيرانه قد غرقوا في النّوم، يعزف متحمّسًا على آلة كمان متواضعة، قطعًا موسيقيّة كان قد نسخها بنفسه، وغالبًا ما تكون لشوبرت أو مندلسون، أو يقوم بنسخ أفضل أبيات الشّعر أو الأفكار المنتقاة من بعض الكتب المستعارة على أوراق بيضاء مربّعة بمقاس صفحة الكتاب، كان يجمعها ويربطها بعضها ببعض عندما تتراكم لديه المئات منها، في ألبوم واحد، بغلاف لامع. ثمّ يلصق عليها بطاقة ملوّنة زاهية. إنّه

---

(1) آلاند Alland: بلدة-سوق في منطقة بادن.

(2) مجموعة من نماذج الأعشاب المجفّفة والمرتّبة بطريقة خاصّة.

(3) ركلام Reclam: دار نشر ألمانيّة كانت تهتمّ بطباعة الأعمال الكلاسيكيّة المخصّصة للجامعات والمدارس.

شبيه بناسخ القرآن الذي يحبّ نقوش الكتابة وتعرّجات الخطوط، مستمتعًا داخل هذا الفرح الصّامت بأسلوبه التّعبيريّ. بالنسبة إلى هذا الرّجل الهادئ الهامد السّلبيّ الذي لا يملك حديقة أمام شقّته التي اشتراها بدعم حكوميّ، تعتبر الكتب مثل الأزهار؛ إنّه يحبّ أن يضعها على الرّفّ في صفوف متنوّعة الألوان. ويسهر على كلّ واحد منها، وهو يشعر بالسّرور، كما لو كان بستانيًّا عتيقا. يحملها في يديه الشّاحبتين النّحيلتين، كأنّها أشياء هشّة قابلة للكسر. لم يذهب أبدًا إلى حانة القرية، لأنّه يمقت البيرة والتّدخين، مثلما يخشى الرّجل الورعُ الشّيطان. وإذا كان في الخارج وتناهت إلى أذنيه تلك الأصوات الفظّة لشجار من خلف إحدى النّوافذ، أو أصوات السّكارى، فإنّه يجتاز طريقه بخطوات سريعة متوتّرة. كان آل هوفلينر الوحيدين الذين يتواصل معهم منذ أن مرضت زوجته. وغالبًا ما كان يمرّ بهم بعد العشاء، ليتسامر قليلًا معهم، أو ليقرأ لهم بصوت عال مقتطفات من كتبه. وكانوا يحبّون ذلك، خاصّة إذا قرأ من كتاب «زهور النّمسا البريّة» لأدالبرت شتيفتر[1]. صحيح أنّ صوته جافّ بعض الشيّء. لكنّه يتّسمُ بنبرة موسيقيّة كلّما انفعل صاحبه. لطالما شعرت روحه الحييّةُ، والمقيّدة بعض الشّيء، بشيء من الإحساس الماكر بالعظمة. يرفع بصره عن الكتاب. فيرى الفتاة الشّابّة تستمع إليه محنيّة الرّأس. كانت تبدو له حسّاسة جدًّا ومنتبهة للغاية. فيُشعره ذلك بأنّها تفهمه تماما. وقد لاحظت والدة كريستين هذا الشّعور المتنامي لديه. وأدركت أنّه ما إن تموت زوجته حتّى يشرع في النّظر إلى ابنتها بجرأة

---

(1) أدالبرت شتيفتر (1805- 1868) Adalbert Stifter: أديب وفنّان نمساويّ.

أكبر. لكنّ كريستين تظلّ رصينة في المقابل. فلا تقول شيئًا. وقد مرَّ وقت طويل منذ فقدت أيّ اهتمام بنفسها.

يحمل المعلّم حقيبتها على إحدى كتفيه، ذلك المحنيّ قليلًا. ويتجاهل ضحكات صبية المدارس. لم تكن الحمولة ثقيلة. ولكنّ كريستين تُسرع بتوتّر شديد، ودون صبر، حتّى إنّه يلهث ليلحق بها. لقد جعلها رحيلها تشعر فجأة بأنّها في حالة مريعة. وبالرّغم من أوامر الطّبيب الواضحة، فقد لحقتها أمّها مرارا إلى المدخل. وتعثّرت ثلاث مرّات وهي تهبط درجات السّلّم، شاعرة بقلق لا يمكن تفسيره. ولثلاث مرّات أيضا اضطرّ الجماعة إلى إعادة المرأة العجوز العنيدة وهي تبكي. وأثناء بكائها، تنفعل بشكل حادّ ومفاجئ، حتّى إنّه يتوجّب إعادتها إلى الفراش، وهي تلهث وتتنفّس بصعوبة. تركتها كريستين على هذه الحال، وقد انقلب قلقها الآن إلى شعور بالذّنب: «يا إلهي! لم أرها من قبل بمثل هذا الانزعاج. ماذا لو حدث لها مكروه في غيابي؟ ماذا لو احتاجت ليلا إلى شيء مّا؟ لن تصل شقيقتي من فيينا قبل يوم الأحد. وعدتني فتاة المخبز أنّها ستمكث معها في المساء. ولكن لا يمكن الاعتماد عليها. إذ بإمكانها أن تترك حتّى والدتها هي إذا سنحت لها الفرصة من أجل الذّهاب إلى الرّقص. لا، لم يكن عليَّ أن أفعل هذا. لم يكن يجدر بي القبول بالرّحلة. إنّ السّفر أمر متاح فقط لأولئك الذين تخلُو منازلهم من المرضى، وليس لمن هم مثلي، خاصّة حين يكون سفرًا بعيدًا لا يمكن للمرء أن يعود منه بسرعة متى أراد ذلك. ما الفائدة من كلّ هذا التّسكّع على أيّة حال؟ كيف يُفترض بي أن أستمتع بوقتي إذا لم أكن قادرة على الاسترخاء، وأنا

أفكّر كلّ لحظة ما إذا كانت أمّي في حاجة إلى شيء مّا، دون أن يكون معها أحد لمساعدتها. ليس بمقدور أحد أن يسمع صوت الجرس في الطّابق الأرضيّ. وربّما لا أحد يرغب في سماعه أصلا؟ فمالك المنزل وزوجته ليسا سعيدين لوجودنا هناك. ولو كان الأمر بأيديهما لأجّرا غرفنا لشخص آخر منذ زمن بعيد. أمّا هذه السّكرتيرة من لينز[1] فقد طلبت منها سلفا أن تقوم بإلقاء نظرة عليها في المساء وفي الظّهيرة. ولكنّها اكتفت بالإجابة: «حسنا». لا يمكن للمرء أن يستشفّ من هذا الوجه البارد الجافّ ما إذا كانت ستستجيب حقّا لطلبه أم لا. يجدر بي على الأرجح أن أرسل برقيّة لإلغاء السّفر. أيّ فرق ستحدثه زيارتي لخالتي بالنّسبة إليها؟ إنّ أمّي تخدع نفسها مُعتقدة أنّ شقيقتها تهتمّ لحالنا. لو كان الأمر كذلك حقًّا لكانت قد راسلتنا من حين إلى آخر طيلة إقامتها في أمريكا، أو حتّى أرسلت لنا طردًا بريديًّا كي تساعدنا، مثلما كان يفعل الكثيرون مع أهاليهم في تلك السّنوات البائسة. لقد قمت بتسليم هذه الطّرود بنفسي. ولكن، لم تتلقّ أمّي من شقيقتها الوحيدة أيّ واحد منها مطلقا. لا، لم يكن عليّ أن أستسلم، لو كان الأمر بيدي لألغيته قطعا. لا أعرف السّبب حقّا. لكنّ ذلك الشّعور السّيّئ الملحّ يهتف بي: «يجب ألاّ أذهب. يجب ألاّ أذهب».

بالنّسبة إلى الرّجل الأشقر الخجول، فقد تفوّه ببعض الكلمات لاهثًا، وهو يعيد طمأنتها على بعض الأمور، ويواصل السّير مسرعًا بجانبها. «لا، لا تقلقي». وعدها أن يمرّ بنفسه اليوم للاطمئنان على والدتها. وقال إنّ لديها الحقّ في أن تتمتّع أخيرًا بعطلة. فهي لم تنعم

(1) مدينة في شمال النّمسا يمر بها نهر الدّانوب تعتبر أهمّ مدن شمال النّمسا.

بيوم راحة واحد منذ سنوات كثيرة. قال أيضا إنّه كان ليصارحها قبل أيّ شخص آخر ما إذا كان تصرّفها هذا غير مسؤول حقّا. ولكن لا حاجة إلى القلق. سيرسل إليها الأخبار كلّ يوم. ظلّ يقذفُ كلّ ما يجول بذهنه من كلمات وأفكار كي يهدّئ من قلقها. وقد نجح حديثه الملحّ فعلا في التّخفيف عنها. صحيح أنّها لا تستمع لما يقوله أصلا. لكنّها تشعر بأنّ هناك شخصا مّا تستطيع أن تعتمد عليه.

كان القطار في المحطّة قد تلقّى إشارة المغادرة. تنحنح مرافق كريستين الخجول في شعور بعدم الرّاحة والارتباك، وهي تلاحظ تململه في مراوحته الوقوف على قدم واحدة. أراد أن يقول شيئًا مّا. لكنّه افتقد الشّجاعة من أجل ذلك. وفي النّهاية، بعد صمت وجيز، أخرج، في خجل، شيئًا أبيض مطويًّا من جيب صدره. لا يمكن أن تكون هديّة، بل على الأرجح مجرّد شيء صغير في متناول اليد. ومع ذلك، فقد فتحت كريستين ورقة التّصميمات الطّويلة يدويّة الصّنع باندهاش كبير، لتكتشف خريطة الطّريق من لينز إلى بونتريسينا، قابلةً للطّيّ والفتح مثل الأكورديون. وفيها توجد جميع الأنهار والجبال والمدن التي يمرّ بها القطار، مرسومةً بشكل مصغّر جدًّا، وقد كُتبت عليها أسماؤها بحبر أسود. هناك أيضا علامات صغيرة تظلّل الجبال، وهي ترِقّ وتغلُظ بحسب ارتفاعها المحدّد بالأمتار في أرقام صغيرة. كانت الأنهار مرسومة بحبر أزرق والمدن بالأحمر. مع إشارة إلى المسافات في جدول منفصل أسفل الجهة اليمنى، تمامًا مثل خرائط المعهد الجغرافيّ الضّخمة التي تُعدّ من أجل المدارس، إلاّ أنّها مرسومة هنا بإتقان وعناية، ومنسوخة بلطف من قبل مدرّس مساعد. فجأة،

احمرّ وجه كريستين من فرط المفاجأة. فحفّزت سعادتها هذا الرّجل النّحيل الخجول على أن يقدّم لها خريطة أخرى صغيرة، يؤطّرها شريط ذهبيّ. إنّها خريطة إنجادين منسوخة من خريطة سويسرا العسكريّة الضّخمة. وهي تحتوي على جميع الأودية والهضاب والتّفاصيل الصّغرى بشكل بارع جدًّا. هناك بناية في وسطها معيّنة بدائرة حمراء صغيرة. هذا هو الفندق الذي ستقيم فيه، حيث بايديكر القديمة، وفقا لما شرحه لها المدرّس. يمكنها بهذا الشّكل أن تتنزّه دوما كما تشاء دون أن تتوه، أو يصيبها القلق بشأن ذلك. شعرت بامتنان كبير له. وشكرته على هديّته. لا بدّ أنّ هذا الرّجل اللّطيف قد قضّى أيّامًا من العمل السّرّيّ في مكتبات لينز أو فيينا بحثًا عن النّماذج التي سينسخها، وقد سنّ أقلامه الرّصاص مئات المرّات، واشترى أقلام رسم خاصّة ليرسم هذه الخرائط بلطف وصبر على امتداد ليالٍ طويلة، حتّى يتمكّن في النّهاية، بهذه الموارد الضّئيلة، من أن يقدّم لها شيئًا عمليًّا ومناسبًا يمكنه أن يبعث فيها السّرور. لم تكن رحلتها قد انطلقت بعد. لكنّه كان يترقّبها كما لو أنّها رحلته هو. وقد سبق أن تخيّل كلّ كيلومتر ستقطعه؛ لا شكّ أنّه قد فكّر ليل نهار في مسارها وما سيحدث معها خلاله. شعرت حقًّا بالامتنان. وبينما هي تمدّ يدها له شاكرةً، رأت أنّه ما يزال غارقًا في صدمته بسبب جرأته المباغتة. ولمحت عينيه من خلف عدسات نظّارته، كأنّها تراهما للمرّة الأولى: عينان لطيفتان زرقاوان كعينيْ طفل، جعلهما شعور عميق بداخلها يبدوان أكثر زرقة وغموضا. شعرت بدفء مجهول ومفاجئ لم تشعر به من قبل مطلقا. وأحسّت بعاطفة وثقة تختلفان عن أيّ شيء سبق أن

أحسّت به تجاه رجل آخر. حينئذ، تحوَّل ما كان إلى حدود تلك اللّحظة مجرّد شعور غامض إلى قرار. أبقت يدها الشّاكرة في يده أطول من أيّ مرّة سالفة وبودّ أكبر. فشعر هو أيضًا بما يحدث من تغيّر. تسري في وجنتيه حرارة الدّم. ويشتدّ ارتباكه. يتنفّس بقوّة. ويكافح كي يجد شيئًا مناسبًا ليقوله. ولكنّ القطار قد شرع بالفعل في إطلاق صافرة الرّحيل مثل وحش أسود غاضب، وهو ينفث الهواء من جانبيه حتّى كادت الورقة في يد كريستين أن تطير. ليس لديهما سوى دقيقة واحدة. ركبت كريستين القطار على عجل. ولم تر من خلال النّافذة إلاّ منديلًا أبيض يخفق، سرعان ما اختفى خلف البخار والمسافة المبتعدة. ها هي الآن وحيدة، لأوّل مرّة في حياتها.

ظلّت جالسةً طيلة المساء الملبّد بالغيوم، وهي تشعر بالإنهاك عند زاوية عربة القطار المكسوّة بالألواح الخشبيّة. كان منظر الرّيف غائمًا من خلف النّوافذ المبلّلة بالمطر. وكانت القرى الصّغيرة تمرّ في ضوء الشّفق على نحو غامض وسريع، مثل حيوانات خائفة تفرّ في كلّ الاتّجاهات، ثم يتلاشى كلّ شيء وسط الضّباب الكثيف المعتم. لا أحد يشاركها الجلوس في مقصورة الدّرجة الثّالثة. لذا فهي تمدّد ساقيها على المقعد الخشبيّ، لتشعر للمرّة الأولى بحجم الإرهاق داخلَها. تحاول أن تستعيد أفكارها، غير أنّ صليل العجلات الرّتيب يشتّت ذهنها. تنشدّ عصابة النّعاس الثّقيل أكثر فأكثر حول جبينها المتألّم؛ إنّه نعاس السّكك الحديديّة الذي يستلقي فيه المرء غائبًا عن الوجود، مخدّرَ الحواسّ، كما لو كان داخل حقيبة فحم تهتزّ محاطة بضجيج معدنيّ. تسرع العجلات الصّاخبة، أسفل جسدها الهامد،

كأنّها كائنات مُطارَدة. ومن فوق رأسها المنقلب يتدفّقُ الزّمن أبكم، منفلتا وبلا حدود. تغوص عميقا في هذا التّيّار الأسود، إلى درجة أنّها تستيقظ في الصّباح التّالي مرعوبة، حين ينفتح الباب ويدخل رجل عريض الكتفين ذو شارب كثّ، ويقف أمامها بصرامة. تستغرق برهة حتّى تستجمع شتات نفسها، وتدرك أنّ هذا الرّجل بهذا الزّيّ الموحّد لا يشكّل خطرا بالنّسبة إليها. لن يقبض عليها. ولن يأخذها إلى أيّ مكان. إنّه يريد أن يفحص جواز سفرها فحسب. ولذلك تخرجه من حقيبة يدها بأصابع جمّدها البرد. يفحص الموظّف الصّورة لبرهة. ويقارنها بوجهها القلق. ها إنّ جسدها يرتعش تماما، إذ يتملّكها خوف لا مبرّر له، قد تكون الحرب هي التي زرعته داخلها. وربّما خالفت واحدة من آلاف اللّوائح النّظاميّة. فهناك دوما شخص مّا يقع في مثل هذه المخالفات. ولكنّ الشّرطيّ أعاد إليها جواز سفرها بلطف. وعدّل قبّعته بشكل آليّ. ثمّ أغلق الباب بلطف أكبر. كان بإمكان كريستين أن تستلقي ثانية. لكنّ الخوف قد طرد النّوم من عينيها. ها هي تذهب إلى النّافذة، وتنظر منها بفضول، وقد استيقظت حواسّها. منذ لحظات -إذ يجهل النّومُ الزّمن-، كان الأفق الممتدُّ موجةً رماديّة متّحدة بالضّباب من خلف زجاج النّافذة المتجمّد. أمّا الآن، فهو يشفّ ليكشف الجبال الصّخريّة القويّة على امتداد الأرض، وهي تشكّل مشهدًا هائلا وغريبًا. تستكشفُ نظرتُها الخائفة لأوّل مرّة عظمة جبال الألب التي لا يمكن تخيّلها. ها هو أوّل شعاع للشّمس يطلّ من الشّرق. وينكسرُ إلى ملايين الانعكاسات على امتداد المساحات الثّلجيّة التي تغطّي قمم الجبال. إنّه ضوء صافٍ ذو بياض

حادّ، يكاد يُهلك عينيها اللّتين دفعهما الألم إلى الإغماض لوهلة. لكنّ هذا الألم هو ما يردّ لها الآن حيويّتها. تنفتح النّافذة فجأة، مُستقدمة هذا المنظر السّاحر إليها. هواء منعش له برودة الثّلج وحدّة البلّور يتدفّق بين شفتيها، ويتفرّق أمام دهشتها، ليتوغّل عميقا في رئتيها. لقد استنشقت للتّوّ أعمق وأنقى نفَس في حياتها. تفتح ذراعيها كي تستقبل هذه الرّشفة المسكرة الأولى. فيتّسع صدرها على الفور -ويا لسعادتها- مُتحسّسا هذا الدّفء اللّذيذ الذي يدفعه النّفس البارد عبر أوردتها. وإذ حفّزها البرد، تلتفتُ الآن لتتأمّل المشهد يمينا فشمالا، وتقتفي عيناها الذّائبتان كلّ منحدر صوّاني حتّى قمّته. تكتشفان بمتعة متزايدة بهاءً جديدًا في كلّ مكان؛ هنا شلّال أبيض تتساقط مياهه مندفعة في الوادي، وهناك منازل حجريّة صغيرة أنيقة ومتراصّة كأعشاش الطّيور بين التّجاويف الصّخريّة. بعيدًا هناك، يحلّق ذلك النّسر بزهو فوق القمّة الأعلى. وفوق هذا كلّه، تنتصبُ تلك الزّرقة النّقيّة العجيبة، التي يصعب على المرء تخيّل توهّجها المثير والمنعش. تعيدُ النّظر مرارًا وتكرارًا في هذه المعجزة التي لا تصدّق، هذه الأبراج الجبليّة التي أشرقت بعد نوم ليلة واحدة. لا بدّ أنّ هذه الجبال الصّوانيّة الهائلة كانت موجودة هنا منذ آلاف السّنوات. وربّما ستظلّ كذلك لملايين السّنوات الأخرى. كلّ جبل منها راسخ في المكان الذي أقام فيه منذ القدم. ولولا هذه الرّحلة التي حلّت مصادفة، لكانت قد ماتت وتعفّنت، وصارت ترابًا، دون أن تكتشف هذه العظمة الهائلة. لقد كانت تحيا حياتها، وكأنّ كل هذا لم يكن موجودًا. لم تره أبدًا. ولم ترد ذلك حتّى. غفتْ كفتاة حمقاء في تلك الغرفة الصّغيرة جدًّا، التي

لا يتجاوز طولها ذراعا. ومرّت ليلةٌ. ومرّ نهار فحسب، لتبزغ أمامها هذه الأبديّة الهائلة. يا لهذه الشّواهق المتنوّعة! لم تكن من قبل مبالية بشيء. ولم تكن تحمل أيّ رغبة داخلها. أمّا الآن، فهي تتذوّق إدراكَ ما فاتها. جعلها هذا اللّقاء الأوّل بهذه العظمة تستكشف قدرة السّفر المربكة على كشط القشرة القاسية للعادة عن الجسد، وإلقائها بنواته الخصبة العارية في تيّار التّحوّل.

واصلت التّحديق في المشاهد الطّبيعيّة، وقد نسيت نفسها تمامًا في توهّج اللّحظة الأولى المتفجّرة فضولا وانفعالا. كانت تسندُ خدّها إلى إطار النّافذة، وقد توقّفت عن التّفكير في ما خلّفته وراءها. نسيت أمّها ومكتب البريد والقرية والخريطة المرسومة بعناية في حقيبتها، والتي يمكنها أن تسمّي لها كلّ جبل وقمّة، وكلّ جدول ينسكبُ بخفّة في الأودية. نسيت حتّى نفسها التي كانتها قبل يوم واحد. كلّ ما يشغلها الآن هو هذه العظمة التي تتغيّر باستمرار، المناظر الهائلة التي تتحرّك أمام عينيها، واستنشاق هذا الهواء المنعش، اللاّذع والحادّ كشجر العرعر، هذا الهواء الجبليّ الذي يجعل القلب ينبضُ بشكل أسرع وقوّة أكبر. لم تبتعد كريستين عن النّافذة طوال الرّحلة التي استغرقت أربع ساعات. لقد استسلمت للمرأى تماما، حتى إنّها فقدت كلّيّا إحساسها بالزّمن، وصارت تهتزّ مرتجفة عندما توقّف القطار، ليصرخ مراقب التّذاكر معلنا، بلكنة البلد -ولكن بيقين واضح أيضا- عن اسم وجهتها: «يا سيّدي المسيح! يا أمّنا مريم!».

فجأة، وبجهد عظيم اقتلعت نفسها من نشوتها. لقد وصلتْ فعلًا، دون أن تفكّر ولو للحظة في ما ستفعله لاحقا، كيف ستحيّي

خالتها، وماذا ستقول لها حين تلتقي بها. بحثت بسرعة عن حقيبتها ومظلّتها. عليها ألاّ تنسى شيئًا. ثمّ التحقت بالرّكّاب الآخرين الذين يغادرون القطار. وبانضباط عسكريّ توجّه صفّان من الحمّالين الذين يرتدون قبّعات ملوّنة باتّجاه المسافرين. وانقضّوا عليهم، بينما تعالى في المحطّة صراخٌ بأسماء الفنادق وهتافات التّرحيب. لم يكن هناك أحد في انتظارها وسط ذلك الحشد. بحثت في كافّة الاتّجاهات، وفي داخلها يتعاظم الشّعور بالارتباك، وقلبها يخفق باضطراب. تفحّصت قلقةً... لا أحد ولا شيء، كلّ مَن وصل إلى المحطّة، ما عداها هي، وجد من يستقبله، وأدرك جيّدا وجهته. ها هم المسافرون يتزاحمون حول سيّارات الفنادق التي كانت في انتظارهم، مصطفّةً خلف بعضها البعض في صفّ ملوّن برّاق مثل فصيل عسكريّ في حالة تأهّب. بدأ رصيف المحطة يخلو تدريجيًّا من النّاس. مازالت لم تعثر بعدُ على من ينتظرها. لا شكّ أنّها قد نُسيت، إذ لم تظهر خالتها مطلقا. ربّما تكون قد رحلتْ أو مرضت فجأة. ربّما أرسلت برقيّة لإلغاء هذه الرّحلة، ولم تصل في الوقت المناسب. «يا إلهي! ليت معي ما يكفي من المال لرحلة العودة!». تستجمع كريستين شتات نفسها. وتذهب إلى أحد الحمّالين ذوي القبّعات ذات الحروف الذهبيّة. وتسأله أن يتّجه بها صوب فندق بالاس. تسأله بصوت خفيض ما إذا كانت أسرة فون بولن تقيم هناك. فيجيب رجل قويّ أحمر الوجه بلهجة سويسريّة: «بالطّبع... بالطّبع». لقد تمّ تكليفه بإحضار الشّابّة التي تنتظره في المحطّة. وعليها فقط أن ترافقه إلى السّيّارة، وتعطيه إيصال الأمتعة كي يجلب لها حقائبها الكبيرة من المقصورة. تورّد وجه

كريستين خجلا، وهي تلاحظ للمرّة الأولى حقيبتها الصّغيرة البائسة المصنوعة من القشّ، تتأرجح بخفّة في يدها، بينما تنتصبُ أمام جميع السّيّارات الأخرى حقائب ثياب رشيقة جميلة ولامعة، تبدو كأنّها قد جلبت للتّوّ من واجهات المتاجر: أبراج عظيمة من المكعّبات الملوّنة، وثياب مصنوعة من جلد العجول الرّوسيّة الفاخر وجلود التّماسيح والثّعابين، وأحذية جلديّة ناعمة. لا شكّ أنّ المسافة التي تفصل بينها وبين أولئك النّاس واضحة على نحو صارخ. تملّكها شعور بالخجل. إنّها في حاجة إلى أن تختلق شيئا مّا! قالت له إنّ بقيّة حمولتها ستصل لاحقًا. «حسنا، يمكننا الذّهاب الآن إذن»، أجاب الحمّال ذو الرّداء المميّز. وحمدا للرّبّ لأنّه فعل ذلك، دون أن يظهر أيّ دهشة أو ازدراء تجاهها. ثمّ فتح باب العربة لها.

ما أن يُصاب المرء في كرامته عند أيّ نقطة ممكنة، حتّى تهتزّ جميع أعصابه على الفور. وحينئذ، سيجدّدُ أيُّ اتّصال عابر بهذا الجرح، أيُّ تفكير غير متوقّع فيه ألم الضّحيّة، ويضاعفه. فقدت كريستين منذ هذه الصّدمة الأولى شعورها بالأمان. صعدت في تردّد إلى سيّارة الفندق اللّيموزين الفخمة المعتمة. ثمّ تراجعت مُجفلة إلى الخلف، على نحو لا إراديّ، ما أن أدركت أنّها ليست بمفردها. لكنّ الوقت قد تأخّر على الرّحيل. عليها أن تشقّ السّيّارة برائحتها النّاعمة -وهي مزيج من العطر ورائحة الجلد الروسيّ- وتعبرَ بين أقدامٍ تفسح لها الطّريق على مضض. تفعل هذا بخجل، وبكتفين متراخيتين، كأنّ البرد قد حناهما، مُخفضة بصرها، إلى أن وصلت إلى مقعدها في مؤخّرة السّيّارة. كانت تهمس بكلمات اعتذار مرتبكة كلّما مرّت أمام زوجين من الأقدام،

كأنّها تسأل، بهذا اللّطف، المغفرة على وجودها بينهم. ولكن، لم ينتبه إليها أحد، أو ربّما تكون قد فشلت في هذا الاختبار الذي أجرته عليها ستّ عشرة نظرة، وربّما أيضا لم يلاحظ الجالسون في السّيّارة -وهم أرستقراطيّون رومانيّون يتحدّثون فرنسيّة فظّة ويقضون وقتًا ممتعًا- شبح الفقر السّاكن الذي انتبذ في هدوء وخجل الرّكن القصيّ من السّيّارة. جلست في توجّس، واضعةً حقيبتها المصنوعة من القشّ بين ركبتيها؛ لم تجرؤ على وضعها في مكان خال بجانبها. وهي على قناعة بأنّ هؤلاء المتغطرسين سيلاحظون حينئذ وجودها. كما لم تجرؤ على أن ترفع عينيها ولو لمرّة واحدة طيلة الرّحلة. ظلّت تنظر إلى الأسفل. فلا ترى سوى ما يوجد أسفل المقعد. لكنّ الأحذية الفخمة للسّيّدات جعلتها تعي مدى بساطة حذائها. تنظر بغمّ إلى سيقانهنّ بعضها فوق بعض، ممدودة في تعجرف وصفاقة من تحت فرو المعاطف. وتتأمّل جوارب الرّجال الرّياضيّة، المبرقشة على نحو فظيع. يكفي أن يجد المرء نفسه في عالم الأثرياء حتّى يشعر بموجات من الخزي تتدفّق في وجهه. كيف يمكن أن تتمالك نفسها وسط هذه الأناقة التي لم تحلم بها من قبل؟ كلّ نظرة خجل تسبّب لها مزيدًا من الألم. تجلس أمامها فتاة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، تحمل كلبًا بكينيًّا يتمدّد في كسل على حجرها، فيما يحمل طوقهُ الملبّد الأنيق نقشا من الحروف المتشابكة. يدها الصّغيرة التي تداعبه مطليّة بطلاء أظافر ورديّ. ويبرق في إصبعها خاتمُها الماسيّ الثّمين. وحتّى مضارب الغولف الموجودة في أحد أركان السّيّارة تملك مقابض جديدة ساحرة، مكسوّة بجلد ناعم. وكذلك مقابض المظلّات المرميّة أنيقة وباهظة الثّمن. مدّت

يدها بسرعة، وبشكل تلقائيّ، حتّى تخفي مقبض مظلّتها المصنوع من قرون رخيصة باهتة اللّون. تمنّت ألاّ ينظر أحد نحوها، فيلاحظ ما قد أصبح جليّا بالنّسبة إليها. انكمشت على نفسها أكثر فأكثر، وهي تشعر بالانزعاج. ومع كلّ موجة ضحك جديدة تشقّ رجفةُ القلق والخوف عمودَها الفقريّ. لكنّها لا تجرؤ على رفع بصرها لترى ما إذا كانت هي سبب تلك الضّحكات.

أيّ شعور بالرّاحة هذا الذي غمرها عندما لفّت عجلات السّيّارة داخل السّاحة المفروشة بالحصى أمام الفندق! أخرج رنين الجرس الحادُّ، الشّبيه بناقوس السّكك الحديديّة كتيبةً من الخدم المسرعين باتّجاه السّيّارة. وقف من خلفهم مدير الاستقبال، مرتديًا سترة سوداء طويلة، تترك انطباعًا مميّزًا لدى الوافدين، وشعره مفروق وفقا لحسابات هندسيّة دقيقة. كان الكلب أوّل من اجتاز باب السّيّارة. وثب إلى الخارج، وهو يهزّ جسمه ويحدث رنينا بطوقه. ثمّ تلته النّساء، وهنّ يرفعن فروهنّ الصّيفيّ من فوق سيقانهنّ الرّياضيّة القويّة، ويهبطن من السّيّارة بيسر، مخلّفات وراءهنّ موجة مذهلة من العطر. كان على السّادة الرّجال أن يسمحوا للمرأة اليافعة، من باب اللّباقة، أن تنهض على مهل وتنزل أوّلًا من السّيّارة. فإمّا أنّهم قد تعرّفوا بوضوح على أصولها المتواضعة، وإمّا أنّهم لم يلاحظوها على الإطلاق، إذ كانوا يمرّون أمامها دون أن يلتفتوا، متّجهين مباشرة صوب موظّف الاستقبال. ظلّت كريستين في الخلف حائرة، تحمل حقيبتها المصنوعة من القشّ، والتي صارت تمقتها فجأة. فكّرت أنّ عليها، على الأرجح، أن تعطي الفرصة للآخرين كي يبتعدوا عنها

بضع خطوات، حتّى تمنعهم من النّظر إليها عن كثب. لكنّها انتظرت طويلًا. وعندما همّت بالخروج من السّيّارة، لم يهرع إليها أحد من الفندق. رحل هذا السّيّد المتذلّل صاحب المعطف الطّويل مع السّادة الرّومانيّين، بينما انشغل خدم الفندق بجرّ الأمتعة الثّقيلة من صندوق السّيّارة. لم يعرها أحد أيّ انتباه. ويبدو أنّهم قد حسبوها خادمة جاءت لمساعدة أولئك الرّجال -أو هكذا خمّنت- بما أنّ الحمّالين أخذوا الأمتعة وعبروا من أمامها دون أدنى اهتمام، متجاهلين إيّاها كما لو كانت واحدة منهم. أخيرا، شعرت بالسّأم من كلّ هذا. وبآخر ما تبقّى لديها من قوّة، تمكّنت من اجتياز باب الفندق والذّهاب نحو موظّف الاستقبال.

ولكن من يجرؤ على الاقتراب من موظّف الاستقبال في موسم العمل؟ هذا الرّجل الذي يرتدي زيًّا فاخرًا، ويقف مستعدًّا لإصدار الأوامر خلف مكتبه، عارفا طريقه جيّدا، ومحافظا على صرامته وتوازنه وسط عاصفة من المشاكل؟ وقف اثنا عشر نزيلًا جنبا إلى جنب أمامه، وهو يكتب الملاحظات بيده اليمنى، ويصرف الخدم كالسّهام بنظرة أو إيماءة، بينما يوزّع المعلومات يمينًا ويسارًا، وأذنه على سمّاعة الهاتف. إنّه إنسان آليّ ذو ألياف عصبيّة مشدودة إلى الأبد. ينبغي حتّى على أولئك الذين يُسمَح لهم بالاقتراب منه أن ينتظروا دوما. فماذا تريدُ منه إذن زائرة جديدة غير مصرّح لها بالاقتراب منه؟ يبدو أنّ الوصول إلى سيّد الفوضى هذا متعذّر تمامًا، حتى إنّ كريستين تراجعت في خجل إلى أحد الجدران، لتنتظر هدوء هذه الزّوبعة. ولكنّ الحقيبة المصنوعة من القشّ أصبحت ثقيلة في يدها. ها هي تبحث بلا

جدوى عن أحد المقاعد كي تجلس. وإذ نظرت من حولها، شُبّه إليها أنّ شخصين في الرّدهة ينظران إليها بسخرية، ويتهامسان ضاحكين. ربّما تنشئ مخيّلتها ما تراه، بسبب ما تشعر به من توتّر. شعرت بأصابعها تتراخى، حتّى إنّها تكاد تفلت الحقيبة من يدها. ولكن في هذه اللّحظة الحاسمة، تقدّمت سيّدة أنيقة تتصنّع مظهر شابّة شقراء. وتفحّصتها بدقّة، قبل أن تجازف وتقول لها: «هل أنتِ كريستين؟». وما أن سمعت إجابتها التي لا تجاوز الهمس حتّى غمرتها الخالة بقبل مرحة على خدّيها، وبرائحة لطيفة لمسحوق التّجميل الذي يغطّي وجهها. أمّا كريستين، التي انتُزعت للتّوّ من شعور حارق بالعزلة وأحسّت فجأة بشيء من الدّفء والمناخ العائليّ، فقد ألقت بنفسها في حماس بين الذّراعين المفتوحتين لعناق خفيف، حتّى إنّ خالتها حملت هذه الحاجة إلى النّجدة على أنّها عاطفة أسريّة رقيقة، وتأثّرت لذلك. ربّتت بعطف على كتفي كريستين المرتعشتين وهي تقول: «آه، أنا أيضا سعيدة جدًّا لقدومك أخيرًا، وكذلك أنطوني. نحن سعيدان جدًّا لذلك». ثم أردفت، وهي تمسك بيدها: «تعالي. لا شكّ أنّك في حاجة إلى الحمّام، فقطاراتكم النّمساويّة غير مريحة بشكل مفزع. هيّا، خذي قسطا من الرّاحة. ولكن، لا تتأخّري. فجرس الغداء قد رنّ للتّوّ. وأنطوني لا يحبّ الانتظار. إنّها نقطة ضعفه. لقد جهّزنا من أجلك كلّ شيء. سيرشدك موظّف الاستقبال إلى غرفتك على الفور. ولكن أسرعي. ليس الغداء فاخرا. ولكنّه مناسب».

أومأت الخالة إلى أحد العاملين بالنّزل. فأقبل مسرعا. وحمل الحقيبة والمظلّة على عجل. واندفع ليحضر المفتاح. انطلق المصعد دون

أن يصدر صوتا باتّجاه الطّابق الثّاني. فتح الصّبيّ بابًا في منتصف الرّدهة. ولوِّح بقبّعته، وهو يتنحّى جانبا. لا بدّ أن هذه غرفتها. همّت بالدّخول. لكنّها توقّفت عند العتبة قليلًا، كأنّها أخطأت المكان. إذ لن تكفي إرادة العالم كلّها لتجعل فتاة مكتب بريد كلاين رايفلينغ، التي اعتادت على الأوساط البائسة، تتأقلم بهذه السّرعة، فتجرؤ على تصديق أنّ هذه الغرفة مخصّصة لها؛ هذه الغرفة الرّحبة على نحو لا يصدّق، المفروشة ببذخ، والمُضاءة بشكل ممتع، ذات الأوراق الملوّنة على الحيطان، حيث الباب الفرنسيّ[1] ذو القفل الكريستالّي المفتوح على الشّرفة يُنفِذ موجات من الضّوء، تتدفّق ذهبيّة وطليقة في كلَ الأركان، وتغلّف كلّ شيء بتوهّج كثيف. تلمع حوافّ الأثاث الصّقيل كالكريستال. وتتمايل الانعكاسات المشعّة على النّحاس والزّجاج. حتّى السّجّاد المطرّز بالزّهور يتنفّسُ مثل مرج أخضر. هذه الغرفة مُشرقة مثل صباح في الجنّة. كان على كريستين، التي أغشاها النّور المتفجّر المنتشر في كلّ مكان، أن تنتظر قليلا حتّى يستعيد نبضُ قلبها إيقاعه المعتاد، قبل أن تغلق الباب بسرعة وشيءٍ من الشّعور بالذّنب. كانت مشدوهة تماما لإمكان وجود مكان كهذا. أيّ روعة مذهلة هذه؟ كم ثمن ما تراه؟ يا له من مبلغ ضخم! تتجاوز كلفة قضاء يوم واحد هنا، ودون شكّ، ما تحصل عليه إزاء عملها لأسبوع، لا بل لشهر كامل! تنظر من حولها بارتباك. كيف يجرؤ المرء على أن يشعر بأنّه على سجيّته في مكان كهذا، وكأنّه في بيته؟ مشت بحذر فوق

(1) يسمّى حرفيّا الباب–النّافذة porte-fenêtre: نمط من الأبواب يشبه النّافذة الكبيرة، له مصراعان يمكن فتحها أو إغلاقهما سويّا.

السّجّاد الفاخر. ثمّ شرعت شيئا فشيئا في الاقتراب من العجائب الموجودة في الغرفة، الواحدة تلو الأخرى، مصدومة بشكل مفزع دون أن يغادرها الفضول. حاولت في بداية الأمر، وبحذر شديد، أن تجرّب الفراش؛ هل يُعقل حقّا أن ينام المرء هنا، فوق هذا البياض النّاصع؟ ما هذا الغطاء الحريريّ المزركش بالزّهور والممتدّ كشاطئ رمليّ، مضيئًا وناعمًا على نحو مؤثّر؟ أوه، بضغطة زرّ واحدة تضيء الغرفة، ويملأ الضّوء الورديّ كلّ زواياها. تتالت الاكتشافات بالنّسبة إلى كريستين؛ حوض غسيل أبيض برّاق كالصّدَفة، تغطّيه طبقة من النّيكل، مقاعد وثيرة، ناعمة وعميقة، تلفّك تماما، حتّى إنّك ستبذل جهدا كي تستطيع النّهوض، حوافّ الأثاث الخشبيّة اللاّمعة المتناسقة مع ورق الحائط الرّبيعيّ الأخضر، وهنا على الطّاولة باقة قرنفل زاهية الألوان علامة للتّرحيب؛ يا لهذه الفخامة الرّائعة التي لا تصدّق! تعتمل بداخلها الآن مشاعر جيّاشة، وهي تفكّر أنّ كلّ ما تراه الآن موجود لتنعم به وتستخدمه. وسيكون ملكها ليوم، بل لثمانية أيّام، بل طيلة أربعة عشر يومًا! تتمشّى في خجل داخل الغرفة، وسط هذه الأشياء الغريبة. فتحاول بفضول اكتشافها كلّها، الواحدَ تلو الآخر، غارقة تمامًا في السّعادة. فجأة، تراجعت إلى الخلف، كأنّها قد داست على ثعبان. وكادت أن تتعثّر وتسقط. لقد فتحت بشكل تلقائيّ الخزانة الحائطيّة الضّخمة. وانصدمت لما رأته بغتة عبر بابها الموارب، كأنّها لمحت شيطانا على صفحة تلك المرآة الطّويلة بشكل لا يُصدّق. إنّها صورتها هي في حجمها الطّبيعيّ الكامل، صورة واقعيّة مريعة تمثّل النّشاز الوحيد في هذه الغرفة السّاحرة العجيبة. إنّ منظر

معطفها الضّخم الأصفر المزخرف، وقبّعة القشّ المثبّتة فوق وجهها المذعور، له أثر دمغة قويّة. شعرت بوهن في ركبتيها. وشبّه إليها أنّ المرآة تكلّمها. فتقول لها: «اخرجي أيّتها المتطفّلة! لا تدنّسي هذا المكان!». خمّنت في سرّها: «كيف أدّعي أنّ لديَّ القدرة على الإقامة في هذه الغرفة وهذا العالم؟ لا شكّ أنّني أسبّب إحراجًا لخالتي! لا ترتدي أيّ شيء فاخر. هذا ما قالته لي. وكأنّ لي حقًّا أيّ شيء فاخر! لا، لن أنزل للغداء. أفضّل أن أبقى هنا، بل من المستحسن أن أعود. ولكن كيف يمكن أن أختبئ، قبل أن يراني أحد فيصاب بالذّعر؟ كيف يمكن أن أختفي على الفور؟». تراجعت تلقائيًا وقدر مستطاعها عن المرآة. ثمّ ذهبت إلى الشّرفة. التصقت في تشنّج بالحافّة. وحدّقت في الأسفل قائلة: «قفزة واحدة، وينتهي كلّ شيء!».

ها هو الجرس يرنّ مجدّدًا من الطّابق السّفليّ. يا إلهي! إنّ خالتها وزوجها ينتظرانها في الرّدهة، بينما تتلكّأ هي هنا. لم تغتسل. ولم تخلع حتّى معطفها المقزّز القادم من المتاجر الرّخيصة. فتحت الحقيبة بسرعة شديدة. وأخرجت أدوات الحمّام الخاصّة بها. وبينما هي تبسط الحزمة المطّاطيّة، وتضع كلّ شيء فوق الطّبق الزّجاجيّ النّاعم: الصّابون الخشن، الفرشاة الخشبيّة وأغراض الغسيل الرّخيصة، شعرت بأنّها تُعرِّض حياتها التي تنتمي إلى سُفُل البرجوازيّة الصّغرى للفضول الخبيث لعالم مشبع بتفوّقه. فيم ستفكّر الخادمة عندما تدخل الغرفة لترتّبها؟ قطعًا، ستعود إلى الطّابق السّفليّ، لتسخر من هذه النّزيلة المعدمة أمام زملائها في العمل. وسيخبر كلّ منهم الآخر. وسيكتشف أمرَها كلُّ مَن في الفندق، خلال فترة وجيزة جدًّا. وستُضطرّ إلى السّير

أمامهم مهرولة كلّ يوم، ناظرة إلى الأسفل، ومُدركة أنّهم يغتابونها ضاحكين. لا، لا يمكن لخالتها أن تساعدها في مثل هذا. لا مفرّ أمامها. سينكشفُ كلّ شيء. وستُجرح كرامتها مع كلّ خطوة تخطوها في المكان. ستعرّي ثيابُها وحذاؤها حقيقتها الرّثّة أمام الجميع. ولكن، حان وقت الخروج. خالتها في انتظارها. وزوجها، كما قالت منذ حين، رجل نافد الصّبر بطبيعته، فماذا ترتدي إذن؟ «يا إلهي؟ ماذا أفعل؟». فكّرت أوّلا في السّترة الحريريّة الخضراء التي أقرضتها لها شقيقتها. ولكن، كم تبدو لها الآن بائسةً قطعةُ الثّياب هذه التي كانت أمس في دولابها في كلاين رايفلينغ! من الأفضل إذن أن ترتدي تلك البيضاء البسيطة. فهي لن تجلب الانتباه على الأرجح. وربّما تستعين ببعض الأزهار من المزهرية، حتّى تصرف ألوانُها المتوهّجة الأنظار عن السّترة. نزلت الدّرج مسرعة بنظرات كئيبة. ومرّت مسرعةً أمام روّاد الفندق خوفًا من أن يلاحظها أيّ منهم. كانت تتقدّم شاحبة، منقطعةً أنفاسُها، بوجنتين حمراوين وإحساس بالغثيان، كأنّها تقع هالكةً في هوّة قاتلة.

تراها خالتها قادمة عبر الرّدهة. فتخمّن في سرّها: «ما خطب هذه الفتاة؟ لماذا تنزل الدّرج بطريقة خرقاء مسرعة، وتخفض بصرها في حرج كلّما مرّت أمام النّاس؟!». قد تكون على الأرجح فتاة انفعاليّة متوتّرة. ولكن، لو كانت كذلك لأخبرتها شقيقتها بهذا الأمر. يا إلهي! ها قد تيبّست عند المدخل في تصنّع وضيق واضحيْن! ربّما يكون بصرها ضعيفا. وربّما تواجه مشكلة مّا. «ما بك يا بنيّتي؟ إنّك شاحبة تماما. هل تشعرين بألم أم أنّك مريضة؟».

«لا، لا»، تلعثمت كريستين في ذهول. هناك الكثير من النّاس في الرّدهة. ولا شكّ أنّ تلك السّيّدة العجوز التي تلبس الأسود، وتسندُ رأسها إلى يدها، تحدّق في حذائها الأخرق الرّديء.

«تعالي إذن، بنيّتي»، حفّزتها خالتها وهي تلفّ ذراعها حول خصرها، دون أن تتخيّل حجم الخدمة العظيمة التي تقدّمها، بحركة كهذه، لابنة أختها المذعورة. أصبح لدى كريستين أخيرًا نوع من الحماية؛ حجاب تختفي خلفه. فخالتها تستر عنها الأنظار من إحدى الجانبين على الأقلّ. تغطّيها بجسدها وثيابها وهيئتها الجليلة. ولهذا نجحت كريستين المتوتّرة، بصحبة مرافِقتها، في أن تعبر غرفة الطّعام بتماسك معقول، إلى أن وصلت إلى الطّاولة التي ينتظرهما عندها زوج خالتها الرّزين بارد الطّبع، أنطوني. ها هو ينهض من مكانه. فتنشُط وجنتاه السّميكتان والمتراخيتان قليلا، لتُفرجا عن ابتسامة طفوليّة ترتسم على وجهه العريض. يمدّ قبضته الثّقيلة المنهكة. فيحيّي قريبته الجديدة، بإيماءة من عينيه المحمرّتين عند الحافّة، مثل جميع رجال الشّمال. يكمن سبب ابتهاجه في كونه لم يعد مجبرا على انتظار الغداء أكثر؛ باعتباره هولنديّا حقيقيّا، فهو يحبّ كثيرا تناول الطّعام، في أريحيّة وبشكل مفرط. كما أنّه يمقت أيّ إزعاج أثناء الأكل. منذ الأمس وهو متخوّف في سرّه من أن تكون قريبته هذه إحدى الإوزّات المزعجات بنقيقها وأسئلتها. لكنّه، وهو يتأمّلها الآن محتشمة، شاحبة ومتواضعة، يشعر باطمئنان كبير. سيكون من السّهل التّوافق معها. يرمقها بنظرة ودّية. ويقول لها في مرح: «يجب أن تأكلي أوّلا. ثمّ نتحدّث لاحقا». لقد أعجبته هذه الفتاة الهشّة الحييّة، التي لا تجرؤ على رفع

بصرها. فهي لا تشبه الفتيات الجالسات هنا، اللاّتي يمقتهنّ لتركهنّ الفونوغراف يصدح دومًا فور وصولهنّ، ولتصرّفاتهنّ المستفزّة التي لا تسمح بالوقوع فيها أيّ امرأة من هولندا القديمة. سكب لكريستين بعض النّبيذ بنفسه، رغم أنّه لا يستطيع الانحناء دون أن يئنّ. ثمّ أشار للنّادل ليقدّم الطّعام.

ليت النّادل ذا الأكمام المكويّة والوجه الجامد، لم يضع كلّ هذا الطّعام الشّهيّ في طبقها! ما هذه المقبلات الغريبة؟ زيتون بارد، سلطة ملوّنة، سمك فضّيّ، أكوام من الخرشف، كبد مغلّف بالدّهون، شرائح السّلمون الورديّة.. أطعمة منتقاة بعناية، لذيذة دون شكّ ويسيرة الهضم. ما هي من بين كلّ أدوات الطّعام هذه تلك التي ينبغي استخدامها لتناول هذه الأشياء الغريبة؟ الملعقة الصّغيرة أم الكبيرة؟ والسّكّين الصّغيرة أم الكبيرة؟ كيف يمكنها أن تقطع كلّ هذا، دون أن تكشف لعينيْ النّادل الخبيرتين، وجيرانها المتمرّسين، أنّها المرّة الأولى التي تجلس فيها على مائدة طعام فاخرة؟ كيف تتجنّب القيام بأيّ سلوك فظّ غريب؟ تبسط منديلها ببطء لتكسب بعض الوقت. وتخفض عينيها. فتختلس نظرات سريعة بين الحين والآخر إلى يدي خالتها، محاولة أن تحاكيها. لكن ينبغي عليها أن تجيب، في نفس الوقت، على أسئلة زوج خالتها الودّيّة. إنّه يتحدّث ألمانيّة ثقيلة تشوبها لكنة هولندية. وعليها أن تتابعه بتركيز كبير حتّى تفهم ما يقوله، خاصّة وهو يرفدها بنتف إنجليزية، تنزلق من فمه بين الحين والآخر. ولذلك تحتاج إلى كلّ قوّتها كي تصمد في هذه المعركة التي تجري على جبهتين مختلفتين. ولكنّ شعورها بالنّقص يجعلها تتصوّر

دومًا سريان الهمسات من خلف ظهرها والنّظرات السّاخرة أو المتعاطفة من النّاس الجالسين بالقرب منها. الخوف من أن يخونها فقرها، نقص تجربتها في الحياة مقارنة بخالتها وزوج خالتها والنّادل والحاضرين جميعا، والجهد المتواصل للمشاركة في الحديث، رغم توتّرها، بهيئة المرتاح بل السّعيد، كلّ هذا يجعل من نصف السّاعة، بالنّسبة إليها، أبديّةً! إنّها تناضل بشجاعة حتّى يحين وقت تناول الحلوى. وحينئذ، تلاحظ خالتها أخيرًا ارتباكها، دون أن تتمكّن من فهم سببه. «يا صغيرتي، لا بدّ أنّك متعبة. لا عجب وقد سافرتِ طيلة المساء في أحد القطارات الأوروبيّة البائسة. لا تشعري بالإحراج. خذي قسطًا من الرّاحة لساعة في غرفتك. لن يفوتنا أيّ شيء. فحتّى أنطوني يستريح دوما بعد الغداء. ستستعيدين طاقتك. ويمكننا بعدها أن نتمشّى قليلا». أخذت كريستين نفسًا عميقًا، وهي تشكر خالتها. إنّ ساعة تقضيها خلف باب موصد هي مكسب لها دون شكّ.

«ما رأيك بها؟» تسأل الخالة زوجها فور دخولهما إلى الغرفة. كان أنطوني يفكّ أزرار سترته وصدريّته كي ينعم فعلا بقيلولته.

«لطيفة جدّا!»، يجيب في تثاؤب. «وجه فيينيٌّ لطيف.. ناوليني الوسادة.. حقّا إنّها لطيفة جدّا ومتحفّظة. كلّ ما في الأمر أنّ ثيابها رثّة قليلًا. هذا ما أعتقده على أيّة حال. أعني... لا أدري كيف أقول ذلك. لم نعد نرى مثل هذه الأشياء عندنا. أحسب أنّك إذا كنتِ تنوين تقديمها إلى آل كينسلي والآخرين هنا، بصفتها ابنة شقيقتك، فإنّه يتوجّب عليك أن تُلبسيها ثيابًا أكثر ملاءمة. ألا يمكنك أن تجدي في خزانتك ما يساعدها في هذا الأمر؟».

«تماما.. ها إنّ المفتاح في يدي»، تبتسم السّيدة فون بولن. «شعرتُ بصدمة كبيرة عندما رأيتها تجرجر قدميها في الفندق، مرتدية هذه الثّياب البالية التي لا يمكن حتى لميّت أن يلبسها. آه لو رأيتَ معطفها الأصفر الشّبيه ببيضة محطّمة! إنّه قطعة رائعة حقًّا، يمكن عرضها في متجر للتّحف الهنديّة! ليت المسكينة تعي فحسب كيف أنّها تزيّنت بشكل بربريّ، ولكن يا إلهي! كيف ستكتشف هذا؟ لقد أنهكت الحرب اللّعينة جميع النّمساويّين. سمعتَها بنفسك، وهي تقول إنّها لم تذهب أبدًا إلى مكان يبعد عن فيينا ثلاثة أميال. لم تلتقِ أبدًا بأناس آخرين. يا لصغيرتي البائسة! يمكنك أن ترى بوضوح حجم ارتباكها. إنّها تتحرّك في هلع شديد. ولكن لا تشغل بالك بها. اعتمد عليَّ في هذا الأمر. سأعتني بها جيّدا. لديَّ ثياب كثيرة هنا، وإذا ما احتجتُ إلى شيء فسأشتريه من المتجر الإنجليزيّ. ولن يعلم أحد بذلك. لماذا لا يكون لهذه المخلوقة البائسة شيء مميّز ترتديه لأيّام قليلة؟».

بينما ينام الزّوج نومًا خفيفًا على الأريكة، تشرع هي في تفحّص خزانتي الثّياب الكبيرتين بطول الحائط تقريبًا، والواقفتين كتمثالين في مدخل مبنى. فأثناء إقامتها التي دامت أسبوعين في باريس، لم تزر السّيّدة فون بولن المتاحف فحسب، بل زارت كذلك الكثير من متاجر الثّياب الكبرى. خشخشت الشّمّاعات التي تحمل ثيابًا من القماش الرّقيق الحريريّ. انتقت حزمة من الملابس المختلفة. ثمّ وضعتها جانبًا وتفحّصتها مليًا. وراحت تفكّر لوهلة. ثمّ تعيد إحصاءها، وهي تحاول اتّخاذ قرارها حول القطع التي ستعطيها لابنة شقيقتها الصّغيرة. عليها أن تختار من بين الأقمشة المزركشة والقاتمة

والرّقيقة والسّميكة، إنّها عمليّة بطيئة، لكنّها ممتعة. أخيرا، حسمت أمرها لصالح مجموعة من الثّياب الرّقيقة البرّاقة. وضعتها على المقعد، ومعها كافّة المستلزمات الأخرى من الجوارب والملابس الدّاخليّة. كانت خفيفة جدّا حتّى إنّه يمكن حملها بيد واحدة، وها هي تذهب بها نحو غرفة كريستين. تفاجأت عندما انفتح الباب بدفعة صغيرة منها. وظنّت في بداية الأمر أنّ الغرفة فارغة. فقد كانت النّافذة مفتوحة على مصراعيها، فيما المقاعد فارغة وكذلك المكتب. كانت كريستين نائمة على الأريكة. لا بدّ أنّ رأسها قد ثقلت بسبب كؤوس النّبيذ التي لم تعتد عليها من قبل، والتي أخذ أنطوني يصبّها لها تباعا. لقد شربتها كلّها في ارتباك واضح وبسرعة فائقة. يبدو أنّها قد اكتفت بالجلوس قليلا حتّى تفكّر في ما حدث. ولكنّ النّعاس قد أسقطها بلطف على الوسائد.

إنّ الإعياء الذي يظهر على النّائم يكون دوما إمّا مؤثّرًا أو سخيفًا بعض الشّيء بالنّسبة إلى الآخرين. ولذلك تأثّرت خالة كريستين بشدّة، وهي تقترب منها ماشية على أطراف أصابعها. تضع الفتاة القلقة ذراعيها على صدرها أثناء نومها، كأنّها تريد أن تحمي نفسها. هذه الإيماءة البسيطة مؤثّرة للغاية وطفوليّة، تمامًا كالفم المرتعب المفتوح بشكل طفيف. حاجباها كذلك مرتفعان إلى الأعلى قليلًا، كأنّ توتّرا جوّانيّا يسري الآن في أحد أحلامها. تقول الخالة في نفسها: «لا يهجرها الخوفُ حتّى أثناء نومها! كم تبدو شفتاها شاحبتين ولثّتها مفتقرة إلى الدّم! لا لون لبشرتها، مع أنّ وجهها ما يزال يافعا، يحافظ في نومها على ملامح طفوليّة. قد يكون سوء

التّغذية والإنهاك النّاجم عن العمل منذ سنّ مبكّرة هو السّبب. لقد أُنهكت قواها وأصابها الإعياء، ولم تدرك بعد الثّامنة والعشرين! يا لها من فتاة مسكينة!». شعرت الخالة بما يشبه الخزي، وهي تفحص الفتاة النّائمة أمامها. «يا للعار! لقد كانوا في حاجة إلى المساعدة، متعبين جدّا وفقراء، تعصرهم الهواجس. وكان علينا أن نساعدهم منذ زمن بعيد. لقد قدّمتُ عطايا كثيرة. وأقمتُ حفلات خيريّة. وقمتُ بتبرّعات أعياد الميلاد، دون أن أعرف حتّى إلى من تصل هذه الهبات. أمّا شقيقتي الوحيدة، أقرب أفراد عائلتي إليّ، فقد نسيتها طيلة تلك السّنوات، بينما كنت قادرة على أن أصنع المعجزات لها ببضع مئات من الدّولارات. نعم، كان عليها أن تكتب إليَّ وتذكّرني، لولا كبرياء الفقراء السّخيف الذي يمنعها من أن تطلب أيّ شيء! يمكننا أخيرًا، ولحسن الحظّ، أن نمنح هذه الفتاة الشّاحبة بعض السّعادة على الأقلّ». شعرت الخالة بالتّأثّر مجدّدا، وهي تعيد النّظر في ذلك الوجه الغريب الحالم. أيكون ذلك بسبب ذكرى أشرقت فجأة من عالم الطّفولة، تحمل صورة أمّها معلّقة فوق سريرها داخل إطار مذهّب أم يقظة شعورها بالهجران هناك في ذلك المأوى؟ يراودها الآن على أيّة حال إحساس مفاجئ بالحنان. فتُمسِّح على الشّعر الأشقر للفتاة النّائمة بلطف ورقّة.

أفاقت كريستين على الفور. فقد جعلتها عنايتها بأمّها تعتاد الانتباه إلى أرهف لمسة. «هل تأخّرت؟»، تمتمت في شعور بالذّنب. إنّ جميع الموظّفين يخشون التّأخّر عن العمل. وطيلة سنوات عديدة، كانت تذهب إلى النّوم خائفة وتستيقظ منه خائفة، مع أوّل رنين للمنبّه. تنظر

إلى السّاعة أوّلا. ثمّ تقول: «لستُ متأخّرة، أليس كذلك؟». ويبدأ يومها دوما بالخوف من أن تكون قد أهملت بعضًا من واجباتها.

«لِمَ هذا الفزع يا بنيّتي؟»، تسألها خالتها، وهي تهدّئ من روعها. لدينا متّسع من الوقت هنا لا ندري حتّى ماذا نفعل فيه. ارتاحي قليلا إذا كنتِ ما تزالين مرهقة. لا أريد أن أزعجك طبعا. لقد جئت فقط ببعض الثّياب من أجلك. فربّما يكون من الجيّد لكِ أن ترتديها أثناء إقامتك معنا. لقد اشتريت كثيرًا من الملابس في باريس. وهي تملأ خزانتي، لذا فكّرتُ أنّه من الأفضل أن تشاركيني شيئا منها».

أحسّت كريستين بتوتّر يتدفّق في صدرها. لقد كانا يشعران بالخزي إذن منذ أوّل لحظة التقياها فيها. ومع ذلك، فكم هي رقيقة محاولة خالتها أن تساعدها، وتخفي صدقتها، وهي تعرض الأمر عليها بطريقة لا تجرح كبرياءها!

«ولكن كيف يمكنني أن أرتدي ثيابك يا خالتي؟»، تمتمت متلعثمة، «إنّها فاخرة جدّا بالنسبة إليّ».

«أيّ سخافة هذه؟ إنّها تناسبك أكثر منّي. إنّ أنطوني يتذمّر باستمرار من أنّني أرتدي دوما ثيابًا لا تناسبني، بل تناسب شابّة صغيرة. يريدني أن أبدو كخالات وعمّات أبيه وأمّه في زاندام[1]، وأرتدي ثوبا حريريّا أسود ثقيلًا، يرتفع حتّى العنق، مزرّرًا كالبروتستانت، وأن أرتدي قلنسوّة ربّة بيت بيضاء على رأسي. ستعجبه هذه الملابس عليكِ أكثر منّي. أخبريني الآن إذن: أيّ ثوب ترغبين في ارتدائه اللّيلة؟».

---

(1) زاندام Zaandam: مدينة بشمال هولندا.

وفي ومضة برق تناولت الخالة بعضا من هذه الملابس الرّقيقة. ووضعتها بمهارة على جسدها، بنفس الحركات الرّشيقة التي كانت تقوم بها أثناء عملها كعارضة أزياء، في زمن بعيد منسيّ: ثوب بلون العاج ذو حافّة مزيّنة بأشكال زهور على النّمط اليابانيّ، يلوح توهّجه بوضوح مُقارنة بثوب السّهرة الحريريّ الأسود. أمّا الثّالث فأخضر كالغدير، ذو مسحة فضيّة. تبدو الأثواب الثّلاثة رائعة للغاية بالنّسبة إلى كريستين، حتّى إنّها لا تجرؤ على التّفكير في ارتدائها. كيف يمكنها أن ترتدي مثل هذه الكنوز الفاخرة الرّقيقة، دون أن تشعر بقلق دائم؟ كيف تمشي وتتحرّك في سحابة الألوان والأضواء هذه؟ ألا يتوجّب عليها أن تتمرّن شيئا فشيئا على ارتداء هذا النّوع من الثّياب؟

لكنّها امرأة في النّهاية، امرأة بأتمّ معنى الكلمة، حتى إنّها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التّلهّف إليها. لقد اتّسع منخراها. واهتزّت يداها. وارتجفت بشكل غريب، رغبةً في لمسها. تكافح كريستين كي تسيطر على نفسها. أمّا خالتها، فتعرف هذا الشّعور جيّدا بخبرة عارضة الأزياء السّابقة، هذه السّعادة الحسّيّة التي تستحوذ على النّساء عندما يواجهن التّرف. لا تستطيع أن تمنع نفسها من الابتسام، وهي ترى هذا النّور المفاجئ يشعّ من عيني الصّبيّة الشّقراء، ويتمايل من ثوب إلى آخر. إنّها تعرف سلفا أيّ ثوب ستختاره كريستين. كما تدرك أيضًا أنّها ستندم لأنّها لم تختر الثّوبين الآخرين. تجد خالتها الأمر مسلّيًا. فتقول لها كي تربكها أكثر: «لا داعي للعجلة. سأترك الثّلاثة هنا. واختاري منها ما شئت لهذه اللّيلة. يمكنك غدًا أن ترتدي ثوبًا آخر. لقد أحضرت لكِ أيضًا جوارب وملابس داخليّة. كلّ ما

تحتاجينه الآن ثوب له منظر منعش وجذّاب، كي يضفي إشراقة على وجنتيك الشّاحبتين. وإذا كنت لا تمانعين، فإنّ علينا أن نذهب فورًا إلى المتاجر لنشتري كلّ ما تحتاجينه في إقامتك هنا، في إنجادين».

«ولكن يا خالتي»، تهمس كريستين. وتجفل مرتعشة: «ماذا فعلتُ كي أستحقّ كلّ هذا؟ ليس عليك أن تنفقي هذه الأموال الطّائلة عليّ. وهذه الغرفة أيضًا، إنّها باهظة الثّمن. كانت حجرة أخرى بسيطة لتفي بالغرض».

ولكنّ خالتها نظرت إليها معاتبة. واكتفت بالابتسام، قبل أن تقول لها بنبرة ثابتة لا تقبل النّقاش: «كفى يا صغيرتي. سآخذك معي إلى أخصّائيّة التّجميل التي ستمنحك بعض اللّمسات الضّروريّة. لم أر أحدًا له لفيفة شعر كهذه، باستثناء واحدة من الهنديّات اللاّتي عملن لدينا، وقد عادت مؤخّرًا إلى بلدها. سترين كم سيتحرّر رأسك دون كتلة الشّعر الكثيفة المتدلّية هذه. لا، لا تجادليني. أعرف جيّدا ما يناسبك. اتركي الأمر لي. ولا تقلقي. استعدّي الآن. فلدينا متّسع كبير من الوقت. وأنطوني مشغول بحصّة البوكر المسائيّة. نريد أن نتمّ كلّ شيء قبل أن نلتقيه هذا المساء. تعالي يا صغيرتي».

ارتفعت الصّناديق على الفور من رفوف متجر الثّياب الرّياضيّة. فاختارت سترة من نسيج صوفيّ مخطّط كرقعة الشّطرنج، وحزامًا من جلد الشّمواه، وزوجًا من الأحذية من جلد الخشف[1] ذا رائحة لاذعة جديدة، وقبّعة وجوارب رياضيّة ملوّنة ومريحة، وكافّة أنواع

---

(1) صغير الظّبي.

الملحقات الأخرى. خلعت كريستين، داخل حجرة القياس، سترتها البغيضة التي تشبه قشرة قذرة. ووضعت الفقر الذي جلبته معها في صندوق كرتونيّ، بعيدًا عن الأنظار. شعرت براحة غريبة ما أن اختفت هذه الأغراض المريعة، كأنّ هواجسها قد تلاشت فجأة وإلى الأبد. وراحت تنتقي مع خالتها، من متجر إلى آخر، زوجًا جديدًا من الأحذية، ووشاحًا حريريًّا ناعمًا، وأشياء أخرى كثيرة ورائعة. لا تعرف كريستين أيّ شيء عن هذا النّوع من التّسوّق. ولذلك شعرت بلهفة عظيمة لهذه الأشياء السّاحرة، لهفة لاقتناء أيّ شيء، دون أدنى اهتمام بالسّعر، ودون خوف من سماع تلك العبارة: «مكلّف جدّا».

«اختاري ما تريدين. قولي نعم فحسب. ولا تفكّري في الأمر. لا تقلقي مطلقا. ستُعدّ الأغراض من أجلك. وترسلُ إلى عنوان إقامتك محمولةً بأيدي رُسل غامضين. يُلبَّى رجاؤك على الفور، بل قبل أن تفكّري فيه حتّى». أمر غريب، ولكنّه، بطريقة مّا، مسكر ولذيذ. تستسلم كريستين دون أيّ مقاومة. وتترك لخالتها أن تفعل ما تشاء. ولكن عندما تُخرج الخالة النّقود من حقيبتها، تحوّل هي بصرها بقلق. وتحاول ألاّ تسمع السّعر. فلا شكّ أنّ ما تنفقه عليها يعتبر ثروة طائلة ومبالغ لا يمكن تخيّلها، أموال ينفقها المرء خلال سنوات طويلة، بينما تبدّدها خالتها في أقلّ من نصف ساعة. لا تستطيع كريستين أن تتمالك نفسها عند مغادرة المتجر. تمسك باليد الكريمة المحسنة إليها. وتقبّلها بامتنان كبير. فتبتسم الخالة، وهي تتأمّل هذا الارتباك المؤثّر:

«حان دور شعرك الآن. سآخذك إلى صالون الحلاقة، فيما أزور

صديقاتي ريثما تنهي مصفّفة الشّعر عملها. وفي غضون ساعة، تتغيّر هيئتك تمامًا. وسآتي لاصطحابك. ستدركين حقًّا ما تنجزه تلك المرأة حين تتحوّلين تمامًا إلى امرأة أخرى. نذهب بعد ذلك في نزهة وجيزة. ومن ثمّ نقضّي سهرة رائعة حقًّا».

ينبض قلب كريستين بقوّة. فتكتفي بتأمّل خالتها، وهي تقودها إلى غرفة حجريّة مسقوفة تنتشر فيها المرايا، غرفة دافئة تفوح منها رائحة صابون لطيفة وعطور جميلة. هناك جهاز كهربائيّ يئزّ مثل عاصفة جبليّة في الغرفة المجاورة. أمّا مصفّفة الشّعر، فهي امرأة فرنسيّة رشيقة ذات أنف أفطس، توزّع كلّ التّعليمات الممكنة في جميع الاتّجاهات. وتتوصّل كريستين إلى فهم القليل منها بصعوبة. تغمرها رغبة جديدة في أن تستسلم تمامًا، وتمنح نفسها لتيّار المفاجأة. تجلس على مقعد تصفيف الشّعر الوثير، بينما تختفي خالتها. تسند ظهرها إلى الخلف بلطف. وتغمض عينيها لتستمتع بخدر مثير. تشعر بدمدمة آليّة، وبرودة مفاجئة تسري على عنقها. تصغي إلى الثّرثرة المبهمة لمصفّفة الشّعر المرحة. وإذ تستنشق الرّائحة الزّكيّة تاركة لها وللأصابع الماهرة أن تشقّ طريقها إلى شعرها وعنقها، تخمّن في سرّها:

«لا تفتحي عينيكِ رجاء. إذا فتحتِهما سيتلاشى كلّ شيء. لا تسألي سؤالا واحدا. تذوّقي لذّة هذا الأحد فحسب. واستسلمي تماما لشعور أن يخدمك شخص آخر بدل أن تقومي أنت بخدمة الآخرين. دعي يديك تستلقيان على حجرك. دعي الأشياء الجميلة تحدث لكِ. دعيها تأتي. واستمتعي بمذاق هذه النّشوة النّادرة وهذا الحسّ الغريب الذي لم تختبريه منذ أعوام، بل عقود».

تغمضُ عينيها. وتتشرّب هذا الشّعور النّاعم بالدّفء، فيما تأخذها ذاكرتها بعيدا، حين كانت طفلة مستلقية على فراشها، لم تفارقها الحمّى منذ أيّام. تحضر لها والدتها لبن اللّوز الأبيض الحلو، بينما يجلس والدها وشقيقها بالقرب من فراشها. يقدّم لها الجميع كلّ أشكال الرّعاية، بلطف ورقّة عظيمين. يغرّد الكناريّ في الغرفة المجاورة لحنا مبهجا. الفراش ناعم ودافئ، ولا داعي للذّهاب إلى المدرسة. فالجميع هنا يسهر على راحتها. إنّ الدّمى على الفراش. وسيكون ممتعا جدّا أن تلعب بها. لكن لا، من الأفضل أن تغلق عينيها، وتستسلم لهذا الشّعور العميق بالكسل، بينما يسهر الآخرون على خدمتها. مرّت عقود منذ أن جرّبت هذا الكسل المحبّب، الذي نعمت به في طفولتها. ولكن ها هو يعود ثانية بشكل مباغت؛ تتذكّره بشرتها ووجنتاها الغارقتان في الدّفء على نحو تلقائيّ. تسألها مصفّفة الشّعر الرّشيقة مرارا: «هل تريدينه أقصر؟». فتكتفي بالرّدّ: «كما تشائين». تتجنّب عمدا النّظر في المرآة التي تُرفع إليها. فمن الأفضل ألاّ تقطع هذا الشّعور الرّائع بالاستسلام لما يحدث لها، وأن تمنع نفسها تمامًا من فعل أيّ شيء أو الرّغبة فيه، رغم السّحر العظيم الذي ستجده في أن تأمر الآخرين ولو لمرّة واحدة في حياتها، وأن توجّه بعض الطّلبات المستبدّة، وتستدعي هذا وتصرف ذاك. ثمّة ضوعُ عطر يتدفّق الآن من زجاجة لامعة على شعرها. ويدغدغها، بلطف وعناية، وخزٌ خفيف لموسى حلاقة. تشعر بخفّة غريبة ومفاجئة في رأسها. تحسُّ بعنقها باردًا وعاريًا. تريد لوهلة أن تنظر إلى المرآة. لكنّها تتراجع. فإبقاء عينيها مغمضتين سيطيل من نشوة هذا الشّعور الحالم الرّائع. وفي هذه الأثناء، تقدّمت

شابّة أخرى إلى جانبها كأنّها حوريّة من السّماء تشذّب أظافرها، بينما تعتني الأولى بشعرها. تسلمُ نفسها لهما دون أيّ مقاومة، حتّى إنّها لم تعترض على قول مصفّفة الشّعر البارعة لها: «تبدين شاحبة بعض الشّيء يا آنسة»[1]. كانت تستخدم جميع الأقلام القاتمة والملوّنة وأقلام الشّفاه. وتعيد رسم حواجبها. وتحسّن من لون خدّيها. إنّها تتحسّس كلّ ما تفعله لها هذه المرأة. ولكنّها تحافظ على نوع من الخدر الغريب. فتكاد لا تعرف ما إذا كان هذا يحدث لها حقّا أم لامرأة أخرى تمامًا. يتمّ كلّ شيء على نحو غائم متشذّر. وهي الآن تخشى أن تستيقظ فجأة من هذا الحلم.

ظهرت خالتها أخيرًا. «ممتاز»، هكذا قالت لمصفّفة الشّعر بنبرة المتمرّسة. وقبل أن تخرجا للتّنزّه معا، طلبت منها أن تقوم بتجهيز بعض الأغراض والأقلام والزّجاجات. تحاشت كريستين المرآة عند نهوضها. واكتفت بلمس أسفل عنقها بخفّة. كانت تنظر خلسة أثناء السّير، ومن حين إلى آخر، إلى تنّورتها الأنيقة والجوارب الزّاهية والحذاء الفاخر اللاّمع. فتشعر أنّ خطواتها قد صارت واثقة أكثر من قبل. تستند إلى خالتها. فترى السّحر في كلّ شيء: المناظر الطّبيعيّة الخضراء المفعمة بالحيويّة، الإطلالة الشّاسعة على قمم الجبال والفنادق التي تشبه قلاعًا فخمة فوق المنحدرات العالية، المحلاّت الفخمة بواجهاتها المثيرة المفرطة في الزّينة، والفرو والمجوهرات والسّاعات والمبيعات العتيقة والجياد والكلاب والنّاس أيضًا.. إنّهم رائعون،

(1) بالفرنسيّة في الأصل.

وهم يرتدون ثيابًا زاهية كزهور جبال الألب. الجوّ كلّه هنا شمس وراحة بال. إنّه عالم لا عمل فيه أو فقر، لم تحسب يوما أنّ لوجوده إمكانا. تخبرها خالتها بأسماء الجبال والفنادق. وتشير إلى المشاهير من نزلاء الفندق عندما يمرّون من أمامها. فتستمع إليها. وتنظر إليهم برهبة. تزداد سعادتها بوجودها في مكان كهذا، وقد صار مُتاحا لها. وترتاب مجدّدا في كونها هي التي تختبر كلّ هذا وليست امرأة أخرى. أخيرًا، تنظر خالتها إلى ساعتها. وتقول: «علينا أن نعود. حان الوقت لترتدي ثيابك، لدينا ساعة واحدة قبل العشاء. والتّأخير هو الأمر الوحيد الذي يمقته أنطوني».

فتحت كريستين باب غرفتها. فوجدتها بلون الغسق الذي اكتسحها تماما، وأغرقها في ظلال خرساء. ووحده مربّع السّماء المؤطّر خلف باب الشّرفة المفتوح ظلّ يحافظ على لونه الأزرق الثّابت المتوهّج. ولكنّ الألوان في الدّاخل أخذت تبهُت على حوافّ الأشياء. وتذوب في ظلال ناعمة. تقدّمت كريستين إلى الشّرفة. وحدّقت في المنظر الطّبيعيّ الهائل الذي يعرض مباشرة غابة من الألوان. تفقد السّحب في البداية بياضها المشعّ. وتبدأ في الاحمرار تدريجيًّا، إلى أن تكتسب درجة أكثر عمقًا، كأنّ الغروب السّريع للنّجم العظيم يؤثّر فيها أيضا. وفي النّهار، تتشكّل الظّلال حول الجبال خفيفة ومعزولةً خلف الأشجار. لكنّها الآن تتكتّل معا. وتصبح أكثر كثافة وجسارة، كأنّ بركة سوداء تندفع بمياهها من الوادي نحو القمم الشّاهقة. ولوهلة، تبدو الظّلمة قادرة على إغراق قمم الجبال أيضًا، ليؤول المرأى الشّاسع كلّه إلى الأسود. ها قد ظهر القمر في قلب الزّرقة التي

لا يمكن أن تتلاشى، كأنّه عمود إنارة شاهق ومدوّر يتدلّى في الشّارع بين أعظم قمّتين. وما كان يبدو حتّى هذه اللّحظة لوحة ذات تفاصيل ملوّنة ودقيقة، أصبح الآن خطاطة رسم ذات حوافّ سوداء وبيضاء، تلمع فيها نجوم صغيرة خافتة.

تحدّق كريستين في المشهد بشيء من الخدر. إذ لم تر من قبل مطلقا مثل هذا التّحوّل وهذا العبور المسترسل من لون إلى آخر على قماشة الرّسم الهائلة هذه. إنّها تشبه شخصًا لم يألف سوى الأصوات النّاعمة التي يطلقها الكمان والمزمار، بينما يستمع الآن لأوّل مرّة في حياته إلى فرقة أوركسترا بأكملها. هذا التّجلّي المفاجئ لجلال الطّبيعة أكبر من أن تحتمله حواسّها. تحكم قبضتها على السّياج بنظرة ثابتة مركّزة. وتنسى نفسها أمام هذا المشهد الذي يستغرقها. فتغفل عن الوقت. ولكن لحسن الحظّ، يملك الفندق إجراءات مناسبة لمثل هذه الحالة. إذ يرنّ جرس منبّه، وبلا هوادة، ليذكّر النّزلاء بميقات وجبتهم الفاخرة. تقفز كريستين منذ أوّل خفقة برونزيّة. وتتذكّر وصايا خالتها المتكرّرة بشأن حضورها في الوقت المحدّد تمامًا للعشاء.

ولكن، ماذا ستختار الآن من بين هذه الفساتين الرّائعة؟ بسطتها مجدّدًا على الفراش. وتأمّلتها، وهي تتلألأ مثل جناحي اليعسوب. كان الفستان الدّاكن يومض بإغواء في العتمة. لكنّها اختارت في النّهاية الفستان العاجيّ لأنّه بدا لها أكثر احتشاما. التقطته بعناية، مُندهشة لخفّته الكبيرة بين يديها. فهو لا يجاوز ثقل وشاح أو قفّاز. خلعت سترتها بسرعة، وحذاءها المصنوع من الجلد الرّوسيّ الخشن، والجوارب السّميكة. نزعت عنها كلّ شيء ثقيل صلب، متلهّفة إلى

تلك الخفّة المرتقبة. أصبحت كلّ الثّياب الآن رقيقة وناعمة جدًّا. ترتجفُ أصابعها لمجرّد الإمساك بهذه الملابس النّسائيّة الدّاخليّة، التي تمنحها شعورا رائعا. خلعت على الفور ثيابها الكتّانيّة المتيبّسة القديمة. واستبدلتها بالقماش الجديد اللّين الدّافئ والنّاعم. شعرت برغبة ملحّة في إشعال النّور، والنّظر إلى نفسها. لكنّها أبعدت يدها عن المفتاح. من الأفضل لها أن تمطّط بالانتظار هذه اللّذّة العجيبة. قد يبدو هذا القماش الشّفّاف الفاخر رقيقًا للغاية وجميلا في الظّلام، بينما تذوب حلاوته في النّور. حان دور الجوارب بعد الملابس الدّاخلية، ومن ثمّ الفستان الحريريّ النّاعم الذي ارتدته بحذر شديد. فهو لخالتها على أيّة حال. ولا شكّ أنّها تجده ساحرا مثلها. انساب بطلاقة من كتفيها إلى الأسفل، كأنّه شلّال متدفّق من المياه الدّافئة. التصق طيّعًا بجسدها، حتّى إنّها تكاد لا تشعر بملمسه. يبدو الأمر كأنّها تلبس النّسيم ثوبًا.. «ولكن أسرعي.. هيّا، لا تنسي نفسك في هذه المتعة. وأتمّي الأمر. والآن دور الحذاء.. ثمّ بعض الحركات والخطوات القليلة.. جاهزة.. حمدا للرّبّ!». والآن، يخفقُ قلبها توجّسا. ثمّ تلقي أوّل نظرة على المرآة.

ضغطت بيدها على الزّرّ. فأضاء المصباح الكهربائيّ. وعادت الغرفة التي تلاشت منذ حين إلى التّشكّل، مُبهرة بصرها مجدّدا بورق الحائط المزيّن بصور الزّهور والأثاث الملمّع بعناية. تشعر بتوتّر شديد قبل أن تقف في حيّز المرآة. وفجأة وبنظرة جانبيّة مختلسة من الزّاوية، رأت رقعة من المنظر الطّبيعي البادي من الشّرفة وراءها وجزءًا بسيطًا من الغرفة. تنقصها الشّجاعة لإجراء الاختبار الحقيقيّ. ألن تبدو

سخيفة في هذا الرّداء المستعار؟ ألن يدرك الجميع بيُسرٍ حقيقتها؟ ألن تلاحظ هي نفسها زيف صورتها؟ تتحرّك صوب المرآة، كأنّ استسلامها سيمنحها الإجابة التي تريدها. لقد اقتربت أكثر، وبصرها ما يزال موجّها إلى الأسفل. مازالت تشعر بالخوف من رؤية نفسها في المرآة. دقّ الجرس ثانية في الطّابق السّفليّ. لا تملك مزيدا من الوقت لتضيّعه. تحبس أنفاسها بشجاعة مفاجئة، كأنّها تستعدّ لقفزة هائلة. ثمّ ترفع عينها بتصميم. وتجفل على الفور، بل إنّها تتراجع خطوة إلى الوراء. مَن هذه المرأة النّحيلة الأنيقة التي ينحني شِقُّها الأعلى إلى الخلف قليلًا، يفغر فمها، وتحدّق عيناها بدهشة كبيرة في منظرها المنعكس على المرآة؟ أهذه هي؟ مستحيل! لا تستطيع أن تقول ذلك أو تقرّ به لأحد. ولكنّ عينيها تبدوان ضاحكتين على صفحة المرآة التي تقابلها، فيما تتحرّك شفتاها قليلًا، قبل أن تسلّما معا: «نعم، أنا جميلة».

كم هو مثير أن يتأمّل المرء نفسه بدهشة، وأن يشعر بأنّه معجب بذاته، يكتشفها، ويتفحّص كلّ أجزاء جسده بمحبّة ذاتيّة مجهولة، لم يختبرها من قبل أبدا! النّهدان الطّليقان تحت الحرير، هذا الفم المرسوم بعناية شديدة بالأحمر، وهذان الحاجبان الرّقيقان، والعنق العاري الذي يومض أسفل شعرها الذّهبي المسدَل... كلّ هذا جديد بالنّسبة إليها، تماما كبشرتها النّاعمة المكشوفة عند الكتفين، المحتجبة تحت فستانها البرّاق. اقتربت أكثر من المرآة، محُاولة أن تتعرّف على المرأة التي تراها أمامها. لكنّها شعرت بخوف يتشكّل حمرةً على وجنتيها، خوفٌ من ألاّ تستمرّ هذه الصّورة المبهجة أو تتلاشى إذا واصلت التّقدّم أو قامت بأيّ حركة مفاجئة. تشعر بالفضول لرؤية هذا الجسد

النّحيل. تستدير ببطء لترى هذا الأثر. فتلتقي عيناها مجدّدًا بصورتها المنعكسة على سطح المرآة. أمّا وقد أصبحت الآن أكثر جرأة، فقد تراجعت ثلاث خطوات إلى الوراء. ووجدت حركتها السّريعة محبّبة. فلفّت على ساق واحدة، لتدور معها حاشية الفستان، وتبتسم الصّورة في المرآة مرّةً أخرى. «ممتاز! كم أنت رقيقة وجميلة!» أحسّت بتوتّر من يتأهّب لاجتياز اختبار. هرعت إلى وسط الغرفة. ثمّ عادت مجدّدًا لتقف أمام المرآة. فابتسمت الصّورة على الفور. إنّها ابتسامتها هي. ظلّت تتفحّصها من كلّ الجوانب، وهي مفتونة بنفسها، غير قادرة على امتلاك ما يكفيها من هذه الشّخصية الجديدة الفاتنة التي تبتسم كلّما اقتربت من المرآة، مرتدية ثيابًا جميلة. تكاد تعانقها، وهي تتحرّك مقتربة منها. توشك عيناها أن تلتصق بتينك المرسومتين في المرآة. تدنو الشّفاه من بعضها إلى درجة أنّ صورتها اختفت للحظة من صفحة البلّور. اتّخذت مزيدًا من الأوضاع لتحظى بمشاهد مختلفة. ثم رنّ الجرس من الطّابق السّفلي للمرّة الثّالثة. «يا إلهي، لا يمكنني أن أجعل خالتي تنتظر أكثر. لا شكّ أنّها غاضبة منّي». وبسرعة كبيرة، ارتدت معطف السّهرة الخفيف الملوّن الأنيق ذا الفرو الفاتن. وقبل أن تلمس يدها المفتاح لإطفاء النّور، ألقت نظرة وداع سريعة على المرآة الطّيّبة، نظرة واحدة أخيرة. تأمّلت مجدّدًا عينيها اللاّمعتين وابتسامتها السّعيدة التي لم تكن تملكها من قبل. «ممتاز، ممتاز!». وردّت المرآة الابتسامة لها. نزلت مسرعة إلى الرّواق، متّجهة إلى غرفة خالتها، والفستان الحريريّ المنعش يغمرها بالسّعادة، كأنّ الرّيح تحملها. لم تشعر بمثل هذا منذ طفولتها. ولا شكّ أنّ نشوة التّحوّل قد استولت على كيانها.

«يا للسّحر. إنّه يناسبك تماما مثل قفّاز في يد»، قالت خالتها عندما رأتها أمامها. «لا يحتاج المرء إلى الحيلة عندما يكون يافعا. فالصّعوبة التي يواجهها الخيّاط تكمن في ما يخفيه الثّوب، لا ما يظهره. ولكن دعنا من المزاح. يبدو هذا الثّوب كأنّه صنع خصّيصا من أجلك. أكاد لا أتعرّف إليك مطلقا. الآن فقط سيكتشف الجميع جمال قوامك. ولكن عليكِ أن ترفعي رأسك أيضًا. لا تنزعجي ممّا سأقوله. لكنّك غير واثقة بنفسك، منحنية دوما أثناء سيرك، تنكمشين كقطّة في المطر. مازال عليكِ أن تتعلّمي كيف تمشين على الطّريقة الأمريكيّة، حرّةً طليقة، بصدر مرتفع كسفينة في مهبّ الرّيح. يا إلهي، كم أودّ الآن أن أكون شابّة مثلك!».

تورّدت وجنتا كريستين. لا شيء يُلاحظ عليها إذن. ليس مظهرها سخيفا، ولا هي تضوع برائحة القرية. استمرّت الخالة في فحصها، والنّظر إليها باستحسان، من رأسها حتّى قدميها.

«ممتاز. ولكنّ عنقك في حاجة إلى طقم». وأخذت تبحث في صندوق مجوهراتها. «ها هو. ضعي عقد اللّؤلؤ هذا. لا، لا تكوني سخيفة. لا تقلقي. ليست أصليّة. فتلك مخبّأة في خزانة بيتي. ما كنت لأحضرها أبدًا في رحلة إلى أوروبا، كي يسرقها اللّصوص».

يبدو اللّؤلؤ باردا وغريبا، وهو يلامس جلدها العاري، حتّى إنّها اقشعرّت لوهلة. ثم عادت خالتها لتلقي نظرة أخيرة سريعة عليها:

«ممتاز، كلّ شيء يبدو جميلًا. سيسعد الرّجال باشتراء الملابس لك. ولكن، هيّا نذهب! ليس بإمكاننا أن نجعل أنطوني ينتظر أكثر من ذلك. سيتفاجأ تماما حين يراك!».

تنزلان الدّرج معا، فيما تفكّر كريستين أنّ نجاحها في النّزول من غرفتها مرتدية هذا الفستان الجديد الكاشف لمفاتنها أمر غريب بالنّسبة إليها. تشعر بخفّة غير مألوفة، كأنّها عارية. فهي لا تمشي في الحقيقة؛ وإنّما تطفو، وتبدو خطواتها كأنّها تنزلق باتّجاهها. مرّتا، عند توقّفهما للمرّة الثّانية، برجل يرتدي سترة سهرة قطنيّة وآخر أكبر منه، له مفرق حادّ في شعره النّاعم الأبيض. حيّا الخالة باحترام. وتنحّى جانبا ليخلي لهما الطّريق. شعرت كريستين في تلك اللّحظة باهتمام بالغ، ونظرة إعجاب ذكوريّة بعثت الحرارة في وجنتيها، وجعلتها تحمرّ خجلًا. فهي لم تلتق برجل ثريّ في حياتها من قبل، رجل مهذّب حقيقيّ، يعبّر عن احترامه لها بهذا الشّكل اللّبق.

«إنّه الجنرال إلكينس. لا شكّ أنّكِ تعرفين الاسم من أيّام الحرب.. رئيس الجمعيّة الجغرافيّة بلندن»، تقول خالتها. «لقد حقّق العديد من الاكتشافات العظيمة في التبت، أثناء سنوات عمله... رجل مشهور، سأقدّمك له لاحقا. إنّه من صفوة النّخبة. وله صلاته الوثيقة بالأسرة الملكيّة». اهتزّ قلب كريستين من السّعادة. إنّه رجل مرموق ورحّالة متمرّس لم ير فيها الدّخيلة المقزّزة، ولم يُشح بوجهه عنها، كأنّها متطفّلة، بل انحنى لها، كأنّها سيّدة أرستقراطيّة هي الأخرى ومساوية له. شعرت بمزيد من الثّقة عندما قال لها زوج خالتها، وهو يراها تقترب من المائدة: «أوه، يا للمفاجأة! انظري ماذا حدث لكِ؟ تبدين جميلة جدًّا! لا، المعذرة. بل تبدين فاتنة!».

أحسّت كريستين مجدّدًا بأنّها تتورّد خجلًا من فرط السّرور. فتسري في ظهرها رعشة لذيذة:

«أعتقد أنّك تجاملني يا خال»، تجيبه، وهي تحاول أن تمازحه قليلًا.

«حتما»، أردف الرّجل العجوز ضاحكا، بينما انفلتت عنوة من فمه زفرة ثقيلة. تراخت سترته المجعّدة. واختفت ملامحه خلف عينيه الصّغيرتين المحمرّتين والغارقتين في وجنتين منتفختين. ولاح فيهما لمعان اهتمام يكاد يكون نوعا من الشّهوة. جعله هذا السّرور لمرأى الفتاة اليافعة ذات الجمال العجيب ثرثارا على نحو غير معتاد، ذا مزاج مرح. ها هو ينطلق في إبداء ملاحظات الخبير الكثيرة حول مظهرها، متوقّفا عند التّفاصيل الدّقيقة بشكل مبالغ فيه أحيانا، حتى إنّ الخالة أخذت تلطّفها في مرح، ولكن من دون حماسة. تسأله ألاّ يدوّخها بكلماته هذه. إذ سيتكفّل من هم أصغر سنّا منه بالقيام بذلك، بشكل أكثر ملاءمة ومهارة أكبر. وفي هذه الأثناء، اقترب النُّدل من الطّاولة، واقفين في احترام مهيب، تماما كما يفعل الكهنة أمام المذبح، في انتظار أن يومئ إليهم أحد. خمّنت كريستين في سرّها: «كم غريب أنّني كنت خائفة جدّا، أثناء الغداء، من هؤلاء الرّجال المهذّبين اللّبقين الذين لا يثيرون أدنى ضجّة، والمنتصبين كأنّهم لا يريدون شيئًا سوى ألاّ يلاحظهم أحد!». إنّها تأكل الآن ملء شاهيتها، وقد تلاشى خوفها، وتجلّى لها شعورها بالجوع الشّديد، بعد هذه الرّحلة الطّويلة. يبدو لها طبق اللّحم بالكمأة شهيّا جدّا، وكذلك اللّحم المشويّ المبسوط على فُرُش من الخضروات الموزّعة بعناية، والحلوى اللّذيذة المقدّمة برقّة على صحنها. كل هذا قد جيء به إلى طبقها صحبة سكاكين فضّيّة، لتنتهي معه هواجسها ومخاوفها. لا حاجة لها الآن إلى التّفكير في أيّ شيء أو الاندهاش لما يحيط بها. كلّ شيء رائع. والأروع من ذلك كلّه

قدرتُها على أن تكون هنا الآن، في قلب تلك الغرفة المشرقة المزدحمة، الهادئة رغم ذلك، المليئة بكلّ هؤلاء الأشخاص الأنيقين، والمهمّين جدّا على الأرجح. ولكنّ أفضل ما تذوّقته هو النّبيذ. لاشكّ أنّه مصنوع من عنب ذهبّي قد تعتّق مباركا في ضوء شمس الجنوب، قادما من أراض بعيدة سعيدة. إنّه يتوهّج بلمعان شفيف مثل الكهرمان. يتلألأ في كؤوس الكريستال الرّقيقة. ويسيل ناعما ومنعشا في الحلق. في البداية، كانت كريستين تسمح لنفسها، ولأسباب دينيّة، ببعض الرّشفات الحذرة فحسب. ولكنّها، مدفوعة من قبل زوج خالتها المبتهج بسرورها الواضح، سمحت له بأن يعيد ملء كأسها مرّات عديدة. ثمّ انفكّ قيد شفتيها دون أن تعي ذلك. انفجرت من حلقها فجأة ضحكات عالية، كأنّ سدّادات ظلّت تُنزع تباعا عن زجاجات شمبانيا. شعرت بدهشة عظيمة من دوّامة السّعادة القويّة التي اكتسحتها بغتة أثناء حديثها، كأنّ حصن القلق الذي كان يسوّرها قد تلاشى وتهدّم. ولكن، لمَ يجدر بالمرء أن يقلق في مكان كهذا على أيّة حال؟ كلّ الموجودين هنا لطيفون جدّا؛ خالتها وزوجها، وهؤلاء المهذّبون الأجلاّء المحيطون بها؛ جميعهم رائعون ذوو مظهر حسن. العالم جميل هنا، وكذلك الحياة.

على الجانب الآخر، يجلس زوج خالتها بوجه يتنفّس سعادة ورضا، مستمتعًا تمامًا بهياجها المفاجئ. آه، إنّه يتوق إلى استرجاع شبابه حتّى يحظى ثانية بفتاة متوهّجة مرحة مثلها. يشعر بالانتعاش والإثارة والحيويّة، بل والطّيش أيضا. من عادته أن يكون غير مبال ولاذعا. لكنّه الآن يلقي النّكات الواحدة بعد الأخرى، بما في ذلك

الجريئة منها. ويحاول بلا وعي منه أن يؤجّج النّيران داخل عظامه الهرمة. يختنق كالهرّ بحرارة معطفه. وتتلوّن وجنتاه بلون منبئ بالخطر. لقد صار فجأة شبيهًا بملك الفاصوليا[1] في لوحة جوردانس، وقد توهّج وجهه بفعل الشّراب والطّعام. شرب نخبها عدّة مرات. وكان على وشك أن يطلب زجاجة شمبانيا أخرى حين ألقت خالة كريستين المستمتعة هي الأخرى بيدها على ذراعه، علامة تحذير مذكّرة إيّاه بأوامر الطّبيب.

تصاعدت أنغام الموسيقى الرّاقصة من الرّدهة المجاورة. فوضع زوج الخالة العجوز سيجاره البرازيليّ الكبير على منفضة السّجائر. وغمز لها قائلا: «إذن، يمكنني أن أراها في عينيك، تلك الرّغبة في الرّقص. أليس كذلك؟».

«معك أنت فحسب يا خال»، أجابته بمرح. «يا إلهي. يبدو أنّني ثملتُ بعض الشّيء». لم تستطع أن تمنع نفسها من الاستمرار في الضّحك، إذ تحسُّ بدغدغة غريبة أعلى حلقها، فيما تخرج كلّ كلمة من فمها مصحوبة برنّة سعيدة لا تقاوم.

«لا تسخري منّي»، تمتم زوج خالتها. «هناك شباب ملاعين في غاية الوسامة هنا، إذا أضفتِ أعمار ثلاثة منهم، بعضها إلى بعض، فلن تجاوز سنّي. كما أنّ كلّ واحد منهم يجيد الرّقص أفضل من عجوز أشيب، واهن المفاصل، شبيه بوحيد القرن. ولكنّك تتحمّلين المسؤوليّة على أيّة حال. إذا كنتِ تملكين الشّجاعة الكافية، فلنذهب إذن».

---

(1) ياكوب جوردانس (1593- 1678) Jordaens Jacob: رسّام وحفّار فلمنكيّ. و«ملك الفاصوليا» Bean King أحد أعماله الشّهيرة.

مدّ لها ذراعه بلباقة على الطّريقة التّقليديّة. فأمسكت بها، وهي تثرثر وتضحك. تتابعها خالتها مستمتعة. تصدح الموسيقى. وتتألّق القاعة بألوانها وأضوائها الكثيرة. يراقب الضّيوف حركتها بفضول مُرحِّب، فيما يزيح النُّدل إحدى الطّاولات إلى الخلف. يبدو كلّ شيء هنا ودّيا وجميلا. لذلك لا حاجة إلى كثير من الشّجاعة كي تشقّ طريقها وسط هذه الدّوّامة الجذلى. في الحقيقة، ليس زوج خالتها أنطوني بطلا في الرّقص، ببطنه الضّخمة المهتزّة مع كلّ خطوة، وحركاته الخرقاء وخطواته المتردّدة. لكنّ الموسيقى الشّيطانيّة تتكفّل بكلّ شيء. تدوّي في المكان متوهّجة حيويّة وإيقاعيّة بشكل لا يصدّق، تصاحبها أصوات الصّنوج والكمان العالية اللّطيفة، وتصفيق الأكفّ القويّ المحفّز. يرتدي الموسيقيّون السّمر القادمون من الأرجنتين معاطف بنّيّة ذات أزرار ذهبيّة. ويعزفون كالعفاريت، بل هم شياطين ترتدي زيًّا موحّدًا مزركشا بالزّهور، فيما يبدو كلّ واحد منهم فاقدا لعقله: عازف السّاكسفون النّحيل بنظّارته البرّاقة، ينفخ في آلته حتّى يختنق بوحشيّة، كأنّه يريد في سكره ذاك أن يفرغها حتّى آخر قطرة، وإلى جانبه عازف البيانو السّمين ذو الشّعر المجعّد. مهتاجًا أكثر منه، يقرع بأصابعه، في حماسة مدروسة وبشكل عشوائيّ في الظّاهر، على مفاتيح آلته، بينما يدقّ العازف الآخر الطّبول بقوّة وفم مفتوح. يهتزّون جميعا في أماكنهم، كأنّ شيئا مّا مثل الكهرباء يصعق أجسادهم بوحشيّة. يعزفون على آلاتهم بعنف كالمجانين. ورغم ذلك، يعمل هذا الصّخب الجهنّمي -وهكذا لاحظت كريستين أثناء رقصها- بدقّة آلة الخياطة. فكلّ هذه الحركات المتهوّرة والضّحكات العالية وكلمات الإطراء

والإيماءات والأصابع المرصّعة بالخواتم والصّيحات والدّعابات، تمّ التّمرّن عليها بأدقّ تفاصيلها أمام المرايا ومساند النّوتات الموسيقيّة. كلّ هذا الجنون مصطنع. وجميع النّساء ذوات السّيقان الطّويلة والخصور النّحيلة والوجوه المكسوّة بالمساحيق، يدركن ذلك في ما يبدو. فمن الواضح امتناعهنّ عن الانفعال والغرق في هذه الإثارة المصطنعة المتجدّدة كلّ ليلة. ينحنين بتراخ على أذرع شركائهنّ، بابتسامات يغلّظها المكياج وأيدٍ متوتّرة ذات أظافر حمراء، ونظراتهنّ الباردة مثبّتة في الفراغ البعيد دليلا على تفكيرهنّ في شيء آخر أو على الأرجح في اللاّشيء. إنّها الغريبة الوحيدة هناك، المبتدئة التي يجب عليها أن تتمالك نفسها وتحجب، رغم دهشتها، شعورها بالإثارة وتخفض بصرها. فقد اهتزّت كلّ ذرّة في دمها لهذه الموسيقى العاصفة المثيرة ذات السّحر الشّيطانيّ. وكلّما توقّفت الموسيقى بشكل مفاجئ، أخذت هي نفسًا عميقًا، كأنّها قد نجت للتّوّ من موقف خطير. ويتنفّس زوج خالتها أيضا، ولكن لاهثًا بشدّة ووقار مصطنع، وقد أمكنه أخيرًا أن يمسح العرق عن جبينه ويلتقط أنفاسه.

يقود كريستين مجدّدا وبخطى المنتصر إلى الطّاولة. فيجدان مفاجأة لطيفة في انتظارهما. لقد طلبت الخالة لهما مثلّجات الفواكه. منذ وهلة فقط، أحسّ جسد كريستين برغبة في تناول شيء بارد. وها هي تجد أمامها طبق مثلّجات فضّيا، من قبل أن تسأل ذلك حتّى. يا له من عالم رائع، حيثُ تحقّقُ الأمنيات يسبق اكتمال الرّغبة فيها! كيف يمكن للمرء أن يشعر هنا بأيّ شيء سوى السّعادة؟

تذوّقت مبتهجة عذوبة المثلّجات الحارقة، كأنّها تمتصّ نسغ العالم

ورقّته كلّها. خفق قلبها بشدّة. وارتعشت أصابعها في ولع. بحثت عن شخص أو شيء مّا يستقبل شعورها الفائض بالعرفان. فرأت إلى جانبها زوج خالتها، هذا الرّجل العجوز الفاضل، الجالس في مقعده الوثير، منهكًا بعض الشّيء. مازال مستغرقا في اللّهاث، يمسح بمنديله العرق عن جبينه. لقد بذل مجهودًا كبيرًا كي يسعدها، أكبر على الأرجح ممّا هو مسموح له. تُمسِّح شاكرةً وبلطف شديد على يده الثّقيلة الممدّدة على طرف مقعده. فتضيء وجهَه ابتسامة عريضة. ويستعيد حيويّته. يستمتع بشعور من السّرور الأبويّ عندما يلمح نظرة العرفان في عينيها. ولكن هل من العدل أن تشكره بمفرده، دون أن تشكر خالتها أيضًا؟ فهي مدينة لها بوجودها هنا، هي التي ضمّتها تحت جناحها، وألبستها ثيابًا أنيقة، ومنحتها قدرًا من الحماية المباركة في هذا الجوّ الغنيّ المُسْكر. ولهذا أمسكت بيدها اليسرى يد خالتها أيضًا. وجلست بينهما مشرقةً وسط القاعة المضاءة، مثل طفلة تحت شجرة عيد الميلاد.

انطلقت الموسيقى مجدّدا، أكثر قتامة وخفوتا هذه المرّة: مقطوعة تانغو تنزلق مثل عربة حرير أسود. ارتسم ملمح عجز على وجه زوج خالتها، وهو يشير إلى أنّ ساقيه البالغتين سبعة وستّين عامًا لا تتحمّلان الرقص على إيقاع بهذه الرّشاقة. «لا يا خالي. إنّني أفضّل ألف مرّة أن أكون هنا جالسة معكما». أجابته، وهي صادقة في ما تقوله. واستمرّت في إمساك يديهما سويّا. إنّها تشعر بالأمان معهما وبكونهما في أفضل حال ممكنة.

فجأة، لاح شبح بالقرب منها؛ وانحنى رجل طويل عريض المنكبين أمامها، بوجه جنديّ حليق الذّقن صهدته الشّمسُ، يبينُ لونه

بوضوح إزاء بياض سترته. دقّ الأرضيّة بكعبيه على الطّريقة الألمانيّة، وطلب الإذن من خالتها. فابتسمت له قائلة: «بكلّ سرور»، وهي تشعر بالفخر لنجاح مصونتها السّريع. وقفت كريستين في خجل، وشعرت بشيء من الوهن في ركبتيها. لقد اختارها رجل أنيق لا تعرفه من بين كلّ هؤلاء الفتيات الجميلات الأنيقات. هذا أمر ملهم لتجاوز ارتباكها. أخذت نفسًا عميقًا. ثمّ وضعت يدها المرتعشة على كتف فارسها. ومنذ الخطوة الأولى، أحسّت أنّ راقصا عظيما يقودها بلطف وثبات؛ كلّ ما عليها أن تفعله هو أن تُسلم نفسها لانحناءات شريكها وحركاته. تستسلم لهذا الإيقاع المغري. فتخطو قدماها الخطوة السّليمة، كأنّ في الأمر معجزة. لم يكن الرّقص أمرا سهلا بالنّسبة إليها أبدا. لكنّ تتبّع خطوات شريكها لا يقتضي منها جهدا كبيرا، كأنّها قد اكتسبت تحت هذا الفستان الجديد جسدا آخر جديدا كذلك، أو تعلّمت في حلم قديم منسيّ تناسق الحركات هذا، لشدّة ما كانت تنثني بدقّة ويسر وإرادة غريبة. يغمرها الآن شعور بالطّمأنينة. ترخي رأسها إلى الوراء كأنّها تضعه على وسادة من غمام، عيناها شبه مغمضتان، وقد انفصلت تمامًا عن كلّ ما يحيط بها. ولدهشتها الشّديدة، أحسّت أنّها تطفو في هواء القاعة. ترمق من حين إلى آخر الوجه الغريب الذي يوشك أن يلامس وجهها. فيشبّه إليها أنّها ترى وميض ابتسامة استحسان. ثم يبدو لها أنّ اليد التي تقودها تلتصق بها الآن بحميميّة أكبر. يخفق في عروقها توجّس خفيف وتوتّر يكاد يكون شهوانيّا. كيف ستحمي نفسها إذا أمسكت بها يد قويّة كهذه بطريقة أكثر إحكامًا؟ ماذا لو قام هذا الرّجل الغريب بوجهه الصّارم العنيد

بالإمساك بها فجأة، وجذبها إليه أكثر ؟ ألن تستسلم له وتخضع تماما، كما هو حالها الآن؟ يشرع هذا التّوق الحسّيّ، بلا وعي منها، في الانتشار عبر جسدها، حاملا معه شعورا متزايدا بالرّاحة والاستسلام. بدأ الجميع يلاحظون هذا الثّنائيّ المثاليّ. وأحسّت مجدّدًا بذلك الشّعور القويّ المُسْكر، أنّ هناك من يراقبها بإعجاب كبير. واستجابةً لإرادة شريكها، شعرت بمزيد من الثّقة في نفسها، وهي تتحرّك وتتنفّس في تناسق معه، فيما يتدفّق هذا السّرور الجسديّ الجديد، رافعا روحها إلى ذروة مشاعر لم تختبرها من قبل أبدا.

عندما انتهت الرّقصة، قادها شريكها الطّويل الأشقر بلطف إلى طاولة زوج خالتها مجدّدًا. وكان قد قدَّم نفسه على أنّه مهندس من غلادباخ[1]. تلاشى دفء لمسته الخفيف. فشعرت فجأة أنّها تضعفُ وتتضاءل، كأنّ فقدان الاتّصال به قد تسبّب في اختفاء قوّتها الجديدة التي كانت تشعر بها للتّوّ. جلست إلى الطّاولة، وهي ما تزال تشعر بشيء من الثّمالة. ابتسمت بسرور لزوج خالتها اللّطيف، دون أن تلاحظ الشّخص الآخر الذي صار يجالسه؛ إنّه الجنرال إلكينس. ها هو يقف بأدب ولطف. وينحني أمامها. لقد أتى يسأل خالتها أن تقدّمه إلى تلك الفتاة الفاتنة، منتصب القامة، ووجهه الجادّ مائل باحترام كبير، كأنّه أمام سيّدة عظيمة. تحاول كريستين أن تستجمع شتات نفسها: «يا إلهي، ماذا يمكنني أن أقول لمثل هذا الرّجل المبجّل الشّهير الذي تملأ صوره الصّحف، (أو هكذا قالت خالتها) بل إنّها تنتشر في أفلام السّينما أيضا؟». لا مفرّ أمامها. يسألها الجنرال أن تغفر

(1) غلادباخ Gladbach: مدينة شمال نهر الرّاين بألمانيا.

ارتباك ألمانيّته. لقد درس فعلا في هايدلبيرغ كما يقول. ولكن مرّت أربعون عاما أو أكثر على ذلك. قال أيضا إنّه من المحزن الاعتراف بمثل هذه الأرقام، في اللّحظة التي يطلب فيها من راقصة ساحرة مثلها أن تتكرّم بقبول طلبه الرّقص معها، رغم الشّظايا التي سكنت فخذه الأيسر إثر معركة في يبرس[1]. ولكن لا ينجح المرء في النّهاية في عالم كهذا إلاّ بشيء من المجازفة. لم تجد كريستين المحرجة من كلامه ما تجيبه به. لكنّها عندما شرعت في الرّقص معه ببطء وحرص شديدين، اندهشت من قدرتها على الحديث بطلاقة. فكّرت في سرّها، وقد اكتسحت جسدَها قشعريرةٌ مفاجئة: «من أنا إذن؟ كيف يمكنني أن أفوز فجأة بكلّ شيء؟ وبأيّ مهارة وخفّة أتحوّل، أنا التي كنت من قبل -وفق كلمات أستاذ الرّقص- متصلّبة خرقاء؟ ها إنّني أمسك بزمام الأمور بدلا عنه. يا للسّهولة التي أتحدّث بها. ولا شكّ أنّني لا أقول شيئا مغاليا في الحمق. فهذا الرّجل المهمّ يستمع إليَّ بلطف شديد. أيكون هذا الفستان وهذا العالم قد حوّلاني تماما؟ أم كلّ هذا كان بداخلي غير أنّني كنت حييّة مفتقرة إلى الشّجاعة؟ لطالما ردّدت أمّي هذه الكلمات. وربّما ليست الحياة كلّها بالصّعوبة التي كنت أتخيّلها. وقد لا يحتاج المرء إلاّ لبعض الشّجاعة حتّى يفحص ذاته ويكتشفها. وحينئذ، ستغدق عليه السّماء هباتها العظيمة».

عندما انتهت الرّقصة، عبر الجنرال إلكينس بصحبتها القاعة، بخطوة متراخية رصينة. كانت تمشي معه مستندة إلى ذراعه، يغمرها

(1) إيبرس Yerps: مدينة بجنوب غرب بلجيكا، كانت ساحة لثلاث معارك رئيسيّة في الحرب العالميّة الأولى.

شعور بالفخر. تنتبه إلى استقامة عنقها، وهي تنظر أمامها بثقة كبيرة، وتشعر أنّ ما يحدث للتّوّ يجعلها أكثر شبابًا وجمالًا. اعترفت للجنرال إلكينس أثناء حديثهما أنّ هذه هي المرّة الأولى التي تزور فيها إنجادين الحقيقيّة (سواء مالويا أم سيلس ماريا)[1]. وقد بدا لها أنّ هذا الاعتراف يزيد من احترامه لها بدل أن يفعل العكس. ظهر عليه السّرور، وهو يسألها أن ترافقه في صباح الغد إلى مالويا. أجابته بسعادة تشوبها الرّهبة: «بكلّ سرور». صافحت، شاكرةً وبشكل يكاد يكون ودّيًا، يد الرّجل العجوز المبجّل. من أين تأتي بهذه الجرأة؟ كانت تشعر شيئًا فشيئًا بكونها في بيتها، وسط هذه القاعة، في هذا الفجر الذي ابتدأ موحشًا وانقلب إلى الطّمأنينة، منذ أن صار الجميع يتنافسون كي يعدّوا لها مفاجآت سارّة، ومنذ أن رأت كيف تُنشئ هنا صلاتٌ عابرة روابطَ اجتماعيّة قويّة ملؤها الثّقة، بينما في الأسفل، في عالمها الضّيّق يحسد المرء جاره على الزّبدة في رغيفه والخاتم في يده. أعلمت خالتها وزوجها بدعوة الجنرال اللّطيفة. ولكن ليس لديها المزيد من الوقت لتفصّل في ذلك. فالمهندس الألمانيّ يعبر اللّحظةَ صفوف الطّاولات متّجها نحوها لطلب مشاركتها في الرّقصة التّالية. ومن خلاله، تعرّفت على طبيب فرنسيّ، ومن ثمّ على صديق أمريكيّ لزوج خالتها ومجموعة أخرى كبيرة من الرّجال، لم تفهم في غمرة سعادتها أسماءهم. لم تلتق أبدًا، طيلة السّنوات العشر التي انقضت، بأناس لهم هذا القدر العظيم من اللّطف والأناقة والأدب، كما فعلت في هاتين السّاعتين. عرضوا عليها الرّقص والسّجائر والكحول الفاخرة والنّزهات والسّباقات الجبليّة.

(1) مالويا، سيلس ماريا Maloja, Sils-Maria: إنجادين السّويسريّة القديمة.

يبدو كلّ واحد منهم راغبا في معرفتها، سخيّا في معاملتها بحفاوة كبيرة، تنتمي على الأرجح إلى هذا المكان. «أيّ نجاح هذا يا صغيرتي!»، همست خالتها في أذنها، فخورة بهذه الزّوبعة التي أحدثتها قريبتُها من حولها. وقد احتاجتا معا إلى ذلك التّثاؤب الذي يحاول أنطوني إخفاءه لتتذكّرا أنّ الرّجل العجوز قد أُنهك تماما. أمّا هو، فقد حاول من جهته أن ينكر ذلك، حفظا لكبريائه. لكنّه استسلم لاحقا: «نعم، قد يكون من الأفضل أن ننعم بقسط من الرّاحة. غدًا يوم جديد. وسنستمتع فيه كثيرًا». ألقت كريستين نظرة أخيرة على القاعة المتألّقة بالحركة والموسيقى. وأحسّت كأنّها تخرج للتّوّ من الحمّام منتعشة، بينما تهتزّ كلّ أعصابها فرحا. أمسكت بذراع الرّجل العجوز. وانحنت بشكل تلقائيّ. ثمّ قبّلت اليد المكسوّة بالتّجاعيد.

ها هي الآن وحيدة في غرفتها، مذهولة مرتبكة، يكتسحها شعورها بذاتها والصّمت المفاجئ الذي يعمّ المكان من حولها. تكتشف الآن كم يشتعل جلدها تحت هذا الفستان الخفيف. فتشعر بتوتّر شديد من فرط الإثارة. وتصير الغرفة فجأة ضيّقة جدًا. تفتح باب الشّرفة. فتداعب برودةُ الثّلج كتفيها العاريتين. تجتازه مرتجفة، يغمرها شعور بالرّاحة والطّمأنينة. تتأمّل بامتلاء جوّانيّ هذا المنظر الطبيعيّ العجيب، وقلبها الصّغير يخفق تحت القبّة اللّيليّة الهائلة. هنا أيضا يسود الصّمت، لكنّه أشدّ وأعمق من ذاك الذي يسكن قاعةً صنعتها يدُ الإنسان، صمت يهدّئ النّفس بدلًا من إثارتها. تغرق الجبال التي كانت منذ حين متلألئة في ظلالها، شبيهة بقطط عملاقة سوداء ذات عيون ثلجيّة مشعّة. الهواء ساكن تحت بريق القمر الحليبيّ

الذي يطفو في الأعلى، كلؤلؤة صفراء وسط ماسات النّجوم المتناثرة. ينير ضوؤه الهادئ الفاتر حوافّ الوادي العائم في الضّباب. لم تختبر من قبل أبدا مثل هذا الإحساس بالجلال المهيمن، وهي تتأمّل المشهد ذا السّكون الإلهيّ. يهدأ كلّ تقلُّب داخلها أمام هذا الصّمت المطلق. تصيخ السّمع مرارا وبانتباه شديد حتّى تنفذ بلا هوادة إلى قلب هذا السّكون، وتتلاشى ملء كينونتها في أعماقه. فجأة، تشقُّ الفضاءَ، كأنّها قادمة من أقصى الكون، موجةُ صوت برونزيّة. إنّه جرس الكنيسة، يتردّد صداه فوق الصّخور أسفل الوادي. تفزع كريستين، كأنّها هي نفسها الجرس الذي يُدَقّ. وتصغي إلى هدير البرونز، يدوّي في بحر الضّباب، تسعة، عشرة، أحد عشر، اثنا عشر. إنّه منتصف اللّيل إذن! أيعقل هذا؟ منتصف اللّيل فحسب؟ لم تمرّ سوى اثنتي عشر ساعة على وصولها، محتشمة، متوجّسة وذاهلة بروح ضئيلة بائسة. أهو حقًا يوم واحد؟ بل نصف يوم؟ وفي هذه الرّعشة المستمرّة التي تجري في أعماقها، يشعر هذا الكائنُ المفتون لأوّل مرّة في حياته أنّ الرّوح مقدودة من قماش مطّاطيّ غامض، بما أنّ حدثًا واحدًا يكفي ليمدّدها إلى ما لا نهاية له حتّى تضمّ داخلها، وفي فضائها الصّغير، كونا بأكمله!

كلّ شيء مختلف في هذا العالم الجديد، حتّى النّوم؛ إنّه أكثر قتامة وكثافة. إنّه انعتاق كلّيّ. ما إن تستيقظ كريستين حتّى تستعيد حواسَّها الغارقة تماما في أعماق نوم لم تعرف مثله أبدا، ببطء ومشقّة، خطوة فخطوة، كأنّها تجذبها من بئر سحيقة لا قرار لها. يكون انطباعها الأوّل إدراكا غائما للوقت، الذي يحاول تخمينه الجفنان المغمضان. لقد طلع النّهار. ولا شكّ أنّ هناك ضوءا في الغرفة. وبشكل مفاجئ تماما،

يتشبّث الخوف بهذا الانطباع الأوّل الغامض. (إنّه يتسلّل عميقا في النّوم) : «إيّاك أن تنسي العمل! كلّ شيء مسموح لك إلاّ الوصول متأخّرة! وتندفع في لاوعيها آليّا سلسلةُ الأفكار التي تسجّلت فيه خلال السّنوات العشر الأخيرة. «سيرنّ المنبّه الآن.. الواجب، الواجب، ثمّ الواجب! انهضي حالا. ينطلق العمل على السّاعة الثّامنة، ولكن أشعلي الموقد قبل ذلك. وأعدّي القهوة. اذهبي لجلب الحليب والخبز... ترتيب الغرفة.. تغيير ضمّادات أمّي.. التّفكير في الطّعام.. وماذا أيضًا؟ هناك شيء آخر عليَّ أن أفعله اليوم. نعم، عليَّ أن أسدّد ديون صاحبة المتجر. فقد ذكّرتني بذلك أمس... لا، لا تعودي للنّوم ثانية. استيقظي. اقفزي من السّرير ما أن يرنّ المنبّه. ولكن ما المشكلة؟ ما الذي أخّره اليوم؟ هل تعطّل؟ هل نسيت رفع زرّه إلى الأعلى؟ لماذا لم ينطلق حتّى الآن؟ لقد غمر الضّوء الغرفة. يا إلهي! لقد نمت طويلا. والسّاعة الآن السّابعة أو الثّامنة، أو ربّما التّاسعة. لا شكّ أنّ النّاس يحتجّون الآن في مكتب البريد، مثلما فعلوا يوم أصابتني وعكة صحّيّة. لقد ذهبوا على الفور ليشتكوني عند الإدارة. إنّهم يرفتون الموظّفين بالجملة هذه الأيّام. أيّها السّيّد المسيح.. يا أمّنا مريم! لا يمكن أن أتأخّر. لا يمكن أن أستغرق في النّوم». يشبهُ هذا الخوف الدّفين من التّأخير خلدًا يشقّ نفقًا تحت سطح النّوم، ثمّ ينفذ عبر الطّبقة الرّقيقة الأخيرة. ويطلّ برأسه.

«أين أنا؟». جالت عيناها في الغرفة. «ما الذي حدث لي؟». يمتدّ فوقها سقفٌ أزرق وأبيض، نظيفٌ مستقيمُ الخطوط مذهَّب، بدلًا من سقف العلّيّة ذي الألواح الخشبيّة البنّيّة، الملطّخ بدخان

السّجائر، والذي تعشّش فيه خيوط العنكبوت. «من أين يأتي كلّ هذا الضّوء؟ لا بدّ أنّ نافذةً جديدة قد برزت أثناء اللّيل. أين أنا؟»، تنظر إلى يديها السّاكنتين. فلا ترى تحتهما الملاءة البنّيّة القديمة المبقّعة المصنوعة من وبر الجمل، بل ملاءة أخرى ناعمة رقيقة زرقاء مزخرفة بزهور حمراء.. قفزة أولى، «هذا ليس فراشي». قفزة ثانية، «هذه ليست غرفتي». أمّا الثّالثة والأعلى، فقد تلتها نظرة صافية من حولها، قبل أن تتذكّر كلّ شيء: الإجازة، العطلة، الحرّيّة، سويسرا، خالتها، زوج خالتها وهذا النّزل العجيب! لا خوف الآن ولا عمل ولا مسؤوليّات ولا منبّه. ما من موقد. لا أحد ينتظرها. وقد انتهى خوفها من ضغط الآخرين ومطالبهم؛ توقّفت للمرّة الأولى طاحونة المشقّات المريعة التي تسحق حياتها منذ عشر سنوات. بإمكانها أن تستلقي على فراشها النّاعم الدّافئ، وأن تشعر بالدّم يتدفّق في عروقها. وتُسلم نفسها للضّوء قادما من خلف السّتائر المسدلة برقّة، وتتذوّق الحرارة اللّطيفة وهي تتخلّل مسامّها. لا حاجة إلى القلق من العودة إلى النّوم. فهي تستحقّ أن تنعم بالكسل. تستطيع أن تحلم وتتمطّى على فراشها. حياتها لها، وقد صارت تنتمي إلى ذاتها. يمكنها أيضًا -تتذكّر الآن ما قالته لها خالتها- أن تضغط على هذا الزّرّ فوق الفراش، حيث ترتسم صورة نادل تشبه طابعًا بريديًّا. كلّ ما عليها أن تفعله هو أن تبسط يدها فقط. فيقع السّحر مباشرة. يُطرق الباب في غضون دقيقتين. تفتحه. فتجد عامل النّزل عند الباب. يدخل الغرفةَ بأدب، وهو يدفع عربة صغيرة ذات عجلات مطّاطيّة. (كانت قد اندهشت لمرأى هذه العربة في غرفة خالتها). وعليها توضع القهوة أو الشّاي أو

الشّوكولاطة، وفق ما تريده هي، على أطباق جميلة ومناشف دمشقيّة بيضاء. ها هو فطور الصّباح يتجلّى من تلقاء نفسه. ليست مضطرّة إلى طحن القهوة وإشعال الموقد، والوقوف عنده بقدمين شبه حافيتين في ذروة البرد. لا، كلّ شيء هنا يأتيك بمفرده؛ خبز أبيض وعسل ذهبيّ وأطعمة أخرى كثيرة ولذيذة مثلما حدث أمس. تأتي بها عربة سحريّة متحرّكة حتّى طرف سريرك، ساخنةً طازجة، دون أن تكلّف نفسك شيئا أو ترفع إصبعًا واحدة حتّى. ويمكن لكريستين أيضا أن تضغط على الزّر الآخر الذي تغلّفه صورة فتاة ترتدي سترة بيضاء. فتسرع إليها في الحال. تدخل غرفتها بأدب بعد أن تدقّ على الباب، مرتدية مئزرًا لامعًا وفستانًا أسود. تسأل عمّ إذا كانت السّيّدة تريدها أن تفتح مصراعي النّافذة أو تسحب السّتائر أو تجهّز لها الحمّام. يستطيع المرء في هذا العالم العجيب أن يصوغ ما شاء من الأمنيات. وستتحقّق كلّها في طرفة عين. ولكن عليها أن تقرّر في نهاية الأمر ما إذا كانت ستضغط على الزّر أم لا، تنهض من سريرها أم تمكث فيه؟ هل تبقى في الفراش أم تستسلم للنّوم ثانية؟ وعلى كُلٍّ، سواء أفتحت عينيها أم تركتهما مغمضتين فإنّ بإمكانها أن تنعم الآن في كسل وهدوء بهذه الأفكار الرّائعة، أو ألاّ تفكّر في شيء مطلقا وتكتفي بالتّلذّذ بسعادتها. فالزّمن هنا خاضع لإرادتها بعد أن كان من قبل سيّدها. لم تعد رحاه القاسية تطحنُها بين السّاعات والثّواني. بل صارت تنزلق فوقَه بعينين مغمضتين، كأنّها في مركب بمجدافين ثابتين. تستلقي مستمتعةً بهذا الإحساس الجديد، والدّماءُ تنبض برقّة في أذنيها مثل أجراس كنيسة تدقّ في الأفق يومَ الأحد.

«لا»، صرخت كريستين، وقد انتزعت نفسها بحركة نشيطة من تحت الأغطية. ليس عليها أن تُسرف في الحلم. ولا يجدر بها أن تضيّع هذا الوقت الذي يهبها في كلّ ثانية مفاجأة أعظم من سابقتها. يمكنها أن تستغرق في الأحلام ما شاءت لأشهر وسنوات عندما تعود إلى المنزل، مستلقية على ذلك الفراش الخشبيّ البنّيّ المكسور الذي يئنّ ليلًا، بحشيّتة المتحجّرة، أو عند المكتب الملطّخ بالحبر، بينما يعمل الفلاّحون في حقولهم، وتتكّ السّاعة المعلّقة على الحائط بلا رحمة، إلى ما لا نهاية له، كأنّها حارس متحذلق. هناك يكون الحلم أجمل من اليقظة؛ أمّا هنا في هذا العالم السّماوي، فالنّوم مضيعة للوقت. غادرت الفراش بحركة حاسمة. شيء من الماء البارد على وجهها وعنقها، وها هي في أوج نشاطها. ارتدت ثيابها الجديدة، مستمتعة بملمسها النّاعم. فقد كاد جسدها أن ينسى هذا الإحساس الجديد. «ولكن، لا تهدري وقتك مع هذه المتع الصّغيرة. يجب أن تغادري غرفتك وتذهبي لزيارة مكان مّا -أيّ مكان تشائين- وهناك ستنعمين بالسّعادة والحرّيّة. أطلقي ذراعيك. واملئي عينيك. تيقّظي قدر إمكانك. واتركي حواسّك كلّها تتشرّب هذا العالم». لبست سترتها بسرعة. وضعت قبّعتها على رأسها. وهرعت نازلة الدّرج.

مازالت الأروقة معتمة وخالية في ضوء هذا الصّباح البارد. يحسر عمّال النّزل أكمامهم في الرّدهة، وهم ينظّفون السّجّاد بمكانس كهربائيّة. أمّا البوّاب اللّيليّ النّاعسُ منتفخُ العينين، فقد لاحظ باندهاش هذه السّيّدة المبكّرة. ثمّ خلع قبّعته تحيّة لها. يا للفتى المسكين! لا بدّ أنّه يشقى هو الآخر في عمل كهذا: السّهر اللّيليّ والتّعب والسّاعات

الطّويلة والأجر الزّهيد. «ولكن، لماذا أشغل نفسي بهذه المسائل؟ وما دخلي بها؟ لا أريد أن أصرف انتباهي لأيّ شيء سواي، أنا.. نعم، أنا.. ولا شيء آخر. إلى الأمام. فالهواء المنعشُ في الخارج يشبه منديلا من ثلج ينظّف الجفون والشّفاه والخدود. يقتنصُ هذا الهواء الجبليّ المرء. فينفذُ إلى جسده. ويجمّده حتّى العظم. ولهذا، ينبغي عليّ أن أركض، سيجعل ذلك الدّم متدفّقا في عروقي. لا بدّ أنّ هذا الطّريق يقودني إلى مكان مّا. لا يهمّ إلى أين. فهنا في الأعلى، كلّ شيء جديد وساحر».

انطلقت كريستين بخطوات سريعة، مندهشة لفراغ المحطّة من أيّ شخص هذا الصّباح. يبدو أنّ الحشد الذي انتشر مساء الأمس في الطّرقات ما يزال الآن في هذه السّاعة السّادسة مكدّسا داخل صناديق النّزل الحجريّة. ومثله، يسترخي المشهد السّاكن، كأنّه مغلق على نفسه، في غفوة رماديّة. لا صوت في الهواء. وقد انطفأ القمر الذي كان ذهبيّا ليلة أمس. واختفت النّجوم. وبهتت الألوان، والصّخور التي غرقت في الضّباب أصبحت شاحبة داكنة ذات انعكاس معدنيّ بارد. وحدها سحب الضّباب الكثيفة تنزلقُ بارزة فوق قمم الجبال، كأنّ قوّة غير مرئيّة تسحبها وتنفشُها. فمن حين إلى آخر تنفصل سحابة وحيدة عن الكتلة الكثيفة. وتطفو بمفردها مثل كرة قطنيّة بيضاء. ثمّ ترتفع إلى الأعالي المضيئة. وكلّما زاد ارتفاعها غمرت حوافّها أضواءٌ عجيبة، وسوّرتها بخيوط ذهبيّة. لا شكّ أنّ الشّمس قريبة منها، تعمل في مكان مّا خلف تلك القمم. صحيح أنّها ما تزال محتجبة. لكنّ هواء جديدا يشي بحرارتها المنعشة. فلنتحرّك نحوها، إلى الأمام.. إلى الأعلى! ربّما يجدر بي أن أسلك هذا الطّريق المكسوّ بالحصى، الشّبيه

بممشى في حديقة. إنّه يعلو في خطوط واضحة. وسيكون السّير فيه لعب أطفال. ورغم أنّها ليست معتادة على مثل هذه الأعالي، فقد أدهشتها طواعيةُ جسدها لها ورشاقة ساقيها. ينعطف الطّريق تدريجيّا، وتسحبها خفّة الهواء إلى الأعلى. عَدْوٌ كهذا من شأنه أن يدفئ دمها للحظات قليلة. تخلع قفّازاتها وسترتها وقبّعتها. فبشرتها أيضا تحتاج إلى التّنفّس في تلك البرودة المثيرة. تحثّ خطاها. فتشعر بمزيد من الثّقة والخفّة في قدميها. ثمّ تتوقّف قليلا، إذ تحسّ بقلبها يدقّ بضربات مزدوجة داخل صدرها، فيما يدوّي نبضها في أذنيها، ويَخفُق صدغاها بقوّة. تتأمّل مشهد الوادي بمتعة عند المنعطف. كم لذيذٌ منظرُ الغابات التي تصعدُ منها قوافل الضّباب، والطّرقات التي تبدو خطوطا بيضاء تخترقُ الخضرة الكثيفة، والنّهر الذي يتلألأ منحنيا مثل سيف معقوف. وفي الجهة الأخرى، عبر فجوة هائلة، ينفتح فجأةً قُفل الشّمس الذّهبيّ! يا للرّوعة! ولكن لن يوقفها هذا السّحر العجيب، ولا دقّات قلبها المسترسلة وتشنّج عضلاتها وأوتارها؛ بل إنّ ذلك يحفّزها على المضيّ قُدما، تندفع بإثارة مُسكرة، دون أن تملك أدنى فكرة عن المسافة التي تقطعها، أو الارتفاع الذي تبلغه، أو حتّى عن الوجهة التي تقصدها. وصلت بعد ما يناهز السّاعة، إلى موضع يتقوّس في شكل منحدر خطير. ألقت بنفسها على العشب. هذا يكفي بالنّسبة إلى اليوم. شعرت بسعادة غامضة رغم الدّوار الذي أصابها. ينبض الدّم أسفل جفنيها. وتحمرّ بشرتها. وتَخِزُها في تلك المواضع التي تلفحها الرّيح. ولكنّها تتشرّب هذا الألم الحسّيّ، في حماسها ذاك، نوعا من الفرح المجهول. لم تعرف من قبلُ أبدا أنّ الدّم بإمكانه أن يتدفّق بمثل هذه

القوّة. لم تختبر أبدًا في جسدها الفتيّ مثل هذا النّشاط وهذه الرّشاقة التي يمنحها التّعب المسكر اللّذيذ. تطفو السّحب فوق رأسها بزُرقة أكثر توهّجا من سماء في حلم. وتغمرها دوّامة الرّيح الجبليّة. دفنت يديها عميقا في الطّحلب الرّطب الزّكيّ. ثمّ استلقت منبهرة في ما يشبه الثّمالة، مستيقظة وحالمة في الآن ذاته، ومتلذّذة بانفجاراتها الجوّانيّة وبالقوّة المهيبة للطّبيعة. مكثت في تلك الحالة ساعة أو ساعتين إلى أن أشعلت الشّمسُ شفتيها. فوثبت منتصبة على قدميها. وقطفت بسرعة بعض الأزهار الرّطبة، شيئا من العرعر والجنطيانا والمريميّة التي ما تزال تحتفظ ببلّور النّدى على بتلاتها. وأسرعت نازلة إلى الأسفل. حافظت في البداية على خطوة سريعة ولكنّها متراخية قليلا، أي أنّها كانت تمشي بإيقاع السّائحة، قبل أن تستسلم لقوّة الجاذبية، فتضطرّ إلى العدو والقفز من حجر إلى آخر بسرعة وجرأة كبيرتين. شعرت بثقة في ذاتها وبهجة لم تختبرهما من قبل. وكادت تغنّي، وهي تنعطف باتّجاه الوادي كأنّ الرّيح تحملها.

وقف المهندس الألمانيّ الشّابّ، عند الموعد المحدّد على السّاعة التّاسعة أمام النّزل، في زيّه الرّياضيّ، مُنتظرا وصول مدرّب التّنس من أجل التّدريب الصّباحيّ. مازال الهواء أبرد من أن يسمح له بالجلوس على المقعد الرّطب. ومازالت الرّيح تمرّر أصابعها اللاّسعة عبر الياقة المفتوحة لقميصه الكتّانيّ الخفيف. لذا فهو يتمشّى جيئة وذهابًا بقدمين جمّدهُما الهواء البارد، ويدير مضربه في يديه كي يدفئهما. أيكون المدرّب قد استغرق في النّوم؟ ينظر المهندس من حوله نافد الصّبر. فيمرّ بصره صدفة عبر الطّريق الجبليّ. ثمّة شيء غريب يلوح هناك مُضيئا

مُتقلقلا، أصغر من حشرة، يهرول نازلا الطّريق بقفزات مدهشة. «أوه، ما هذا؟ ليتني كنتُ أحمل المنظار معي!». ولكنّ الجسم المندفع يقترب بسرعة، واضحا ومجنّحا. وستميّزه العين بعد لحظات وجيزة. يحجبُ المهندس بصره بكفّه، وهو يتبيّن شخصا قادما بسرعة جنونيّة من المسلك الجبليّ. إنّها امرأة دون شكّ، بل شابّة يافعة، يتطاير شعرها في الهواء، وتتمايل ذراعاها كأنّها على بساط الرّيح. يا للدّهشة! ولكن أيّ تهوّر هذا الذي يجعلها تقتفي المنحدر المتعرّج بمثل هذه السّرعة؟ يا للمرأة المجنونة! ومع ذلك، فمن الرّائع مشاهدة هذا النّزول المبهر. يخطو المهندس تلقائيّا إلى الأمام، كي يتمكّن من النّظر إليها بشكل أفضل. كانت شبيهة بإلهة الفجر، بخصلات شعرها الطّافية في الهواء، وهي تتقدّم باندفاع كبير ودون خوف. مازال غير قادر حتّى الآن على تَبَيُّن وجهها. فسرعتها ووهج الشّمس المشرقة يجعلان ملامحها غير واضحة. ولكنّها مجبرة على عبور ساحة ملعب التّنس كي تصل إلى النّزل، بما أنّ الطّريق ينتهي عند هذه النّقطة. إنّها تقترب أكثر، تسبقها بعض الحجرات المتداعية تحت قدميها. بإمكانه الآن أن يسمع خطواتها. يقف في طريقها عمدا. فيضطرّها إلى التّوقّف، كي لا تصطدم به. تدفع الحركة المفاجئة شعرها إلى الخلف، وتهزّ فستانها عن ساقيها. إنّها تتنفّس بصعوبة على مسافة ذراع منه وتضحك مندهشة، بعد أن تعرّفت على شريكها في الرّقص ليلة أمس. صاحت في انشراح: «آه، إنّه أنت. المعذرة، كدت أصطدم بك». لا يجيب على الفور. لكنّه يتأمّلها بمتعة، بل بحماس شديد، والتّورُّد بادٍ على وجهها، وخدّاها متجمّدان من فرط برودة الهواء، وصدرها يعلو ويهبط. يكتفي بالابتسام مفتونًا

برؤية هذا الشّباب وهذه الحيويّة. أخيرًا، تكلّم قائلا: «تهانيّ لك. هذا ما أسمّيه سرعة حقيقيّة. لا أحسب أنّ المرشدين الجبليّين قادرون على مجاراتك. ولكن.. (ينظر إليها مجدّدًا بانتباه وإعجاب) لو كان لي عنق بهذا الجمال والنّضارة، لكنتُ حريصا على ألاّ أكسره. إنّك غير حذرة مطلقًا. لحسن حظّك أنّني من يشاهدكِ اللّحظةَ وليس خالتك. كان من المفترض أصلا ألاّ تذهبي في جولة صباحيّة مرتجلة بمفردك. ولكن إذا شعرتِ يوما بالحاجة إلى مرافق ذي تجربة لا بأس بها، فإنّني أرشّح لكِ نفسي بكلّ سرور». نظر إليها مجدّدًا. فارتبكت إزاء هذا الاعتراف المفاجئ الذي يتجلّى في عينيه. لم يحدث، ولو لمرّةً واحدة في حياتها، أن نظر إليها رجل بمثل هذا الإعجاب. أحسّت في أعماقها متعة جديدة وغريبة. ولكي تتملّص من شعورها بالحرج أرته باقة الزّهور في يدها. وقالت: «هذه غنيمتي. وقد قطفتها للتّوّ من تلك الأعالي. أليست رائعة؟». ردّ عليها بصوت متوتّر، دون أن يرفع عينيه عنها أو ينظر إلى الزّهور حتّى: «نعم، إنّها حقًا كذلك». ازداد شعورها بالارتباك أمام هذا الإطراء الملحّ. «المعذرة، عليَّ أن أذهب الآن لتناول فطور الصّباح. أخشى أنّني تأخّرتُ كثيرا». مال المهندس قليلا. وتنحّى جانبا. لكنّ كريستين، بحدس المرأة الذي لا يخطئ، أحسّت بنظراته تتبعها. حاولت أن تعتدل، وهي تمشي أمامه، وقد اخترقها فجأةً، ممزوجا برائحة الأزهار البريّة المنعشة، إحساسٌ غير متوقّع بأنّ رجلا مّا يهزّه شغف الإعجاب بها، وأنّه على الأرجح يشتهيها.

عندما دخلت الرّدهة كان شعورها بالإطراء لم يخفت بعد. وفجأة، بدا لها الجوُّ بين الجدران غير قابل للاحتمال. كلُّ شيء هناك

يُثقل عليها ويخنقها. خلعت قبّعتها وسترتها وحزامها؛ كلَّ ما يشدّ ويضغط. ووضعتها جميعًا في خزانة الثّياب؛ كانت ترغب في أن تنزع هذه الملابس عن جلدها المرتجف. نظر إليها العجوزان الجالسان إلى طاولة الإفطار في دهشة، بينما تتّجه نحوهما بخطوات واثقة سريعة. تبدو بشكل مّا أطول قامة، وأكثر صحّة ورشاقة من أمس. وضعت باقة الزّهور الزّرقاء التي ما تزال رطبة متلألئة بالنّدى أمام خالتها. وقالت:

«قُطفتْ من أجلك هذا الصّباح في أعالي... لا أعرف اسم هذا الجبل. لكنّني صعدت إلى قمّته صدفةً. آه..»، تأخذ نفسًا عميقًا، «لقد كان رائعًا».

حدّقت فيها خالتُها بإعجاب شديد: «أيّ شيطان صغير أنت؟! تنهضين من فراشك. فتذهبين مباشرة إلى الجبل، دون تناول الفطور! سيكون مفيدا لنا أن نفعل مثلها. فذلك أفضل حتما من حصص التّدليك. أنطوني، انظر إليها. أكاد لا أتعرّف عليها. انظر ماذا فعل الهواء النّقيّ بخدّيها! إنّك تتوهّجين حمرة يا طفلتي! ولكن أخبرينا من أين أتيتِ بكلّ هذا؟».

أخذت كريستين تروي لها جولتها، دون أن تعي كم كان تناوُلها للطّعام سريعا ونهمُها مفرطا. تختفي الزّبدة والعسل والمربّى بسرعة هائلة. فيومئ الرّجل العجوز إلى النّادل الذي يكتفي بالابتسام، وهو يعيد ملء السّلّة بقطع الكرواسان اللّذيذة. أمّا كريستين، فلم تلاحظ في حماسها الشّديد ذاك تواتر ابتسامات خالتها وزوجها إزاء شهيّتها الكاسحة. إنّها تشعر فقط بهذا التّوهّج اللّطيف في وجنتيها. تأكل. وتتحدّث. وتضحك بمرح، تشجّعها أكثر ملامح الوجهين الطّيّبين.

وفجأة، مدّت ذراعيها على وسعهما، مُتجاهلة تمامًا دهشة الجالسين من حولها، وقالت: «آه، يا خالتي. يبدو لي أنّني عرفتُ أخيرا معنى التّنفّس».

إثر بداية جميلة كهذه، تدفّق النّهارُ في مجرى الفرح، مُدركا ضفافا ساحرة أخرى. عند العاشرة، كانت ما تزال جالسة إلى طاولة الإفطار، وقد أفرغ جوعُها الجبليّ سلّة الخبز تماما. ظهر الجنرال إلكينس في ثيابه الرّياضيّة الأنيقة ليذكّرها بالنّزهة المرتقَبة. ثمّ سار من خلفها باحترام، وهو يصحبها إلى سيّارته الإنجليزيّة الرّائعة الصّقيلة اللاّمعة بطبقة من النيكل، حيث ينتظر السّائق ذو العينين الفاتحتين والذّقن الحليق مثل نبيل حقيقيّ. يفسح الجنرال إلكينس لها المجال لتجلس. يضع غطاء على ركبتيها. ثم يرفعه قليلا. ويجلس إلى جانبها. تُربكها مظاهر الاحترام والتّبجيل هذه. «من أنا ليعاملني بهذه الطّريقة؟ يا إلهي! ماذا لو علم بوظيفتي الحقيرة على مقعد قديم في مكتب البريد!». انطلقت السّيّارة بسرعة، ظلّت تتزايدُ إلى أن طردت عنها هذه الأفكار. شعرت كريستين بفخر طفوليّ، وهي ترى الغرباء في الشّوارع مشدوهين لمرأى السّيّارة التي تظلّ فاخرة حتّى بالنّسبة إلى مكان كهذا. كثيرون منهم يحدّقون فيها بشيء من الحسد، متيقّنين أنّها صاحبة السّيّارة. يعلّق الجنرال إلكينس على المناظر الطّبيعيّة العابرة ببعض الملاحظات السّريعة، كأنّه أستاذ جغرافيا. ويشير بعناية إلى تفاصيل تشي بأنّ لديه اهتماما خاصّا بهذه المسائل. يحفّزه انتباه كريستين الواضح، إذ تميل، وهي تصغي إليه، إلى الأمام حتّى يتاح لها أن ترى بشكل أوضح. يفقد وجهه الذي كان باردًا منذ حين صرامته الإنجليزيّة تدريجيًّا. وترخي

ابتسامتُها اللّطيفة شفتيه الرّقيقتين القاسيتين، كلّما سمع صراخها المتعجّب: «أوه»، «رائع»، أو رآها وهي تلتفت إليه معجبة بملاحظته الجديدة. تبدو ابتسامته ثقيلة بعض الشّيء، وهو يرمق منظرها الجانبّي المليء بالحيويّة، فيما يظلّ متحفّظا أمام حماستها الطّليقة. يزيد السّائق من سرعته. فيبدو الطّريق أمامهم شبيها بسجّاد، تمتطيه السّيّارة الفخمة بنعومة وهدوء. ليس هناك أثر لأدنى قدر من الإجهاد على هذا الهيكل الحديديّ الذي يجتاز المنعطفات بسهولة. أمّا هدير الرّياح من حولها، فقد كان العلامة الوحيدة على سرعة السّيّارة الهائلة. شيئا فشيئا، يُعتم الوادي وتقترب الصّخور من بعضها البعض. وأخيرًا، أوقف السّائق السّيّارة.

«مالويا»، يوضّح الجنرال إلكينس، ويساعد كريستين على الخروج من السّيارة بنفس الطّريقة اللّبقة. يكشف المنظر الممتدّ عن طريق يتعرّج في الأسفل مثل جدول ماء. أمّا الجبل الذي اختفى فجأة في الوادي الكبير، فيبدو كأنّه غير قادر على الوصول إلى الأنهار الجليديّة. «هنا، في الأسفل عند السّهل، تبدأ إيطاليا».

تقول كريستين باندهاش: «إيطاليا؟ أهي قريبة إلى هذا الحدّ؟». تكشف دهشتها عن رغبة ولهفة شديدتين، حتى إنّ إلكينس سألها على الفور:

«ألم تذهبي إلى هناك أبدا؟».

«لا، أبدًا». وقد تلفّظت بهذه الـ«لا» بحماسة شديدة، متّقدة بالرّغبة والحزن، إلى درجة أنّ توجّسا خفيّا اهتزّ داخلها: «أبدًا.. أبدًا لن أراها». وفجأة، انتبهت إلى إجابتها وشعرت بالحرج. كانت

تخشى أن يتمكّن من تخمين أفكارها الباطنيّة، واكتشاف قلقها المتعلّق بحقيقة فقرها. حاولت أن تغيّر مجرى الحديث. فسألته: «أمّا أنت، فتعرفها دون شكّ حضرة الجنرال؟ أليس كذلك؟».

أجابتها ابتسامة جادّة، تكاد تكون كئيبة: «وأيّ مكان في الأرض لم أذهب إليه؟ لقد طفت العالم كلّه ثلاث مرّات. لا تنسي أنّني رجل عجوز».

«لا.. لا»، احتجّت على كلامه، «كيف تقول شيئًا كهذا؟». يبدو ارتباكها صادقًا وعفويّا ومفعمًا بالمشاعر حتّى إنّ وجنتي الرّجل العجوز البالغ من العمر ثمانية وستّين عاما توردتا فجأةً. ربّما لن تتاح له فرصة أخرى ليسمعها، وهي تتحدّث بهذه الحماسة والثّقة. لَان صوته بشكل تلقائيّ. وقال:

«لديك عينان فتيّتان يا آنسة فون بولن. ولهذا ترين كلّ شيء أصغر ممّا هو عليه في الواقع. أرجو أن تكوني على حقّ. فربّما لا أكون عجوزا إلى هذه الدّرجة ومغلّفا بالرّماد مثل شعري. ولكن ما الذي كنت لأمتنع عن تقديمه حتّى أزور إيطاليا للمرّة الأولى؟».

نظر إليها مجدّدًا بهذا الخجل الغامض الذي يشعر به دوما كبار السّنّ أمام النّساء الشّابّات، وهم يسألونهنّ التّغاضي عن شيخوختهم. تأثّرت كريستين بشكل غريب. وفكّرت فجأة في أبيها، كيف كانت تمسّح شعره الأبيض بلطف واحترام. فقد كانت لديه نفس النّظرة الطّيّبة المليئة بالعرفان. قلّت كلمات اللّورد إلكينس. وبدا ساهما مُنطويًا على نفسه. وعند الوصول أمام النّزل، قفز من مكانه برشاقة تكاد تكون مصطنعة، كي يسبق السّائق ويساعدها على الخروج من

السّيّارة. ثمّ قال لها: «يا لها من نزهة رائعة! شكرًا جزيلا لكِ». وقبل أن تحرّك شفتيها حتّى، استرسل قائلا: «إنّها أفضل نزهة قمتُ بها منذ زمن بعيد».

كانت كريستين جالسة إلى طاولة الغداء صحبة خالتها وزوجها، تروي لهما كم كان الجنرال إلكينس لطيفًا وودودًا معها. تومئ إليها خالتُها بتعاطف: «من الجميل أنّك أسعدتِه قليلًا. إنّه سيّء الحظّ. ماتت زوجته، وهي ما تزال يافعة أثناء رحلة استكشافيّة قام بها في التبت. كان يكتب لها كلّ يوم طيلة أربعة أشهر، بعد أن فقد اتّصاله بها. عاد من رحلته لاحقا. فوجد كومة الرّسائل لم تفتح أصلا. أمّا ابنه الوحيد، فقد قُتل برصاص الألمان في سواسون[1]. ولذلك يعيش الجنرال بمفرده في قلعته الكبيرة بنوتنغهام. إنّني أتفهّم تماما سبب رحلاته الكثيرة. فهو يحاول الهروب من هذه الذّكريات. ولكن، احذري أن تكشفي له معرفتك بهذا. لا تتحدّثي معه في هذه المسائل أبدا، وإلاّ سينهار على الفور».

تأثّرت كريستين كثيرا، وهي تستمع إلى خالتها. لم يخطر ببالها أنّ البؤس يمكن أن يخيّم أيضا في هذا العالم الجميل. لقد كانت تحسب أنّ الجميع سعداء هنا مثلها. ودّت لو كان بإمكانها النّهوض ومصافحة ذلك الرّجل العجوز الذي يخفي حداده بكبرياء عظيم. نظرت نحو الجهة المقابلة من قاعة الطّعام، حيث يجلس وحيدًا ومتصلّبا، كمن يلقي تحيّة عسكريّة. فصادف أن نظر باتّجاهها هو الآخر. وحيّاها بانحناءة خفيفة. كانت تشعر بتأثّر شديد إزاء هذه العزلة المقيمة في

(1) سواسون Soissons: بلديّة في إقليم أيسن في بيكاردي بشمال فرنسا.

قاعة كبيرة مشعّة بالأضواء والفخامة. «فعلا، يجب أن أكون لطيفة مع رجل بهذه الطّيبة».

ولكنّ إمكان الاهتمام بشخص واحد في هذا المكان ضئيل جدًّا. فالوقت ينفلتُ مسرعًا، تاركا المجال لمفاجآت كثيرة. وكلّ لحظة عابرة تومض بمسرّات جديدة. تصعدُ خالتها بعد الغداء رفقة زوجها إلى الطّابق العلويّ من أجل قيلولة قصيرة. ترغب كريستين في الجلوس بمفردها على إحدى كراسي الشّرفة، كي تستسلم لمذاق هذا التّجوّل الذي تعيشه. ولكن ما إن أسندت ظهرها وراحت تستعيد صور يومها المكتظّ بالأحداث، وهي تعبر أمامها بتراخ هادئ، حتّى امتدّت إليها يد قويّة، يدُ شريكها في الرّقص ليلة أمس. ذلك المهندس الألمانيّ ذو العينين المشرقتين يقف الآن أمامها. ويقول لها: «هيّا قفي». وسألها أن تنضمّ إلى طاولته. فأصدقاؤه يريدون التّعرّف عليها. تردّدت قليلا، هي التي مازالت تخشى كلّ ما لا تتوقّعه سلفا. ثمّ استجابت له خشية أن تبدو وقحة. تبعته إلى تلك الطّاولة المفعمة بالحيويّة، حيث تجلس حلقة من الشّباب المنهمكين في الحديث. شعرت بالرّعب عندما قدّمها المهندس إليهم باسم الآنسة فون بولن. فقد رأت بوضوح، على ملامحهم وفي طريقة وقوفهم، ذلك الاحترام الجليل الذي أثاره فيهم اسم زوج خالتها الهولنديّ المشرَّف على الطّريقة الألمانيّة. لا شكّ أنّ هذا الاسم يقدح ذكرى أغنى عائلة ألمانيّة، آل كروب بولن. تورّدت كريستين خجلا: «يا إلهي! ماذا يقول؟». لكنّها تفتقد سرعة البديهة كي تصحّح كلماته. من الصّعب أن تكذّب المهندس أمام هؤلاء الغرباء اللّطفاء، فتقول لهم بكلّ بساطة: «لا، ليس صحيحا.

اسمي ليس فون بولن، بل هوفلينر». تسمح لهذه الخدعة العفويّة إذن بأن تنطلي عليهم، فيما تحتفظ هي بشعور بالذّنب وتوتّر يسكن أصابعها المرتعشة بعصبيّة. هؤلاء الشّباب ذوو الوجوه النّضرة وهم فتاة أنيقة من مانهايم[1]، طبيب من فيينا، ابن مدير بنك فرنسّي، أمريكيّ صاخب بعض الشّيء وآخرون لم تفهم أصول أسمائهم قد كرّسوا أنفسهم جميعا للاحتفاء بها. كانوا يطرحون عليها الأسئلة تباعا. وفي الحقيقة، لم يفتح أيّ واحد منهم فمه إلاّ ليتوجّه إليها بكلماته. شعرت كريستين في الدّقائق الأولى بالحرج. وظلّت تجفل بعض الشّيء كلّما ناداها أحدهم باسم «الآنسة فون بولن». ولكنّها استسلمت شيئا فشيئا لتلك الحيويّة التي يكتسبها هؤلاء الشّباب، مستمتعة بهذه الحميميّة التي نشأت بسرعة فيما بينهم. وفي النّهاية، وجدت نفسها تشارك بلا عُقد أو تخوّف في المحادثة. كلّ من يجلس هنا يُعرب عن نوايا حسنة تجاهها. فما الدّاعي إلى الخوف؟ ها إنّ خالتها قادمة من بعيد، يبدو على ملامحها السّرور باندماج قريبتها. غمزتها مبتسمة بمرح عندما سمعت الآخرين ينادونها بالآنسة «فون بولن». وذكّرتها بنزهتهما الموعودة أثناء انهماك زوجها في لعب البوكر. هل ستسلك طريق الأمس، أم إنّ روحا منشرحة واسعة الآفاق كتلك تملك المزيد من المفاجآت؟ على أيّة حال، يبدو الطّريق جديدا بالنّسبة إلى كريستين التي سلكته من قبل بعينين شبه مغمضتين. هاهي تتأمّله الآن نابضًا بالحياة، إذ يبدو مشهد الجبال مزركشا وأكثر هيبة، كأنّها قد نمت وارتفعت قممها، وتلوح المروج أكثر عمقًا

(1) مانهايم Mannheim: ميناء على نهر الراين بألمانيا.

واخضرارًا، والهواء أكثر نقاءً وشفافيّة، والنّاس أكثر جمالًا وحيويّة وودًّا. لقد فَقد كلّ شيء غرابته الموحشة منذ الأمس. تحدّق بزهو في بنايات النّزل الضّخمة، بما أنّها تدرك الآن أنّ النّزل الذي تقيم فيه هو الأجمل والأفخم على الإطلاق. لم تعد تنظر إلى النّساء ذوات السّيقان النّحيلة والعطور الرّائعة بوصفهنّ مخلوقات سماويّة تنتمي إلى طبقة أعلى منها. وحين يطللن من نوافذ السّيّارت، لا تشعر بأيّ شيء من هذا أيضا. فهي قد استقلّت بدورها سيّارة بتلك الفخامة. لم تعد تشعر بكونها نشازة عنهنّ، بل أصبحت تحاكي في المقابل، وبلا وعي منها، طريقة سيرهنّ المريحة الجريئة اللاّمبالية، مشية الشّابّات الرّياضيّات. تتوقّف كريستين وخالتها عند إحدى المقاهي. تندهش الخالة مجدّدًا لشهيّة كريستين المفتوحة. وسواء كانت النّزهة الجبليّة المرهقة سببا في ذلك، أم العواطف الجيّاشة التي تستهلك الطّاقة الجسديّة، فإنّ كريستين تلتهم على أيّة حال ثلاث قطع من الخبز أو أربعا، محشوّة بالشّوكولاطة ومغلّفة بالعسل. تشعر أنّ لديها القدرة على المضيّ في الأكل والحديث والنّظر حولها والتّمتّع بلا توقّف، كأنّها تعوّض بواسطة هذه اللّذّة الغريزيّة الحيوانيّة الجوعَ الهائل المتراكم طيلة سنوات عديدة. وأثناء ذلك، تلاحظ نظرات الرّجال المتفحّصة بإعجاب قادمة من الطّاولات المجاورة. فترفع دون وعي صدرها وتقيم عنقها، وتجيب على هذا الفضول بابتسامة مثيرة من جانبها، كأنّها تقول لهم: «من أنتم يا من أعجبكم؟ ومن أنا أيضا؟».

في السّادسة، وبعد رحلة تسوّق أخرى عادت الخالة وكريستين إلى الفندق. اكتشفت المرأة الكريمة الودودة مجدّدا كلّ الأشياء الصّغيرة

التي تحتاج إليها قريبتها. ربّتت على يدها مسرورة بالفتاة التي انقلبت من الكآبة إلى المرح. وقالت لها:

«يمكنك الآن أن تتكفّلي بمهمّة صعبة من أجلي. هل تملكين الشّجاعة لفعل ذلك؟». ضحكت كريستين. فما الذي يمكن أن يكون صعبًا هنا؟ كلّ شيء في هذا العالم العلويّ المبارك هو مجرّد لعبة. «لا، لا تظنّي أنّها ستكون بهذه السّهولة. عليك أن تدخلي عرين الأسد، وتنتزعي أنطوني بحذر شديد من مباراة البوكر. وكما قلت لك: بحذر رجاء، لأنّه إذا ما دخل عليه أحد هناك وضايقه فإنّه يكشّر عن أنيابه وبحدّة أحيانا. لكن لا خيار لديّ. لا يمكنني أن أتركه هناك. فقد أمره الطّبيب أن يتناول دواءه قبل الطّعام بساعة على الأقلّ. وعلى أيّة حال، تكفيه المقامرة في قاعة خانقة من الرّابعة إلى السّادسة. ستجدينه في الطّابق الأوّل، عدد 122.. إنّها شقّة السّيّد فورنيمان رجل البترول الشّهير. اقرعي الباب. وأخبري أنطوني أنّني أرسلتك إليه، وكفى. سيفهم الأمر. وقد يتذمّر. لا، لن يفعل هذا معك. فهو يحترمك».

تقبل كريستين المهمّة دون حماسة. إذا كان زوج خالتها يحبّ المقامرة، فلماذا يجدر بها أن تكون الشّخص الذي يقاطعه؟ لكنّها لا تجرؤ على مجادلة خالتها. تطرق الباب بهدوء. فيرفع الرّجال جميعا أبصارهم من على الطّاولة المستطيلة الكبيرة، ذات الماسات والأرقام المرسومة على قماشها الأخضر. من الواضح أنّ قدوم الفتيات إلى هذه القاعة نادر جدّا. اندهش زوج خالتها في البداية، إلاّ أنّه ابتسم بعد ذلك ابتسامة عريضة:

«آه، فهمت. لقد أرسلتك كلير إذن! إنّها تستغلّك! أيّها السّادة، أقدّم لكم ابنة أخت زوجتي. أرسلتها زوجتي كي توقفني عن اللّعب. أقترح (وينظر إلى ساعته) أن ألعب عشر دقائق إضافيّة. هل تسمحين لي بذلك؟».

تبتسم كريستين بارتباك، فيقول أنطوني:

«حسنًا، إنّني أتحمّل المسؤوليّة كاملة». وبدا عليه التّباهي بسلطته أمام السّادة: «والآن، لا تتحرّكي. اجلسي هنا بجانبي. واجلبي لي الحظّ. فأنا في حاجة إليه اليوم».

جلست كريستين بخجل خلفه. لم تفهم شيئا ممّا يحدث حولها. أحدهم يمسك بشيء مّا طويل كالمسحاة أو الحدوة. ويوزّع الأوراق بواسطته. هناك شخص آخر يقول شيئًا. فتنزلق أقراص لدنة بيضاء وحمراء وخضراء هنا وهناك. وتجمعها جرّافة بعد ذلك. إنّه أمر مملّ حقّا، هكذا فكّرت كريستين، من المضحك أنّ رجالًا أثرياء بارزين كهؤلاء يمكنهم أن يلعبوا بهذه الأقراص المستديرة. ورغم ذلك، فقد شعرت بالفخر لجلوسها هناك متوارية في ظلّ خالها الضّخم، على مقربة من رجال هم دون شكّ من بين الأقوى والأشدّ نفوذا في العالم. يمكنك أن ترى ذلك في خواتمهم الماسيّة الكبيرة وأقلامهم الذّهبيّة وملامحهم الصّارمة المؤثّرة، بل حتّى في قبضاتهم التي يخمّن المرء أنّها تقرع طاولات الاجتماعات مثل المطارق. تتأمّلهم كريستين باحترام، وهي تحطّ بصرها من واحد إلى آخر، دون أن تبدي أيّ اهتمام باللّعبة التي لا تفهمها، بل إنّها تبدو متفاجئة مشدوهة كلّما التفت إليها الخال وسألها:

«أيجب عليَّ أن آخذها؟».

فهمت كريستين أمرا واحدا، وهو أنّ أحد اللاّعبين مدير بنك، ويراهن بمفرده ضدّ الجميع، مقامرا بمبالغ ضخمة. «كيف يجدر بها أن تجيبه؟». إنّها تفضّل أن تقول «لا.. يا إلهي لا»، حتّى تتملّص من أيّ مسؤوليّة. لكنّها تخشى أن تبدو جبانة. لذا ردّت متلعثمة:

- نعم.

- حسنًا، إنّها مسؤوليّتك إذن. ستكون مناصفة بيننا.

وتبدأ مجدّدًا لعبة الورق الغامضة، دون أن تتوصّل كريستين إلى فهم أيّ شيء منها. لكنّها تحسب أنّ زوج خالتها بصدد الفوز، إذ تصير حركاته أسرع، ويصدر أصواتٍ غريبةً من حلقه، وتظهر عليه علامات المتعة. أخيرًا، يمرّر الحدوة لشخص آخر. ويلتفت إليها قائلًا:

«تهانيّ لك. لقد قمتِ بعمل عظيم. ولنقتسم بنزاهة. هذا هو نصيبك». وسحب قرصين صفراوين وثلاثة حمراء وواحدا أبيض من الكومة التي أمامه. فتناولتها كريستين وهي تضحك، دون أن تفكّر في شيء.

«مازالت أمامنا خمس دقائق أخرى. هيّا، لا مجال للتّعب»، هتف اللاّعب الذي يحتفظ بساعته أمامه.

مرّت الدّقائق الخمس سريعًا. فانتصب الجميع. وشرعوا في جمع أقراصهم واستبدالها بالمال. أمّا كريستين، فظلّت تنتظر في خجل عند الباب، وأقراصها ملقاة على الطّاولة. يناديها زوج خالتها:

«استبدليها بالمال!».

مازالت كريستين لم تفهم بعد. فأخذها إلى أحد الرّجال الذي نظر إليها سريعًا. وصرّح: 255. وقدّم لها ورقتين من فئة مائتي فرانك، وأخرى بخمسين بالإضافة إلى قطعة التّالر[1] الفضّيّة الثّقيلة. حدّقت الشّابّة في الأوراق الماليّة الخضراء على الطاولة، وهي متفاجئة تماما. ثمّ نظرت إلى زوج خالتها باضطراب.

«خذي المال (وأضاف بضيق) هذا هو نصيبك. ودعينا ننصرف الآن. علينا أن نصل في الموعد المحدّد».

أمسكت كريستين بالمبلغ في يديها ذاهلة، وهي ما تزال غير متيقّنة ممّا حدث للتّوّ. عادت إلى غرفتها. وظلّت تتفحّص تلك الأوراق المستطيلة الملوّنة بلون قوس قزح، مرّة تلو الأخرى. 255 فرنك! تجري حساباتها سريعًا. يساوي المبلغ تقريبًا 350 شلن. ولكي تجمع هذا القدر من المال في بلدتها، عليها أن تعمل طيلة أربعة أشهر تقريبًا؛ أي ثلث سنة من الجلوس إلى المكتب، من الثّامنة حتّى الظّهيرة، ومن الثّانية حتّى السّادسة مساء. وها هو المبلغ يسقط في يدها في غضون عشر دقائق! أيمكن أن يكون هذا حقيقيًّا؟ أليس هناك خطأ في الأمر؟ شيء لا يصدّق! ولكن هذه الأوراق الماليّة التي تخشخش بين أصابعها حقيقيّة تماما، وهي ملك لها. هكذا أخبرها زوج خالتها.. هكذا قال لكريستين الجديدة المختلفة التي لا يُمكن تخيّلها. لم تحز أبدًا من قبل على مبلغ كهذا دفعة واحدة. اجتاحتها رعشة غامضة من

(1) التّالر Thaler: عملة جرمانيّة قديمة من الفضّة سكّت سنة 1518.

السّرور والرّهبة في آن واحد، وهي تخفي بقلق ورقّة الأوراق الماليّة في حقيبتها. إذ لم يتمكّن وعيها من إدراك هذا الشّذوذ الغريب. في موطنها، يُحصّل مبلغ كهذا ببطء وصبر شديدين، قطعة معدنيّة تلو أخرى، بينما يحطّ المال هنا في يدها خفيفا سريعا. سرت رعشة أخرى عنيفة في كامل جسدها، كأنّها شاهدة على جريمة. شيء مّا بداخلها يريد أن يفهم هذا الأمر. ولكن لا وقت لذلك. عليها أن ترتدي ثيابها، وتختار واحدة من تلك الفساتين الثّلاثة الفاتنة، ثمّ تنزل الدّرج مسرعة كي تشعر بكونها تحيا على نحو عميق ومكثّف وتلقي بنفسها في دوّامة التّرف المثيرة.

تعمل القوّة الغامضة للتّحوّل داخل الاسم كما يعمل الخاتم في الإصبع. قد يبدو وجودُه عرضيّا تماما في البداية، لا يورّطك في شيء. ولكن قبل أن تدرك سحره العجيب، يتسلّل تحت جلدك، ويصبح جزءًا منك ومن مصيرك إلى الأبد. خلال الأيّام القليلة الأولى، كان سماع الاسم الجديد فون بولن يثير في كريستين انفعالا لذيذا وغريبا. فتقول في نفسها: «إنّكم لا تعرفون من أكون؛ آه لو عرفتم الحقيقة!». تحمله كقناع في حفلة تنكريّة، دون أن تفكّر في الأمر حتّى. لكنّها نسيت سريعا الكذبة العفويّة. وانخدعت بدورها، وقد صارت حقّا الفتاة المفترضة المزعومة. كانت تشعر بالحرج كلّما عاملها الآخرون بوصفها فتاة ثريّة ونبيلة. أمّا الآن بعد مرور أيّام قليلة، فقد أصبح الأمر مثيرا ومن ثمّ صار بديهيّا أصلا. يسألها أحد السّادة عن اسمها، فلا تجد كفايتها في «كريستين» أو «كريستل» كما تُلقّب في البيت. ولذلك تردّ بجرأة: «كريستيان». وبهذا الاسم صار

الجميع يناديها في كلّ الحلقات: كريستيان فون بولن. هكذا تقدّم نفسها، دون أن تواجه أيّ مشكلة في الإقامة في هذا الاسم، تمامًا كما اعتادت الإقامة في الغرفة المزركشة النّاعمة بأثاثها اللاّمع، والنّزل المريح الفخم. لو كان هناك شخص يعرفها فيناديها فجأة بالآنسة هوفلينر، لكانت قد استيقظت كالسّائر في نومه، وسقطت من قمّة حلمها، لشدّة ما تماهى الاسم الجديد مع جسدها، ومن فرط ما صارت مقتنعة تماما أنّها فتاة أخرى، هذه الفتاة الجديدة.

ولكن ألم تصبح حقّا خلال هذه الأيّام القليلة شخصا آخر؟ ألم يرفع هواء جبال الألب ضغط الدّم في عروقها؟ ألم يغيّر هذا الطّعام الوافر اللّذيذ من تركيبة دمها وقوّته؟ تبدو كريستيان فون بولن الآن امرأة مختلفة دون شكّ، أكثر شبابًا وانتعاشًا من موظّفة البريد المدعوّة هوفلينر، تمامًا كما تختلف سندريلا عن بنات أبيها الأخريات.

أضفت الشّمس الجبليّة على وجهها الشّاحب لونا جديدا. وصارت بشرتها أميل إلى السّمرة الخفيفة. انشدّت عضلات عنقها إلى الأعلى. ومنحتها ثيابها الجديدة مشية أخرى أكثر عفويّة. صارت تمشي بسهولة، والثّقة تفيض من خطواتها، وأردافُها تتمايل بطريقة مثيرة. منحها المرح حياةً جديدة مدهشة. وجعلها الرّقص أكثر رشاقة. وكان نشاطها الذي اكتشفته مؤخّرًا وشبابها الذي استعادته فجأةً، يدفعانها إلى اختبار قوّتها مرّة تلو الأخرى: يدقّ القلب بحرارة أكبر. فتحسّ داخل صدرها بهيجان مثير. وتشعر برعشة كهربائيّة في أطراف أصابعها. إنّه سرور جديد غريب وقويّ. لم تعد تطيق الجلوس في مكانها ساكنة. وصار لزامًا عليها أن تخرج في نزهة

بالسّيّارة أو تقوم بأيّ شيء آخر يستجيب لحماسها. إنّها تشبه رياحًا عاصفة تصفّر باستمرار في كلّ الأماكن والجهات. لا تصعد الدّرج خطوة خطوة، بل تجتازه قافزة، كأنّ شعورًا داخليّا بالإثارة يدفعها إلى فعل ذلك. رغبتها في اللّهو والمرح، وحاجتها إلى التّعبير عن عاطفتها وامتنانها قويّتان جدّا، حتّى إنّ يديها تمتدّان دوما لتمسكا بأيّ شيء أو شخص. أحيانا، تضطرّ إلى أن تمدّ ذراعيها وتمعن النّظر في الأفق حتّى تمنع نفسها من الضّحك أو الصّراخ. تلفّها هذه الطّاقة الفتيّة. فتجعل أيّ شخص يقترب منها يغرق على الفور في دوّامة مزاجها. تصير المحادثات أكثر لطفًا حين تشارك فيها. ويلاحظ الجميع، بما في ذلك خالتها وزوجها، حماستها المستهترة المشوبة بالبهجة.

اندفعت إلى ردهة النّزل كحجر قذفته يدٌ عبر النّافذة. فدوّم الباب الدّوّار من خلفها. ربّتت على كتف الموظّف بقفّازها، وهي تجذب كمّها قليلًا. خلعت قبّعتها وسترتها حتّى لا تشعر بضيق أو قيد. وراحت تتزيّن مسترخية أمام المرآة، وتعدّل فستانها. ثمّ ألقت جدائل شعرها خلف كتفيها. وانتهى الأمر؛ اتّجهت مباشرة، بوجه ورّدته الرّيح، نحو إحدى الطّاولات لتروي شيئا مّا -صار الجميع يعرفها الآن- وهي التي تملك دوما شيئا جديرا بأن يُروى، مغامرة جديدة تكون رائعة وعجيبة ولا يمكن وصفها حتّى. كلّ شيء يملؤها بحماس متوهّج، يدفع من يلتقي بها إلى أن يشارك الآخرين معرفتها. إذ لا يمكن تحمّل ذلك إلاّ بتمريره إلى شخص آخر. لا تستطيع أن ترى كلبًا دون أن تمسّح على رأسه، ولا طفلا دون أن تأخذه في حضنها وتقبّل وجنتيه. تقف لتتحدّث مع كلّ خادمة أو نادل يعترضها. وإذا شعر شخص

بالغضب أو السّأم، فإنّها سرعان ما تبدّل مزاجه بمزاحها البريء. تلتقط كلّ ما يقع بصرها عليه، فستانا كان أم خاتما أم آلة تصوير أم علبة سجائر. فتحدّق فيه بحماسة. تضحكها أيّ نكتة. ويفتنها أيّ طعام تتناوله. وتحبّ كل من تلتقيه. وتجد كلّ محادثة تنخرط فيها ممتعة جدّا. كلّ شيء رائع في هذا العالم الفريد السّامي. لا أحد بإمكانه أن يقاوم ترحيبها الشّغوف أو قدرتها على نقل عدواه إلى كلّ من يحيط بها. وحتّى المستشارة العبوسة تنشرح ملامحها من خلف نظّارتيها، وهي جالسة على مقعدها الوثير، كلّما لمحتها. يحيّيها موظّف الاستقبال بودّ مميّز، ويقوم النُّدُل الذين يتعاملون بشكل رسميّ جدّا بوضع مقعدها في المكان المناسب بلطف شديد. وحتّى العجائز الصّارمون يبتهجون بفرحها وحماسها. يرفعون رؤوسهم عندما تقوم بعمل ساذج أو تتدفّق عاطفتها القويّة التي تتجلّى للآخرين أحيانا. فيعرضون لها وجوهًا مبتسمة مرحّبة. وفي غضون ثلاثة أيّام تقريبا، أصبح الجميع، بداية من الجنرال إلكينس وحتّى أصغر خادم في النّزل- مقتنعين تماما أنّ الآنسة فون بولن فتاة ساحرة وفاتنة. تشعر هي من جهتها بنظرات إعجابهم. فيغمرها السّرور لهذه الشّهرة التي تكرّس وجودها في هذا المكان وتمنحها الحقّ فيه. وبفضل هذا التّعاطف الجماعيّ، كانت سعادة كريستين وهناؤها يتعاظمان يوما بعد آخر.

أمّا أكثر من في الفندق تعبيرًا عن اهتمامه الشّخصيّ بها، بل والميل العاطفيّ إليها، فهو أقلّهم توقّعا، الجنرال إلكينس. يُحدث الخوف من فارق السّنّ الكبير عند هذا الرّجل الذي تجاوز الخمسين منذ سنوات طويلة، شعورا بانعدام الثّقة. ورغم ذلك، فقد ظلّ يبحث دوما عن

فرص مواتية ليتقرّب منها. وحتّى الخالة نفسها قد لاحظت أنّه أصبح يرتدي ثيابًا أكثر جمالًا وشبابًا، ويختار ربطات عنق ذات ألوان أكثر بهاءً. قد تكون مخطئة. لكنّها تعتقد أنّ الشّيب في صدغيه قد اختفى أو بهُت لونه، وبطرق غير طبيعيّة على الأرجح. يعثر على كلّ الذّرائع الممكنة حتّى يجد نفسه عند طاولتها بشكل متكرّر وملحوظ. وفي كلّ يوم، يرسل الزّهور إلى غرفتي كريستين وخالتها (حتّى لا يبدو الأمر واضحًا). يهدي كريستين كذلك كتبا ألمانيّة تختصّ بتسلّق ماترهورن(1) فقط لأنّها سألت ذات مرّة عن أوّل شخص تحدّى ذلك الجبل وحاول تسلقه. كما أحضر لها يوما كتبًا عن رحلة سفين هيدين(2) الاستكشافيّة لجبال التّبت. ذات صباح، حينما أجبر المطر الغزير الجميع على البقاء في الدّاخل، مكث الجنرال مع كريستين في إحدى زوايا الرّدهة، يعرضُ لها صورًا عديدة عن منزله وحديقته وكلابه. إنّه يعيش في قصر كبير مشيّد على الأرجح خلال العصر النّورمانديّ. يتسلّق اللّبلاب أبراجه المستديرة الحربيّة. فيبدو أشبه بحصن. تكشفُ المشاهد الدّاخليّة قاعات كبيرة ذات مداخن من الطّراز القديم، وصورا عائليّة مسوّرة ببراويز، ونماذج لسفن صغيرة، وخرائط كثيرة. تقول كريستين في نفسها: «كم موحشٌ وكئيب أن يعيش المرء بمفرده طيلة الشّتاء في مكان كهذا. وإذ يحدس ما تفكّر فيه، يجيبها، مشيرا إلى زوج من كلاب الصّيد في إحدى الصّور: «لو لم يكن هذان الكلبان برفقتي

---

(1) ماترهورن Matterhorn: أحد جبال الألب بسويسرا، وهو ذو قمّة هرميّة الشّكل. ويقع على الحدود الإيطاليّة.

(2) سفين هيدين Sven Hedin (1865 - 1952): مستكشف سويديّ تسلّق جبال التبت.

لكنت وحيدًا تمامًا». هذه هي أوّل مرّة يلمّح فيها إلى موت زوجته وابنه. تسري رعشة مفاجئة في جسد كريستين، بينما يتجنّب إلكينس النّظر في عينيها المفعمتين بالخجل، ويعود على الفور إلى صوره. «لماذا يخبرني بكلّ هذه المسائل؟ ولماذا أيضا يسألني بصوت مرتبك ما إذا كنت سأشعر بالرّاحة في منزل إنجليزي كهذا؟ أيحاول أن يخبرني أنّ رجلًا غنيّا ومرموقًا مثله يمكن أن...». إنّها لا تجرؤ حتّى على إكمال الفكرة! إذ لا خبرة لديها لتدرك أنّ هذا السّيد النّبيل، هذا الجنرال الذي يبدو بعيد المنال، نائيا عن عالمها، ينتظر أبسط إشارة منها، بل مجرّد كلمة محفّزة. وهو يشعر بهذا الجبن الذي يحسّ به رجل عجوز، لم يتيقّن بعد من مغادرته لحلبة السّباق. ينهشه الخوف من أن يُقدم على مغازلتها ولو تلميحا. فيحوّل نفسه إلى مجرّد أحمق خرِف. تخاف كريستين أن تصدّق هذا. فكيف يمكنها أن تتيقّن من الأمر إذن؟ إنّ تلميحاته تسعدها وتضايقها في الآن ذاته. تشعر أنّها علامات عطف مميّز. لكنّها لا تجرؤ على تعليق آمال كبيرة عليها، بينما يجاهد هو كي يجد تفسيرا لارتباكها المبهم. تتأثّر كريستين بعد كلّ لقاء يجمعهما. ويشبّه إليها أحيانًا أنّها ترى اعترافا عاطفيّا صريحا في نظراته السّرّية الخجولة. ولكنّ طريقته الرّسميّة الفظّة تفسد الأمور ثانيةً، إذ يتراجع الرّجل العجوز فجأةً دون أن تدرك ذلك. يحتاج الأمر حقيقةً إلى التّفكير العميق. «ماذا يريد هذا الرّجل منّي؟ أيكون ذلك ممكنا؟». لقد كانت في حاجة إلى تفحّص المسألة بعمق ووضوح أكبر.

ولكن كيف يمكن التّفكير هنا؟ ومتى يكون ذلك ممكنا؟ ليس لديها وقت حتّى لتختلي بنفسها. فما أن تظهر في الرّدهة حتى يلتقطها

أحد الرّفاق المرحين، فيأخذها لعمل شيء مّا: نزهة بالسّيّارة، أو جلسة تصوير، أو لعبة يمارسانها، أو تبادل حديث، أو المشاركة في الرّقص. هناك دوما صيحة ترحيب، يليها الهرج والمرج. ويستمرّ مهرجان الأنشطة الكسولة هذا طيلة اليوم. لا نهاية للألعاب والتّدخين والطّعام والضّحك. إنّها تسقط في الدّوامة دون أن تُبدي مقاومة كلّما ناداها أحد الرّفاق: الآنسة فون بولن. فكيف يمكنها أن ترفض؟ ولماذا تفعل ذلك أصلًا؟ هم جميعًا لطيفون ودودون. وهي لم تتعرّف على شباب كهؤلاء من قبل أبدًا؛ شباب صاخبون لا يمسّهم الهمّ والأسى. يرتدون باستمرار ثيابًا أنيقة وبطرق مختلفة. يمرحون بلا انقطاع. ويحملون دوما أموالا كثيرة لينفقوها ويخوضوا تجارب جديدة. ما إن تجلس معهم حتّى يعلو صوت الغراموفون بالموسيقى الرّاقصة، أو تقفز مجموعة منهم إلى السّيّارة. يقطعون ستّين أو ثمانين أو حتّى مائة كيلومتر بسرعة فائقة. فإن لم يكن ذلك، تجلس بكسل في البار. تضع ساقا على أخرى. وترتشف شرابًا باردًا. وتدخّن سيجارة، وهي تصغي إلى جميع القصص المسلّية المبهجة. من السّهل جدًّا أن تعتاد على كلّ هذا. تشعر براحة عظيمة، وهي تستنشق هذا الهواء المنعش برئتين تبدوان جديدتين تماما. أحيانا، تحسّ أنّ شيئًا مّا يغلي في دمها، خاصّة في المساء عندما تنهمك في الرّقص، ويلتصق بها أحد الشّباب الجذّابين في الظّلام. تحجبُ هذه الرّفقة كذلك نوعا من التّودّد والإعجاب لدى هؤلاء الشّباب. لكنّه إعجاب مختلف، أكثر انفتاحًا وجرأة وحسيّة. وقد يحدث أن يخيف هذا التّوق العاطفيّ الغريب كريستين قليلة الخبرة، عندما تداعبُ يدٌ قويّة في ظلام السّيّارة

فخذها، أو حين تتمشّى مع أحدهم مُشبكة ذراعها بذراعه فتشعر فجأة بلمسة شبقة رقيقة. في المقابل، تتساهل الفتاتان الأمريكية والألمانيّة القادمة من مانهايم مع هذه السّلوكات. فتكتفيان بصفعة وديّة خفيفة للأصابع الجريئة. لماذا هذا الادّعاء؟ يمكن أن تلاحظ بسهولة كيف تزداد جرأة المهندس الألمانيّ في كلّ مرّة أو كيف يحاول الفتى الأمريكيّ أن يسحبها برفق أثناء النّزهة إلى جهة الغابة. هي لا تستجيب لهما. ولكن تشعر بشيء من الفخر أنّها مرغوب فيها، وأنّ جسدها البكر الدّافئ تحت فستانها قد صار شيئا يتلهّف الرّجال لاستنشاق رائحته ومداعبته وامتلاكه. تتشرّب هذا الشّعور عميقا في جسدها في شكل نشوة ناعمة أو ثمرة روائح نادرة مربكة. ويجعلها هذا الانجذاب المستمرّ من قبل هؤلاء الغرباء الوسيمين ترتجفُ، كمن يغادر حلما للتّوّ، وتسأل نفسها: «من أنا؟ من أنا حقّا؟».

«من أنا؟ وماذا يرون فيّ جميعًا؟». تستعيدُ الفتاة اليافعة هذا السّؤال بدهشة تتزايد كلّ يوم. وفي كلّ يوم جديد، تستقبل المزيد من المغازلة المختلفة. في اللّحظة التي تستيقظ فيها، تدخل الخادمة غرفتها حاملة الزّهور التي أرسلها السّيّد إلكينس. منحتها خالتها أمسِ حقيبة يد جلديّة وساعة يد ذهبيّة صغيرة جذّابة. وقامت عائلة ترينكفيتس الوافدة من سيليسيا[1] بدعوتها لزيارة ضيعتهم. دسّ الفتى الأمريكيّ في حقيبتها الولاّعة الذّهبية التي كانت قد أعجبتها. أمّا فتاة مانهايم، فهي ألطف من شقيقتها. تحضر لها الشّوكولاطة إلى غرفتها مساء.

(1) سيليسيا Silesia: منطقة بشرق أوروبا تمتدّ على ضفتّي نهر أودر في الجنوب الغربيّ لبولندا اليوم.

ويتبادلان الحديث حتّى منتصف اللّيل. يكاد المهندسُ أن يقتصر على الرّقص معها. وفي كلّ يوم يزداد الهرج من حولها، ويكون الجميع أكثر لطفا وحفاوة. ليس عليها سوى أن تظهر في ردهة النّزل حتّى يدعوها أحدهم إلى نزهة بالسّيّارة، أو إلى الرّقص أو إلى أيّ لعبة أو متعة أخرى. إنّها لا تجلس بمفردها ولو للحظة واحدة. ولا تشعر بالملل مطلقا. تسأل نفسها باستمرار وفي دهشة كبيرة: «من أنا إذن؟ طيلة سنوات كثيرة، كان النّاس يمرّون من أمامي في الشّارع، دون أن يلمحوا وجودي حتّى! ولأعوام طويلة كنت أعيشُ في قريتي دون أن يمنحني أحد شيئًا أو يفكّر في ذلك أصلا. هل يكون الفقر المنهِكُ بغشاوته المغلقة هو السّبب؟ أم إنّ هناك شيئا مّا كان محتجبا في داخلي وقد تجلّى فجأة للنّاس؟ هل من المعقول أنّني أجمل ممّا كنتُ أعتقد وأكثر أناقة وجاذبيّة؟ من أنا؟ من أنا في الحقيقة؟».

هكذا تحدّث نفسها خلال اللّحظات الوجيزة التي تكون فيها بمفردها. إذ يحدث شيء غريب لا تستطيع فهمه. يتولّد الشّكّ من قلب الطّمأنينة. لقد شعرت خلال الأيّام القليلة الأولى بالذّهول والدّهشة من أنّ كلّ هؤلاء الغرباء المرموقين ذوي الأناقة والكياسة قد قبلوها، وكأنّها واحدة منهم. أمّا الآن، وقد لاحظت أنّها تعجبُ الرّجال بشكل خاصّ وتثير فضولهم وانتباههم ورغبتهم، أكثر من تلك الأمريكيّة الشّقراء الأنيقة بشكل ساحر، وأكثر من الألمانيّة الصّغيرة السّعيدة والذّكيّة، فقد شعرت مجدّدا بالضّيق والقلق. «ماذا يريدون منّي؟»، تسأل نفسها، وقد ازداد ارتباكها لحضورهم. غريب جدّا ما يحدث مع هؤلاء الشّباب! في قريتها، لم تكن تعير أيّ

انتباه إلى الرّجال. ولم تشعر أبدًا بالضّيق في حضور أولئك الرّيفيين البلداء، الذين تكتفي البيرة بتحريك سواكنهم أحيانا، ليلقوا بعض النّكات البذيئة أو يقوموا بحركات غير ملائمة. لم يسبق لها أن مرّت فكرة شهوانيّة برأسها. وحين يضجّ أحدهم في الحانة ويُحدث جلبة أو يغازلها شخص في العمل، تكتفي هي بالتّقزّز، كما لو كانت إزاء حيوانات. ولكن هؤلاء الشّباب هنا، بأكفّهم النّاعمة وذقونهم الحليقة، اللّبقون جدّا إلى درجة أنّ أبسط كلماتهم تبدو جميلة ومسلّية، هم من يستحقّون أن يداعبوا جسدها، ولو بشكل عابر. إنّهم يثيرونها حقّا ويضايقونها بطريقة غامضة مختلفة في الآن ذاته.

أحيانا، حين يفاجئها صوتُ ضحكتها غريبا ومختلفا، تتنحّى جانبا في خوف. وينشأ داخلها قلق غريب إزاء هذه العلاقات الودّيّة في ظاهرها الخطيرة في الحقيقة، خاصّة مع شخص كالمهندس، الذي يغازلها بشكل صريح وملحّ. فتستجيب له بغثيان خفيف ومثير.

لحسن حظّها أنّها نادرا ما تكون معه بمفردها. ففي أغلب الأحيان تصاحبها سيّدتان أو ثلاث، يَمنحْنها شعورا بالطّمأنينة. وقد تسترق النّظر إليهنّ، عندما تشعر بالضّيق، لترى ما إذا كنّ يجدن الدّفاع عن أنفسهنّ. وقد تعلّمت بشكل عفويّ مع مرور الوقت جميع حيلهنّ الصّغيرة، كالتّظاهر بالانزعاج أو التّجاهل الوقح لبعض المحاولات الجريئة، وخاصّة كيف يضعن حدّا للأمر حين ينقلب إلى الجدّ. وحتّى حين يغيب الرّجال، فإنّ الجوّ يظلّ على حاله، خصوصا عندما تتحدّث مع صغيرة مانهايم التي تخوض دوما، وبصراحة تفاجئ كريستين، في مسائل صادمة جدّا. إنّها طالبة كيمياء ذكيّة ومشاكسة. لكنّها قادرة على

تمالك نفسها في اللّحظة الأخيرة. تستطيع بعينيها السّوداوين الثّاقبتين أن تلاحظ كلّ ما يحدث من حولها. وبفضلها، تمكّنت كريستين من معرفة خبايا ما يحدث في النّزل. علمت أنّ الصّغيرة المغلّفة بالمكياج وذات الشّعر الملوّن ليست ابنة موظّف البنك كما يدّعي ذلك، وإنّما عشيقته. صحيح أنّهما يحجزان غرفتين منفصلتين. ولكنّهما في اللّيل... كريستين نفسها قد سمعت ذلك من الغرفة المجاورة. أدركت أيضا أنّ الأمريكيّة قد خاضت مغامرة على السّفينة مع الممثّل الألمانيّ، وأنّ ثلاث أمريكيّات على متنها قد تراهنّ على من تفوز به، وأنّ الرّائد الألمانيّ شاذّ جنسيّا. لقد أخبر فتى المصعد خادمة الغرف بكلّ ذلك. هكذا تحدّثها الألمانيّة ذات التّسع عشرة سنة، كما لو أنّها تصف لها أشياء عاديّة تماما. ليس هناك ولو شبح انزعاج في نبرة صوتها الطّليق، وهي تسرد لها التّقرير المفصّل لفضائح النّزل. أمّا كريستين التي كانت تخشى أن تخونها دهشتُها وقلّة خبرتها، فقد كانت تصغي لها بفضول، وهي تلقي من حين إلى آخر على الفتاة الوقحة نظرة متفحّصة يشوبها الإعجاب والرّهبة. لا بدّ أنّ هذا الجسد النّحيل قد عرف تجارب كثيرة ما تزال مجهولة بالنّسبة إليها، وإلاّ لما كانت تتحدّث في هذه المسائل بهذه الأريحيّة، كأنّها أشياء لا مفرّ منها. ورغما عن كريستين، كان التّفكير في كلّ هذا يربكها تماما. صار لديها انطباع بأنّ آلاف الألياف الرّقيقة تجري تحت جلدها لتركّز الحرارة هناك. ولذلك تحسّ أحيانا بما يشبه الحرقة داخلها. وقد تشعر أثناء رقصة بالغثيان. «ما الذي يحدث لي؟». تتساءل، وقد بدأت رغبة مّا في النّموّ داخلها، رغبة في أن تعرف نفسها، وأن تكتشف ذاتها بعد أن اكتشفت هذا العالم الجديد.

ومجدّدا، مرّت ثلاثة أيّام وأربعة وأسبوع صاخب بأكمله مثلما تهبّ الرّيح. يجلس الخال أنطوني في قاعة الطّعام مرتديا بدلة السّهرة برفقة الخالة، منتظرين قدوم العشاء. يتذمّر فجأة: «لقد سئمت هذا التّأخير المتكرّر. لو حدث ذلك مرّة واحدة، لقلتُ أوكي.. لا بأس. قد يحدث هذا لأيّ شخص. لكن أن تتسكّع طيلة اليوم في كلّ مكان تاركة إيّانا عاكفين هنا، فهذه فظاظة غير مقبولة. إلى الجحيم... من تحسب نفسها؟». تحاول كلير أن تهدّئ من روعه، قائلة: «يا إلهي، ماذا تريد تحديدا؟ الجميع يتصرّف هكذا في أيّامنا هذه. ولا شيء نفعله لنغيّر جيل ما بعد الحرب هذا. لا شيء يملأ أعينهم سوى شبابهم ومتعتهم».

لكنّ أنطوني ألقى شوكته من يده في غضب. وأجابها: «لتذهب إلى الجحيم بمتعتها الأبديّة. أنا أيضا كنت شابّا يوما مّا. واقترفت حماقات كثيرة. لكنّني لم أسمح لنفسي يوما بأن أكون فظّا قليل الأدب. وحتّى لو حدث ذلك، لما غفر لي أحد في تلك الأيّام. ينبغي على الآنسة ابنة أختك أن تكون دقيقة في مواعيدها، خلال السّاعتين اللّتين تتفضّل فيهما بأن تشرّفنا برفقتها. وهناك أيضا مسألة أخرى يجب عليها أن تلتزم بها قطعا. أخبريها أن تكفّ عن إحضار هذه الفرقة من الأولاد والبنات إلى طاولتنا كلّ ليلة. ففيم يعنيني أنا هذا الألمانيّ ذو عنق الثّور ورأس السّجين، بصوته الذي يخرج مزعجا من حلقه كأنّه الإمبراطور غييّوم، ومرشّح الخدمة المدنيّة اليهوديُّ بملاحظاته السّاخرة، وهذه الطّاعون الصّغير القادم من مانهايم، والتي يبدو عليها أنّها قد خرجت للتّو من الحانة؟ لا أستطيع حتّى أن أقرأ صحيفتي في حضورهم. ليسوا

سوى كتلة من الصّخب والثّرثرة والضّجيج المستمرّ. لقد تجاوزتُ السّنّ التي تسمح لي بأن أخالط هؤلاء الصّعاليك. وعلى كلّ حال، إنّني أطلب اللّيلة أن أُترك في هدوء وسلام. وإذا جلس أيّ واحد من هذه المجموعة المزعجة إلى طاولتي، فإنّني سأقلب الكؤوس على رؤوسهم». صمتت كلير، دون أن تجادله في شيء. فهي تدرك جيّدا أنّ هذا الأمر غير منصوح به عندما تنتفخ الأوردة الزّرقاء في جبينه. ولكنّ ذلك ما يضايقها تحديدا، أن تسلّم له بأنّه على حقّ، كانت هي نفسها من دفعت بكريستين في البداية إلى هذه الدّوّامة. إذ كان يمتعها أن تتأمّلها، وهي تتحوّل بسرعة وبراعة إلى امرأة أنيقة. وكان ذلك يستدعي في نفسها ذكرى غائمة لنشوتها، حين لبست أوّل مرّة فستانا جميلا، وذهبت رفقة رئيسها في العمل للغداء في نزل ساشير. ولكنّها تلاحظ الآن حقّا أنّ كريستين قد أفلتت خلال اليومين الأخيرين كلّ قيد ممكن. ففي غمرة ابتهاجها، لا تحيا إلاّ لنفسها وهنائها المتوهّج. ولا تلاحظ مثلا، أثناء السّهرة، أنّ رأس الخال العجوز تتداعى على صدره من النّعاس. لا تنتبه إلى كلمات خالتها وهي تحثّها على القدوم: «تعالي. لقد تأخّر الوقت». إذ لا تفيق من نشوتها إلاّ لدقيقة، قائلة: «نعم، حتما سأفعل خالتي. لقد وعدتُ بهذه الرّقصة... هذه فحسب». ولكنّها في اللّحظة التي تلي ذلك، تنسى كلّ شيء، وتغفل عن الخال الذي يسأم انتظارها، ويقوم عن طاولته دون أن يرجو لها ليلة سعيدة. لم تكن تعتقد أصلا أنّ بإمكانه أن يكون غاضبا ومغتاظا بسببها. لم تكن تحسب أنّ ذلك ممكن في هذا العالم السّحريّ. لا تستطيع أن تتخيّل سوى أنّ الجميع هنا يشتعلون سعادةً ويتألّقون بحيويّة محمومة وفرح

ملتهب، بينما تفقد هي توازنها في هذه الدّوّامة. لقد أدركت الثّامنة والعشرين، وهي تكتشف ذاتها للمرّة الأولى. وباستثناء ذاتها، جعلها هذا الاكتشاف المسكرُ تنسى العالم كلّه.

ها هي تندفع الآن في قاعة الطّعام مثل الخُذروف. تخلع قفّازها، وهي تمشي بلا تكلّف. (من يمكنه أن يترصّد أيّ خطإ هنا؟). تُلقي أثناء عبورها تحيّة مرحة على الأمريكيّيْن. (لقد تعلّمت أشياء كثيرة). تتّجه نحو الخالة. فتمسكها برقّة من الخلف. وتقبّلها على وجنتها. ثمّ تأتي المفاجأة الصّغيرة: «آه، لقد انتظرتماني طويلا... آسفة حقّا. قلت للماكريْن بيرسي وإدوين إنّ خردتكما الفورد لن تبلغ النّزل خلال أربعين دقيقة. من الأفضل لكما أن تبدآ في دفعها. لكنّهما لم يصدّقاني... نعم أيّها النّادل، يمكنك أن تقدّم لي الطّبقين الأوّلين على الفور... حتّى ألحق بكما... نعم، المهندس هو الذي كان يقود السّيّارة. وهو يجيد ذلك حقّا. لكنّني لاحظتُ سريعا أنّ الخردة القديمة لا تتجاوز الثّمانين في السّاعة. أمّا الرّولز رويس التي يملكها السّيّد إلكينس، فهي مختلفة عنها تماما. في ما تبقّى، ولكي أكون صادقة، لقد أردتُ أن أجرّب القيادة أيضا. طبعا، كان إدوين إلى جانبي... اتّضح أنّ الأمر سهل. فهو ليس سحرا في النّهاية... ستكون يا خالي أوّل من أصطحبه في نزهة بالسّيّارة. لن تشعر بالخوف. أليس كذلك؟ ولكن ما بك يا خالي؟ أتكون غاضبا منّي لأنّني وصلت متأخّرة قليلا؟ أقسم لك أنّه ليس خطئي... قلت لهما منذ حين إنّكما لن تصلا مطلقا بعد أربعين دقيقة. يجدر بالمرء ألاّ يثق إلاّ في نفسه... هذا الباتيه ممتاز جدّا... كم أشعر بالعطش! أوه، لا يمكن لا يمكن تخيّل المتعة التي تمنحها لي

رفقتكما. غدا مساء، سيذهب الجماعة إلى لانذِكْ. لكنّني طلبت منهم ألاّ يُدرجوني في خطّتهم هذه. إذ يجدر بي أن أذهب للتّنزّه معكما، ولو لمرّ ة واحدة. حقّا، لا يملك المرء هنا وقتا لذاته».

كانت كلماتها هذه تئزُّ وتفرقعُ، مثل نار توقدها أغصان جافّة. ولكنّها بعد لحظات وجيزة، إذ توقّفت منهكةً، لاحظت أنّ أحاديثها الشّغوفة تصطدمُ بصمت حادّ وبارد. يثبّتُ الخال بصره في سلّة الفواكه، كأنّ البرتقال يهمّه أكثر من كلّ هذه الثّرثرة. وتتلهّى الخالة بتحريك الملاعق والفُرش في توتّر. ولم يتكلّم أحد. «لستَ غاضبا منّي يا خالي؟ أليس كذلك؟»، سألت كريستين قلقةً. «لا»، ردّ عابسا. «ولكن عجّلي بالانتهاء».

انبثقت الإجابة في جفاء حادّ، إلى درجة أنّ كلير شعرت بالحرج ونظرت على الفور إلى كريستين المرتبكة مثل طفلة مقرَّعة. لم تجرؤ على أن ترفع عينيها. وضعت نصف كفّها على صحنها، بينما ارتعشت زاوية شفتيها بتوتّر. تدخّلت الخالة بسرعة لتغيّر مجرى الحديث. فالتفتت إلى كريستين. وسألتها: «كيف حال ماري؟ هل وصلتك أخبار من البيت؟ منذ فترة، وأنا أهمّ بأن أسألك عن ذلك». ولكنّ كريستين شحُبت أكثر من قبل. وصارت ترتعشُ ملء جسدها. يا إلهي، لم تفكّر في الأمر بعد. ها قد مرّ أسبوع على وصولها. ولم تلاحظ أنّها لم تتلقّ أيّ رسالة. بل إنّها قد فكّرت فيه في أحيان نادرة. وتعجّبت من ذلك. وقرّرت أن تكتب هي إلى أمّها. لكنّها كانت تنغمسُ في كلّ مرّة في أمر جديد يُلهيها. ها إنّ إهمالها يسدّد لها طعنة في القلب. «لا أملك تفسيرا للأمر. لم أتلقّ سطرا واحدا من البيت. أيعقل أنّ

الرّسائل قد ضاعت؟». حان دور الخالة لتكشف عن ملامح ساخرة وصارمة. «الأمر غريب في الحقيقة... غريب جدّا. قد يعود ذلك ربّما إلى أنّ الجميع يعرفك هنا بوصفك الآنسة فون بولن، وأنّ الرّسائل المبعوثة إلى هوفلنر بقيت عند موظّف الاستقبال. هل سألت عن ذلك؟». «لا»، ردّت كريستين، وهي تزفر نفسا ثقيلا. لقد تذكّرت أنّها أرادت أن تستعلم عن الأمر، مرّتين أو ثلاثا. لكنّ طارئا مّا شغلها عن الأمر. وثبت فجأة، وهي تقول: «المعذرة، سأتثبّت من ذلك الآن».

أخفض أنطوني صحيفته، وهو يتابعها بعينيه منزعجا. لقد سمع كلّ شيء. «أيعجبك هذا؟ أمّها مريضة جدّا. لقد حدّثتك بنفسها عن حالتها. ومع ذلك، فهي لا تسأل عن أخبارها. بل تكتفي بالتّسكّع طيلة اليوم. أترين كم كنت على حقّ؟». تنهّدت الخالة. «الأمر لا يصدّق حقّا، إذ لم يساورها القلق طيلة ثمانية أيّام ولو لمرّة واحدة، رغم أنّها تعرفُ جيّدا حالة أمّها. لقد كانت تبكي بحرقة، وهي تصف لي يأسها وحزنها لتركها بمفردها. عجيب هذا التّحوّل الذي حدث لها».

عادت كريستين بعد لحظات، وقد تبدّلت ملامحها. مشت بخطوات مرتبكة خجولة. ثمّ انكمشت في مقعدها الفاخر، كأنّها تتأهّب لتفادي صفعة تستحقّها. فعلا، كانت هناك ثلاث رسائل وبطاقتان تنتظرانها في مكتب الاستقبال. لقد كان فوكستالر يكتب لها كلّ يوم تقريبا. فيسرد لها الأخبار المفصّلة بعناية فائقة، فيما اكتفت هي بإرسال بطاقة يتيمة لبلدة شلاريغنا، وقد خربشت عليها كلمات سريعة بقلم الرّصاص. شعرت بتأنيب الضّمير، وهي تفكّر في الأمر.

فهي لم تفتح ولو مرّة واحدة الخريطة التي رسمها من أجلها وبحبّ كبير صديقها الطّيّب الوفيّ. بل إنّها لم تخرج حتّى هديّته الصّغيرة من حقيبتها. ولأنّها كانت تريد أن تنسى ذاتها القديمة، أناها الهوفلنريّة، فقد نسيت تماما كلّ ما خلّفته وراءها: الأمّ والأخت والصّديق. تأمّلت الخالة كريستين، وهي تمسك بالرّسائل بيدين مرتعشتين دون أن تفتحها. ثمّ قالت: «حسنا، ألن تقرئيها لنا؟». فأجابتها الفتاة في همس: «نعم... نعم، سأفعل حالا». فتحت المظاريف في طاعة. وراحت تتفحّص الرّسائل بسرعة، دون أن تتوقّف عند التّواريخ. ومن خلال الحروف الواضحة التي خطّها فوكستالر بعناية، قرأت: «اليوم أحسن حالا... حمدا للرّبّ». وفي رسالة أخرى: «بما أنّني قد وعدتك سلفا، آنستي العزيزة، أن أنقل لك الأخبار المفصّلة عن وضع السّيّدة أمّك الصّحّيّ، فإنّني مجبر للأسف على أن أقول لك إنّ يوم أمس كان يوما عصيبا بالنّسبة إلينا. لقد تسبّبت مشاعر الحزن المطّردةُ التي تلت رحيلك في اضطرابات مقلقة... (تصفّحت بسرعة ما يلي) هدّأتها الحقنة قليلا. ونأمل أن يتحسّن وضعها، رغم أنّ خطر حدوث أزمة أخرى ليس مُستبعَدا تماما». لاحظت الخالة اضطراب كريستين. فاستفهمت: «إذن، كيف حال أمّك؟». «إنّها بخير... في صحّة جيّدة... أعني أنّها قد تعرّضت مجدّدا لوعكة. لكنّها تحسّنت الآن. وانتهى الأمر. إنّها تبلّغكما تحيّاتها. وتشكركما، هي وأختي». لكنّها لم تصدّق ما قالته للتّوّ. لماذا لم تكتب أمّها بمفردها ولو سطرا واحدا؟ هكذا تساءلت في نفسها في توتّر وخوف. ألا يجدر بي أن أرسل برقيّة إلى مكتب البريد أو ربّما أجري اتّصالا هاتفيّا؟ وعلى أيّة حال، يجب

أن أكتب رسالة على الفور. يا لخزي أنّها لم تفعل ذلك حتّى الآن! لم تجرؤ على أن ترفع عينيها، خشية أن تلتقيا بالنّظرة المتفحّصة لخالتها. «نعم، من الأفضل أن تكتبي لهم رسالة مطوّلة -قالت الخالة، وكأنّها اكتشفت ما تفكّر فيه- ولا تنسي أن تبلّغي تحيّتنا الحارّة. وعلى أيّ حال، فنحن سنصعد مباشرة إلى غرفتنا. إنّ السّهر المتأخّر كلّ ليلة يُرهق أنطوني. أمسِ، لم يتمكّن من النّوم. وعلينا ألاّ ننسى أنّه هنا أصلا من أجل الرّاحة». واستشعرت كريستين اللّوم المحتجب في كلماتها. فشعرت بالذّعر. وانقبض قلبها. وتجمّد. اقتربت مُحرجة من الرّجل العجوز. «من فضلك يا خالي، لا تغضب منّي رجاء. لم أعتقد مطلقا أنّ هذا الأمر يرهقك». تمتم السّيّد المحتفظ بشيء من الانزعاج والمتأثّر بنبرتها المتواضعة: «أتعرفين؟ نحن العجائز نعاني دوما من مشاكل في النّوم. أحبّ أحيانا أن أتحرّك قليلا. ولكن لا يمكنني فعل ذلك كلّ يوم. وفي النّهاية، لستِ في حاجة إلينا. لديك ما يكفي من الرّفاق».

«لا، مطلقا. سأذهبُ معكما». وبحذر شديد، ساعدت الخال على الذّهاب إلى المصعد، وهي تقوده بانتباه ورقّة شديدين، جعلتا مزاج الخالة السّيّء يتلاشى بعض الشّيء. فقالت لها أثناء ارتفاع المصعد إلى الطّابق الثّاني: «عليك أن تفهمي كريستال... لا نريد أن نمنعك من التّمتّع بوقتك. ولكن سيكون من الأفضل لك أن تنامي جيّدا، ولو مرّة واحدة، وإلاّ سيتداعى جسدك وتصابين بالإنهاك. فتخسرين حينئذ عطلتك كاملة. لن يضيرك في شيء أن تمنحي نفسك راحة من هذا الصّخب. امكثي اليوم في هدوء غرفتك. واكتبي رسائلك. وحتّى أكون صريحة معك، يجدر بي أن أقول لك أيضا إنّه من غير

اللاّئق أن تتسكّعي دوما بمفردك مع هذه المجموعة، خاصّة وأنّ بعضهم لا يعجبني إطلاقا. كنتُ أفضّل أن أراك مع الجنرال إلكينس بدل هذا الولد الذي لا يُعرف له أصل أو جذور. صدّقيني، سيكون من الأحسن لك أن تبقي اللّيلة في الأعلى داخل غرفتك». «نعم، أعدك بذلك يا خالتي»، ردّت كريستين بتواضع. «معك حقّ. أعرف ذلك... ولكن... لا أدري كيف أذهبت هذه الأيّام عقلي تماما... ربّما بسبب الهواء والأشياء الأخرى. يسعدني أن أتمكّن من التّفكير بهدوء وأن أكتب رسائلي. سأذهب الآن إلى غرفتي. بإمكانك أن تطمئنّي. ليلة سعيدة».

معها حقّ. هكذا فكّرت كريستين، وهي تدخل غرفتها. إنّها لا تريد شيئا سوى مصلحتي. حقّا، كان عليّ ألاّ أسمح لنفسي بالاندفاع بهذا الشّكل. فيم ستنفعني كلّ هذه اللّهفة؟ لديّ ما يكفي من الوقت. وبعد ثمانية أيّام أو تسعة، يمكنني أن أدّعي المرض. أرسل برقيّة إلى مكتب البريد لطلب تمديد في إجازتي. ما الذي سيحدث ساعتها؟ لا شيء... لم أنل أيّ عطلة من قبل. ولم أتغيّب ولو ساعة واحدة عن الخدمة. إذن، ستصدّقني الإدارة وتسعد بديلتي. كم هادئة هذه الغرفة! لا صوت يصعد إليها. ويمكنني أخيرا أن أفكّر بأيّ شيء وأتفحّص ما أريده. نعم، الكتب التي أعارني إيّاها السّيّد إلكينس... ينبغي أن أشرع في قراءتها. لا، الرّسائل أوّلا... لقد صعدتُ إلى الغرفة من أجل الرّسائل. يا للعار! لم أكتب خلال ثمانية أيّام ولو رسالة واحدة إلى أمّي أو أختي أو الطّيّب فوكستالر. عليّ أن أرسل أيضا بطاقة إلى بديلتي، وأخرى إلى أبناء أختي. لقد وعدتهم بذلك.

أيّ وعود أخرى قدّمت يا ترى؟ أحاول أن أتذكّر... يا إلهي... نعم، لقد وعدت المهندس أن نذهب في نزهة، غدا في الصّباح الباكر. لا، مستحيل أن أفعل ذلك وحيدةً برفقته. بمفردي؟ لن أفعل ذلك. كما أنّه ينبغي عليّ أن أصاحب خالتي وزوجها. إذن، لن أخرج معه بمفردي أبدا. ولكن، يجب أن أعلمه بذلك من الآن. سأنزل بسرعة حتّى لا ينتظرني غدا. لا، لقد وعدتُ الخالة ألاّ أغادر غرفتي. سأبقى هنا... يمكنني أن أعلم البوّاب بواسطة الهاتف. وسيخبره هو بذلك. نعم، بالهاتف... هذا أفضل. في الحقيقة، لا... كيف سأبدو في نظر الجماعة هنا؟ سيحسبون أنّي مريضة، وممنوعة من الخروج. ويهزؤون بي. بدلا من ذلك، سأكتب له كلمة وجيزة. وأبعثها مع بقيّة الرّسائل حتّى يوصلها البوّاب غدا صباحا إلى مكتب البريد... اللّعنة! أين ذهب ورق الرّسائل؟ غير معقول! إنّ مسند الورق فارغ تماما. لا يمكن لهذا أن يحدث في نزل بهذه الفخامة... نعم، يمكنني أن أدقّ الجرس. وستذهب خادمة الغرف على الفور لتبحث عنها. ولكن، هل أفعل ذلك في هذه السّاعة المتأخّرة؟ ربّما ينام الجميع الآن. وسيبدو غريبا هذا الاتّصال اللّيليّ من أجل بعض الأوراق. سأثب بسرعة إلى الأسفل. وأحضر ما أحتاجه من الصّالة. أرجو ألاّ يعترضني إدوين. فخالتي على حقّ. يجب أن أتحاشاه قدر الإمكان... أتساءل ما إذا كان يتمادى مع الأخريات، مثلما فعل معي اليوم في السّيّارة... على امتداد ساقي كلّها... لا أعرف كيف سمحتُ له بذلك. كان عليّ أن أتنحّى جانبا وأمنعه... إنّني أعرفه منذ أيّام قليلة فحسب. لكنّني شعرت بالشّلل. عجيب حقّا هذا الضّعف الذي يهجم على الجسد فيُفقده

إرادته، عندما يلمسه رجل بذلك الشّكل... لم أتخيّل أبدا أنّ بإمكاني أن أفقد قواي كلّها بشكل مفاجئ تماما... هل يحدث هذا مع النّساء الأخريات؟ لا، لا أعتقد أنّهنّ سيُجبنني عن هذا السّؤال، بغضّ النّظر عن أحاديثهنّ الجريئة وحكاياتهنّ الغريبة. كان عليّ أن أفعل أيّ شيء لأوقفه. سيعتقد أنّني أسمح لأيّ شخص بأن يلمسني بتلك الطّريقة. أو لعلّه يظنّ أنّني أرجو ذلك... مرعبة تلك القشعريرة التي تصل حتّى الأذنين. أفهم تماما كيف يمكن لفتاة شابّة أن تجنّ بفعل تلك اللّمسات... تلك الطّريقة التي يمسك بها ذراعي عند المنعرجات... حين أفكّر كم... أصابعه رقيقة جدّا. لم أر من قبل عند أيّ رجل آخر أظافر بتلك النّعومة. ومع ذلك، حين يمسكني يبدو الأمر شبيها بكمّاشة حديديّة... هل يتصرّف هكذا مع جميع الفتيات؟ على الأرجح... يجب أن أراقبه في المرّة القادمة التي يرقص فيها. مرعب أن أكون جاهلة بكلّ هذا. إنّ أيّ فتاة في مثل سنّي بإمكانها أن تجيد التّعامل مع هذه المواقف. وستعرف حتما كيف تفرض احترامها... أوه، ما قالته لي كارلا... كيف أنّ أبواب الغرف هنا تظلّ تفتح وتغلق طيلة اللّيل... سأحكم غلق بابي الآن... ليتهنّ يحدّثنني بوضوح أكبر ولا يكتفين بالتّلميح والإيحاء. ليتني كنت أعرف كيف تتصرّف الأخريات. هل يرتبكن أيضا ويفقدن عقولهنّ؟ لم يحدث معي مثل هذا الأمر من قبل؟ بلى... مرّة واحدة، قبل سنتين عندما بادرني بالحديث ذلك السّيّد الأنيق في شارع فارينغر[1]... في الواقع، لم يكن ليحدث أيّ شيء، لو قبلت دعوته لتناول الحساء معا. فهكذا يتعرّف النّاس

(1) شارع فارينغر، Währinger Strasse: واحد من أهمّ الشّوارع الكبرى في فيينّا.

على بعضهم البعض. ولكنّني كنت أخاف في تلك الفترة، خصوصا من العودة متأخّرة إلى البيت. لقد رافقني ذلك الخوف اللّعين طيلة حياتي التي قضّيتها في الاهتمام بالآخرين... وها إنّ الزّمن يمرّ سريعا. لقد ظهرت أولى التّجاعيد حول العينين... أمّا الأخريات، فقد كنّ أذكى منّي. لقد فهمن الأمر حقّا... هل هناك فتاة أخرى غيري تقبل بأن تبقى في غرفتها، بينما تغمر البهجة والأضواء كلّ شيء في الأسفل... لا لشيء إلاّ لأنّ الخال متعب... ما من واحدة منهنّ ترضى بأن تمكث هكذا في أوّل السّهرة... فكم السّاعة الآن؟ التّاسعة فحسب... إنّها السّاعة التّاسعة... لن أستطيع النّوم دون شكّ... لا مجال لذلك.... أشعر فجأة بحرارة رهيبة... فلأفتح النّافذة... كم هي منعشة هذه البرودة، وهي تسري على الكتف العارية! احذري أن يصيبك الزّكام... طبعا، إنّه الخوف الأخرق ذاته يلاحقك دوما... انتبهي... احذري... فيم تصلح هذه الكلمة؟ ممم... لذيذة نفحة الهواء هذه، وهي تمرّ تحت الفستان... أشعر كأنّني عارية تماما... لماذا ارتديته أصلا؟ من سيراني به إذا ما مكثت هنا في الغرفة؟ ماذا لو نزلتُ بسرعة؟ عليّ أن أذهب للبحث عن ورق الرّسائل. ويمكنني أن أكتب في الصّالون. لا مشكلة في ذلك... بففف... أصبح الجوّ باردا بشكل فظيع... فلأغلق النّافذة. ولكنّ الغرفة أيضا صارت باردة. ومع ذلك، يجدر بي أن أقبع هنا؟ لا، مطلقا... سأنزل ركضا حتّى أدفئ جسدي... ماذا لو رآني إلكينس وأخبر خالتي أو أيّ شخص آخر بذلك في الغد؟ إلى الجحيم... سأجيب بأنّني نزلتُ لأسلّم الرّسائل إلى البوّاب. ولن تقول أيّ شيء... لن أبقى طويلا في الأسفل. سأكتب الرّسائل،

أقصد الرّسالتين، وأعود على الفور... أين هو معطفي؟ ولكن لا، لا أحتاج إلى معطف. سأعود بعد قليل... ربّما أحتاج إلى الزّهور... لا، إنّها زهور إلكينس... لا مشكلة... ألوانها تتناسق مع الفستان... ربّما يجدر بي احتياطا أن ألقي نظرة على باب غرفة الخالة، لأرى ما إذا كانت نائمة... أيّ سخافة هذه؟ هل هذا ضروريّ؟ لم أعد تلميذة في المدرسة... هذا الخوف الأخرق يلاحقني دوما... لستُ في حاجة إلى إذْن كي أنزل إلى الأسفل لثلاث دقائق. فلأذهب...

وبسرعة وعجلة كبيرتين، اندفعت عبر الدّرج كأنّها تحاول أن تغافل تردُّدها. وتوصّلت فعلا إلى أن تدرك الصّالون عبر قاعة الرّقص الصّاخبة، دون أن يلاحظها أحد. لقد كتبت رسالتها الأولى. وأوشكت أن تنهي الثّانية، عندما حطّت يدٌ على كتفها. «وجدتكِ... إنّها حيلة ماكرة أن تختبئي هنا. منذ ساعة، وأنا أتسكّع في كلّ الزّوايا بحثا عن الآنسة فون بولن. أسأل كلّ من يعترضني. فيسخرون منّي. وها إنّك قابعة هنا مثل أرنب وسط القمح. فلتتحرّك الآن». وقف الفتى الأهيف خلفها، وقبضته المهيمنة على كتفها تربكها تماما. ابتسمت له مذعورة بسبب هبّته المفاجئة ومبتهجة في الآن ذاته، لأنّ نصف ساعة كانت كافية ليشتاق إليها. ورغم ذلك، فقد كانت تحتفظ بمزيد من القوّة لتصدّه: «لا، لا أستطيع الرّقص اليوم. ذلك غير مسموح بالنّسبة إليّ. عليّ أن أتمّ كتابة رسائلي التي ستسافر في قطار الغد. ثمّ إنّني وعدتُ خالتي بأن أمكث اللّيلةَ في غرفتي. ستغضبُ منّي إذا ما علمت أنّني نزلت إلى هنا مجدّدا».

يظلّ منحُ الثّقة أمرا خطيرا دوما. فالسّرُّ الذي تكشفه لغريب يقرّبه

منك، ويجعلك تمنحه أفضليّة، إذ تتخلّى له عن شيء من ذاتك. وهكذا تحوّلت النّظرة الصّارمة المثقلة بالرّغبة إلى نظرة أليفة. «آه! انفلتِّ إذن دون إذن بالخروج. لا تخافي. لن أخبر أحدا بذلك... لستُ من يفعل أمرا كهذا. أمّا الآن وقد قضّيتُ ساعة بأكملها واقفا حتّى غاصت قدماي في جذعي، فلن أتركك تذهبين بهذه السّهولة مطلقا. عليك أن تسيري في الطّريق إلى نهايته. فالنّزول من دون إذن يعني البقاء من دون إذن كذلك».

- «ما بك؟ مستحيل... ستنزل الخالة في أيّ وقت. وتكتشف الأمر. لا، مستحيل.
- إذن سنرى إذا ما كانت الخالة نائمة. هل تعرفين نوافذ غرفتها؟
- ولكن، لماذا؟
- الأمر بسيط جدّا. إذا كانت النّوافذ معتمة، فهذا يعني أنّها نائمة. ومن يتمدّد في سريره عاريا، لن يعيد ارتداء ملابسه فقط من أجل أن يتثبّت إذا ما كان الرّضيع مطيعا. يا إلهي! كم مرّة فررنا من المعهد التقنيّ! نغرق المفاتيح في الزّيت. وننزل مرتدين جواربنا... إنّ واحدة من تلك الأماسي كانت أجمل ألف مرّة من عطلة رسميّة. فلنذهب لنتفحّص الوضع».

ابتسمت كريستين رغما عنها. يا لهذا اليسر في حلّ المشاكل هنا! كلّ العقد تنحلّ في هذا المكان. في الحقيقة، كانت البنيّة تشعر برغبة ملحّة في مخادعة حرّاسها الصّارمين جدّا. ولكنّها لم تشأ أن تستسلم بهذه السّرعة. «مستحيل... لا أستطيع الخروج في هذا البرد، ولم أجلب معي معطفي». «سنجد حلاّ لذلك... لحظةً فقط». واندفع إلى

غرفة تغيير الملابس. ثمّ عاد محضرا معه معطفه الصّوفيّ المريح. «سيفي هذا بالغرض. ارتديه».

«ولكن...». استدركت كريتسين في نفسها، قبل أن تقطع تفكيرَها في ما يجب عليها فعلُه. فقد مرّر إحدى ذراعيها عبر المعطف اللّيّن. وأصبحت المقاومة الآن تصابيا لا يليق. ولذلك اكتفت بضحكة تمرّد متواطئة، وهي تلفّ نفسها بالمعطف الرّجاليّ. «لن نعبر الباب الرّئيسيّ»، قال مُبتسما من خلفها. «من هنا... عبر المخرج الجانبيّ، ومن ثَمّ تنطلق نزهتنا تحت نوافذ الخالة». «فقط لوهلة... ثمّ نعود»، ردّت، وهي تحسّ فجأة بذراعه تنزلق وسط العتمة تحت ذراعها. «والآن، أين هي النّوافذ؟». «الطّابق الثّاني يسارًا... الغرفة عند الزّاوية ذات الشّرفة». «مظلمة... إنّها مظلمة تماما. هاه! ليس هناك ولو خيط ضوء واحد. إنّهم غارقون في النّوم. حسنا، لقد صار المقود بيدي. فلنعد في البداية إلى القاعة». «قطعا لا. إذا لمحني السّيّد إلكينس أو أيّ شخص آخر، فسيروي ذلك غدا. إنّهما غاضبان منّي سلفا بما يكفي... لا، سأصعد إلى غرفتي الآن». «فلنذهب إلى مكان آخر... إلى بار سان موريتس مثلا... خلال عشر دقائق بالسّيّارة، سنكون هناك، حيث لا يعرفك أحد ولا أحد بإمكانه أن يشي بك». «ماذا تقول؟ من أين تأتي بهذه الأفكار؟ ماذا لو رآني شخص مّا، وأنا أركب السّيّارة معك؟ سيتحدّث كلّ من في النّزل عن الحكاية طيلة أسبوعين». «سأهتمّ بهذه المسألة. ثقي بي. طبعا، لن تصحبيني إلى السّيّارة أمام المدخل الرّئيسيّ، الذي تضيئه الإدارة الموقّرة بأربعة عشر مصباحا. ليس عليك سوى أن تمشي أربعين خطوة على مسلك الغابة

كي تصلي إلى المنطقة المظلمة. وسألحق بك إلى هناك في غضون دقيقة واحدة. ثمّ نصل إلى وجهتنا في ربع ساعة فقط. حلّ الإشكال. وقضي الأمر». ومرّة أخرى، تعجّبت كريستين لهذه السّلاسة التي تُجتاز بها كلّ عقبة في هذا المكان. تراخت مقاومتها قليلا. فسألته: «هل تعتقد أنّ الأمر سيكون بسيطا إلى هذه الدّرجة؟». «بسيط أم معقّد... لا يهمّ. هكذا سنفعل: سألتفّ من الجهة الأخرى. وأطلب السّيّارة. وريثما أتمّ ذلك، تقدّمي إلى الأمام». اعترضت بشكل متردّد وصوت خافت هذه المرّة: «ولكن، متى تكون عودتنا؟». «لن نتجاوز منتصف اللّيل». «أهذا وعد شرف؟». «هو كذلك».

يعمل وعدُ الشّرف دوما بالنّسبة إلى امرأة عمل عكّاز تتشبّث به، قبل أن تسقط. «حسنا، أمنح لك ثقتي إذن». «استمرّي في المشي يسارا حتّى تصلي إلى الطّريق. لا تنسي أن تتفادي المصابيح. وسألحق بك في دقيقة».

بينما كانت تمشي في المسار الذي حدّده لها وتتساءل عن سبب طاعتها له، حاولت أن تتذكّر ما كان يجدر بها أن تفعله. لكنّها لم تستطع أن ترى أبعد من خطوتها. ولم تكن قادرة على استرجاع ما ينبغي عليها إتمامه. فقد كانت هذه اللّعبة الجديدة تثير فضولها، لعبة التّنكّر في معطف رجاليّ، والتّسلّل في الظّلمة مثل هنديّ في ساحة حرب، والخروج عن الحياة المعتادة من أجل تحوّل جديد واكتشاف آخر للمجهول. ليس عليها سوى أن تنتظر لوهلة في ظلال الغابة. ها إنّ شريطين من الضّوء يجوبان الطّريق، فيما يكنسُ فنارٌ أشجار الصّنوبر بلمعانه الفضّيّ. لا شكّ أنّ السّائق قد لمحها، إذ انطفأت

الأضواء فجأة. وتوقّفت السّيّارة السّوداء القويّة حذوها مُحدثة صريرا بإطاراتها. الآن، تنطفئ الأضواء الدّاخليّة أيضا. فلا يُرى أيّ شيء سوى البريق الأزرق لعدّاد السّرعة. تفاجأت كريستين باندثار تيّار الأضواء. ولم تستطع أن تميّز أيّ شيء. لكنّ الباب قد فُتح أمامها. وساعدتها يدٌ على الصّعود إلى السّيّارة. ثمّ تكْتَك القفل من خلفها. حدث كلّ هذا بسرعة هائلة، كما لو أنّها في فيلم مغامرات. وقبل أن يُتاح لها أن تلتقط أنفاسها أو تقول أيّ شيء، انطلقت السّيّارة بقوّة. فأحسّت إثر هذه الرّجّة الأولى التي دفعتها إلى الخلف بشفاه تقبّلها وذراعين تطوّقانها. أرادت أن تدافع عن نفسها. فأشارت بخوف إلى ظهر السّائق المنتصب أمامها كُتلةً قاتمة. شعرت بالحرج لحضور هذا الشّاهد. لكنّها كانت تعرف في الآن نفسه أنّ وجوده يقيها مّا هو أسوأ. ظلّ الرّجل إلى جانبها صامتا. وغمرها بعناق دافئ وعنيف. أحسّت بيديه تحطّان على يديها وذراعيها ثمّ على صدرها. كانت الشّفتان الحارّتان المهيمنتان تبحثان عن شفتيها. وها هي تستسلم شيئا فشيئا، إذ تشعر بجسدها الرّطب يشتعل. دون وعي منها، كانت تريدُ ما يحدث الآن وتنتظره: العناق الحارق، سباق القبلات المجنون على عنقها وكتفيها ووجنتيها ومن كلّ جهة تلك الحرقة المرتعشة على بشرتها. كانت الحاجة إلى عدم إثارة انتباه السّائق تُضاعف بشكل مّا نشوة هذه اللّعبة الفاتنة. عيناها مغمضتان، وهي لا تجد الكلمات ولا الإرادة لتوقف ما يحدث لها. فتنفلتُ على وقع القبلات الحمحماتُ من شفتيها. وينكمشُ جسدها ويرتعشُ في هذه اللّذّة التي يقطفها عند الشّفاه. يتدفّق كلّ هذا -ولكن منذ متى؟- في عالم مفارق للمكان

والزّمان. ويتوقّف فجأة عندما يُسمع جرس السّيّارة، تنبيها من السّائق إلى وصول السّيّارة إلى الممشى المضاء عند حانة النّزل الكبير.

نزلت مرتبكة، متردّدة ومحرجةً. فسوّت فستانها المنكمش. وعدّلت شعرها المُشعث بسبب القبلات. ألن يلاحظه أحد؟ لا... لا أحد يراقبها في عتمة الحانة المليئة بالنّاس. يقودهما شخص مّا بلطف إلى إحدى الطّاولات. إنّه اكتشاف جديد، هذا اللّغزُ المكنون لحياة امرأة وهذا القناع الذي يثبّته التّعايش الاجتماعيّ ويخفي وراءه أشدّ المشاعر توقُّدا. لم تعتقد من قبل أبدا أنّ بإمكانها أن تجلس معتدلة وهادئة إلى جانب رجل، مازالت بشرتها تحافظ على حرارة قبلاته، وتتحدّث معه مسترخية، بينما كانت شفتاه منذ لحظات وجيزة تكتسحانها بقوّة جعلتها تتلوّى وتنكمشُ تحت ذراعيه القاسيتين. لا أحد هنا يشكّ في ذلك حتّى. «كم مرأة قد أخفت من قبل مشاعرها؟»، تساءلت مذهولة. «كم من بين اللّواتي عرفتهنّ في البيت والقرية؟ كم مرأة عاشت حياة مزدوجة، بل حيوات كثيرةً، واكتسبت وجها علنيّا وآخر مخفيّا، بينما أقتدي، أنا الفتاة الطّيّبة السّاذجة، بسلوكهنّ المتحفّظ؟ ها إنّها تحسُّ من تحت الطّاولة بساق تلتصق بساقها. فتثبّت بصرها في وجه جليسها. وترى وجهه -كأنّها تفعل ذلك للمرّة الأولى- أسمر، صلبا ومفعما بالحيويّة. تلاحظ فمه المهيمن من تحت الشّارب الرّقيق. وتدركُ نظرته المتواطئة، وهي تخترقها. ورغما عن إرادتها، أثار كلّ هذا شعورا من الفخر داخلها. هذا الرّجل القويّ الفحل يرغبُ فيّ أنا فحسب. ولا أحد يعلم ذلك غيري. «أنذهب للرّقص؟»، سألها. فأجابت: «نعم». وفي هذه النّعم يهتزّ ما هو أكبر. لأوّل مرّة، تشعر أنّ

الرّقص غير كافٍ وأنّ الاتّصال المقيس بعناية خلاله ليس سوى تمهيد لاشتباك ملتهب لا قيد فيه. شعرت أيضا أنّ عليها أن تتحكّم بنفسها قليلا، كي لا تبدو مكشوفة للجميع.

شربت كوكتيلين بسرعة. وأحسّت باشتعال شفتيها. ولم تعرف إذا ما كان ذلك بسبب القبل التي تلقّتها أم تلك التي مازالت ترغب فيها. في النّهاية، لم تعد تحتمل المكوث بين كلّ هؤلاء النّاس. «علينا أن نعود»، قالت له. «كما تريدين». إنّها أوّل مرّة يرفع فيها الكلفة بينهما. وقد تلقّت ذلك بخفقة متوتّرة في قلبها.

داخل السّيّارة، تداعت بشكل طبيعيّ بين ذراعيه. وصار صوتها يتسلّل بين القبلات ملحّا أكثر، حتّى إنّها تمنّت أن تقضي معه ساعة فحسب في غرفته. فغرفتها أيضا في الطّابق نفسه. وسيكون جميع الموظّفين نياما... ظلّت تشرب توسّلاتها المتحمّسة مثل نار سائلة. «لديّ الوقت لأحمي نفسي». هكذا فكّرت وسط ارتباكها، وقد غمرتها الموجة سلفا. لم تتكلّم. ولم تجب بشيء. ولكنّها تلقّت بروح منشرحة نداء الكلمات المشتعلة، التي يوجّهها لها رجل للمرّة الأولى.

توقّفت السّيّارة في نفس الموضع الذي حملتها منه. لم يتزحزح ظهر السّائق، وهي تغادر. عادت بمفردها إلى النّزل، حيث كانت مصابيح المدخل مطفأة. عبرت الرّدهة بسرعة. وأحسّت به يتبعها دون شكّ. بل إنّها شعرت باقترابه منها، وهو يصعد الدّرج قفزا برشاقة كبيرة. وإذ أدركت أنّه يريد الإمساك بها، أصابها فزع رهيب. وأخذت تركض محافظة على تقدّمها. ثمّ قفزت. ووصلت إلى باب غرفتها. أحكمت غلقه. وتداعت على الكرسيّ. لقد نجت.

نجت. نعم، نجت، وهي ما تزال ترتجف تماما. لو تأخّرت دقيقة واحدة لفات الأوان. مرعبٌ جدّا أن أرى نفسي بهذا الارتباك والضّعف وهذه الهشاشة. كان بإمكان أيّ شخص أن يأخذني في لحظة كهذه. ولم أكن لأجد نفسي في هذا الموقف من قبل أبدا. كنت أحسب أنّني متيقّنة من نفسي تماما. يرعبني هذا الشّعور بالتّشوّش والتّوتّر. لحسن حظّي أنّني وجدت الجهد الكافي لبلوغ غرفتي في الوقت المناسب وغلق بابها دونه. لو لم يكن ذلك لحدث ما لا يمكن تخيّله. نزعت ثيابها بسرعة في الظّلام، وقلبها يخفق بشدّة هائلة. ما أن احتلّت مكانها في السّرير، عيونها مغمضة وأعضاؤها مكسوّة بلحاف الرّيش وجسدها ينعم بالدّفئ، حتّى أحسّت بتلك الرّجفة في جلدها وهي تخفتُ ببطء شديد. من السّخيف أن أشعر بهذا القدر الهائل من القلق. هكذا فكّرت فجأة. لقد بلغتُ الثّامنة والعشرين، ومازلت أصون نفسي وأنكرها، ومازلتُ أنتظر وأتردّد وأخاف. لماذا أدّخرُ نفسي؟ ومن أجل مَن؟ التّقتيرُ والادّخار، هذا ما فعلناه جميعا، أنا وأبي وأمّي وكلّ من في البيت، خلال تلك السّنوات المرعبة، بينما ينعم الآخرون بحيواتهم. لطالما افتقدتُ الشّجاعة لفعل أيّ شيء. فما الذي جنيتُه وأهلي في النّهاية؟ فجأة، يجد المرء نفسه عجوزا ذابلا، لا يعرفُ شيئا. يموتُ، دون أن يعرف شيئا ودون أن يحيا بحقّ. وهناك، تبدأ مجدّدا الحياة البائسةُ ذاتها، بينما يوجد كلّ شيء هنا. ويجب اقتناصه. ولكنّني في المقابل، أشعر بالخوف. أنكمشُ على نفسي. وأصونها مثل بنيّة صغيرة جبانة، موغلة في الجبن والحمق. أليس هذا غباء؟ ألا يجدر بي أن أفتح القفل أخيرا؟ ربّما... لا، لا... ليس اليوم. سأمكث هنا

أسبوعا أو أسبوعين آخرين. أقضّي وقتا ممتعا وأبديّا. وينتهي الأمر. ولكن، لا... لن أكون بهذا الغباء والجبن. عليّ أن أحتضن كلّ شيء، وأستمتع بكلّ شيء... كلّ شيء.

وبابتسامة رقيقة على الشّفتين وذراعين ممدودتين وفم منفتح برخاوة كأنّه يتأهّب لقبلة، نامت كريستين، ولم تكن تعرف أنّها قد أنهت للتّوّ يومها وليلتها الأخيرين في هذا العالم العجيب.

من يحمل في قلبه مشاعر متّقدة لا يتأمّل العالم من حوله بشكل جيّد. فالنّاس السّعداء هم محلّلون نفسيّون فاشلون. ووحده الشّخص القلق من يشحذُ حواسّه إلى أقصاها. يحقنه حدسه بالخطر بحدّة بصيرة تتجاوز بكثير ما اكتسبه منها بشكل طبيعيّ. دون أن تنتبه كريستين إلى أيّ شيء، ظلّ حضورها منذ فترة يمثّل بالنّسبة إلى شخص مّا مصدرا للقلق والخطر. وهذا الشّخص هو فتاة مانهايم الحيويّة الواثقة من نفسها، والتي كانت كريستين تحمل ثرثرتها معها، بقلب بريء، على أنّها علامة صداقة وودّ. أمّا هي، فقد كانت مغتاظة من انتصار كريستين الاجتماعيّ. فقبل قدومها، كان المهندسُ يتودّد إليها ويغازلها باستمرار. ويلمّح كذلك إلى مشاريع جدّيّة معها، قد يكون المقصود منها هو الزّواج. صحيح أنّه لم يتمّ الإقرار بأيّ شيء. ولكن ما الذي كان ينقص على الأرجح؟ لا شيء سوى بضعة أيّام وساعة مواتية للقاء حاسم. ثمّ جاءت كريستين مُحدثة الانحراف الأسوأ على الإطلاق. إذ تحوّل انتباه المهندس منذ تلك اللّحظة في اتّجاهها، وبشكل واضح ومتواصل. أتكون هالةُ الثّراء أو رنينُ النّبل في الاسم ما أحدث الأثر الكبير في حساباته؟ أم إنّ السّبب يكمن

في هذه البهجة المشعّة منها وموجات السّعادة القويّة التي تتلألأ من حولها؟ كانت فتاة مانهايم تشعر طيلة الوقت بغيرة المراهقة الطّفوليّة وغيظ المرأة الشّرس، لأنّها أُفردت فجأة ووُضعت ببرود تامّ على جانب الطّريق. صار المهندس يكتفي تقريبا بالرّقص مع كريستين ومجالسة عائلة فون بولن. وقد أيقنت المنافسة الشّرسة أنّ الوقت صار ملحّا جدّا، إذا كانت لا تريد خسارته، لاسترداد الزّمام. وبفضل غريزتها، سمحت لها قدرتها المتّقدة على الملاحظة والتّأمّل أن تلتقط منذ فترة طويلة في حماسة كريستين شيئا مّا غريبا وغير طبيعيّ. وبينما يستسلم الآخرون بتعاطف لسحرها، تحاول هي أن تنفذ إلى لغزه الغامض.

لقد استهلّت مراقبتها من خلال التّسلّل شيئا فشيئا إلى مجال منافِستها الخاصّ والحميميّ. تمرّر أثناء النّزهة ذراعها برقّة تحت ذراع كريستين. وتحدّثها عن أسرارها الخاصّة والمختلقَة نسبيّا، حتّى تنتزع منها ما يمكن أن يشكّل تهديدا حقيقيّا. تزورها في اللّيل في غرفتها. فتستقبلها الأخرى دون أدنى ارتياب. تجلس على السّرير. وتمسّح على ذراعها، بينما تسدّد كريستين، من حاجتها إلى إسعاد الجميع، ثمن هذه الصّحبة الدّافئة. وتنطلقُ في بيان شكرها وامتنانها. ثمّ تجيب بسذاجة على جميع الأسئلة الماكرة، دون أن تتفادى أيّ حقيقة سوى تلك التي تتعلّق بسرّها الأكبر. فمثلا، حين تُسأل عن عدد الخادمات في منزلها وكم غرفة يحتوي هذا المنزل، تتملّص من الموقف بأنصاف الحقائق، قائلة إنّها تعيش الآن في عزلة الرّيف بسبب مرض أمّها، وإنّ حالها قد اختلف عن الأيّام الخوالي. ولكنّ العثرات الصّغيرة ظلّت تعزّز شكوك المُستجوِبة الخبيثة، حتّى اكتشفت في النّهاية موقع الثّغرة:

هذه الغريبة التي تدفع نجمها إلى الكسوف بفضل فساتينها المدهشة وأقراطها الجميلة وهالة الثّراء التي تلفّها، تنحدر على الأرجح من عائلة فقيرة بائسة. فتربية كريستين في ما يخصّ قيم التّعامل الاجتماعيّ تكشف عن هنات كثيرة. إذ لم تكن تعرفُ أنّ لاعب البولو[1] يمتطي الخيل أثناء اللّعبة، كما لم تكن تعرفُ أيضا أسماء العطور الشّهيرة مثل كوتي وأوبيغان، ولا أسعار السّيّارات. ولم تحضر من قبل أيّ سباق. كانت هناك عشر أمارات أو عشرون على الأقلّ من هذا النّوع الذي يكشفُ جهلها بمعايير النّخبة الاجتماعيّة. أمّا بالنّسبة إلى مجال الثّقافة، فمجرّد مقارنتها بطالبة الكيمياء يشكّل كارثة حقيقيّة. لم تدرس في معهد. ولم تتعلّم أيّ لغة أجنبيّة، أي أنّها اعترفت بكونها قد تعلّمت بعض نتفٍ من الانجليزيّة. لكنّها نسيتها تماما منذ زمن بعيد. لا، لا يتوافق هذا والآنسة فون بولن الأنيقة بتاتا. تحتاج فقط إلى أن تحفر أكثر قليلا. وبكلّ ما تمنحه لها غيرتها الرّائيةُ، انتقلت الفتاة المتآمرة من التّوجّس إلى الفعل.

لقد اقتنصت السّرّ أخيرا، بعد أيّام عديدة من الثّرثرة والتّجسّس بلا هوادة. إنّ مصفّفات الشّعر محترفاتُ نميمة، يُطلقن ألسنتهنّ عن طيب خاطر. وكلّما انشغلت أيديهنّ بالعمل، رفضت شفاههنّ أن تبقى عاطلة هي الأخرى. ولذلك، عندما ذهبت فتاة مانهايم لتستجوب السّيّدة دوفِرْنوا، صاحبة مركز الاستخبارات الأكبر

(1) بولو polo: لعبة الملوك والسّلاطين منذ القدم. تتكوّن من فريقين يمتطي أفرادهما الخيول. فيسدّدون بواسطة مضاربَ الكرةَ البلاستيكيّة أو الخشبيّة البيضاء في مرمى المنافس من أجل إحراز الهدف.

في المنطقة، انفجرت المرأة ضاحكة: «آه! قريبة السّيّدة فون بولن! (تدحرجت الضّحكة مسترسلة) كان منظرها مضحكا عندما جاءت إلى هنا، بتسريحة المزارعات تلك، بجدائلها السّميكة الملتوية ومشابك شعرها الضّخمة المعدنيّة». تجهل مصفّفة الشّعر أنّ فظاعات كهذه مازالت تصنع في أوروبا. وهي تحتفظ باثنين منها في أحد الأدراج على سبيل التّذكار العتيق. كان ذلك مسلكا جدّيا بالنّسبة إلى الثّعلب الصّغيرة التي تابعت كلماتها بمثابرة كبيرة. ثمّ توصّلت لاحقا وبإتقان شديد إلى استنطاق خادمة الغرف. وانتهت سريعا إلى معرفة كلّ شيء، أنّ كريستين قد وصلت إلى النّزل بحقيبة قشّ صغيرة جدّا وأنّ جميع ملابسها قد أعارتها لها أو اشترتها بسرعة فائقة السّيّدة فون بولن. وبفضل أسئلتها الموجّهة بذكاء ودقّة مدعومة بالبقشيش، تمكّنت من معرفة كلّ التّفاصيل، بما في ذلك المظلّة ذات مقبض القرن. ولأنّ الحظّ يبتسمُ في وجه المكر، فقد كانت حاضرة بالصّدفة عندما استعلمت كريستين عن رسائلها باسم الآنسة هوفلنر. كان السّؤال البارد كفيلا بتقديم الحقيقة المفاجئة: لم يكن فون بولن لقب كريستين العائليّ بتاتا.

وكان ذلك كافيا، بل أكثر ممّا كانت تحتاج إليه. فقد صار القوسُ مشدودا. وما عليها إلاّ أن تطلق السّهم. تنتصب في مركز القاعة الكبيرة ليل نهار، المستشارةُ الخاصّة السّيّدة شترودمان، أرملة الجرّاح الكبير. تمكث هناك مثل برج مراقبة، ممسكة بمقبض نظّارتها. ويعتبر الجميع كرسيّها النّقال (كانت السّيّدة العجوز مقعدة) مركز المعلومات الرّاسخ، خاصّة وأنّها بمثابة المحكمة العليا التي تقرّر في آخر المطاف ما يكون شرعيّا وثابتا. كان هذا المكتب النّشيط في الحرب السّرّيّة التي

يشنّها الجميع على الجميع يعمل على امتداد النّهار واللّيل بحماسة متطرّفة. جلست فتاة مانهايم اليافعة إلى جانبها، كي تفرغ بسرعة وعناية حمولتها. وطبعا، فعلت ذلك بقناع ودّيّ لطيف: تلك الآنسة فون بولن -أو هكذا يناديها الجميع في النّزل على الأقلّ- فتاة ساحرة حقّا. لا يمكن لأحد أن يشكّ في أصولها المتواضعة جدّا. كم رائع أن تجعل السّيّدةُ فون بولن الطّيبةُ فتاةَ المتجر هذه أو الرّبّ يعلم من هي ابنةَ أخت لها وأن تزيّنها بثيابها الخاصّة، ثمّ تطلقها بهويّة جديدة مستعارة. إنّ هؤلاء الأمريكيّين يثبتون حقّا أنّهم أكثر ديمقراطيّة منّا عندما يتعلّق الأمر بمسألة الطّبقات الاجتماعيّة. إنّهم أكثر كرما وسخاء منّا، نحن الأوروبيّين المتأخّرين الذين يبالغون في احترام معايير المجتمع وقواعده (أقامت المستشارة الخاصّة رأسها مثل ديك يتأهّب للهجوم) والذين لا يكتفون بالملابس الفخمة والمال، وإنّما يتطلّبون أيضا الثّقافة والنّسب الشّريف. وبلا أدنى شكّ، قامت بوصف دقيق ساخر للمظلّة الرّيفيّة. وأودعت بقيّة التّفاصيل الممتعة القادرة على تحقيق الأذى في اليد الأمينة لمكتب الاستعلامات. وفي الصّباح ذاته، بدأت قصّتها تنتقل في شتّى أنحاء النّزل، حاملة معها في عبورها السّريع الأوساخ والحصى، مثلما هو الحال مع كلّ نميمة. يقول البعض إنّ الأمريكيّين يتصرّفون على هذا النّحو كي يغيظوا الأرستقراطيّين ويفوزوا، عن طريق الحيلة وادّعاء الثّروة، ببعض آلات الكتابة. وهناك مسرحيّة تتحدّث عن هذه المسألة. كما يدّعي البعض الآخر أنّها عشيقة الرّجل العجوز أو زوجته. وباختصار، نجحت الخطّة على أكمل وجه. ففي تلك اللّيلة التي كانت كريستين تخوضُ فيها مغامرتها مع المهندس،

اقتصرت كلّ أحاديث النّزل عليها. وطبعا، لم يرغب أيّ واحد من الجماعة أن يبدو للآخرين ساذجا ومغفّلا. ولذلك أكّد الجميع أنّهم قد لاحظوا سلفا الكثير من الأشياء المريبة. وبما أنّ الذّاكرة خادم مطيع للرّغبة، فقد حوّل كلّ شخص تفصيلا ممّا كان يسحره من قبل في كريستين إلى شيء سخيف. وبينما كان جسدها الفتّيّ مغلّفا بدفء في السّعادة وشفتاها مبتسمتين وسط نوم هادئ تسترسل من خلاله في وهمها، اكتشف الجميعُ خدعتها العفويّة البريئة.

إنّ آخر من تدركهُ الإشاعةُ دوما ضحيّتها. لم تكتشف كريستين أنّها كانت تعبر في هذا الصّباح حلقة من لهب، تقذفها في ظهرها العيون المتفحّصة السّاخرة. وبشكل عفويّ، جلست في المكان الأخطر على الإطلاق، حذو المستشارة الخاصّة، دون أن تلاحظ كيف تتلاعب بها هذه السّيّدة بأسئلتها الماكرة. قبّلت كريستين بعطف يد عدوّتها الشّيباء، قبل أن تذهب إلى النّزهة المتّفق عليها مع خالتها وزوجها. ولم يلفِت انتباهها ملمح التّهكّم في ابتسامات من يردّون على تحيّتها. فما الذي يمكنه أن يجعل النّاس هنا في حال أخرى غير السّعادة؟ كانت تشقّ القاعة ببهجة مشعّة، لا شيء يثير توجّسها من الغدر المحيط بها، كأنّها شعلة لهب واثقة من طيبة هذا العالم.

في البداية، لم تلاحظ الخالة نفسها أيّ شيء. لكنّها تفاجأت في الصّباح بحادث مزعج، دون أن تحدس فيه ما له صلة بابنة أختها. يتعلّق الأمر بالسّيّد والسّيّدة فون ترنكفيتس، وهما زوجان من أبرز ملاّك الأراضي في سيليزيا[1]، يقتصران في تواصلهما مع الآخرين على

(1) سيلزيا Silesia: منطقة في أوروبا الوسطى، تضمّ الآن أجزاء من بولندا وألمانيا والتشيك.

العائلات المنتمية إلى طبقتهما، ويقصيان بلا رحمة كلّ من تفوح منه رائحة البرجوازيّة. وكانا قد استثنيا عائلة فون بولن من هذه القاعدة الصّارمة لأنّها أمريكيّة أوّلا -وهذا في حدّ ذاته نوع من الانتماء إلى النّبلاء- وثانيا وعلى الأرجح، لأنّ ابنهما الثّاني هارّو الذي يعاني من رهن نصيب وافر من أملاكه سيأتي غدا، وسيكون مهمّا بالنّسبة إليه لقاء وريثة أمريكيّة. لقد اتّفقا من قبل مع عائلة فون بولن على الذّهاب في نزهة معا، على السّاعة العاشرة من هذا الصّباح. ولكنّهما فجأة، بعد حصولهما على معلومة قادمة من مركز استخبارات المستشارة الخاصّة، قد أرسلا البوّاب في التّاسعة والنّصف لإلغائها دون أيّ شرح. والأغرب من ذلك أنّهما قد مرّا في الغداء من أمام طاولة الفون بولن، مكتفيين بإيماءة متجهّمة، بدل أن يقدّما اعتذاراتهما لهذا الانسحاب المتأخّر. «ما الذي يعنيه كلّ هذا؟»، تساءلت في ريب السّيّدة فون بولن، ذات الحساسيّة المرضيّة في ما يخصّ العلاقات الاجتماعيّة. «ما الذي حدث؟ هل أسأنا إليهما في شيء؟». أمّا الحدث الغريب الثّاني الذي لاحظته السّيّدة، فقد كان بعد تناول الغداء. كان أنطوني ينعم بقيلولة في غرفته وكريستين جالسة في الصّالون تكتب رسائلها. مكثت الخالة بمفردها. ولم ينضمّ إلى طاولتها أحد. تأتي في العادة عائلة كينسلاي أو أيّ أفراد آخرين ليتحدّثوا إليها ويثرثروا معها قليلا. أمّا اليوم، فقد ظلّ الجميع عند طاولاتهم، كأنّ الأمر مدبّر سلفا، بينما جلست هي بمفردها مُتجاهَلةً وغارقة في كرسيّها، يأكلها العجبُ لرؤية أصدقائها، وهم يتجاهلونها وللملمح الترنكفيتس، وهما ما يزالان مختالين ممتنعين عن تقديم اعتذاراتهما لها.

أخيرا، اقترب منها شخص مّا. إنّه اللّورد إلكينس. ولكنّه مختلف عن العادة أيضا، متجهّم ومتصنّع ويتصرّف بشكل رسميّ، هو الذي اعتاد أن ينظر صوب عينيها بوضوح وشفافيّة كبيرين. ها هو الآن يدسّ عينيه بشكل غريب تحت جفنيه الذّابلين المحمرّين. ما به يا ترى؟ انحنى أمامها بشكل يكاد يكون طقوسيّا. وقال: «هل تسمحين لي بالجلوس؟». «طبعا، عزيزي اللّورد. ولم هذا السّؤال؟».

ازداد تعجّب الخالة. فقد كان سلوك إلكينس مغلّفا بالضّيق والحرج. مكث، وهو يتفحّص بدقّة طرف حذائه. فتح أزرار سترته. وعدّل طيّة سرواله. غريب كلّ هذا الذي يحدث. ما به يا ترى؟ هكذا تساءلت، وهي تنظر إليه، كأنّه يتأهّب لإلقاء خطاب رسميّ مهمّ.

أخيرا، وبحركة مصمّمة، رفع بصره إلى أعلى. فبدت في عينيه نظرة متوهّجة مثل لمعة ضوء أو بريق شفرة. «اسمعيني، أيّتها العزيزة السّيّدة بولن. أرغب في أن أتحدّث معك في أمر شخصيّ. فهنا لن يسمعنا أحد. لكنّني أطلب منك الإذن بأن أتكلّم بصراحة تامّة. لقد فكّرت طويلا في الطّريقة التي تتيح لي أن أصارحك بالأمر. ولكن، لا ينفع التّلميحُ في المسائل الجادّة. هناك أشياء خاصّة ومؤلمة يجب أن نتحدّث فيها بوضوح تامّ. ولهذا السّبب... شعرتُ بدافع من الصّداقة التي تصلني بك أنّ عليّ أن أتكلّم معك فيها دون تحفّظ. هل تسمحين لي بذلك رجاء؟». «طبعا». ورغم إجابتها، فقد حافظ الرّجل على ملامح الضّيق التي تأسره. ولكي يحظى مجدّدا ببعض الوقت، سحب من جيبه غليونا. وراح يحشوه بعناية شديدة. كانت أصابعه بسبب السّنّ أو الارتباك ترتجف بوضوح. وفي النّهاية، رفع رأسه. وقال

بوضوح: «ما أريد أن أتحدّث فيه يخصّ الآنسة كريستيانا». ثمّ بدا عليه التّردّد مجدّدا.

شعرت السّيّدة فون بولن بخوف طفيف. هل يفكّر هذا الرّجل السّبعينيّ حقّا في... لقد لاحظت بوضوح أنّه مهتمّ بكريستين. ولكن هل يصل اهتمامه هذا إلى درجة أن... رفع اللّورد إلكينس رأسه. وسألها بنظرة مفتّشة: «هل هي حقّا قريبتك؟». بدت على وجه السّيّدة فون بولن ملامح الانزعاج: «طبعا، دون شكّ». «وهل هي حقّا فون بولن؟». ارتبكت السّيّدة فون بولن هذه المرّة: «لا، لا... إنّها حقّا قريبتي... لا من جهة زوجي، وإنّما هي ابنة أختي في فيينّا... ولكن، رجاء لورد إلكينس... إنّني أعرف جيّدا مشاعركم الودّيّة تجاهنا... ما الذي يعنيه هذا السّؤال؟».

حدّق اللّورد طويلا في غليونه، كأنّ اهتمامه ينصبّ قصرا عليه. وتثبّت ما إذا كان التّبغ يشتعل جيّدا. فوزّعه بعناية. ثمّ قال في انطواء على نفسه، يكاد لا يحرّك معه شفتيه: «لأنّ... في الحقيقة، هناك ضجّة اندلعت هنا فجأة... فكّرت أنّ واجب الصّداقة يملي عليّ إيضاح الأمر لك. وبما أنّك أكّدتِ لي أنّها قريبتك فعلا، فإنّني سأعتبر هذه الإشاعات بلا قيمة، بل إنّها لم تحدث أصلا. لقد تيقّنتُ على الفور أنّ الآنسة كريستيانا لا يمكن أن تكون كاذبة مُخادعة. ولكنّ النّاس هنا يسردون قصصا غريبة». شحُبت السّيّدة فون بولن. وارتجفت وجنتاها. وقالت: «ماذا؟... رجاء، كن صريحا معي... ما الذي يقوله النّاس؟». واشتعل الغليون ببطء، مشكّلا حلقة حمراء.

«حسنا، تعرفين هذا الجمع الشّريف الذي يقيم في النّزل. وهو

في الحقيقة ليس كذلك. إنّهم في واقع الأمر ملكيّون أكثر من الملك. فمثلا، يعتبر هذا الترنكفيتس المتعجرفُ المتكبّر أنّ جلوسه عند نفس الطّاولة مع شخص لا ينتمي إلى النّبلاء، ولا يملك أموالا بالإضافة إلى ذلك، إهانة شخصيّة تُوجّه إليه. يبدو أنّه وامرأته لا يتوقّفان عن سرد حكايات مفادها أنّك سخرتِ منهما، عندما قدّمت لهما فتاة من الطّبقة الوسطى تُلبسينها ثيابًا فاخرة، باسم مزيّف يجعلها في مقام السّيّدة النّبيلة... وكأنّ هذا المغفّل يعرف شيئا عن السّيّدات الحقيقيّات. لستُ في حاجة إلى أن أوضّح لك أنّ الاحترام العظيم والتّعاطف الكبير... بل الكبير جدّا اللّذين أكنّهما للآنسة كريستيانا لم ينقص منهما ولو شبر واحد... أقصدُ في حال كانت حقّا... من عائلة متواضعة... وربّما لم تكن لتحظى بهذه البهجة الرّائعة والحماس العجيب لو كانت مدلّلة مثل هؤلاء الأوغاد التّافهين. شخصيّا، لا أملك أيّ تحفّظ على إهدائك لها، من باب الطّيبة والعطف، ملابس من خزانتك. بل على العكس من ذلك... في المقابل، سألتك فحسبُ أن تؤكّدي لي الأمر، حتّى أتمكّن بقبضتي هذه أن أخرس أفواه هؤلاء الأفّاكين».

أحسّت السّيّدة فون بولن بالخوف يصعد من ركبتيها إلى حنجرتها. استنشقت الهواء ثلاثا، قبل أن تجد القوّة لتجيب بصوت هادئ: «عزيزي اللّورد، لا أملك أيّ دافع لإسكات الإشاعات التي تتعلّق بجذور كريستين. لقد كان زوج أختي تاجرا مهمّا، بل واحدا من أشهر وأغنى تجّار فيينّا (وفي ما يخصّ هذه النّقطة، لم تكن تبالغ إلاّ قليلا). وقد خسر مثل بقيّة النّزهاء أملاكه أثناء الحرب. وقد مرّت عائلته إثر ذلك بأوقات عصيبة. لكنّها فضّلت أن تعمل بشرف على أن

تقبل مساعدتنا. ولهذا السّبب، تعمل كريستين اليوم موظّفة في مكتب البريد. وأظنّ أنّ هذا الأمر ليس مصدرا للإحراج. أليس كذلك؟».

رفع اللّورد إلكينس بصره، مبتسما. «أتطرحين هذا السّؤال على شخص عمل بدوره طيلة أربعين سنة في خدمة الدّولة؟ إذا كان ذلك أمرا محرجا، فإنّني أتقاسم معها الإحراج ذاته. والآن، وقد تحدّثنا بوضوح، فلنفكّر في الوضع بوضوح أيضا. لقد أيقنتُ على الفور أنّ هذه الادّعاءات البغيضة ليست سوى إشاعات دنيئة. فمن بين المزايا القليلة للتّقدّم في السّنّ ألاّ يخطئ المرء إلاّ نادرا في الحكم على النّاس. فلنتقبّل الأمور إذن على حالها. فمنذ الآن، لن يكون موقف الآنسة كريستيانا سهلا. إذ ليس هناك ما هو أكثر حقدا وغدرا من هذا الوسط الذي يريد أن يلعب دور المجتمع الرّاقي. إنّ مدّعيا أحمق مثل هذا الترنكفيتس لن يغفر لنفسه طيلة عشر سنوات أنّه كان ودودا ذات مرّة مع موظّفة في مكتب البريد. وسيؤلمه هذا الأمر أكثر من وجع الأسنان. كما أنّني لا أستبعد أن يسمح الآخرون لأنفسهم بقلّة الأدب في التّعامل مع ابنة أختك. وفي أحسن الأحوال، سيكتفون بالبرود والفظاظة. إنّني أودّ أن أمنع ذلك. فلا شكّ أنّك قد لاحظت تقديري الكبير لها. وسأكون سعيدا إذا تمكّنتُ من مساعدتك في أن نبعد الخيبة عن هذه الفتاة البريئة الرّائعة».

توقّف اللّورد إلكينس فجأة. ثمّ استأنف حديثه قائلا: «هل يمكنني أن أحميها على المدى البعيد؟ هذا ما... لا يمكنني أن أعدك به. يعتمد الأمر... على طبيعة الظّروف. ولكن على أيّة حال، إنّني أنوي أن أبيّن لهم احترامي الشّديد لها، والذي يفوق احترامي لهؤلاء

الأوغاد الأثرياء. وليعلم كلّ من تخوّل له نفسه أن يتجرّأ على الآنسة أنّ عليه أن يواجهني شخصيّا». وقف فجأة في حزم وتصميم لم تلاحظهما السّيّدة فون بولن عليه من قبل. «أسألك سيّدتي الإذن بأن أدعو الآن الآنسة ابنة أختك إلى نزهة بالسّيّارة».

«لك ذلك طبعا».

انحنى أمامها. وانصرف متّجها نحو الصّالون، وجنتاه محمرّتان كأنّ الرّيح قد جلدتهما وقبضتاه مضمومتان بشدّة. كانت الخالة تتابعه بنظرها متعجّبة. «ما الذي يريده يا ترى؟»، تساءلت في انبهار، دون أن تنحّي بصرها عنه. كانت كريستين منهمكة في الكتابة. فلم تسمع وقع خطواته المقتربة. أمّا هو، فقد رأى من الخلف تلك الجدائل الصّفراء منسابة على العنق. رأى هذا الجسد الذي أيقظ فيه الرّغبة بعد سنوات طويلة. «يا للطّفلة المسكينة الهادئة!»، فكّر في نفسه. «إنّها لا تعرف شيئا. لا تعلم أنّهم سيصيبونها بطريقة أو بأخرى. ولن يستطيع أحد حمايتها». لمس كتفها برقّة. فرفعت عينيها. واعتدلت على الفور باحترام. لقد شعرت منذ اللّحظة الأولى التي التقت فيها بهذا الرّجل بحاجة ملحّة إلى أن تظهر له احتراما خاصّا. أجبر نفسه على الابتسام لها. وقال: «لديّ رجاء ألتمسه منك، عزيزتي الآنسة كريستيانا. إنّني متوعّك بعض الشّيء. وأشعر بالصّداع منذ الصّباح. لا أستطيع أن أقرأ أو أنام. ولذلك فكّرتُ أنّ بعض الهواء النّقيّ قد يفيدني. وسيكون رائعا بالنّسبة إليّ أن تقبلي مرافقتي في نزهة بالسّيّارة. لقد طلبت الإذن من خالتك. فهل تقبلين بذلك؟». «طبعا... يسعدني ذلك... ويشرّفني».

«إذن، فلنذهب!». وقدّم لها بشكل احتفاليّ ذراعه. كانت مندهشة بعض الشّيء ومرتبكة. إذ كيف يمكن لها أن ترفض شرفا كهذا؟ وببطء شديد ومشية واثقة، عبر معها القاعة كلّها، ملقيا على الحاضرين، وعلى غير عادته، نظرات سريعة ثاقبة، لا مجال لتجاهل التّهديد الكامن فيها: إيّاكم أن تلمسوها! لقد اعتاد أن يمرّ بينهم في لطف وتودّد، ظلاً رماديّا هادئا لا يُلاحَظ. لكنّه الآن يُثبِّت كلّ واحد منهم بنظرة مستفزّة. وقد فهموا جميعا وعلى الفور هذا الحسّ الاستعراضيّ الكامن في ذراعه الممدودة لها وهذا الاحترام المُغلَّظ. توجّه المستشارة الخاصّة نظرات الحسرة لهما. ويومئ الكينسلي بتوتّر للفارس الشّجاع ذي الشّعر الأبيض كالثّلج والنّظرة الباردة، وهو يعبر القاعة الكبيرة، رفقة الفتاة الشّابّة المطمئنّة الفخورة والسّعيدة. كانت شفتاه ترسمان الملمح الصّارم لجنديّ يترأّس فوجه ويتأهّب لإطلاق الأوامر بالهجوم على العدوّ المتحصّن أمامهم.

عند وصولهما إلى باب النّزل، التقيا صدفة بالسّيّد ترنكفيتس، الذي ألقى التّحيّة بشكل آليّ. فاكتفى اللّورد إلكينس في المقابل بنظرة جانبيّة عابرة. ورفع يده مرتخية إلى شعره. ثمّ أسقطها من جديد، كأنّه يردّ تحيّة أحد النّدل. لقد كانت حركة شبيهة بالزّجر مفعمة باحتقار لا يوصف. أطلق ذراع كريستين. وفتح بنفسه باب السّيّارة لها. ثمّ اكتشف فجأة، وهو يساعدها على الرّكوب، أنّ سلوكه هذا لا يقلّ في شيء عن الاحترام الذي أبداه لزوجة أمير انجلترا، عندما اصطحبها ذات يوم خلال زيارته إلى ترانسفال[1] في نزهة بسيّارته.

(1) ترانسفال Transvaal: منطقة تقع في الشّمال الشّرقيّ لإفريقيا الجنوبيّة.

لقد أثار حوارُ اللّورد إلكينس السّرّيُ مع السّيّدة فون بولن خوفا أكبر بكثير ممّا بدا عليها. إذ لا شكّ أنّه فتح جرحا قديما حسّاسا. ففي تلك المنطقة المظلمة للذّكريات شبه الواعية أو تلك المنسيّة عمدا، حيث الأنا لا يجازف بالاقتراب إلاّ كرها أو خوفا، ثمّة قلقٌ قديم راسخ داخل كلير فون بولن التي أصبحت برجوازيّة منذ زمن بعيد، قلقٌ يصعدُ أحيانا إلى أحلامها ويخنق منامها. إنّه الخوف من اكتشاف ماضيها. فقبل ثلاثين سنة، عندما اضطرّت كلارا إلى مغادرة أوروبا -وكان ذلك رحيلا مفروضا عليها ولكنّها استثمرته ببراعة- ثمّ تزوّجت الفون بولن، لم تسعفها الشّجاعة لتعترف لهذا المواطن المبجّل الشّريف والمحافظ نوعا مّا، بالمصدر المربك لرأس المال الصّغير الذي استقدمته معها لزواجهما. لقد أخبرته على الفور أنّها قد ورثت هذين الألفين من الدّولارات من جدّها. ولم يشكّ الرّجل الطّيّب العاشق خلال ارتباطهما ولو للحظة في صحّة هذه الحكاية. لم يكن هناك ما تخشاه من جهة طبعه الطّيّب الهادئ. ولكن كلّما توغّلت كلير أكثر في المجتمع البرجوازيّ، زادت شكوكها ومخاوفها ونمت بداخلها الوساوس. ماذا لو حدثت صدفة مّا أو لقاء غير متوقّع أو وصلت رسالة مجهولة لتفضح فجأة قصّتها المنسيّة؟ ولهذا السّبب، ظلّت تتفادى، طيلة سنوات وبعناد ثابت، أن تخالط أبناء وطنها. وإذا عرض عليها زوجها مثلا أن تلتقي برجل أعمال من فيينّا، فإنّها ترفض ذلك، مدّعية أنّها قد نسيت الألمانيّة، بينما لم تكن في الحقيقة تجيد تكلّم الانجليزيّة الدّارجة حتّى. لقد توقّفت أيضا وبشكل قاطع عن مراسلة عائلتها، مُكتفية أثناء المناسبات الهامّة فحسب بإرسال برقيّة وجيزة.

ومع ذلك، لم يغادرها الخوفُ أبدا. بل ظلّ ينمو ويكبر مع كلّ ترقٍّ اجتماعيّ. وكلّما تماهت مع الأعراف الأمريكيّة القاسية، صار خوفها مرضيّا حتّى إنّها أصبحت تخشى أن تثير مجرّد محادثة عابرة النّار النّائمة تحت الرّماد. ويكفي أن يقول ضيف مّا عند العشاء إنّه عاش طويلا في فيينّا حتّى تمتنع عن النّوم طيلة اللّيل، وتشعر بألم حارق في قلبها. ثمّ جاءت الحرب لترمي الفترة المنصرمة بضربة واحدة في ماضٍ أسطوريّ لا ينفذ إليه أحد. سقطت الجرائد والمجلاّت القديمةُ غبارا. وانشغل النّاس في البلد بهواجس ومسائل أخرى مختلفة تماما. لقد انتهى الأمر. ونسي تماما. ومثلما تتوقّف رصاصة بقيت في اللّحم واندمجت مع نسيجه عن الإيلام إلاّ مع تبدّل الطّقس، ومثلما تصبح هذه الرّصاصة جزءا أليفا من الجسد، مكثت هذه البقايا العنيدة لماضيها منسيّة داخل هناء بلا غيوم وأنشطة ممتعة. فهي أمّ لولدين قويّين، تشارك زوجها أعماله متى شاءت. وهي أيضا عضوة في الرّابطة الخيريّة ونائبة رئيسة جمعيّة لمساعدة المساجين المفرج عنهم. لقد كانت محترمة ومبجّلة من قبل الجميع في المدينة. وقد تحقّقت أخيرا آمالها المكنونة داخلها في منزل جديد فخم تتردّد عليه أكبر العائلات. ولكنّ الأمر الحاسم في راحتها هذه، هو أنّها قد نسيت هي نفسُها هذه الحلقة القديمة. فذاكرة الإنسان قابلة للانتهاك في نهاية المطاف. وهي منقادة دوما لحكم رغباته. ولذلك تُحدِث الحاجة إلى طرد الأحداث السّيّئة أثرها البطيء والحاسم أيضا في الذّاكرة. لقد ماتت في النّهاية كلارا عارضة الأزياء، لتولد من بعدها الزّوجة المدلّلة لتاجر القطن فون بولن. لم تكن تفكّر حقّا في تلك الحلقة من حياتها، ممّا جعلها تراسل أختها فور

وصولها إلى أوروبا رغبة في اللّقاء بها مجدّدا. وإذ علمت الآن أنّ هناك من يفتّش في جذور ابنة أختها رغبةً في إيذائها، فما الذي يؤكّد لها أنّه لن يهتمّ كذلك بالبحث في ماضيها؟ إنّ الخوف مرآة مُشوّهة للحقيقة. يبدو كلّ ملمح على سطحها أكبر من حجمه الواقعيّ، مُفزعا على نحو مبالغ فيه. ثمّ تبدأ المخيّلة بالعمل. فتنشئ أكثر الافتراضات جنونا وابتعادا عن الحقيقة. تصبح أكثر الإمكانات عبثيّة أمرا معقولا ومتاحا. تذكّرت فجأة وبفزع كبير أنّ رجلا من فيينّا، متقدّما في السّنّ يبلغ السّبعين أو الثّمانين، كان جالسا إلى طاولة مجاورة في النّزل. إنّه مدير البنك التّجاريّ، السّيّد لوفي. وها هي تقدّر الآن أو يشبّه إليها أنّها تتذكّر أنّ لقبه العائليّ هو ذاته لقب زوجة مديرها السّابق. أيعقل أنّها أخته أو قريبته؟ ألن يخطر على باله أن يغذّي هذه الإشاعات ببعض التّلميحات؟ كيف لا يكون ذلك، والعجائز متحمّسون دوما لسرد قصص شبابهم الفاضحة؟ أحسّت كلير بعرق بارد يتصبّب على جبينها. فقد أحكم الخوفُ عمله، وجعلها الآن تفكّر في أنّ السّيّد لوفي يشبه بشكل غريب الزّوجة المعنيّة. إذ يملكان معا نفس الشّفاه الممتلئة والأنف المعقوف ذاته. وفي غمرة القلق النّاتج عن فزعها، بدت متيقّنة من كونه أباها ومن أنّه دون شكّ قد تعرّف عليها، وسيكشفُ القصّة القديمة بكلّ تفاصيلها، ليتحوّل الأمر إلى مأدبة سماويّة بالنّسبة إلى عائلتي كينسلي وغوغنهايم. وفي الغد، سيتلقّى أنطوني رسالة مجهولة المصدر تقوّض ثلاثين سنة من الزّواج السّعيد.

شعرت كلير بالغثيان لوهلة. واضطرّت إلى أن تستند إلى ظهر كرسيّها. ثمّ انتصبت واقفة، تدفعُها طاقة اليأس. تحاملت على نفسها

كي تمرّ من أمام طاولة الكينسلي وتومئ لهما بالتّحيّة. وقد ردّوا عليها بلطف، معلّقين على وجهيهما تلك الابتسامة الأمريكيّة النّمطيّة التي تعلّمتها هي نفسها منذ زمن بعيد. ولكنّها ظنّت وسط وساوسها أنّها ابتسامةٌ غير مألوفة، ساخرة ومسيئة، ابتسامة أناس يعرفون سرّها. وحتّى نظرةُ فتى المصعد أربكتها. وأقلقها كثيرا مرور خادمة الغرف من أمامها في الرّواق دون تحيّة. أحسّت بإرهاق شديد، كأنّها قد أتمّت جولة طويلة في الثّلج العميق. فلجأت إلى غرفتها.

استيقظ أنطوني للتّوّ من قيلولته، وحمّالتا بنطاله مرتخيتان على وركيه، ياقته مفتوحة ووجنتاه ما تزالان مجعّدتين من أثر النّوم. مكث يمشّط شعيراته القليلة المتناثرة أمام المرآة. ويدهنها بمرهم حتّى يُبين المفرق بشكل أفضل. «أتوسّل إليك... أسرع. علينا أن نتحدّث في هدوء»، تقول، وهي تتنفّس بصعوبة. «لقد حدث أمر سيّء جدّا». كان أنطوني صاحب الطّبع البارد قد اعتاد منذ زمن بعيد على مزاج زوجته المتقلّب. ولذلك لا يميل إلى التّفاعل بسرعة مع هذا النّوع من التّصريحات. قال لها دون أن يلتفت: «أرجو ألاّ يكون الأمر خطيرا حقّا. هل هي برقيّة من ديكي أو آلفين؟». «لا، ولذلك أسرع يا رجل. سترتدي ثيابك لاحقا». «حسنا». وضع أنطوني المشط جانبا. وجلس في مقعده. «ما الذي حدث؟». «أمر فظيع... لا شكّ أنّ كريستين لم تكن منتبهة بما يكفي أو اقترفت حماقة مّا لينكشف كلّ شيء. يتحدّث كلّ من في النّزل عن الأمر».

- حسنا، ما الذي انكشف؟

- قصّة الملابس... أي إنّها ترتدي ثيابي أنا، وقد جاءت إلى

هنا مثل فتاة متجر، وإنّنا كسيناها من رأسها حتّى قدميها، وقدّمناها للجميع على أنّها فتاة راقية... يتناقل النّاس هنا أشياء كثيرة في ما بينهم... وقد اتّضح الآن سبب تجاهل الترنكفيتس لنا. لا شكّ أنّهما غاضبان منّا. فقد كانت لهما نوايا تخصّ ابنهما وكريستين. وهما يعتقدان أنّنا سخرنا منهما. ها إنّنا فقدنا سمعتنا في هذا النّزل. لا ريب أنّ هذه الخرقاء قد ارتكبت إحدى حماقاتها. يا إلهي! يا للعار الذي لحق بنا!

- لم تقولين هذا؟ كلّ الأمريكيين لديهم أقارب فقراء. لم أرغب أبدا في أن أتفحّص بمجهر أقارب الغوغنهايم، أو الفون روسكي أو الرّوزنشتوك، هؤلاء القادمين من كوڤنو[1]. أراهن أنّني لو فعلتُ ذلك لاكتشفتُ ما هو أسوأ بكثير. لا أفهم لم يجدر بنا الشّعور بالخزي لأنّنا منحناها ثيابًا لائقة.

- لأنّه... لأنّه... (رفعت كلير صوتها أكثر بتوتّر شديد) لأنّهم على حقّ... لا يجدر بفتاة كهذه أن تكون هنا، في هذا المجتمع الرّاقي... أقصد فتاة لا... لا تجيد التّصرّف بطريقة لا تفضح أصولها... إنّه خطؤها... لم يكن أحد ليلاحظ شيئا أو يكتشف أمرها لو مكثت متحفّظة مثلما كانت في البداية... ولكنّها أصرّت على أن تكون صاخبة، وأن تتقدّم الجميع في كلّ شيء، وأن تربط صلاتها بكلّ من يتحرّك في هذا النّزل... ما الغريب إذن في أن يتساءل النّاس عنها في النّهاية؟ من هي؟ ومن أين

(1) كوڤنو Kovno: غيتو يهوديّ، يُسمّى كذلك غيتو كاوناس، أنشأته ألمانيا النّازيّة لتضع فيه اليهود اللّيتوانيّين أثناء الهولوكوست.

جاءت؟ والآن... لقد وقعت الفضيحة. يتحدّث الجميع عنّا. ويسخرون منّا... ويُشيعون كلاما فظيعا».

أطلق أنطوني ضحكة هائلة. وقال: «دعيهم يتحدّثون... لا يهمّني ذلك. إنّها فتاة طيّبة ويافعة. وأحبّها رغم كلّ شيء. سواء كانت فقيرة أم لا، فهذا لا يعنيهم. لا أدين لأيّ منهم بملّيم واحد. ولستُ مهتمّا بمعرفة ما إذا كانوا يعتبرونني شخصا مرموقا. إذا كان من بينهم من هو منزعج منّا، فليحاول أن يحيا بهذا العبء على كتفيه». «ولكنّ الأمر يهمّني ويعنيني». ودون أن تلاحظ كلير، ازداد صوتها ارتفاعا وحدّة. «لن أسمح بأن يُقال عنّي إنّني خدعت النّاس من حولي، إذ قدّمتُ لهم فتاة فقيرة على أنّها دوقة نبيلة. ولن أسمح أيضا بأن ينسحب الترنكفيتس من موعد الدّعوة التي قدّمناها لهما في آخر لحظة، مرسليْن البوّاب ليعلمنا بذلك، عوض أن يعتذرا منّا. لا، لن أنتظر حتّى يُدير الجميع ظهورهم لي. لستُ مجبرة على ذلك. لقد جئتُ إلى هنا، والرّبّ شاهد على ذلك، كي أروّح عن نفسي، لا من أجل الغضب والانزعاج. لن أتحمّل ذلك مطلقا». «إذن؟»، كتم الزّوج تثاؤبه بيده. وأردف: «إذن؟ ماذا تنوين؟». «المغادرة». «ماذا؟». ورغم كسله المعتاد، انتفض أنطوني من مقعده، كأنّ هناك من داس على طرف قدمه.

«نعم، المغادرة... ومنذ صباح الغد أيضا. يخطئ النّاس إذا ما اعتقدوا أنّني سأحوّل نفسي إلى عرض للفرجة، أو أنّني سأحاول تبرير موقفي والاعتذار في النّهاية. لن أفعل ذلك لأمثال الترنكفيتس أبدا. وعلى أيّة حال، فالجمع هنا لا يعجبني، باستثناء اللّورد إلكينس. إنّهم مجموعة هجينة من المنحطّين المزعجين الصّاخبين. ولن أسمح

بأن يحطّ من قدري أمثال هؤلاء... ثمّ إنّ ارتفاع ألفي متر ليس جيّدا لصحّتي. لقد توتّرت أعصابي. ولم أعد قادرة على النّوم. طبعا، لم تلاحظ ذلك. فأنت تنام وترقد بشكل جيّد. كم كنتُ أودّ أن أستعير أعصابك ومزاجك طيلة الأسبوع الماضي. نحنُ هنا منذ ثلاثة أسابيع. وهذا يكفي ويزيد. أمّا بالنّسبة إلى الصّغيرة، فقد قمنا بأكثر من واجبنا تجاه ماري. لقد دعوناها. وقد ارتاحت هنا واستمتعت بوقتها، أكثر ممّا ينبغي لها حتّى. والآن، انتهى كلّ شيء. وليس لديّ ما يقلق ضميري». «ولكن إلى أين نذهبُ، هكذا فجأة؟». «إلى إنترلاكن[1]... الارتفاع أقلّ... وسنلتقي حتما بعائلة لينسي التي تبادلنا معها محادثة رائعة على متن الباخرة. إنّهم أناس ساحرون حقّا ومختلفون تماما عن هذا الحشد المختلط هنا. لقد راسلوني منذ يومين، مرحّبين بانضمامنا لهم. إذا غادرنا غدا صباحا، فإنّنا سنكون معهم أثناء العشاء». استمرّ أنطوني في الاحتجاج بعض الشّيء: «لماذا هذه العجلة دوما؟ أيجب أن نغادر غدا على الفور؟ مازال لدينا متّسع من الوقت».

وسرعان ما خضع لحكمها. لطالما فعل ذلك على أيّة حال، مُدركا من خلال تجربته أنّ إصرار كلير على أمر مّا لا يمكن أن يُجابه بالرّفض، لأنّ الطّاقة المبذولة لذلك لن تكون في النّهاية سوى سعي مهدور. بالإضافة إلى أنّ الأمر لا يهمّه حقّا. فهو أحد تلك الكائنات التي تكتفي بذاتها وتنغلق عليها، دون أيّ اكتراث بما يحدث من حولها. ولا فرق لديه إذا ما كان سيلعب البوكر هنا مع اللّينسي أو هناك مع

---

(1) إنترلاكن Interlaken: إحدى أشهر المناطق السّياحيّة السّويسريّة.

الغوغنهايم. لا فرق بتاتا بين أن يكون اسم الجبل الذي يقابل غرفته شفارتسهورن أو فيترّهورن[1]، أو أن يكون النّزل هو البالاس أو لاستوريا. فنظرا إلى سنّه وطبعه البارد، تتساوى الأشياء بالنّسبة إليه. كلّ ما يريد تفاديه هو الجدال فحسب. لقد اكتفى في النّهاية بالإصغاء في صبر إلى كلير، وهي تتّصل بالبوّاب، وتسأله القدوم إلى الغرفة، ثمّ تقدّم له سلسلة أوامرها، وتراقبه مُستمتعة، وهو يحمل الحقائب، بينما تحشر هي بقيّة الملابس بابتهاج غريب. أشعل غليونه. وانصرف إلى لعبة الورق. وبينما كان يخلطُ الأوراق ويوزّعها على اللاّعبين، خلا رأسه من التّفكير في الرّحيل وفي زوجته وابنة أختها.

كان النّاس في النّزل، أقارب وأصدقاء، يخوضون بشغف في مسألة قدوم كريستين ورحيلها القسريّ، عندما رسمت سيّارة اللّورد إلكينس الرّماديّة أثر مسارها العجيب عند زرقة الوادي. كانت تهبط المنعرجات ذات الحوافّ المكسوّة بالثّلج، متّجهة نحو إنجادين السّفلى، وقد اقتربت الآن من شولز تاراسب[2]. وكان اللورد إلكينس ينوي أن يصطحبها في نزهة قصيرة، يعلن من خلالها للجميع عن حمايته لها، ثمّ يعود بها مجدّدا إلى النّزل. ولكنّه عندما رآها وهي تسند ظهرها إلى الكرسيّ، تتحدّث بمرح، وتعكسُ السّماء في عينيها البريئتين، بدا له غبيّا أن يقطع عليهما لحظة صافية كهذه ولهذا طلب من السّائق أن يواصل القيادة. «لا حاجة إلى العودة سريعا»، فكّر في نفسه. «ستسمع

(1) شفارتسهورن Schwarzhorn وفيترّهورن Wetterhorn: جبلان في سلسلة جبال الألب.

(2) شولز-تاراسب Schuls-Tarasp: بلدة سويسريّة.

بالأمر قريبا على أيّة حال». اجتاحته رقّة لا تقاوم. فمسّح على يدها. «ومع ذلك، يجب أن أحذّرها في الوقت المناسب، وأن أعدّها بلطف لتواجه ما تخبّئه لها جماعة النّزل، حتّى لا تؤلمها بشدّة برودة الاستقبال المفاجئة. حاول أيضا أن يلمّح إلى شخصيّة المستشارة السّيّئة ويحذّرها من صديقتها الشّابّة. لكنّ سذاجة الصّبا وحماسته جعلتاها تدافع عن أسوأ أعدائها. قالت له إنّ المستشارة الخاصّة طيّبة جدّا وتهتمّ بالآخرين في كلّ التّفاصيل التي تخصّهم. أمّا بالنّسبة إلى صديقتها القادمة من مانهايم، فلا فكرة لدى اللّورد إلكينس عن مدى رصانتها ومرحها. ولا شكّ أنّها تشعر بالخجل في حضوره. ولذلك لم يتمكّن من ملاحظة طبعها. وعلى أيّة حال، فالجميع هنا رائعون، منشرحون ومرحّبون على الدّوام بحضورها، حتّى إنّها تشعر أحيانا بالخجل إزاء هذا الحظّ الوافر الذي جمعها بهم.

أخفض الرّجل العجوز بصره في اتّجاه طرف عكّازه. لقد أصبح منذ الحرب يحكم على النّاس والشّعوب بقسوة، لأنّه أدرك جيّدا أنانيّتهم وغلظتهم ورأى بعينيه الشّرّ الذي يتبادلونه في ما بينهم. لقد دفن بشكل نهائيّ في مستنقعات إيبرس[1] الدّامية، وتحديدا في حفرة مجاورة لسواسون[2]، حيث وقع ابنه قتيلا، مثاليّة شبابه الأوّل، تلك المثاليّة التي كانت تعتقدُ بالرّسالة الأخلاقيّة للإنسانيّة وبالتّطوّر الرّوحيّ للرّجل الأبيض. صار يشمئزّ من السّياسة وينفر من النّوادي والحلقات الاجتماعيّة بطابعها المسرحيّ المتكلّف وولائمها السّخيفة. ومنذ وفاة

(1) إيبرس Ypres: مدينة جنوب غرب بلجيكا.

(2) سواسون Soissons: بلديّة في إقليم أيسن شمال فرنسا.

ابنه، صار اللّورد زاهدا في ربط أيّ صلات جديدة بالآخرين. يغيظه رفض جيله العنيد أن يرى الحقيقة وجها لوجه وعدم قدرته على التّطوّر والتّأقلم مع العصر الحاليّ. ولكنّ الطّمأنينة الخرقاء لجيل ما بعد الحرب وادّعاءه المختال بمعرفة كلّ شيء على نحو أعمق وأفضل يفعلان به نفس الشّيء. ولكنّه استعاد مع هذه الفتاة إيمانه السّابق، ممتزجا بامتنان غامض لمجرّد شعوره بأنّ الشّباب لم يندثر بعد. لقد أدرك في حضورها أنّ التّشاؤم الذي أفرزه الجيل السّابق ممتزجا بالألم يظلّ مستغلقا وغير مفهوم بالنّسبة إلى هذا الجيل الحاليّ، وأنّ بداية مّا تحدث مع كلّ جيل جديد. يشعر بتأثّر عظيم لرؤية امتنانها الكبير لأبسط الأشياء. فتستيقظ في داخله مجدّدا تلك الرّغبة في أن يستقدم إلى حياته القليل من هذا الدّفء العجيب، أو ربّما يصهره تماما داخلها. يمكنني أن أستمرّ في حمايتها لبعض السّنوات الأخرى. هكذا يحدّث نفسه. لن تكتشف إذن -أو ربّما ستفعل ذلك في زمن متأخّر- انحطاط عالم يسجدُ لاسم نبيل في ما يركل الفقير ملء قدميه. أوه! (نظر إليها من زاوية عينه) لديها فم طفوليّ ينفتحُ ليسحب الهواء النّقيّ بينما تغمضُ عينيها... بعض سنوات أخرى من الشّباب، ولن أطلب أكثر من ذلك... تلتفتُ إليه لتحدّثه ببهجة وفرح كبيرين. لكنّه يوشك ألاّ يسمع ما تقوله. فقد تملّكه شعور مفاجئ بالجرأة. وراح يتساءل كيف يمكنه أن يغازلها بذكاء في هذه السّاعة التي ستكون الأخيرة على الأرجح.

تناولا الشّاي معا في شولز-تاراسب. ثمّ جلسا معا على إحدى المقاعد بالمتنزّه. فانطلق يتحدّث بحذر شديد ومواربة. قال إنّ لديه قريبتين في مثل سنّها تعيشان في أوكسفورد، وإنّ بإمكانها أن تسكن

معهما في حال أرادت أن تأتي إلى إنجلترا. قال أيضا إنّ حضورها سيمنحه سعادة عظيمة، وإذا كانت صحبة رجل عجوز مثله لا تزعجها، فإنّه سيسعد أيضا بمرافقتها في جولة لاستكشاف لندن.. إنّه لا يعرف ما إذا كانت قادرة على مغادرة النّمسا.. فربّما تشدّها روابطها الاجتماعيّة إلى هناك.. أي صلاتها الحميمة بعبارة أخرى. لكنّ كريستين في سعادتها الغامرة لم تفهم شيئا من تلميحاته. وأجابته مؤكّدة أنّها ستكون سعيدة باكتشاف العالم، وأنّ إنجلترا مكان رائع دون شكّ. فقد سمعت الكثيرين، وهم يتحدّثون بحماسة عن أوكسفورد وسباق زوارقها. ليس هناك أيّ بلد آخر تثير فيه الرّياضة مثل هذه المتعة، بلد يكون من العظيم للمرء أن يحلّ فيه شابّا.

قتم وجه إلكينس، رغم أنّها لم تستهدفه بأيّ كلمة. كلّ ما قالته كان يعنيها هي، إذ لم تفكّر إلاّ في نفسها وفي شبابها. لقد فقد مجدّدا كلّ جرأته وشجاعته. لا -قال في سرّه- إنّها جريمة أن يحبس المرء في قصر قديم وجانبَ رجل عجوز هذا الكائن الفتيّ المشعّ بالقوّة. لا، لن أجازف. ولن أسمح لنفسي بأن أُرفض أو أبدو أحمق أمامها. انسحب أيّها الرّجل العجوز! لقد انتهى الأمر. وتأخّر الوقت تماما.

«ألن نعود إلى النّزل»، سألها فجأة وبنبرة مختلفة. «أخشى أن تقلق السّيّدة خالتك».

«طبعا». وأضافت بحرارة: «آه، كانت نزهة لطيفة جدًّا. كلّ شيء هنا جميل بشكل لا نظير له».

جلس إلى جانبها في السّيّارة. ومكث صامتا وحزينا من أجلها ومن أجله هو أيضا. لا فكرة لديها عمّا يحدث في داخله أو ما يحدث

لها. كانت تتأمّل المشهد بوجه مشرق، وتحت وجنتيها اللّتان مسّحتهما الرّيح تبرقُ إثارة لذيذة.

دوّى الجرسُ بقوّة عند وصولهما إلى النّزل. صافحت بحرارة يد هذا الرّجل الذي تحترمه. وصعدت الدّرج كي تغيّر ملابسها. لقد أصبح الأمر طبيعيّا بالنّسبة إليها، خلافا للأيّام الأولى التي كانت تشعر فيها بالخوف والتّوجّس كلّما همّت لترتدي ملابس السّهرة. ولكنّها حافظت في المقابل على حماستها وفرحها بهذه اللّعبة المرحة. كانت تعود باستمرار لتقف أمام المرآة، وتتأمّل هذه الفتاة المفاجئة الأنيقة التي صارتها. أمّا الآن، فقد أصبحت تدرك من تلقاء نفسها أنّها جميلة كلّ ليلة وأنيقة في أحلى زينة ممكنة. بضع حركات وينزلق الفستان الخفيف المزركش من فوق كتفيها، وتصير جاهزة. إنّها تحيا في هذا البذخ المستعار، كأنّها تقيم في جسدها. نظرة واحدة من فوق الكتفين نحو المرآة... حسنا، ممتاز! وتندفع متّجهة إلى غرفة خالتها، كي تصحبها إلى العشاء.

لكنّها تتوقّف عند الباب مشدوهة. فالغرفة صارت شبه خالية ومشوّشة تماما. الحقائب نصف معبّأة والملابسُ مرميّة على الكراسي والطّاولات. تنتشر القبّعات والأحذية والفساتين في كلّ مكان. لقد عمّت الفوضى العارمة هذا المكان المرتّب بعناية في العادة. تركع الخالة فوق حقيبة عنيدة لتحشوها وتغلقها. «ماذا... ما الذي حدث؟»، تتساءل كريستين مندهشة. لم ترفع الخالة رأسها. واستمرّت في دفع الحقيبة. ثمّ قالت في تنهّد: «سنغادر... أوه، أيّتها الحقيبة الملعونة... هل ستنغلقين أخيرا؟ إنّنا نغادر النّزل».

«نعم... متى... لماذا؟». ثمّ صمتت كريستين بفم فاغر، جامدة في مكانها. طرقت الخالة مجدّدا قفل الحقيبة. فانغلقت أخيرا. «نعم للأسف... يؤسفني ذلك أيضا كريستل. لقد قلت لك منذ البداية إنّ أنطوني لن يتحمّل هذا الهواء الرّطب. إنّه لا يناسب العجائز. لقد أصيب هذا المساء مرّة أخرى بنوبة ربو». كان الخال قد خرج للتّوّ من غرفة مجاورة، غير مدرك لما يحدث. فاندفعت كريستين نحوه قلقة: «يا إلهي!». كانت ترتجف توتّرا ولهفة. فأمسكت ذراعه بحنوّ. وسألته: «كيف تشعر يا خالي؟ يا إلهي، لو كنت حدستُ الأمر لما غادرت. حقّا، إنّني أعني ذلك تماما. ولكنّك تبدو في حال أفضل. أليس كذلك؟». ظلّت تحدّق فيه ذاهلة، بينما يتجلّى خوفها عليه حقيقيّا وصادقا. لقد نسيت أمرها تماما. ولم تفهم بعد أنّ عليها الرّحيل هي الأخرى. لم تستوعب إلاّ أمرا واحدا، وهو أنّ الخال الطّيّب مريض. ومن أجله هو، لا من أجلها، تشعر اللّحظةَ بقلق شديد.

أمّا أنطوني الأكثر نشاطا وبرودا من عادته، فقد شعر رغم ذلك بتأثّر شديد بهذا العطف والاهتمام الصّادقين. وشيئا فشيئا، فهم الدّور الموكول إليه في هذه التّمثيليّة السّخيفة. «لا يا طفلتي العزيزة»، هتف بصوته الأجشّ. (أيّ فكرة ملعونة جعلت كلير تزجّ بي في المقدّمة؟) «أنت تعرفين كلير. إنّها تبالغ دوما. إنّني بخير. ولو كان القرار بيدي، لبقينا هنا دون أن نغادر». ثمّ أضاف فجأة وبنبرة حادّة، كي يردّ الفعل على هذه الكذبة التي اختلقتها زوجته: «كلير، ألا يمكنك أن تتوقّفي عن حزم الحقائب؟ مازال لدينا متّسع من الوقت. وعلينا أن نقضّي هذه السّهرة الأخيرة بشكل رائع مع ابنتنا العزيزة». ورغم ذلك، واصلت

كلير عملها صامتة. ففكّر أنطوني في سرّه: «فلتتصرّف. لن أساعدها في تدبّر الأمر». وثبّت بصره في اتّجاه النّافذة، بينما مكثت كريستين بينهما مثل شيء زائد عن الحاجة، مغروزة في مكانها، صامتة ومرتبكة وسط الغرفة التي تعمّها الفوضى. خمّنت أنّ شيئا مّا لا تفهمه قد حدث سلفا. لمع البرق فجأة. وها هي تنتظر هدير الرّعد. لا شكّ أنّه سيحدث الآن... لا شيء غير الصّمت. هل تخاصما يا ترى؟ أم إنّ أخبارا سيّئة قد بلغتهما من نيويورك؟ ربّما يتعلّق الأمر بحادث في البورصة، في عملهما... انهيار بنكيّ مثلا؟ مثل هذه الأشياء تملأ الجرائد يوميّا. أيعقل أنّ الخال قد أصيب بنوبة ربو حقّا، وهو يخفي ذلك تحفّظا؟ لماذا يتركني كلّ منهما في هذه الحال؟ ماذا يجدر بي أن أفعل؟ لم يحدث أيّ شيء. عمّ الصّمتُ. وظلّت الخالة تذرع الغرفة جيئة وذهابا، في ما يوقّع بينما الخال خطواته الثّقيلة ويدوّي في صدرها نبض قلبها العنيف.

أخيرا... أيّ راحة هذه! هناك طرق على الباب. يدخل رئيس النّدل يلحقه نادل يحمل مفرشا أبيض. وأمام دهشة كريستين، شرعا في إزالة بقايا التّدخين عن الطّاولة وترتيبها من جديد. «أرأيت؟ -نطقت الخالة أخيرا- لقد فكّر أنطوني أنّه من الأفضل له أن يتناول عشاءه اللّيلة في الغرفة. إنّني أمقت تحايا الوداع التي لا تنتهي أبدا وتلك الأسئلة اللّعينة: إلى أين؟ كم ستمكثين هناك؟ كما أنّني حزمتُ جميع الأغراض، بما في ذلك ملابس السّهرة الخاصّة بأنطوني. إنّها في الحقيبة. أليس من الأفضل والألطف أن نتعشّى هنا في ما بيننا؟».

يتقدّم النّادلان، وهما يدفعان الطّاولة المتحرّكة. فيقدّمان الأطباق الموضوعة على ألواح النّيكل المسخّنة. فكّرت كريستين عند خروجهما:

«لا بدّ أن يشرح لي أحدهما ما يحدث». وظلّت تتأمّل في قلق وجهي خالتها وزوجها. كان الخال الذي يركّز بصره على صحنه قد شرع في غمس ملعقته في الحساء. أمّا الخالة، فهي شاحبة ومنزعجة. خرجت عن صمتها أخيرا: «تندهشين يا كريستين لأنّنا اتّخذنا قرارنا بهذه السّرعة. لكن كلّ شيء يحدث عندنا بسرعة فائقة. إنّها إحدى المزايا التي نتعلّمها في أمريكا، ألاّ نتلكّأ حين نفقد رغبتنا في شيء مّا. إذا لم تنجح التّجارة، نهجرها على الفور ونمرّ إلى شيء آخر. وإذا لم نعد نشعر بالرّاحة في مكان مّا، فإنّنا نحزم أمتعتنا ونغادر إلى أيّ بقعة أخرى. في الحقيقة، لم أرد أن أخبرك بالأمر لأنّني لاحظت أنّك تستمتعين جيّدا بوقتك هنا. ولكنّنا نشعر بعدم الرّاحة منذ فترة طويلة. كما أنّ أنطوني لا يطيق هواء الأعالي الشّحيح هذا. وقد صادف أن بلغتنا برقيّة هذا الصّباح من أصدقائنا في إنترلاكن. فوجدنا أنفسنا نقرّر على الفور أن نقضّي بعض الأيّام معهم، ثمّ نعود إلى بيتنا في إيكس-لي-بان[1]. إنّني أفهم تماما أنّ الأمر برمّته يصيبك بالدّهشة. لكن، يحدث كلّ شيء عندنا بسرعة هائلة».

حنت كريستين رأسها فوق صحنها، متفادية النّظر إلى خالتها. هناك شيء مّا يقلقها في نبرة صوتها وانسياب كلماتها. توجد حماسة زائفة مصطنعة في كلّ عبارة تخرج من فمها. إنّها تخفي شيئا مّا، شيئا سوف ينكشف في النّهاية، بل إنّه يتكشّف الآن: «كان من الأفضل أن تذهبي معنا طبعا». واصلت الخالة، وهي تقطع جناح الدّجاجة.

---

(1) إيكس-لي-بان Aix-les-Bains: بلديّة في إقليم سافوا في جنوب شرق فرنسا.

«لكنّ إنترلاكن لن تعجبك فيها أعتقد. فهي ليست مكانا صالحا للشّباب. كما أنّني أتساءل ما إذا كان هذا الانتقال مفيدا لك، والحال أنّ إجازتك توشك على الانتهاء. أخشى أن تفسدي ما تبقّى لك منها. لقد ارتحت هنا بشكل واضح. وقد أتى هذا الهواء النّقيّ أكله معك... نعم، إنّني أقولها دوما... لا شيء يفيد الشّباب أكثر من المرتفعات الجبليّة. يجب أن يزور ديكي وآلفين هذا المكان ذات يوم. في المقابل، لا تناسب إنجادين قلبين عجوزين منهكين... حتما، كان الأمر ليسعدنا. فقد اعتاد أنطوني عليك... لكنّ سبع ساعات ذهابا وسبعا أخرى للعودة ستكون كثيرة عليك. كما أنّنا سنعود في السّنة القادمة... طبعا، إذا كنت تريدين أن تذهبي معنا إلى إنترلاكن...».

«لا، لا»، قالت كريستين، أو بالأحرى قالت شفتاها ذلك، كمن يواصل الإحصاء أثناء التّخدير الطّبّيّ، في ما يكون وعيه قد فُقد منذ فترة طويلة. «إنّ الأفضل بالنّسبة إليك، حسب رأيي، أن تعودي مباشرة إلى المنزل. هناك قطار مريح جدّا يغادر من هنا، كما قيل لي في الاستقبال، عند السّاعة السّابعة صباحا. بإمكانك أن تصلي غدا ليلا إلى سالزبورغ وأن تكوني بعد غد في البيت. باستطاعتي أن أتخيّل سعادة أمّك وهي ترى أثر الشّمس على بشرتك. إنّك في أحسن حال. وهذه السّمرة التي اكتسبتها رائعة جدّا. من الأحسن أن تحتفظي بها حتّى تعرضيها على أهلك». «نعم، نعم». انسكبت الحروف ببطء، قطرة فقطرة من بين شفتيها. «لماذا تبقى هنا حتّى الآن؟ فكلاهما لا يفكّر إلاّ في التّخلّص منها بأسرع وقت ممكن. ولكن، لماذا؟ لقد حدث شيء مّا... لا شكّ أنّ أمرا مّا قد حدث... استمرّت في الأكل بشكل

آليّ، وفي كلّ لقمة تتنزّل المرارة في حلقها. انتبهت فجأة إلى أنّه يجدر بها أن تتكلّم قليلا وبطلاقة، حتّى لا يلاحظ كلاهما عينيها المشتعلتين ألما وحنجرتها المرتجفة من الغضب. يجب أن تتكلّم بهدوء في مسألة معيّنة وبلا مبالاة أيضا. ثمّ راودتها الفكرة المناسبة: «سأحضر لك ثيابك الآن حتّى تضمّيها إلى الحقائب». ووقفت عن الكرسيّ، متأهّبة للذّهاب. لكنّ الخالة دفعتها بلطف. «تمهّلي يا صغيرتي. مازال هناك متّسع من الوقت. ولن أحزم الحقيبة الثّالثة إلاّ صباح الغد». وفي حركة خجل مفاجئة، أضافت: «على أيّة حال، اتركي الفستان الأحمر. لستُ في حاجة إليه. كما أنّه يليق بك جدّا... وكذلك الأشياء الأخرى البسيطة والسّترة والثّياب الدّاخليّة دون شكّ... لا أحتاج إلاّ إلى ثوبي السّهرة الآخرين من أجل إيكس-لي-بان. فالجوّ هناك، كما تعرفين، رائع جدّا... النّزل مذهل، كما قيل لي. وأرجو أن يستمتع أنطوني بالحمّامات السّاخنة والهواء اللّطيف».

لقد حسمت الأمر الأكثر حساسيّة. وأفهمت كريستين أنّ عليها أن تغادر غدا. صار بإمكانها الآن أن تتحدّث مرارا وتكرارا بأريحيّة كبيرة. طفقت تسرد أبرز القصص التي حدثت في النّزل أثناء أسفارها. وتتحدّث عن أمريكا، بينما تجلسُ كريستين منطفئة منكسرة وأعصابها مشدودة بسبب هذا التّداعي الثّقيل المزلزل لكلمات لا نفع منها. «آه! ليتها تكفّ عن الكلام!». وحلّت استراحة وجيزة. فاغتنمتها كريستين هاتفة: «لا أريد أن أؤخّركما أكثر. يحتاج الخال إلى الرّاحة... وأنت أيضا خالتي. لا بدّ أنّك مرهقة بعد إعداد الحقائب. أيمكنني أن أساعدك في شيء آخر؟».

«لا، لا». وقفت الخالة أيضا. «لم يبق لي الكثير. وسأتكفّل به. أنت أيضا، يُستحسنُ أن تذهبي إلى السّرير مبكّرا. أعتقد أنّ عليك أن تستيقظي على السّاعة السّادسة صباحا. لن تغضبي منّا، لأنّنا لن نستطيع اصطحابك إلى المحطّة؟ أليس كذلك؟». «لا، لا حاجة إلى ذلك حقّا»، أجابت كريستين بصوت مكتوم، وهي تنظر إلى الأسفل. «وستكتبين إليّ. أليس كذلك؟ أنبئيني بأحوال ماري ما أن تصلي رجاء. وكما اتّفقنا، سوف نلتقي السّنة القادمة». ردّت كريستين: «نعم... نعم». حمدت الرّبّ لأنّها ستغادر أخيرا. قبّلت الخال في انزعاجه الواضح. ثمّ قبّلت الخالة. وهمّت بالانصراف.

«عليّ أن أخرج من هنا. بسرعة... بسرعة هيّا! ولكن ما أن وضعت يدها على المقبض حتّى اندفعت الخالة لتوجّه ضربتها الأخيرة. ضمّ الخوف صدرها بقوّة. «ولكن... ستذهبين مباشرة إلى غرفتك؟ أليس كذلك كريستل؟ عليك أن تنامي... وإلاّ... وإلاّ... غدا صباحا سيرغب الجميع في توديعنا... ونحنُ لا نحبّ ذلك. الأفضل لنا أن نغادر دون صخب، ومن ثمّ سنرسل البطاقات إلى الأصدقاء. لا يمكنني أن أتحمّل باقات الزّهور هذه و... موكب الوداع. ولذلك، لن تنزلي إلى الأسفل... أليس كذلك؟ ستتّجهين فورا إلى سريرك؟ هل تعدينني بذلك؟». «نعم، نعم... طبعا»، أجابت كريستين بآخر ما تبقّى من صوتها. وأغلقت الباب. ولم تتذكّر إلاّ بعد أسابيع أنّها قد نسيت عند رحيلها أن تقول لهما ولو كلمة شكر واحدة.

وما أن خلّفت الباب وراءها حتّى هجرتها كلّ قواها التي استجمعتها بصعوبة في الغرفة. ومثل حيوان جريح يحاول التّقدّم

وهو يعرج، متهالكا نفسه عن طريق الحركة فحسب، قبل أن تخونه أعضاؤه وينهار، ظلّت تزحف مستندة بيديها إلى الجدار حتّى أدركت غرفتها، حيث سقطت على المقعد جامدة. شعرت بالشّلل في دماغها وبأنّ طعنة مّا قد أصابتها من الخلف، دون أن تعرف صاحبها. هناك شيء مّا قد حدث دون شكّ. وهو موجّه لإيذائها. هناك من يريد اصطيادها. وليس بإمكانها أن تعرف السّبب.

حاولت في يأسها أن تفكّر في الأمر، لكنّ رأسها ظلّ خدِرا. أصبح كلّ شيء بداخلها غائما وجامدا. ومن حولها تيبّس العالم المحيط بها، عالم صار فجأة أكثر رعبا من تابوت أسود رطب. إنّه تابوت زجاجيّ يفيض بالضّوء ويغرق في رفاهية لا تحتمل، ساكنة، ساكنة بشكل مرعب، بينما تصعد داخلها صرخة تحتاج إلى جواب: «ما الذي فعلتُه؟ لماذا يطردانني؟». أحسّت بضغط لا يُطاقُ، كأنّ البناية الضّخمة كلّها، بنزلائها الأربعمائة وجدرانها وعوارضها وسقفها الهائل، تجثمُ على صدرها. تنظر إلى هذا الضّوء الأبيض السّامّ وهذا السّرير ذي الأغطية المزركشة بالزّهور، يدعوها إلى النّوم، وهذا الأثاث والمرآة الباردين. تشعر أنّها ستموتُ من البرد إذا ما ظلّت جالسة هنا، متألّمة في هذا المقعد، أو أنّها ستكسر الزّجاج من حولها في نوبة غضب حادّة، أو ربّما ستصرخ وتصيح وتبكي حتّى توقظ كلّ من في النّزل. فلتغادر على الأقلّ! نعم... الخروج... ولكن إلى أين؟ نعم تخرج فحسبُ، حتّى لا تختنق في هذا الصّمت المرعب، حيث الهواء جامد تماما.

وفجأة، قفزت خارج الغرفة، دون أن تعرف ما تريد فعله حقّا،

تاركة وراءها الباب مواربا والنّحاس والبلّور، يتبادلان تحت الضّوء بريقا لا معنى له.

نزلت الدّرج مثل السّائرة في نومها، تنزلق أمامها صور السّجّاد واللّوحات والأواني والخطوات والأضواء والزّبائن والنّدل وخادمات الغرف والأشياء والوجوه كالأشباح الفاترة. يحدّق فيها بعض الحاضرين. يلقون التّحيّة عليها، مندهشين لغفلتها عن ذلك. لكنّ عينيها مستترتان خلف حجاب. فهي لا تدرك ما تراه. ولا تعرفُ إلى أين تذهب أو ما تريد فعله. تقودها ساقاها عبر الدّرج بحيويّة لا تُصدّق. هناك آليّة مّا اعتادت أن تضبط تصرّفاتها وحركاتها. وها هي تنهار الآن. تجري بلا هدف، متقدّمة إلى الأمام ومدفوعة بخوف مجهول. ثمّ تقف فجأة عند مدخل القاعة، وقد تذكّرت أنّها المكان الذي يتأخّر فيه الجميع، مكان الرّقص والضّحك والاجتماعات الممتعة. تحاول جاهدةً أن تفهم ما يحدث لها: «لم أنا هنا؟ لماذا أتيتُ إلى هذا المكان؟». وتحطّم الاندفاع الذي يحملها فجأة. لم تعد قادرة على المواصلة. وما أن توقّفت حتّى أخذت الجدران في التّأرجح. وانزلقت السّجّادات من أمكنتها. ورسمت الشّمعدانات هالات بيضاء مدوّخة. «إنّني أسقط»، فكّرت، والأرض تنزلق من تحت قدميها. وبشكل غريزيّ، أمسكت بيدها اليمنى طرف الباب. واستعادت توازنها. لكنّها فقدت قواها تماما. ولم تعد قادرة على التّقدّم أو التّراجع. فمكثت في تلك الحال، نظرتها ثابتة وثقل جسدها مستند إلى الحائط، جامدة، منقطعة الأنفاس وتائهة.

وفي تلك اللّحظة، أطلّ المهندسُ الألمانيّ. كان ذاهبا إلى غرفته

ليحضر بعض الصّور الفوتغرافيّة ويعرضها على إحدى صديقاته. وها هو يلمح شبحا غريبا ملتصقا بإطار الباب، يتنفّس بصعوبة وعيناه مفتوحتان معميّتان. في البداية، لم يتعرّف عليها. ثمّ اتّخذ صوته نبرته المنشرحة المألوفة: «آه، إنّك هنا. لماذا لا تأتين إلى القاعة؟ أتخفين شيئا يا ترى؟ ولماذا... ولكن... ماذا هناك؟ ما بك؟».

حدّق فيها باستغراب. أمّا هي، فقد قفزت في مكانها ما أن سمعت صوته. وأخذت ترتجف بشدّة، كسائرة في نومها تسمع اسمها فجأة. انعقد حاجباها من الذّعر. فبدت نظرتها شاحبة ومتوتّرة. رفعت يدها، كأنّها تصدّ لكمة. وسمعته، وهو يسألها: «ما بك؟ هل أنت مريضة؟». ثمّ أمسك بها في الوقت المناسب. فقد كانت كريستين تترنّح بشكل غريب، فيما يرتسم أمام عينيها حجاب أزرق. أحسّت بلمسة ذراعه التي أعادت إليها شيئا من الدّفئ الإنسانيّ. «عليّ أن أتحدّث معك... فورا... ولكن ليس هنا... ليس هنا أمام الآخرين... أرجوك، أريد أن أتحدّث معك على انفراد». لم تكن تعرفُ ما تريد قوله. ولكنّها في حاجة إلى أن تتكلّم فحسبُ، أن تتكلّم مع أيّ شخص وتريح أعصابها.

اندهش المهندسُ لنبرة صوتها الحادّة على غير عادتها. وخمّن أنّها مريضة دون شكّ، وأنّها قد أُقعدت في الفراش، ولذلك لم يرها في الأسفل. لا بدّ أنّها قد غادرت سريرها خفية. تشير عيناها اللاّمعتان إلى كونها محمومة... أو ربّما أصابتها نوبة هستيريا. فذلك مألوف عند النّساء. وعلى أيّة حال، ينبغي تهدئتها أوّلا. يجب أن تهدأ. وعليّ ألاّ أشعرها بمرضها. سأكتفي بمسايرتها. «طبعا، طبعا آنستي (تحدّث

إليها، كأنّه يكلّم طفلة) يمكننا إذا شئت أن نمشي قليلا أمام النّزل... في الهواء الطّلق... سيشعرك هذا الأمر بالرّاحة دون شكّ... القاعة هنا ساخنة دوما بشكل مزعج».

«ينبغي تهدئتها أوّلا»، قال لنفسه مجدّدا، وهو يمسك بذراعها ويتحسّس نبضها كي يرى ما إذا كانت محمومة فعلا. لا، ليست كذلك. فيدها جليد. «غريب... -تعجّب، وهو يشعر بضيق متزايد- أيّ قصّة غريبة هذه؟».

يتأرجحُ أمام النّزل وميضُ المصابيح الكبيرة العالية. وتلوح الغابة من جهة اليسار غارقة في الظّلال. هناك انتظرته أمس. ولكنّ الأمر يبدو لها قد حدث قبل ألف سنة. فقد اندثرت الذّكرى من كلّ خليّة في جسدها. قادها بلطف إلى تلك الجهة. (من الأفضل لها أن تدرك الظّلام بسرعة. فمن يدري ما قد يحصل لها؟). تركته يقودها في استسلام، بينما كان هو يفكّر في داخله: «عليّ أن أشغل بالها بأيّ شيء. يجب أن أتحدّث في أيّ مسألة تافهة وأن أتجنّب المواضيع الجادّة. سأتكلّم في أيّ شيء. وسيكون هذا كفيلا بإلهائها. «أليس الجوّ ألطف هذا اليوم؟ ضعي معطفي إذا شئت... يا لها من ليلة رائعة! انظري إلى النّجوم... من الغباء حقّا أن يقضّي المرء ليلة كهذه داخل النّزل».

لكنّ كريستين التي لم تتوقّف عن الارتجاف لم تسمعه أصلا. عن أيّ نجوم وأيّ ليلة يتحدّث؟ لا شيء يهمّها الآن سوى نفسها، أناها المسكينة المختنقة المقموعة والمكبوتة منذ سنوات، والتي استيقظت فجأة من آلامها وقد تحوّلت إلى وحش يمزّق صدرها. وفجأة أيضا، انفجرت الكلمات رغما عن إرادتها، وهي تمسك ذراعه بقوّة:

«سنغادر... غدا، سنغادر النّزل... إلى الأبد... ولن أعود إلى هنا أبدا... أبدا... أتسمعني؟ أبدا... أبدا... لا، لن أتحمّل ذلك، مطلقا... مطلقا». إنّها محمومة. هكذا فكّر المهندس، وهو يرقب جسدها مرتجفا بشدّة. إنّها مريضة. وعليّ أن أتّصل بطبيب. لكنّها تشبّثت بقوّة بذراعه: «ولكن، لماذا... لا أعرف لم... يجب عليّ أن أغادر فجأة هكذا... لا بدّ أنّ شيئا مّا قد حدث... ولا أعرف ما هو. عند الغداء، كانا ما يزالان ودودين معي. ولم يذكرا أيّ كلمة عن الرّحيل. واللّيلة يقولان لي إنّ عليّ الذّهاب غدا... غدا صباحا... على الفور... ولا أعرف لماذا... لماذا يريدان التّخلّص منّي بهذه السّرعة؟... كأنّهما يلقيان من النّافذة شيئا زائدا عن الحاجة... لا أعرف كيف... لا أعرف... لا أفهم شيئا... لا شكّ أنّ شيئا مّا قد حدث».

«آه! فهمت». واتّضح كلّ شيء أمام عيني المهندس. لقد بلغته منذ حين تلك الإشاعات والنّمائم التي تخصّ عائلة فون بولن. وقد ردّ عليها، فزعا على الرّغم منه، قائلا إنّه كاد يطلب يدها للزّواج. لقد فهم الآن كلّ شيء. يطردُ الخال وزوجتُه المسكينةَ بسرعة حتّى لا تجلب لهما المزيد من المتاعب. لقد انفجرت القنبلة!

تفحّص الوضع بسرعة. وقال لنفسه: «إيّاك أن تخوض معها في الأمر! يجب أن تلهيها عنه... غيّر الموضوع بسرعة!». ورمى بنفسه في مواضيع تافهة. قال لها إنّ الأمر لم يُحسم بعد، وربّما يغيّر خالها وخالتها رأيهما في النّهاية، وفي السّنة القادمة... لكنّ كريستين لم تسمع شيئا من ذلك. ولم تجبه بكلمة واحدة. كانت في حاجة إلى أن تكشف ألمها الحادّ العنيف. ضربت بقدمها على الأرض، مثل طفلة منبوذة حانقة:

«لكنّني لا أريد ذلك. لن أعود إلى البيت. ماذا سأفعل هناك؟ لن أستطيع تحمّله من جديد... لن أستطيع ذلك. ستكون تلك خسارتي الكبرى. سيدفعني ذلك إلى الجنون... أقسم لك أنّني لن أستطيع ذلك... لن أستطيع ولا أريد... ساعدني رجاء... ساعدني!».

إنّها الصّرخة المدوّية المختنقة لشخص يغرقُ. فقد انحبس صوتُها الآن. وانهمرت دموعها بشدّة. فغمرت وجهها، حتّى إنّه شعر بارتجافها في جسده. «لا رجاء -توسّلها رغما عنه- لا تبكي! لا تبكي هكذا!» ولكي يهدّئها، سحبها أكثر حتّى التصقت بجسده. فاستسلمت بثقلها على صدره. ولكنّه استسلام لا ينتمي إلى اللّذّة، وإنّما يحرّكه إعياء لا مثيل له. لم تدرك شيئا سوى قدرتها على أن تركن إلى جسد دافئ وتمسّح على شعرها يدٌ حانية وأنّها لم تعد وحيدة ومنبوذة بشكل مفزع. تلاشى نشيجها شيئا فشيئا. واحتوته هزّات خفيفة تعقبها دموع تسيل بهدوء أكبر.

ارتبك المهندس تماما. إنّه يقف هناك في ظلال الغابة، على بعد عشرين خطوة عن النّزل. (يمكن لأيّ شخص أن يراهما في أيّ لحظة أو يعبر أمامهما) وهو يمسك بين ذراعيه فتاة شابّة باكية. أحسّ بارتجاف صدرها الملتصق بجسده شبيها بموجة حارّة. لقد أسرته الشّفقة. وشفقة رجل إزاء معاناة امرأة تعني، دون وعي منه، الرّقّة. «عليّ أنّ أهدّئها... يجب أن تهدأ». كانت يده اليمنى تمسكها طيلة الوقت كي لا تسقط. وها هو يرفع اليسرى. ويمسّح على شعرها كأنّه يريد تنويمها. ولكي يخفت نشيجها أكثر، انحنى قليلا. وقبّل شعرها، فوجنتيها وأخيرا شفتيها المرتعشتين. وفي هبّة يأس مفاجئة، قالت له:

«خذني معك... خذني... فلنذهب... إلى حيث تشاؤون... إلى حيث تشاء... لن أتحمّل العودة إلى البيت... إلى أيّ مكان... أيّ مكان ما عدا البيت... ولنمكث قدر ما تشاء... هيّا لنذهب! لنغادر!». وهزّت ذراعه مجدّدا في تلك الحمّى الملتهبة بقوّة شديدة: «خذني معك!».

شعر المهندس بالخوف. «عليّ أن أنهي الأمر فورا... كما يفعل أيّ رجل عمليّ. يجب أن أنهي المسألة بسرعة... أهدّئها بشكل أو بآخر... وأرافقها إلى النّزل، قبل أن تسوء الأمور أكثر. «نعم، يا صغيرتي. نعم، دون شكّ عزيزتي. ولكن، لا حاجة إلى التّسرّع والاندفاع... سنتحدّث في الأمر لاحقا. لك أن تفكّري حتّى الغد... ربّما تغيّر خالتك وزوجها رأيهما... فتندمين حينئذ... غدا، ستصير الأمور أوضح بالنّسبة إلينا». ولكنّها تلحّ أكثر: «لا، ليس غدا... ليس غدا! عليّ أن أغادر في الغد... وفي الصّباح الباكر... إنّهما يرسلانني بعيدا مثل طرد بريديّ... بسرعة... بسرعة فائقة... في البريد السّريع. ولن أسمح لهما بطردي بهذا الشّكل... لن أسمح لهما بذلك». ثمّ تسترسل في الكلام، وهي تشدّه بقوّة أكبر: «خذني معك... الآن رجاء... ساعدني... إنّني... لن أتحمّل ذلك حقّا».

«عليّ أن أحسم الأمر»، فكّر المهندس في سرّه. «يجب أن أتملّص منها. لقد فقدت عقلها تماما. ولم تعد تدرك ما تقوله». التفت إليها، وهو يمسّح شعرها: «نعم، نعم، نعم يا صغيرتي... إنّني أفهمك دون شكّ. سندخل الآن إلى النّزل. ونتحدّث في كلّ هذا... لا يمكننا أن نمكث هنا، إذ لا يجدر بك أن تبقي هنا أكثر... سيصيبك البرد... إنّك بلا معطف وترتدين فستانا خفيفا... تعالي! فلندخل سويّا ولنجلس

في الرّدهة!». وفي اللّحظة ذاتها التي أتمّ فيها كلماته، سحب ذراعه بلطف، وأضاف: «تعالي يا صغيرتي!».

حدّقت كريستين في وجهه بثبات، وقد توقّف نشيجها تماما. لم تسمع ولم تفهم شيئا ممّا قاله للتّو. لكنّ جسدها الذي ظلّ يهتزّ بشكل آليّ أحسّ وسط يأسه الطّافح أنّ الذّراع الدّافئة الحانية قد انفصلت عنه بحذر شديد. لقد أدرك الجسدُ أوّلا ومن ثَمّ الغريزة والعقل أنّ هذا الرّجل يهجرها الآن، أنّه جبان ومحتاط وخائف وأنّ الجميع هنا يريدون رؤيتها تغادر وترحل. استيقظت من ذهولها. فقفزت قليلا، مبتعدة عنه. وقالت: «شكرا، شكرا، سأذهب بمفردي. المعذرة... لقد ساء مزاجي لوهلة فحسب... خالتي على حقّ... هذا الهواء الرّطب ليس مناسبا لي».

أراد أن يضيف شيئا مّا. لكنّها تجاهلته. وتقدّمت بحزم إلى الأمام، وقد تصلّب كتفاها فجأة. «لا أريد أن أرى وجهه مجدّدا. بل إنّني لن أرى أيّا منهم... الرّحيل الرّحيل... لن أذلّ نفسي أمام هؤلاء المتكبّرين الجبناء المتخمين... لن آخذ شيئا منهم بعد الآن. لن أقبل أيّ هديّة. ولن أسمح لأحد منهم أن يخدعني. لن أسلم نفسي لهم... لأيّ واحد فيهم. أفضّل أن أهلك في ركن منسيّ بدلا من ذلك». وبينما هي تعبر النّزل الذي أبهرها من قبل والقاعة التي عشقتها سلفا، وتمرّ أمام النّاس كأنّهم رسوم جداريّة، لم تشعر سوى بأمر واحد: الكراهية تجاهه وتجاه كلّ واحد منهم... تجاه الجميع.

بقيت كريستين طيلة اللّيل جالسة في جمود على الكرسيّ المجاور للطّاولة. ظلّت الأفكار المشوّشة تطوف في رأسها حول شعور وحيد،

وهو أنّ كلّ شيء قد انتهى. لم يكن ألمها مفهوما بالنّسبة إليها. فقد كانت تشعر في وعيها الخدِر بألم غامض يحدث في أعماقها، تماما كما يشعر مريض مخدّر بسكّين الجرّاح، تمزّق لحمه وتغوص في جسده. هناك شيء مّا يحدث، بينما تجلس هي ساهمة، بعينين ثابتتين كأنّهما نافذتان خاويتان، شيء لا يفهمه دماغها المشلول: إنّ هذا الكائن الجديد المختلف، هذا البديل الذي ولد في تسعة أيّام من الحلم، هذه الآنسة فون بولن المزيّفة والحقيقيّة في الآن ذاته تموت الآن شيئا فشيئا. ما تزال جالسة في الغرفة التي تحجزها هذه الآنسة. لها جسدها وحليّها الذي يلفّ عنقها البارد وفستانها المفضّل الخفيف والخطّ الأحمر الغامق على شفتيها. يبدو كلّ ذلك شبيها بجناحي يعسوب. لكنّه يهتزّ في الآن ذاته بشكل غريب على جسدها مثل كفن على جثّة. لم تعد تملك أيّ شيء من هذا العالم السّماويّ السّعيد. وقد عاد كلّ شيئا غريبا ومستعارا مثلما كان في اليوم الأوّل. إلى جانبها السّرير الأبيض بغطائه النّاعم المرتّب بعناية، يعد بالنّعومة والدّفء. لكنّها لا تستطيع أن تتمدّد عليه، إذ لم يعد ملكها. ينتشر من حولها الأثاث المشعّ وينبسط السّجّاد الذي يلهم السّكينة. لكنّها لم تعد تشعر أيضا، أنّ هذه الأدوات النّحاسيّة والحريريّة والكريستاليّة ملك لها، مثلها مثل القفّاز في يدها والمجوهرات في عنقها... كلّ هذا ينتمي إلى هذه الفتاة الأخرى، بديلتها المغتالة للتّوّ، كريستيان فون بولن التي تراوح اللّحظة بين الموت والحياة. تحاول أن تنسى هذه الأنا المصطنعة وتستعيد أناها الأخرى الحقيقيّة. فتدفع نفسها إلى التّفكير في أمّها التي تركتها مريضة وقد تكون ميّتة الآن. ولكنّها كلّما حاولت استحضارها عجزت أكثر

عن الشّعور بأيّ ألم أو توجّس. فقد ظلّ شعور وحيد يغمرها تماما، شعور بالغضب المكتوم الحاقد العاجز عن التّجلّي، غضب لا تعرف لمن توجّهه... لخالتها؟ لأمّها؟ أم لقدرها؟ غضب كائن وقع ضحيّة للظّلم. لا تحتفظ روحها المعذّبة بأيّ شيء سوى أنّه تمّ سلبها، وأنّ عليها أن تهجر أناها المجنّحة كي تعود من جديد يرقة عمياء زاحفة لا شكل لها، وأنّ شيئا مّا قد ضاع منها ولا يمكن استعادته أبدا.

مكثت على هذا النّحو جالسة طيلة اللّيل، سجينة لغضبها كأنّها داخل كتلة جليديّة. فلا تصلها عبر الأبواب المبطّنة أصوات حياة الآخرين في النّزل وتنفّس النّائمين الثّقيل وتأوّهات اللّذّة في غرف العاشقين وتضرّع المرضى وخطوات السّاهدين. لم تكن تسمع عبر الباب الزّجاجيّ المغلق صوت الرّيح تغلّف في الصّباح البناية النّائمة. فوعيها منغلق على نفسه وعزلته داخل هذه الغرفة وهذا النّزل وهذا العالم. لقد كانت كتلة من اللّحم تتنفّسُ وترتجفُ ساخنةً مثل إصبع مقطوعة، ولكنّها بلا قوّة ولا تصلح لشيء. لقد كان ذلك موتا جوّانيّا قاسيا. تنخفضُ حرارتها تدريجيّا، وهي جالسة في جمود تتأمّل اللّحظة التي يتوقّف فيها قلب فون بولن الملتهب عن النّبض. وبعد زمن لا حدود له، جاء الصّباح. وسمع صوت العمّال، وهم يكنسون الممرّات والبستانيّ وهو يمشّط الحصباء. إنّه اليوم الحقيقيّ الذي لا مفرّ منه. إنّها النّهاية والرّحيل. عليها الآن أن تعدّ حقائبها وتغادر وتعود من جديد تلك الفتاة الأخرى، مساعدة مكتب البريد هوفلنر القادمة من كلاين رايفلينغ، وتنسى تلك التي كان نفَسُها يطفو هنا في شكل موجاتٍ خفيفة شفّافة حول الثّروات المفقودة.

وقفت كريستين. فأحسّت بتصلّب في عضلاتها وإعياء لا مثيل له. بدت لها الخطوات الأربع التي خطتها حتّى الخزانة سفرا من قارّة إلى أخرى. كانت أعضاؤها الخدرة جامدة تماما. فتحت باب الخزانة. وقفزت في مكانها، عندما لمحت فستان كلاين رايفلينغ والسّترة الكريهة تتأرجحان مثل مشنوق شاحب ومبيضّ تماما. مدّت أصابعها بتردّد. وسحبتهما في اشمئزاز من يمسك بشيء متعفّن. عليها الآن أن تلج من جديد هذه الجثّة المدعوّة هوفلنر. ولا خيار أمامها. تخلّصت بسرعة من فستان السّهرة الذي انزلق خفيفا على جسدها، محدثا حفيفا يشبه ورق الحرير. نزعت بقيّة الملابس قطعة بعد أخرى، السّترة والثّياب الدّاخليّة وعقد اللّؤلؤ وما تبقّى من تلك الأشياء التي تلقّتها. لم تحتفظ إلاّ بالهديّة المحدّدة. وفي النّهاية جمعت أمتعتها الضّئيلة التي تُحشر بسهولة في حقيبة القشّ البائسة التي صارت جاهزة بسرعة.

لقد قضي الأمر. ألقت نظرة أخيرة من حولها. فلمحت على السّرير فساتين السّهرة وأحذية الرّقص والحزام والقميص الورديّ والسّترة والقفّازين المرميّين كيفما اتّفق، كأنّ انفجارا قد شظّى هذا الكائن الخرافيّ العجيب، المسمّى الآنسة فون بولن. تتأمّل كريستين، وهي ترتجف ذعرا، ما تبقّى من هذا الشّبح الذي كانته. التفتت لتتثبّت ما إذا كانت قد نسيت أيّ شيء يخصّها. ولكن، لا شيء يخصّها بعدُ في هذا المكان. سينام آخرون في هذا السّرير. وسيتأمّلون عبر النّافذة هذا المشهد الرّائع. سيحدّق آخرون طويلا في صورهم على هذه المرآة المؤطّرة. أمّا هي فلا. لن تفعل ذلك أبدا. هذا ليس رحيلا بالنّسبة إليها. إنّه موتها.

كانت الأروقة ما تزال خالية عندما خرجت بحقيبتها الصّغيرة في يدها. وبشكل آليّ، اتّجهت نحو درج العمّال. ففي ملابسها البائسة هذه، تشعر كريستين هوفلنر ألاّ حقّ لديها لتنزل الدّرج العظيم المُسجّد الملتصق بالخطوات التي تحدّها أعواد نحاسيّة. وقد فضّلت، وهي تشعر بالخجل، أن تذهب إلى درج العمّال الحديديّ الحلزونيّ المجاور للمراحيض. لاح بوّاب اللّيل في الرّدهة المعتمة التي لم ترتّب بعدُ بخطواته الثّقيلة ووجهه النّاعس المرتاب. ماذا؟ فتاة يافعة بملابس بائسة وحقيبة رثّة في يدها، يبدو عليها الخجل، وهي تنزلقُ مثل شبح باتّجاه الباب دون أن تعلمه؟ يندفعُ بسرعة. ويسدّ طريقها إلى الباب الدّوّار بذراع مهدّدة. «إلى أين تذهبين، من فضلك؟». «أغادر في قطار السّابعة». يتأمّلها البوّاب مذهولا. فهذه أوّل مرّة يرى فيها إحدى زبائن هذا النّزل، وهو يتّجه إلى المحطّة على قدميه حاملا حقيبته في يده. والأغرب من ذلك أنّ هذا الزّبون سيّدة يافعة. سألها في ارتياب: «أيمكنني... أيمكنني أن أعرف رقم الغرفة رجاء؟». وحينئذ فهمت كريستين الأمر. يحسبها البوّاب فتاة متسلّلة إلى النّزل. وله الحقّ في ذلك طبعا. لم تنزعج من تصرّفه. بل إنّها شعرت برغبة غريبة في أن تُعامل بشكل سيّء. «اجعل هذا الرّحيل مقيتا أكثر! هيّا... أكثر قسوة! هذا أفضل». أجابته بهدوء: «لقد حجزتُ الغرفة رقم 286... كريستين هوفلنر». «لحظةً من فضلك». أفسح البوّاب طريق الخروج. ولكنّه ظلّ يتابع المشتبه فيها بعينيه -وقد أحسّت بذلك- حتّى لا تنفلت منه، بينما يتفحّص سجلّه. تغيّرت نبرة صوته فجأة. انخفضت حدّتها. وصارت ألطف بكثير: «آه! أتوسّل إليك المعذرة آنستي! أرى أنّ بوّاب

النّهار كان على علم بالمغادرة... إلاّ أنّه... نظرا إلى الوقت المبكّر... ثمّ إنّه... لن تحمل سيّدتي الحقائب بمفردها دون شكّ... ستحملها لها السّيّارة قبل عشرين دقيقة من مغادرة القطار... تفضّلي رجاء بالجلوس في قاعة الفطور... لدى سيّدتي كلّ الوقت لتناول وجبتها قبل الذّهاب». «لا، لن آخذ شيئا بعد الآن. الوداع!». وخرجت دون أن تلتفت وراءها، بينما تابعها البوّاب بنظرة ثابتة مذهولة. ثمّ عاد إلى مكتبه، وهو يهزّ رأسه.

«لن آخذ شيئا بعد الآن». لقد أراحتها العبارة. لا شيء بعد الآن... ومن أيّ شخص. كانت تمسك الحقيبة بيدٍ وبالأخرى المظلّة، عيناها مثبّتتان بتوتّر على الطّريق، وهي تتّجه نحو المحطّة. لقد أشرقت الشّمس فوق الجبال وأضاءتها. وتحرّكت السّحب. وستغمر الزّرقة السّماء بعد قليل. إنّها تلك الزّرقة الإلهيّة، زرقة زهرة الجنطيانا الرّائعة التي تقيم في سماء إنجادين. ولكنّ كريستين التي كانت تسير بجسد محنيّ كأنّها شخص مريض، لم تكن ترى الطّريق أمامها. لم تكن تتأمّل أيّ شيء أو تقبل أيّ شيء من أيّ شخص، ولا حتّى من الرّبّ. كانت ترفض أن تلقي أبسط نظرة على المشهد من حولها، حتّى لا تتذكّر أنّ هذه الجبال ستكون ملكا لأشخاص آخرين إلى الأبد. ولهؤلاء ستكون ملاعب الرّياضة والألعاب والنّزّل وغرفها اللاّمعة وزلزلة الانهيارات الثّلجيّة وهمسات الغابة. لا شيء تبقّى لها. ولن يكون لها شيء بعد الآن. التفتت بشكل عفويّ. فرأت ملاعب التّنس، حيثُ شباب آخرون -كما صارت تعرف الآن- يتشمّسون بملابس بيضاء مدهشة، وسجائرهم في أفواههم، وهم يمرّنون أعضاءهم الرّشيقة.

مرّت أمام المحلاّت التّجاريّة المغلقة ذات المباهج الألف (آه! إنّها من أجل الآخرين... الآخرين فحسب) وأمام النّزل والبازارات ودكاكين الحلويّات. ابتعدي من هنا! هيّا ابتعدي! لا تنظري. وانسي كلّ شيء!

توارت في المحطّة داخل غرفة الانتظار الخاصّة بالدّرجة الثّالثة. يا للدّرجة الثّالثة الأبديّة! إنّها هي نفسها في كلّ مكان في العالم، بمقاعدها العارية وملمحها الكئيب الفقير. هنا، بدأت تشعر بكونها في بيتها تقريبا. تنتظر وصول القطار إلى المحطّة حتّى تغادر في أسرع وقت ممكن. يجب ألاّ يراها أو يتعرّف عليها أحد. ولكن، أهي تهذي الآن؟ إنّها تسمع اسمها: هوفلنر! هوفلنر! هناك شخص مّا -هل هذا ممكن حقّا؟- ينادي باسمها. يا للاسم الكريه! يرتعشُ جسدها خوفا. هل يريدون إهانتها مجدّدا أثناء رحيلها؟ أخذ النّداء يتّضح شيئا فشيئا. فأطلّت من النّافذة. ورأت البوّاب يلوّح ببرقيّة من بعيد. لقد وصلت ليلة الأمس. ولكنّ البوّاب المسكين لم يعرف ماذا يفعل بها، إذ لم يعلم برحيلها إلاّ هذا الصّباح. فتحت كريستين المظروف. وقرأت: «تدهور مفاجئ... تعالي على الفور! فوكستالر». وانطلق القطار... لقد حُسم الأمر. وانتهى كلّ شيء.

تستطيع كلّ مادّة أن تتحمّل قدرا معيّنا من الضّغط، لا يمكنها بعده أن تتماسك أكثر. فللماء درجة محدّدة للغليان وللمعادن درجة للانصهار. ولا تفلت عناصر الرّوح من هذا القانون الحتميّ. فالسّعادة تدرك درجة معيّنة، لا يمكن لأيّ زيادة بعدها أن تُحسّ. والأمر ذاته ينطبق على الحزن واليأس والإحباط والاشمئزاز والخوف. وما أن

يمتلئ المرء بها إلى آخره، حتّى تعجز الكأس عن استيعاب القطرة الإضافيّة التي يسكبها العالم.

وكذلك لم تشعر كريستين عند قراءتها للبرقيّة بأيّ ألم جديد. تأمرها المنطقة المضاءة من وعيها بأن تخاف وتقلق وترتعب. لكنّها رغم تنبيه دماغها الذي ما يزال متيقّظا، تعجز عن التّفاعل. فمشاعرها لا تعي الرّسالة وليست قادرة بعد على الاستجابة لها. يشبه حالها حال المريض الذي يغرز الطّبيبُ حقنته في ساقه المشلولة. يرى المريض الإبرة بوضوح. وهو يدرك جيّدا أنّها حادّة وحارقة، وتخترق اللّحظةَ لحمه، حتّى إنّه ينكمش في انتظار الألم. ومع ذلك، تنفذ الإبرة المحمرّة إلى جسده، دون أن يشعر العصب الميّت بأيّ شيء. فيدرك الرّجل المشلول ساعتها، وبذعر شديد، أنّ جزءا من جسده الدّافئ، هناك في الأسفل، أصبح ينتمي إلى الموت. تشعر كريستين بنفس الفزع إزاء شلل عاطفتها، وهي تقرأ الرّسالة وتعيد قراءتها لأكثر من مرّة. أمّها مريضة. وحالتها ميؤوس منها على الأرجح. فلو لم تكن كذلك، لما كسرت العائلة المقتصدة القاعدة وأرسلت تلك البرقيّة المكلّفة. وقد تكون ميّتة أصلا. إنّها كذلك فيما يبدو. ولكنّها، إذ تعي هذه الفكرة التي كانت أمس لتصعقها، لم تحرّك إصبعا واحدة والعضلةُ التي تقيم خلف جفنيها وترسل الدّموع لم تنطلق في عملها. ظلّ كلّ شيء جامدا في داخلها. ومن ثمّ، انتشر هذا الجمود في أنحاء المكان. لم تكن تشعر باهتزاز القطار تحت قدميها ولا بحضور الرّجال الجالسين على المقعد الخشبيّ المقابل، محمرّين يأكلون السّجق ويضحكون، ولا الصّخور التي تبزغ من حين إلى آخر أمام النّافذة فتتحوّل فجأة إلى تلال صغيرة

مكسوّة بالأزهار، ثمّ تغسل سيقانها في رغوة السّيول البيضاء. تيبّست ملامح المشهد الذي كانت قد رأت فيه أثناء قدومها حياةً لا مثيل لها، والتي أنعشت حواسّها من قبل. لقد تحجّرت تماما أمام نظرتها الخاوية. ولم يستعد جسدها إلاّ نصيبا من حساسيّته عندما وجدت نفسها بين أيدي موظّفي الجوازات عند الحدود. «عليّ أن أشرب شيئا مّا ساخنا، شيئا بإمكانه أن يذيب ولو قليلا هذا الجليد في الدّاخل ويرخي بعض الشّيء هذه الحنجرة المنعقدة والمنتفخة، حتّى تتنفّس أخيرا وتطلق كلّ هذا الذي يئنّ بداخلها.

اتّجهت إلى كافتيريا المحطّة. وشربت كأس شاي ممزوج بالرّوم. كان حارقا وهو يتدفّق في دمها وينشّط الخلايا الخدرة هناك في الأعلى، حيث دماغها. تمكّنت من التّفكير مجدّدا. وخمّنت أنّه من الأفضل أن تعلم بعودتها بواسطة برقيّة. «هناك عند زاوية الشّارع، يوجد مكتب البريد»، قال النّادل، وهو يؤكّد لها أنّ لديها ما يكفي من الوقت لفعل ذلك.

بحثت كريستين عن الشّبّاك. فوجدته مغلقا. طرقت. وأصغت إلى صوت خطوة زاحفة ثقيلة متذمّرة. ثمّ انفتحت النّافذة فجأة. «ماذا تريدين؟»، سأل الوجه الكالح الرّماديّ ذو النّظّارتين. لم تستطع كريستين أن تجيبه على الفور، لأنّها كانت مشدوهة في تلك اللّحظة. فهذه العانس الجافّة الذّابلة، ذات الأصابع المصفرّة التي تمدّ الاستمارة بشكل آليّ، ليست شخصا آخر غيرها هي... إنّها هي بعد عشرين سنة من الآن. لقد قدّمت لها مرآة شيطانيّة شبح مساعدة مكتب البريد التي ستصيرها مستقبلا. كانت تكتب بصعوبة بالغة،

ويدها ترتجف على الورقة. «إنّها أنا... هذا ما سأصيره»، قالت لنفسها مقشعرّة، وهي تتأمّل من زاوية عينها المرأة المجهولة النّحيلة المنحنية فوق المكتب، تنتظر بصبر وقلمُ الرّصاص في يدها. أوه، إنّها تعرفُ جيّدا تلك الحركة وهذه الدّقائق الخاوية التي يموتُ شيءٌ مّا داخلها مع عبور كلّ واحدة منها، كأنّها تمنح لكلّ قادم نصيبا من حياتها حتّى تهرم بلا فائدة، حزينة ومستنفدة مثل شبح. زحفت كريستين بساقين مرتعشتين وصولا إلى القطار. ولمع على جبينها العرقُ البارد، كمن يرى في حلمه أنّه مُسجّى في التّابوت، ثمّ يستيقظ فجأة ليطلق صرخة فزع هائلة.

في سانت بولتن[1]، كانت تجرّ قدميها المتألّمتين بتثاقل، مُغادرة القطار بعد ليلة من الأرق. وما أن تجاوزت المسلك حتّى رأت شخصا مّا يركض نحوها. إنّه المدرّس فوكستالر. لا بدّ أنّه انتظرها هنا طيلة اللّيل. ومن النّظرة الأولى، فهمت كلّ شيء. كان يلبسُ رداء أسود. وحين مدّت له يدها، صافحها بتعاطف وفي عينيه تلوح نظرة تأثّر وارتباك. لم تسأله كريستين عن أيّ شيء. فقد منعها خجلها من فعل ذلك. ولكنّ الغريب أنّها لم تضطرب مطلقا. ولم تشعر بألم أو صدمة أو مفاجأة. لقد ماتت أمّها. ولعلّ ذلك أفضل بالنّسبة إليها.

في الحافلة الجماعيّة المتّجهة نحو كلاين رايفلينغ، كان فوكستالر يحدّثها بصراحة عن تفاصيل السّاعات الأخيرة من حياة أمّها. بدا لها شاحبا ومنقبضا في ذلك الصّباح الرّماديّ، بلحيته الكثيفة وملابسه

(1) سانت بولتن St. Pölten: عاصمة ولاية النّمسا السّفلى وأكبر مدينة فيها.

الرّثّة المغبرّة. لقد كان يزور أمّها ثلاث مرّات أو أربعا في اليوم. ويقضّي اللّيل ساهرا على راحتها. «يا له من صديق لطيف! ليته يهدأ فقط ويتوقّف عن الكلام، ويتركها تستريح قليلا! إنّه يخطب بلا توقّف بهذا الصّوت النّاحب المتأثّر، كاشفا أسنانه الصّفراء البائسة». شعرت بالتّقزّز من هذا الرّجل الذي بدا لها من قبل لطيفا جدّا وجديرا بالإعجاب، تقزّز لامت عليه نفسها فورا. ولكنّ حضوره كان قويّا مثل مرارة تعلق بالشّفتين.

ودون أن ترغب في المقارنة، استعادت صور الرّجال المقيمين هناك في الأعلى، أولئك الرّجال النّبلاء الرّشيقين، ذوي البشرة التي تلفحها الشّمس، الأشدّاء ذوي الأيادي النّاعمة والملابس المفصّلة من أجلهم والفضول الغريب الماكر. تأمّلت بتفحّص شديد تفاصيل ثوب حداده الدّقيقة، كمّي المعطف وياقته المطويّة والقماش الرّثّ عند المرفقين وربطة العنق المعقودة فوق القميص القذر الرّخيص. إنّه مجرّد برجوازيّ صغير على نحو لا يطاق، سخيف إلى ما لا نهاية له، هذا الرّجل الضّئيل الواهن المتّشح بالسّواد، مدرّس القرى ذو الأذنين النّاتئتين الشّاحبتين وتسريحة الشّعر السّيّئة والنّظّارتين المعدنيّتين أمام عينين زرقاوين غائمتين محمرّتي الجوانب، هذا الوجه الورقيّ الحادّ المطلّ من الياقة الصّفراء اليابسة المجعّدة... إنّه يرغب في... هذا؟ مستحيل... أبدا... مستحيل أن أسمح له بأن يلمسني. هكذا فكّرت في سرّها. لن أبذل نفسي لهذه الرّقّة المتردّدة الخجولة التّافهة، التي يملكها رجل رثّ يشبه طالب لاهوت بائسا... مستحيل! إنّ مجرّد التّفكير في ذلك يصيبها بتقزّز يتصاعدُ عبر حلقها حتّى توشك

أن تتقيّأ. «ما بك؟»، سألها فوكستالر في قلق، وقد لاحظ قشعريرتها المفاجئة. «لا شيء... لا شيء... أعتقد أنّني مرهقة جدّا. لا أستطيع التّكلّم. لا أستطيع سماع أيّ شيء».

اندفعت كريستين إلى الخلف. وأغمضت عينيها. وشعرت على الفور براحة كبيرة. فهي لم تعد مجبرة على النّظر إليه أو توقّع صوته النّاعم المُواسي الذي يجعله التّذلّل غير محتمل. «عليّ أن أخجل من نفسي. إنّه طيّب معي. ويضحّي بنفسه من أجلي. ولكن، لا أتستطيع النّظر إليه مجدّدا. لا يمكنني أن أتحمّله مطلقا... لا لا أستطيع... لن أتعامل بعد مع أمثاله، مطلقا... مطلقا!».

كان خطابُ الكاهن عند القبر المفتوح وجيزا. فقد انهمر المطر غزيرا، فيما ظلّ الحفّارون يمسكون بمجاريفهم وينتظرون بصبر نافد. وكلّما ازداد هطول المطر قوّة ازدادت سرعة الكاهن في الكلام، حتّى انتهى كلّ شيء. وعاد الأنفار الأربعة عشر الذين رافقوا العجوز إلى قبرها باتّجاه القرية، صامتين ومهرولين. شعرت كريستين فجأة بالخجل من نفسها. إذ بدل أن تشعر بالتّأثّر أثناء مراسم الدّفن، كانت تفكّر طيلة الوقت في تفاصيل صغيرة، من قبيل أنّها لا تملك جزمة شتائيّة. لقد أرادت أن تقتني واحدة في الشّتاء الماضي. لكنّ أمّها رفضت ذلك. قالت لها إنّ الأمر غير ضروريّ. وأعارتها جزمتها الخاصّة. تأمّلت كذلك ياقة معطف فوكستالر، وهو يرفعها، إذ بدت مِهترئة تماما. زوج أختها فرانز قد ازداد وزنه. وهو يتنفّس مثل مريض الرّبو أثناء مشيه السّريع. لاحظت أيضا أنّ مطريّة زوجة شقيقها ممزّقة ولا بدّ من رتقها من جديد، وأنّ زوجة البقّال لم تقدّم إكليل زهور

وإنّما بعض الأزهار الذّابلة من حديقتها، وقد ثبّتتها بسلك معدنيّ. كما أنّ الخبّاز هردليتشكا قد وضع منضدة جديدة في غيابها. تهاجمها ملامح القبح والبؤس والوضاعة في هذا العالم الصّغير الذي ألقيت فيه من جديد. وتعذّبها إلى درجة أنّها لم تشعر حقّا بهذا الألم الحقيقيّ العميق داخلها.

ودّعها المعزّون أمام بيتها. وانصرفوا راكضين وسط الوحل المتطاير تحت أقدامهم ومنكمشين تحت مطريّاتهم الكبيرة، وصولا إلى منازلهم. صعدت الدّرج القديم وبرفقتها أختها وزوجها وأرملة أخيها والنّجّار الذي تزوّجته من بعده. تحتوي الغرفة على أربعة مقاعد فحسب. ولذلك تنحّت كريستين جانبا حتّى يجلس الآخرون. كان الجوّ ثقيلا وموحشا في تلك الغرفة الضّيّقة المظلمة. المعاطف المبلّلة معلّقة على الجدار. والمطريّات التي تقطر تضوع برائحة الرّطوبة الخانقة، بينما يوقّع المطر على النّوافذ. وفي العتمة، يتمدّد سرير الميّتة رماديّا وخاويا.

في البداية، لم يتكلّم أحد. ثمّ قالت كريستين فجأة وفي ضيق: «هل ترغبون في قهوة؟». «نعم كريستل -أجابها زوج أختها- سيكون من الجيّد احتساء مشروب ساخن. ولكن عليكِ أن تُسرعي، لأننا لا نستطيع أن نمكث طويلًا. فالقطار سيغادر في الخامسة». ثمّ تنهّد. ووضع سيجار الفرجينيا في فمه. إنّه موظّف طيّب ومرح تكرّش أثناء الحرب وازداد تكرّشه أكثر بعدها. ولا يمكنه أن يشعر بالرّاحة إلاّ وهو يلبس قميصه المنزليّ. لقد حاول جاهدا أثناء المراسم حتّى يبدو في وقفة الانتباه تلك بمظهر الحزين المتأثّر. وها هو الآن يفكّ قليلا

أزرار معطف الحداد الأسود الشّبيه بزيّ تنكّريّ. ويتراخى في مقعده. «كانت فكرة صائبة ألاّ نحضر الطّفلين معنا. لقد بكت نيلّي قليلا بسبب ذلك. فهي تعتقد أنّ عليهما أن يحضرا جنازة جدّتهما. ولكنّني أجبتها بأنّه ينبغي أن نجنّبهما هذا العرض الكئيب. كما أنّهما لن يفهما معناه. ورحلة الذّهاب والإياب مكلّفة جدّا... لا حاجة إلى إنفاق مبلغ كبير في مثل هذه الأوقات العسيرة».

تطحن كريستين القهوة في توتّر. فقد عادت منذ خمس ساعات فحسبُ. وها هي تسمع للمرّة العاشرة تلك العبارة الوضيعة المقيتة: «مكلّف جدّا». اعتبر فوكستالر أنّ إحضار الطّبيب من مستشفى سانت بولن مكلّف جدّا. وعلى أيّة حال، لن يغيّر ذلك شيئا. أمّا زوجة أخيها، فقد هتفت: «لا حاجة إلى الصّليب الحجريّ. سيكون مكلّفا جدّا». قالتها أختها أيضا في حديثها عن القدّاس الجنائزيّ. وها إنّ زوج أختها يذكرها مجدّدا في حديثه عن السّفر. تقطر هذه العبارة من شفاههم بلا توقّف، مثلما يقطر المطر من المزاريب في الخارج. وتحمل معها الفرح بعيدا. وستظلّ تقطر منذ الآن كلّ يوم: «مكلّف جدّا... مكلّف جدّا... مكلّف جدّا!». كانت كريستين ترتجفُ. وتمرّر غضبها إلى طحن القهوة. «عليّ أن أغادر. يجب أن أرحل من هنا... ألاّ أسمع شيئا بعد الآن... ألاّ أرى أيّا منهم!». وفي انتظار قهوتها، جلس الآخرون حول الطّاولة، مفتّشين عن أمر يتحدّثون فيه. مكث الرّجل القادم من فافوريتن[1]، زوج أرملة أخيها في مكانه، مقرفصا في تواضع بين هؤلاء الأقارب.

---

(1) فافوريتن Favoriten: منطقة شعبيّة بمدينة فيينا.

فهو لم يعرف السّيّدة العجوز في حياتها. كانت المحادثة تسير ببطء سؤالا فجوابا، ثمّ تتوقّف فجأة، كأنّها اصطدمت بصخرة. جاءت القهوة في النّهاية لتقاطعهم مجدّدا. وضعت كريستين أربعة فناجين. واستثنت نفسها. ثمّ عادت إلى النّافذة. كان صمت الآخرين يثقل على صدرها، يتمطّط بشكل غريب ويحجب ببلاهة كبيرة الفكرة ذاتها. إنّها تعرف جيّدا ما سيلي. وقد رأت عند المدخل حقيبتي ظهر فارغتين. ففهمت الأمر كلّه. وهي تشعر الآن بتقزّز يعقد حنجرتها.

لقد كان زوج أختها أوّل المنطلقين بصوته الطّفوليّ: «يا للمطر الغزير! ومع ذلك نسيت نيلّي الشّرودة أن تحضر المطريّة. سيكون من الأسهل يا كريستل أن تمنحيها مطريّة أمّي، إلاّ إذا كنت في حاجة إليها...». «لا»، ردّت كريستين من النّافذة، وهي ترتجف. ها قد وصلنا. وابتدأت الحفلة. ولكن هيّا، أسرعوا فحسب! استأنفت الأخت، كأنّهم قد تواطؤوا على الأمر سلفا: «وعلى أيّة حال، من الأفضل أن نقتسم أغراض أمّي من الآن. فمن يدري متى سنجتمع مرّة أخرى، نحن الخمسة. فرانز مشغول جدّا في عمله. ولا بدّ أنّك كذلك أيضا». كانت قد توجّهت إلى النّجّار بكلماتها الأخيرة. «ثمّ إنّه لا معنى للعودة خصّيصا من أجل هذا. سيكلّف ذلك المزيد من الأموال. ولهذا، يُستحسن أن نقوم بالقسمة الآن. ما رأيك كريستل؟».

انطلق صوت كريستين مبحوحا هذه المرّة: «طبعا... ولكن اقتسموا في ما بينكم رجاء. لديكم أطفال. وستحتاجون إلى أغراض أمّي أكثر منّي. لست في حاجة إلى شيء. وبإمكانكم أن تقتسموا كلّ ما تركته».

فتحت الخزانة. وسحبت منها ملابس مهلهلة. ووضعتها على سرير الميّتة، إذ لم يكن هناك أيّ مكان آخر مناسب في الغرفة. لقد كان أمس دافئا. وها إنّ أغراضا قليلة متفرّقة تشغله الآن: بعض ملابس كتّانيّة، فرو ثعلب قديم، معطف مبطّن، لحاف صوفيّ، عصا ذات مقبض عاجيّ، مشبك شعر من البندقيّة، خاتم الزّواج، ساعة فضّيّة صغيرة ذات سلسلة، مسبحة، ميداليّة مرصّعة بالمينا من ماريا تْسِلْ[1]، وجوارب وأحذية وأخفاف ملبّدة، وملابس داخليّة، ومروحة قديمة، وقبّعة مجعّدة تمامًا، وكتاب صلوات ذو صفحات مهترئة. لم تنس شيئا من هذه الخردوات القليلة التي كانت تملكها العجوز الفقيرة. عادت من جديد وبسرعة إلى النّافذة. وتركت خلفها المرأتين، وهما تتشاوران بصوت خفيض، تقارنان قيمة الممتلكات وتقتسمانها. وضع نصيب الأخت على الجهة اليمنى من السّرير، بينما وضع نصيب أرملة الأخ على الجهة اليسرى. وبينهما ارتسم حدّ لا مرئيّ.

تتنفّس كريستين بإعياء عند النّافذة. تسمع المساومة البائسة رغم انخفاض صوتيهما. وترى إصبعيهما، إذ تلتفت إلى سرير الميّتة. ويمتزج في قلبها الشّعور بالشّفقة والغضب الشّديد. «كم هما مسكينتان! مسكينتان بائستان... ولا تعلمان ذلك حتّى... تقتسمان خردة تافهة لا يقبل غيرهما بلمسها بالقدم... هذه الخرق والأسمال القديمة والأحذية البالية التّافهة إلى أبعد حدّ هي أشياء ذات قيمة بالنّسبة إليهما... ماذا تعرفان عن العالم؟ أيمكنهما أن تخمّنا حتّى؟ ولكن، أليس من الأفضل

(1) ماريا تْسِلْ Maria Zell: مدينة نمساوية صغيرة.

ألاّ تعرفا حجم فقرهما وألاّ تدركا كم هو مقرف وكريه؟». اقترب منها زوج أختها. وقال: «هيّا يا كريستل! ليس من العادل ألاّ تأخذي شيئا. عليك أن تحتفظي بما يذكّرك بأمّك... السّاعة ربّما أو سلسلتها على الأقلّ». «لا، لا أريد»، أجابته بجفاف. «لديكم أطفال. أمّا أنا فلم أعد في حاجة إلى شيء».

وبما أنّها التفتت دونه من جديد، فقد قضي الأمر. وانتهى كلّ شيء. أخذت كلّ من الأخت وأرملة الأخ حصّتيهما. وحشتاه في حقيبتيهما. والآن، دفنت الميّتة تماما. وقف الأربعة مرتبكين خجلين بعض الشّيء. لقد كانوا سعداء لأنّهم أتمّوا بسرعة ودون جدال هذه المسألة العسيرة. ومع ذلك، لم تكن سعادتهم مكتملة. إذ يجدر بهم في هذه اللّحظة، قبل أن يغادر القطار، أن يتلفّظوا ببعض الكلمات المهيبة حتّى تمّحي لحظة القسمة المادّية، أو ربّما ينبغي لهم أن يثرثروا قليلا كما يليق بأقارب في موقف كهذا. تذكّر زوج الأخت شيئا مّا. فقال لكريستين: «آه، لم تذكري لنا شيئا عمّا حدث معك. كيف كانت الأمور في سويسرا؟». «رائعة جدّا». شقّت الإجابة الجافّة المكان مثل سكّين حادّة. «أعتقد أنّنا -وتنهّد بقوّة- نريد أيضا أن نسافر إلى هناك. آه من السّفر! ولكن لا يمكننا ذلك بمعيّة الطّفلين. الأمر مكلّف جدّا، وخصوصا في بلد بذلك الثّراء. كم ثمن يوم في ذلك النّزل؟».

«لا أعرف»، ردّت كريستين بزفرة إنهاك. وأحسّت أنّ أعصابها توشك على الانفجار. آه، ليتهم يغادرون فحسب! فليرحلوا! ولحسن الحظّ، نظر فرانز إلى ساعته. «أوه، لقد تأخّر الوقت! يجب أن نذهب إلى المحطّة. ولكن، كريستل... لا حاجة إلى مرافقتنا. ففي جوّ كهذا،

يجدر بك المكوث في البيت. ابقي هنا. ولا تنسي أن تزورينا لاحقا في فيينّا. الآن، وقد ماتت الأمّ، علينا أن نتكاتف أكثر من قبل». «نعم، نعم»، قالت كريستين، وقد نفد صبرها. رافقتهم حتّى الباب، وقد كان الدّرج الخشبيّ يصرّ تحت أجسادهم الثّقيلة، كلّ واحد منهم يحمل شيئا مّا على الكتفين أو في يده. أخيرا، رحلوا. ما أن غادروا المنزل حتّى فتحت كريستين النّافذة بعنف، وهي تختنق برائحة المكان، رائحة دخان السّيجارة البارد والطّعام الوضيع والملابس الرّطبة، رائحة الخوف والتّوجّس، حيثُ تطفو إلى الآن تأوّهات الأمّ. إنّها رائحة البؤس المرعبة. مرعب أن تضطرّ إلى العيش هنا. ولماذا تفعل ذلك؟ مِن أجل مَن؟ لماذا تستنشق هذا الجوّ يوما بعد آخر، بينما تعلم جيّدا أنّ هناك في مكان مّا عالما آخر، العالم الحقيقيّ الذي ينتمي إليه كائن يتسمّم ويختنق في هذا القبر؟ تهتزّ أعصابها. وترتجف بقوّة. قفزت إلى السّرير. وعضّت بأسنانها الوسادة حتّى لا تصرخ من الغضب الحارق المكبوت. تشعر اللّحظةَ بأنّها تمقت كلّ شيء، نفسَها والآخرين، الثّراء والفقر، الحياة برمّتها... هذه الحياة العسيرة الغامضة التي لا تطاق.

(2)

«يا للفتاة الوقحة المدّعية الحمقاء!»، صفَقَ البقّال ميخائيل بوانتنر البابَ بعنف من خلفه. «يا لوقاحة تلك الفتاة صفيقة اللّسان! أيّ طاعون هذه؟!» كان الخبّاز هردليتشكا واقفا أمام باب مكتب البريد، ينتظره. فحاول تهدئته بابتسامة عريضة: «يجدر بك ألاّ تغضب هكذا. ما الذي حدث لك هذه المرّة؟ هل عضّك أحدهم؟». «ولكن حقّا... لم أر في حياتي وقاحة كهذه. إنّها وباء لا مثيل له... مرّة تريد هذا... ومرّة تشترط ذاك، إلى ما لا نهاية له... كلّ ما تريده هو الإزعاج والتّحذلق. أوّل أمس، لم يعجبها أنّني ملأت الاستمارة بقلم الرّصاص بدل الحبر. واليوم تلقي عليّ خطابا كاملا لتقول لي إنّها ليست مجبرة على قبول طرود مربوطة بشكل سيّء، وإنّها هي المسؤولة. لتذهب إلى الجحيم بمسؤوليّتها! لقد أرسلت آلاف الطّرود من قبل، حين كانت هذه الدّيك الرّوميّ تلتقط الفتات بمنقارها من الرّوث. وليتك ترى نبرة صوتها! إنّها تتكلّم بتعال وتنتقي كلماتها كي تُشعرنا بأنّنا أقلّ من أصفار ومجرّد وحل تحت قدميها. من تحسب نفسها؟ لقد طفح الكيل هذه المرّة. لن أسمح لها بأن تلعب هذه اللّعبة معي بعد الآن». لمعت

عينا هردليتشكا السّمين من الشّماتة: «لعلّها تريد أن تلاعب رجلا مرحا ولطيفا مثلك. ليس بإمكان المرء أن يحدس ما يدور بأذهان هؤلاء الفتيات العانسات. ربّما تعجبها. ولذلك تشاكسك». عبس البقّال. «دعك من الحماقات! لست الوحيد الذي يتعرّض لمضايقاتها. لقد حدّثني مدير المصنع أمس كيف أنّها وبّخته لأنّه مازحها قليلا. صرخت في وجهه، كأنّه خادمها: «إنّني أمنعك من هذا التّصرّف. فأنا بصدد العمل هنا». صدّقني! إنّ الشّيطان يسكنها. ما الذي يحدث لها؟ ثق بي! سأؤدّبها. عليها أن تغيّر تلك النّبرة معي، وإلاّ سترى ما سيحدث لها... حتّى لو اضطررت إلى الذّهاب مشيا على الأقدام إلى إدارة مكاتب البريد في فيينّا».

كان البقّال الطّيب بوانتنر على حقّ. ما الذي يحدث لمساعدة مكتب البريد، كريستين هوفلنر؟ فمنذ أسبوعين، والقرية كلّها تسأل هذا السّؤال. في البداية، تسامح معها الجميع. يا إلهي! لقد فقدت الفتاة المسكينة أمّها. وقد حسِب الناس أنّ هذا الأمر قد أفقدها عقلها، حتّى إنّ الكاهن قد زارها مرّتين ليواسيها. كان فوكستالر يعرض عليها المساعدة كلّ يوم. وأرادت الجارة أن تقضّي السّهرة معها، حتّى لا تمكث بمفردها. وعرضت عليها زوجة صاحب فندق «الثّور المتوّج» أن تقيم في إحدى الغرف حتّى تعفي نفسها من الأعمال المنزليّة. لم تجب أيّا منهم بشكل صريح. ولكن بدت عليها الرّغبة الواضحة في طردهم. هِناك شيء مّا قد حدث لموظّفة مكتب البريد كريستين هوفلنر، إذ لم تعد تذهب مرّة في الأسبوع إلى جوقة المنشدين في الكنيسة. وهي تدّعي أنّ صوتها قد بحّ. لم تقصد الكنيسة منذ ثلاثة أسابيع. ولم تسأل

حتّى أن يقام قدّاس من أجل أمّها. وعندما يقترح عليها فوكستالر أن يقرأ لها تتحجّج بألم في رأسها. ومن أجل النّزهة تجيبه بأنّها متعبة. لم تعد تخالط أحدا. وحين تقوم بشراء لوازمها، يبدو عليها أنّها تخشى أن يفوتها القطار. إنّها لا توجّه أيّ كلمة لأيّ شخص. أمّا في مكتب البريد، فقد أصبحت الفتاة المعروفة بأدبها ولطافتها وقحة ذات مزاج سيّء وعنيف.

هناك شيء مّا قد حدث لها. وهي نفسها تدرك ذلك جيّدا. يبدو الأمر كأنّ يدا قد سكبت في خلسة نومها، قطرة بعد أخرى، سائلا مرّا حارقا وخبيثا في عينيها. وها هو يمنحها الآن لون العالم كما تراه. كلّ شيء قبيح في نظرها ووضيع وعدوانيّ، حتّى إنّ المرارة تبزغ داخلها مع كلّ شروق جديد، إذ تلتقي نظرتها الأولى بالعوارض الخشبيّة الدّاخنة لسقف العلّيّة. كلّ شيء مقيت في غرفتها: السّرير البالي، اللّحاف القديم السّيّء، كرسيّ القشّ، طاولة الحمّام بإبريقها المتصدّع، ورق الحائط المتقشّر وخشب الأرضيّة. كم كانت تأمل أن تغمض عينيها فتغرق في الظّلام. ولكنّ المنبّه لا يتيح لها ذلك. تستيقظ في غضب. فترتدي ثيابها الدّاخليّة القديمة. وتلبس فستانها الأسود المقرف. تلاحظ تمزّقا تحت الكُمّ. لكنّها تتجاهله تماما. ولا تبحث عن الإبرة كي ترتقه. ولماذا تفعل ذلك أصلا؟ ومن أجل من؟ فبالنّسبة إلى أجلاف القرية هؤلاء، كلّ ما ترتديه سيبدو فاخرا وجميلا. تحثّ نفسها قائلة: «هيّا! فلأسرع! عليّ أن أغادر هذه الغرفة الكريهة وأذهب إلى المكتب».

ولكنّ المكتب لم يعد كما كان من قبل. فقد اختفت تلك الغرفة

الهادئة المحايدة، حيث السّاعات تمضي ببطء وبلا جلبة، كأنّها تسير على عجلات. أمّا الآن، فهي تُعمل المفتاح في القفل وتدخل إلى المكان لينقضّ عليها صمت مخيف. يذكّرها ذلك بفيلم شاهدته السّنة الماضية، عنوانه «سجن مدى الحياة». وفي إحدى المشاهد، يظهر سجّان ملتحٍ ذو وجه صارم بعيد برفقة شرطيّين، وهو يقود سجينا. كان السّجينُ فتى نحيلا يرتجفُ داخل زنزانة خاوية ذات قضبان. لقد ارتجفت مثل كلّ المشاهدين عندما رأت تلك اللّقطة. وها هي ترتجف الآن أيضا، إذ تتساءل: أليست هي نفسها السّجين والسّجّان منصهرين في شخص واحد؟ إنّها تلاحظ للمرّة الأولى أنّ نوافذ المكتب ذات قضبان أيضا. ويبدو لها هذا المكتب ذو الجدران العارية المبيّضة بالكلس، للمرّة الأولى كذلك، شبيها بزنزانة. تتّخذ كلّ الأشياء فجأة معنى جديدا. تتأمّل آلاف المرّات هذا المقعد الذي احتلّته من قبل، الطّاولة المبقّعة بالحبر، حيث تضع الأوراق والوثائق، والنّافذة الزّجاجيّة الصّغيرة التي ترفعها في كلّ مرّة تباشر فيها العمل. تلاحظ أيضا أنّ السّاعة لا تتقدّم، بل تطوف في دوائر، من الاثني عشر إلى الواحد، ومن الواحد إلى الاثنين، وهكذا حتّى تعود إلى مكانها الأوّل دون أن تتقدّم ولو خطوة واحدة. يرفعها دوما نفس العمل، دون أن تتحرّر. إنّها سجينة هناك في علبتها المستطيلة. وحين تجلس كريستين هناك في الصّباح، على السّاعة الثّامنة، تكون متعبة سلفا، لا لأنّها قد أتمّت عملا مّا أو بذلت مجهودا كبيرا، وإنّما تشعر بتعب مسبق إزاء كلّ ما ينتظرها: الوجوه ذاتها والأسئلة ذاتها والأعمال ذاتها ونفس المبالغ أيضا. وفي غضون ربع ساعة، يأتي أندرياس هنترفلنر، ساعي البريد ذو الشّعر الرّماديّ،

المرح على الدّوام. ويحضر معه البريد من أجل الفرز. كانت تفعل ذلك من قبل بشكل آليّ. أمّا الآن، فهي تتفحّص طويلا كلّ رسالة وكلّ بطاقة بريديّة، خصوصا تلك الموجّهة إلى قصر الكونتيسة غوترشايم.

لدى الكونتيسة ثلاث بنات. تزوّجت إحداهنّ ببارون إيطاليّ. أمّا البنتان الأخريان فما تزالان عازبتين، تجوبان العالم. وقد جاءت البطاقات الأخيرة من سورّنتو[1] حيث يظهر البحر الأزرقُ مخترقا اليابسة ومشكّلا خليجا ساحرا. تقرأ كريستين العنوان، وهو نزل روما. وتحاول أن تتمثّله في خيالها. ثمّ تبحث عنه في الخريطة. فتلاحظ علامة تعيّن غرفة البارونة وسط الحدائق ذات الشّرفات الواسعة التي تغمرها الشّمس وتسيّجها أشجار البرتقال. ورغما عنها، تستدعي مخيّلتها نزهة ليليّة يلفحها خلالها هواء منعش قادم من البحر الأزرق، نزهة مع...

ولكنّ البريد ينتظر أن يُفرز. عليّ أن أواصل العمل. ها هي رسالة قادمة من باريس. وتدرك على الفور أنّ المرسلة هي ابنة...[2] تلك التي تطوف حولها عجائب الإشاعات. يُقال إنّها على علاقة ببارون نفط يهوديّ. ثمّ أصبحت راقصة أو ما هو أفظع من ذلك. ولا شكّ أنّها مرتبطة بشخص آخر الآن. في الحقيقة، قدمت الرّسالة من نزل موريس، وقد خطّت على ورق فخم جدّا. ألقتها كريستين جانبا، وهي تشعر بالغضب. ثمّ حان دور المنشورات، التي كانت كريستين تحتفظ ببعض ما يُرسل منها إلى الكونتيسة غوترشايم، مثل مجلّة السّيّدة أو عالم الأناقة أو مجلاّت الموضة الأخرى. فيمَ سيختلف

---

(1) سورّنتو Sorrento: مدينة ساحليّة جنوب غرب إيطاليا.

(2) فراغ في النّصّ الأصليّ.

الأمر إذا وصلت إلى السّيّدة الكونتيسة في بريد الصّباح أو المساء؟ عندما يعمّ الهدوء المكتب، تسحب كريستين المجلاّت. وتتصفّحها، متأمّلة الملابس وصور نجوم السّينما والأرستقراطيّين ومنازل الرّيف الفخمة التي يملكها نبلاء الإنجليز وسيّارات الفنّانين المشهورين. تتنفّس تلك المشاهد كأنّها عطر. فتتذكّر كلّ الوجوه. تتأمّل السّيّدات بفساتين السّهرة وبشغف تتفحّص وجوه الرّجال المميّزة النّاعمة بفضل الثّراء والبذخ والمتلألئة ذكاء وفطنة. ترتعشُ أصابعها بتوتّر. فتضع المجلاّت جانبا. ثمّ تلتقطها من جديد، وفي داخلها يمتزج الفضول بالحقد والفرح بالغيرة لمرأى هذا المجتمع الرّاقي الذي يبدو لها أجنبيّا وأليفا في الآن ذاته.

كانت تجفل دوما كلّما سمعت أثناء تأمّلها للصّور المدهشة صوت خطى مفاجئة لمزارع همجيّ يدبّ بتثاقل وعينين ناعستين، وغليونه معلّق في فمه، كأنّه إحدى البقرات التي اعتادت أن تطلب عند الشّبّاك بعض الطّوابع البريديّة. هكذا تفكّر في سرّها، قبل أن تبادره بتبرّم يتجاوز إرادتها: «هل أنت أمّيّ؟ ألم تقرأ أنّ التّدخين ممنوع هنا؟!». تلقي عليه إهانتها تلك. وتضيف إليها كلمات أخرى، تجعل الرّجل ذا الوجه المبتهج يخرس على الفور ويتجمّد في مكانه. يحدث هذا الأمر دون إرادة منها، إذ يدفعها دفقُ توتّر مّا إلى الانتقام من هذا الشّخص بعينه، القادم من حثالة العالم. وبعد أن يرحل الرّجل، تشعر كريستين بتأنيب الضّمير. «ليس ذنب هؤلاء الشّياطين المساكين أنّهم قبيحون إلى هذه الدّرجة ووسخون وبؤساء عالقون في وحل القرية. كما أنّني لا أختلف عنهم في شيء. أنا مثلهم تماما». ولكنّ غضبها المقترن باليأس

قويّ جدّا إلى درجة أنّه ينفجر رغما عنها في كلّ مناسبة جديدة. فوفق قانون انتشار القوّة الحتميّ، ينبغي عليها أن تفرج عن توتّرها بشكل أو بآخر. ومن جزيرة السّلطة الصّغيرة هذه، من هذا المنبر الضّئيل، يمكنها أن تفرغ شحنتها على هؤلاء المساكين الأبرياء. هناك في الأعلى، حيث العالم المختلف، كانت قد أحسّت بإثبات وجودها، لأنّها كانت مرغوبة، يتودّد إليها الجميع. أمّا هنا، فلا يمكنها إثبات ذاتها إلاّ عن طريق الفظاظة واللّعب على وتر السّلطة الصّغير هذا الذي تملكه بوصفها موظّفة. إنّه سلوك منحطّ وبائس ودنيء -وهي تعرف ذلك جيّدا- أن تتكبّر على هؤلاء الطّيّبين البسطاء. ولكنّها تطلق بذلك الشّكل شيئا من غضبها. وفي حال لم يتح لها أن تفعل ذلك مع البشر، فإنّها تسكب حميم هذا الغضب على الأشياء. إذا لم تستطع أن تمرّر خيطا في الإبرة تقوم بتمزيقه. وإذا لم ينغلق دُرْج بشكل جيّد، تدفعه بقوّة وعنف. أرسلت إدارة البريد إليها شحنات خاطئة. وعوض أن تقدّم لهم ملاحظة مهذّبة، وجّهت إليهم شكوى مستفزّة وساخطة. وعندما لا تمرّر لها زميلتها المكالمة الهاتفيّة بسرعة، تهدّدها بإعلام السّلطات العليا. إنّه أمر محزن حقّا. وهي نفسها تعرف ذلك. وتراقب بفزع هذا التّحوّل. ولكنّها لا تستطيع أن تفعل شيئا لتوقفه. عليها أن تطرد هذا الحقد من صدرها بأيّ شكل ممكن، وإلاّ ستختنق به.

عندما تتمّ الخدمة، تلجأ على الفور إلى غرفتها. كانت في ما مضى تستغلّ قيلولة أمّها لتذهب في نزهة وجيزة أو تمكث للحديث مع زوجة البقّال أو تلعب مع أطفال الجارة. أمّا الآن، فهي تسجن نفسها وعدوانيّتَها بين أربعة جدران، كي لا تهاجم النّاس مثل

كلب متوحّش. لم تعد قادرة على النّظر إلى الشّوارع بمنازلها المعتادة ولافتاتها ووجوهها. تبدو لها النّساء بتنانيرهنّ القطنيّة وشعورهنّ الدّهنيّة المتلبّدة في شكل الكعكة وخواتمهنّ المرصوصة في أصابعهنّ السّميكة سخيفات على نحو لا يطاق. وكذلك الرّجال المتكرّشون ذوو الأنفاس الثّقيلة الكريهة، وأكثر منهم الأولاد الذين يحاكون أبناء المدينة المتحضّرين، بشعورهم المضمّخة بالمراهم. الحانة أيضا لم تكن تحتمل برائحة الجعة والسّجائر الرّخيصة داخلها، حيث النّادلة السّمينة الغبيّة تتساهل مع اللّمسات الجريئة والنّكات المريبة لمساعد حارس الغابة ورقيب الدّرك. إنّها تفضّل أن تسجن نفسها في غرفتها على أن تشهد هذا. كما أنّها تتجنّب أن تشعل المصابيح كي لا ترى الأشياء المقيتة من حولها. تمكث هناك. فتجترّ الأفكار ذاتها. كانت ذكرياتها مكثّفة ودقيقة بشكل لا يصدّق. وها إنّ تفاصيل كثيرة تشرق في ذهنها، وقد غفلت عنها تماما في دوّامة الأحداث العاصفة. تتذكّر كلّ كلمة وكلّ نظرة بعينها. وتستعيدُ بوضوح عجيب طعم كلّ طبق تناولته. وتتحسّس على شفتيها طعم النّبيذ ونكهة الكحول. تستذكر ملمس الفستان الحريريّ الرّهيف على كتفيها ونعومة السّرير الأبيض. تعود إلى ذهنها أشياء كثيرة ودقائق لا حصر لها: الانجليزيّ الصّغير الذي لحق بها ذات يوم في الرّدهة، ومكث طيلة السّهرة أمام غرفتها، لمسات فتاة مانهايم الرّقيقة على ذراعها، والتي تدفعها ذكراها إلى القشعريرة. فقد استحضرت بعض الكلمات التي سمعتها هناك، والتي تقول إنّ النّساء يمكن أن يقعن في حبّ بعضهنّ البعض. ساعة بعد أخرى، كانت تستخلصُ كلّ ثانية من تلك الفترة التي أدركت

الآن كم احتوت من إمكانات وفرص أوصدت دونها أبوابها. ظلّت هكذا، كلّ مساء، تقبع في السّكون وتُسلم نفسها للحلم حتّى تلتقي مجدّدا بتلك التي كانتها منذ فترة وجيزة ثم انفصلت عنها. إنّها تعرف ذلك جيّدا. وترفض في الآن ذاته أن تسلّم به. إذا ما طرق أحدهم الباب -وطالما فعل فوكستالر ذلك قادما ليواسيها- تمتنع عن الحركة وتحبس أنفاسها، وتتنفّس الصّعداء ما أن تسمع صرير الخطوات النّازلة على الدّرج. لم تعد تملك أيّ شيء سوى أحلامها. وهي لا تريد أن تخسرها هي الأخرى. وعندما تشعر بالضّجر من استدعائها لهذه الأحلام، تستسلم للنّوم. فتفاجئها برودة السّرير إزاء بشرتها التي صارت مدلّلة. لم تكن تنام إلاّ في وقت متأخّر نوما مضطربا متقطّعا تتخلّله أحلام عجيبة ومقلقة. ترى نفسها مثلا، وهي تلتهم المسافات الجباليّة في سيّارة فخمة بسرعة هائلة. وفي قلبها يمتزج الخوف من قوّة الانحدار ونشوة السّباق. وإلى جانبها، يجلس دوما الألمانيّ أو رجل آخر، وهو يمسك بها. وفجأة، تدرك في فزع أنّها تتمدّد عارية حذوه. وحولها يقف حشد ضاحك ساخر. ويتوقّف المحرّك حينئذ. تصرخ عاليا. وتطلب منه أن يمسك بالمقبض ويعيد تشغيله... بسرعة هيّا! أسرع! أسرع! وتشعر في تلك اللّحظة بهزّة المحرّك المنطلق تختضّ في أحشائها. فتحسّ بسعادة عظيمة، إذ تطير السّيّارة بأقصى سرعة فوق الحقول وتنفذ إلى ظلام الغابة. ولم تعد عارية. لكنّ الرّجل يحضنها بين ذراعية بقوّة شديدة حتّى إنّها تئنّ وتوشك أن تفقد وعيها. ثمّ تستيقظ منهكة مستنفدة القوى، تؤلمها أطرافها. فتلمح سقف العلّيّة والعوارض الخشبيّة المسوّسة الدّاخنة. وتظلّ في مكانها ممدّدة في إعياء

وساهمة إلى أن يعلو نذير المنبّه بلا رحمة. تنهضُ. وتغادر السّرير القديم الكريه. وتبدأ يوما كريها آخر.

تحمّلت كريستين هذه الإثارة المفرطة المرضيّة الرّهيبة طيلة أربعة أسابيع. وقد مكثت خلالها فريسة لعزلة ساحقة تفتك بها. ثمّ فقدت فجأة قدرتها على التّحمّل. نفدت مادّة أحلامها، وقد عاشت من جديد كلّ ثانية من ذلك الزّمن المفقود. ولم يعد ذلك الماضي يحفّز حواسّها وعواطفها. وفي غمرة ذلك الإعياء، تذهب إلى عملها، وهي تشعر بألم متواصل في صدغيها. تنجزه ناعسة في خدر. وتعود إلى منزلها، ليهجرها النّعاس في اللّيل. وفي سكون العلّيّة التي تشبه قبرا حقيقيّا مستطيلا، تستجيب أعصابها المتعبة لبرودة السّرير وحمّى جسدها. لم تعد قادرة على التّحمّل إطلاقا. تعصف بها رغبة ملحّة في أن تنظر من نافذتها إلى مشهد آخر غير علامة «الثّور المتوّج»، أن تنام في سرير آخر وتجرّب مغامرة أخرى وتكون ولو لبضع ساعات امرأة أخرى. وفجأة، وعلى نحو يتجاوز إرادتها، سحبت الدّرج وأخذت المبلغ الذي تقاسمته مع الخال في لعبة البوكر. ارتدت أجمل فساتينها وأفضل حذاء لديها. واقتنت ذات سبت، بعد انتهائها من العمل، تذكرة إلى فيينّا.

لا تعرف كريستين سبب ذهابها إلى المدينة ولا ما تريد فعله حقّا هناك. كلّ ما تحتاج إليه بكلّ بساطة هو الهروب، الفرار من القرية والعمل ومن نفسها، أي من الفتاة التي حُكم عليها بأن تكونها هنا. تريد أن تحسّ مجدّدا بدوران عجلات القطار من تحتها، وأن ترى الأضواء وأناسا آخرين أكثر انفتاحا وأناقة، وأن تواجه من جديد

لعبة الحظّ في ثوب الغريبة، وألاّ تكون مجرّد حجر مُدمج في الرّصيف. ترغب في أن تقاتل وتستقبل العالم بروح جديدة وتصير امرأة أخرى.

عند وصولها إلى فيينا، كانت السّاعة السّابعة ليلا. وضعت حقيبتها بسرعة في فندق صغير بشارع مارياهيلفر. واندفعت نحو محلّ حلاقة، وهو يوشك أن يغلق بابه. ولكي تتحوّل، شعرت بالحاجة إلى أن تقتفي نفس الحركات التي قامت بها هناك، أملا في أن تستعيد، بفضل اللّمسات الماهرة وقليل من أحمر الشّفاه، تلك الفتاة المفقودة. أحسّت مرّة أخرى بموجات الحرارة تنسكبُ على جسدها وبيدين خبيرتين تتخلّلان شعرها. يرسم القلم الرّقيق على وجهها الشّاحب المنهك خطوطه. فتبرز شفتاها القديمتان اللّتان تثيران رغبة الرّجال من حولها. وينعش ظلّ من المساحيق وجنتيها. فيعيد لها بمعجزة مّا سمرة إنجادين. عندما نهضت من مكانها وسط سحابة من العطور، أحسّت بتلك الطّاقة التي تركتها هناك. وعبرت الشّارع باستقامة أكبر وثقة متزايدة. ولولا أنّها لا تثق تماما في فستانها، لكانت حسبت نفسها مجدّدا الآنسة فون بولن. ثَمَّ بريق يضيء ليل سبتمبر. فيجعل التّنزّه في جوّه المنعش أمرا رائعا. كانت تلاحظ من حين إلى آخر أنّ هناك نظرات إعجاب تحطّ عليها. «إنّني ما أزال موجودة»، هكذا تفكّر. «مازلتُ هنا». تتوقّف أمام المتاجر والمحلاّت. فتتأمّل معاطف الفرو والفساتين والأحذية. وتنعكس نظرتها المشدوهة على صفحة الزّجاج. «قد يُستأنف الأمر. من يدري؟». وتتمسّك بشجاعتها، وهي تقطع شارع مارياهيلفر وصولا إلى شارع رينغ. تنظر بعين متّقدة في المارّة المتجوّلين، وهم يتحدّثون بأريحيّة واندفاع

كبيرين. وتلاحظ أنّ بعضهم يتمتّع بجاذبيّة مميّزة فعلا. «إنّهم مثلي»، تسرّ لنفسها. «ولا تفصلني عنهم الآن سوى طبقة رقيقة من الهواء. هناك في مكان مّا دَرَجٌ لا مرئيّ ينبغي أن أتسلّقه. وعليّ فقط أن أعثر على الخطوة الأولى... خطوة فحسب». توقّفت أمام الأوبيرا، حيث يوشك العرض أن ينطلق. كانت السّيّارات تتوقّف بلا هوادة، زرقاء خضراء وسوداء، تلمع نوافذها وتشعّ. فيندفع لاستقبالها خدم بزيّ مخصوص. تدخل كريستين إلى الرّدهة كي تكتشف الضّيوف. «غريب حقّا... تتحدّث الصّحف عن ثقافة فيينا والحسّ الفنّيّ لأهلها الذين شيّدوا هذا المسرح، بينما أكتشف أنا الآن، بعد أن عشت حياتي كلّها هنا، هذا المكان لأوّل مرّة، ومن الخارج أيضا واقفة عند الباب! من بين مليوني شخص يعيشون في فيينا، هناك مائة ألف فحسب يعرفون هذه البناية. أمّا الآخرون، فيسمعون عنها من الصّحف. ويشاهدونها في الصّور، دون أن يضعوا أقدامهم فيها. ومن هم هؤلاء المبجّلون؟» تأمّلت النّساء من حولها بمزيج من القلق والنّقمة. «لا، لسن أجمل ممّا كنته. ليست مشيتهنّ أخفّ وأكثر اندفاعا أيضا. يتعلّق الأمر بالفستان والإحساس بالطّمأنينة. عليّ أن أدخل معهنّ. أصعد الدّرج المرمريّ وصولا إلى المقصورة. وألج إلى صندوق الموسيقى المذهّب. ومن ثمّ أغرق في حلقة المحظيّين بالثّروة واللّذّات.

يرنّ الجرس. فيتقدّم المتأخّرون نحو حجرة الإيداع، ليضعوا معاطفهم. تصير الرّدهة شاغرة. ويتحوّل العرض إلى الدّاخل. هناك دوما هذه الحدود اللاّمرئيّة. تواصل كريستين في النّهاية سيرها. تحوّم فوق الشّارع أضواء المصابيح البيضاء، فيما يزال الطّريق مليئا

بالعابرين. تتقدّم بلا هدف. ثمّ تتوقّف أمام نزل كبير، كأنّ مغناطيسا قد سحبها فجأة. هناك سيّارة قد وصلت للتوّ. فاندفع نحوها الخدم، يحملون حقائب السّفر والحقيبة اليدويّة لسيّدة ذات مظهر شرقيّ. بدأ الباب الدّوّار في العمل على الفور. وابتلعهم جميعا. لم تستطع كريستين أن تواصل سيرها، لأنّ الباب الذي يقابلها صار يجذبها أكثر كأنّه دوّامة. شعرت برغبة ملحّة في أن ترى مرّة أخرى على الأقلّ هذا العالم المشتهى». سأدخل. ما الذي سيحدث إذا سألتُ البوّاب عمّا إذا كانت السّيّدة فون بولن قد وصلت من نيويورك؟ الأمر ممكن حقّا. سألقي نظرة فحسب. وأنعش نفسي باستحضار تلك الذّكريات. أصير الأخرى ولو لثانية واحدة. تدخل، بينما يتحدّث البوّاب مع القادمة الجديدة. يمكنها أن تنفذ بسهولة إلى الرّدهة وتتفحّص كلّ شيء. ترى رجالا يرتدون ثياب سفر أنيقة قد حيكت بشكل مبهر وسترات سهرة جميلة وأحذية جلديّة. يجلسون على المقاعد الوثيرة. ويتبادلون الأحاديث وهم يدخّنون السّجائر. وتحت مظلّة في الحديقة، لمحت ثلاث نساء يافعات يتحدّثن بالفرنسيّة في صوت عال مع شابّين وسيمين. ومن حين إلى آخر، تتعالى ضحكاتهنّ. تلك الضّحكات الخفيفة المطمئنّة موسيقى المحظيّين في الوجود. تسكرهنّ قبل أن تبعث النّشوة من حولهنّ. في الخلف، داخل قاعة واسعة ذات أعمدة مرمريّة، يوجد المطعم، حيث النّدل بأزيائهم المزركشة يقفون عند المدخل ويترقّبون أوامر الحرفاء. «يمكنني أن أتناول العشاء هنا»، قالت كريستين، وهي تجسّ بشكل آليّ حقيبتها الجلديّة، حتّى تتثبّت من أنّ المائتي فرنك والسّبعين شيلنغ التي جلبتها معها ما تزال

هناك. «أستطيع أن أتعشّى هنا. كم سيكون الثّمن؟ يمكنني أن أحتلّ مجدّدا طاولة في قاعة كهذه. فيخدمني الجميع وأكون نصب أعينهم، محبوبة ومدلّلة... بالإضافة إلى الموسيقى النّاعمة التي تسبح بهدوء في المكان». ولكنّ الخوف ما يزال مهيمنا. فهي لم تعد تملك التّعويذة المناسبة، ذلك الفستان الذي يفتح هذا الباب. اختفى اتّزانها فجأة. وظهرت مجدّدا تلك الحدود الشّفّافة المنيعة التي لا تجرؤ على تجاوزها. اهتزّ كتفاها ارتجافا. وبدت كأنّها تفرّ من شيء مّا وهي تغادر النّزل. لم يلاحظها أحد. ولم يوقفها أيّ شخص. وقد جعلها هذا الأمر تشعر بضعف أكبر بكثير ممّا كانت عليه عند دخولها.

ومرّة أخرى، استقبلتها الشّوارع. «أين أذهب؟ ولماذا جئتُ أصلا؟». كانت الطّرقات تفرغ من النّاس شيئا فشيئا، بينما يهرول آخر المارّة مسرعين. إنّهم عائدون إلى بيوتهم لتناول العشاء. «أنا أيضا سأتعشّى في إحدى الحانات هنا»، تفكّر كريستين. «لست في حاجة إلى مطعم، حيث يراقبني الجميع وإنّما أريد مكانا مرحا مليئا بالنّاس». وعثرت على ما تريده. ودخلت. كانت كلّ الطّاولات مشغولة تقريبا. وفي النّهاية، وجدت طاولة شاغرة. فجلست. أحضر النّادل ما طلبته كريستين التي راحت تمضغ بتوتّر بارد طعامها غير آبهة به. «لماذا جئت إلى هنا؟ ماذا أفعل؟ كم مضجر أن أمكث في هذا المكان، أتفحّص مفرش المائدة الأبيض. لا يمكنني أن أستمرّ في طلب الطّعام. عليّ أن أنهض وأرحل. ولكن إلى أين؟ لم تتجاوز السّاعة التّاسعة ليلا». اقترب من طاولتها بائع صحف. وعرض عليها جرائد المساء. هاهي تجد شيئا مّا ليلهيها قليلا. اقتنت صحيفتين، لا لتقرأهما حقّا وإنّما ليبدو

عليها الانشغال، كأنّها تنتظر شخصا مّا. ففيم تهمّها كلّ هذه المقالات: مصاعب في تشكيل الحكومة، جريمة قتل فظيعة في برلين، مستجدّات البورصة..؟ «فيم تهمّني هذه الجعجعة حول مغنّية الأوبرا؟ ما دخلي أنا إذا بقيت أم رحلت؟ إذا غنّت عشرين مرّة هذه السّنة أم سبعين؟ ففي أيّة حال، لن أسمعها مطلقا». عندما وضعت الجريدة على الطّاولة، التقطت عيناها تلك الحروف المغلّظة لعمود «التّرفيه» على الصّفحة الخلفية: «أين السّهرة هذا المساء؟». هناك اقتراحات كثيرة، من بينها الملاهي اللّيليّة والمسارح والمراقص والحانات. أمسكت الورقة بسرعة. وقرأت الإعلانات، المراقص: «مقهى أوكفورد»، «الأخوات فريدي في حانة كارلتون»، «الأوركسترا المجريّة»، «فرقة الجاز الزّنجيّة الشّهيرة المتاحة حتّى الثّالثة صباحا، ملتقى نخبة فيينا». سيكون من الرّائع أن تجد نفسها من جديد في مكان، حيث النّاس يمرحون ويرقصون ويستمتعون بوقتهم، أن تطيّر هذا الدّرع الجاثم في صدرها. دوّنت على ورقة بعض العناوين التي لا تبعد كثيرا، حسب ما أشار به النّادل.

أودعت معطفها عند المدخل. فأحسّت بالرّاحة على الفور لتخلّصها من هذا المظروف الوضيع. وبما أنّ الموسيقى المغوية كانت تتصاعد من الأسفل، فقد نزلت إلى الحانة في القبو. وقد خاب ظنّها، إذ وجدتها نصف فارغة. يهجم عازفو الفرقة بستراتهم البيضاء على آلاتهم الموسيقيّة، كأنّهم يدفعون الأشخاص القليلين الكالحين في الحانة إلى الرّقص. ولكنّ ثنائيّا واحدا يستجيب لهم، رجل لا شكّ أنّه راقص محترف يضع كحلا خفيفا تحت جفنيه وله تسريحة متصنّعة بعض الشّيء

وأسلوب متحذلق يقود باندفاع إحدى نادلات الحانة على المرقص المستطيل. ومن بين عشرين طاولة في المكان، كانت أربع عشرة أو خمس عشرة منها فارغة. وفي ركن تجلس ثلاث سيّدات. إنّهنّ محترفات دون شكّ. تملك الأولى شعرا أشقر مصبوغا يميل إلى الرّماديّ. وتلوح الثّانية في مظهر ذكوريّ، وهي تغرق في سترة رجاليّة على فستان أسود. أمّا الثّالثة، فيهوديّة ضخمة ذات صدر متقدّم ترتشف الويسكي. تأمّلنها جيّدا بانتباه شديد. ثمّ انطلقن في الضّحك والوشوشة في ما بينهنّ. إنهنّ يدركن جيّدا بنظراتهنّ الخبيرة أنّها مبتدئة أو مجرّد قرويّة حطّت في هذا المكان. يبدو الرّجال الجالسون في المكان ممثّلين تجاريّين، بلحى مطلقة بعض الشّيء، منهكين، يبحثون عن مغامرة تنتشلهم من سباتهم. يتخبّطون عند طاولاتهم، وهم يحتسون القهوة أو الكحول. أحسّت كريستين عند دخولها وهي تنزل الدّرج بأنّ قدمها تطأ الفراغ. ودّت لو تعود من حيث أتت. لكنّ النّادل المتحمّس اندفع نحوها. وسأل الآنسة عن المكان الذي تريد الجلوس فيه. وهكذا اتّخذت مقعدا كيفما اتّفق. وظلّت تنتظر مثل الآخرين، في هذا المكان الذي يفترض أن يكون مجمعا للمتع والملذّات، ذلك الحدث المشتهى، والذي يأبى أن يقع. فجأة، وقف رجل -وفعلا كان ممثّلا تجاريّا لمصنع في براغ- ورافقها في رقصة وجيزة. ثمّ أعادها إلى طاولتها. كان من الواضح أنّه يفتقر إلى الشّجاعة أو الرّغبة. كما أنّه لاحظ هذا الغموض الذي يلفّ رفيقته المجهولة، ممّا دفعه إلى الشّعور بأنّ هذا المزيج من الغرابة والتّردّد معقّد جدّا بالنّسبة إليه. ففي النّهاية، عليه أن يغادر على السّاعة السّادسة والنّصف في القطار

السّريع المتّجه إلى زغرب[1]. في المقابل، مكثت كريستين بمفردها ساعة أخرى. وأثناء ذلك، ظهر حريفان آخران. وجلسا إلى طاولة السّيّدات الثّلاث. وطفقا يثرثران معهنّ. نادت كريستين النّادل. دفعت حسابها. ووقفت مصحوبة بالنّظرات الفضوليّة للآخرين، مغروزة في ظهرها. ثمّ غادرت غاضبة، حانقة ويائسة.

ومرّة أخرى كذلك، وجدت نفسها في الشّارع، حيث اللّيل. تمشي بلا هدف، وقد تساوى في نظرها كلّ شيء. لا فرق بالنّسبة إليها إذا ما أخذت وأُلقي بها في قناة الدّانوب أو أنّ السّيّارة التي كادت تدهسها عندما كانت تعبر الشّارع ساهمة لم تتوقّف على الفور. لم تكن تبالي بشيء في تلك اللّحظة. فجأة، لاحظت أنّ رجل شرطة يتأمّلها بنظرة غريبة، ويهمّ بالمشي نحوها، كأنّه يريد أن يطرح عليها سؤالا مّا. أدركت أنّه يشتبه في كونها إحدى تلك النّساء اللّواتي يتسكّعن في الظّلام ويستدرجن الرّجال. فابتعدت عنه مسرعة. «يجدر بي أن أعود إلى البيت. ماذا أفعل هنا؟ ماذا؟». سمعت صوت خطوات تلحق بها. ولمحت ظلاّ يدركها الآن. وها إنّ صاحبه يقف أمامها. ويمسك بذراعها قائلا: «لا يا آنستي. أتعودين إلى المنزل في هذه السّاعة المبكّرة؟!». ظلّت صامتة. لكنّه لم يتركها. بل راح يتكلّم بإصرار أكبر، ممّا جعلها تشعر بالانشراح. أليست ترغب في أن تذهب إلى مكان آخر؟ «لا، قطعا لا». ردّ عليها: «ولكن، من يعود في مثل هذه السّاعة إلى البيت؟ فلنشرب قهوة على الأقلّ». واستسلمت في النّهاية حتّى لا تظلّ وحيدة. إنّه فتى لطيف، موظّف في بنك كما قال لها. هو

(1) زغرب Zagreb: عاصمة كرواتيا.

متزوّج دون شكّ. هكذا فكّرت كريستين. في الحقيقة، لقد رأت ذلك الخاتم في إصبعه. ولكنّ ذلك لا يضايقها. فهي لا تنتظر منه شيئا. ولا تريد سوى ألاّ تكون بمفردها وأن تسمح لنفسها بالإنصات بأذن واحدة لسلسلة من النّكات. كانت تراقبه من حين إلى آخر. فتلاحظ أنّه لم يعد شابّا وأنّ بعض التّجاعيد قد تسلّلت إلى أسفل عينيه. يبدو منهكا ومسحوقا ومجعّدا مثل سترته. ولكنّه يُحسن الكلام. ولأوّل مرّة تتكلّم مع شخص أو تسمح لشخص بأن يحادثها، بينما ترغب في الحقيقة في شيء آخر تماما. أزعجها ابتهاج الرّجل. إنّه يلقي النّكات ويمزح باستمرار، بينما تعوم حنجرتها في المرارة. وشيئا فشيئا، بدأت تحسّ بالكراهية إزاء هذا الغريب السّعيد اللاّمبالي بالغضب المتراكم داخلها. عندما غادرا النّزل، مرّر ذراعه تحت ذراعها، بنفس الحركة التي قام بها المهندس أمام النّزل الآخر. ولم تكن الإثارة التي هجمت عليها فجأة متأتّية من هذا الفتى الثّرثار النّكرة وإنّما من الآخر، من ذكرياتها الجميلة. أحسّت بالخوف فجأة. وتوجّست من أن تستسلم في النّهاية لهذا الغريب الذي لا تريده حقّا، فقط بسبب الغضب واللّهفة. لمحت سيّارة تاكسي قادمة. فرفعت ذراعها. واندفعت بقوّة. وارتمت في السّيّارة، تاركة الرّجل مشدوها.

مكثت في غرفتها بالفندق ساهدة، تصغي إلى صوت السّيّارت في الخارج. لقد انتهى الأمر. ليس بإمكاني أن أجتاز تلك الحدود الشّفّافة. انتبهت في أرقها ذاك إلى تنفّسها المضطرب. فقالت لنفسها: «ولمَ التّنفسّ أصلا؟». وانقضى صباح الأحد ثقيلا مثل اللّيلة التي سبقته. كانت أغلب المتاجر مقفلة، تخفي بضاعتها المغرية خلف

أبوابها الموصدة. وتزجية للوقت، جلست في إحدى المقاهي. وأخذت تتصفّح الجرائد. لم تعد تعرف السّبب الذي أحضرها إلى فيينا، هذه المدينة التي لا يعرفها فيها أحد. ولا أحد فيها يريدها. وتذكّرت أنّ عليها أن تزور أختها وزوجها. فقد وعدتهما بذلك. وسيكون من اللّطيف أن تفي بوعدها. من الأفضل أن تزورهما بعد الغداء. فقد يظنّان أنّ الطّعام هو سبب قدومها. لقد أصبحت شقيقتها منغلقة على نفسها ومصالحها منذ أن رزقت بالطّفلين. لا تفكّر إلاّ في شؤونها. وبإمكانها أن تدّخر حتّى نتفة الشّمع. مازال أمامها ساعتان أو ثلاث للذّهاب إليها. أخذت تمشي ساهمة في شارع رينغ، حيث لاحظت أنّ الدّخول إلى متحف الفنون التّشكيليّة مجانّي في ذلك اليوم. راحت تتسكّع غير مبالية بين القاعات. ثمّ جلست على إحدى المقاعد المخمليّة النّاعمة. وظلّت تراقب النّاس من حولها. وبعد ذلك غادرت المكان. وانتهى بها المسير في حديقة عامّة. وشيئا فشيئا، كان شعورها بالعزلة يتعاظم ويحتدّ. وفي النّهاية، وقفت عند الثّانية ظهرا عند باب شقيقتها، منهكة كأنّها كانت تخوّض في الثّلج العميق. وهناك وجدت العائلة كلّها، أختها وزوجها والطّفلين في أفضل ملابسهم. (وقد أراحها الأمر) سعد زوج الأخت برؤيتها: «آه! يا لها من مفاجأة! خلال الأسبوع الماضي كنتُ أقول لنيلّي إنّنا لم نعد نراها. ويجب أن نكتب إليها. كان بإمكانك أن ترافقينا في الغداء. ولكن، ابقي معنا. نحن ذاهبون إلى شونبرون[1] كي يتفرّج الأطفال في الحيوانات. ثمّ إنّ الطّقس جميل أيضا...». «بكلّ سرور»،

(1) قصر شونبرون Schönbrunn: أو القصر الإمبراطوريّ، صرح معماري وثقافّي في فيينا.

أجابت كريستين. من الجيّد أن يملك المرء وجهة وهدفا، وأن يندمج مع الآخرين. مدّ زوج الأخت لها ذراعه. وانطلق يحدّثها عن مسائل كثيرة، بينما تعدّ الأخت أبناءها للخروج.

يظلّ لسانه وسط وجهه العريض المبتهج مشتغلا طيلة الوقت دون كلل، بينما تربّت يده على ذراعها بشكل ودّيّ. إنّه بخير. يمكن ملاحظة ذلك من مسافة بعيدة. يشعر بالرّضا، وهو مستمتع بسذاجة بهذا الأمر. وقبل أن يصلوا إلى الترام، كان قد أفشى لها النّبأ العظيم: سيتمّ انتخابه في الغد، وباستحقاق كامل، رئيسا لدائرة الحزب في المنطقة. فقد ناضل منذ عودته من الحرب. وإذا تمّ كلّ شيء كما ينبغي له وخسر اليمينُ، فإنّه سيصير عضوا في المجلس البلديّ القادم.

تمشي كريستين إلى جانبه. وتصغي إليه مستمتعة. لقد صار في نظرها ألطف من قبل، هذا الرّجل البسيط الذي يمكن إسعاده بسهولة. إنّه طيّب وودود وساذج وواثق من نفسه أيضا. فهمت أنّ رفاقه يرشّحونه لمنصب متواضع. وهو يستحقّه فعلا. ورغم ذلك، حين تتفحّصه جيّدا بقصر قامته وتورّد خدّيه وبدانته وكرشه التي تهتزّ مع كلّ خطوة، تفكّر في فزع في أختها، وتتساءل: كيف لها..؟ لن أتحمّل أن يلمسني رجل كهذا. في المقابل، تجد أنّ التّنزّه معه في النّهار وسط حشود النّاس أمر جميل حقّا. يقف أمام أقفاص الحيوانات واحدا من الأطفال لا تميّزه منهم، حتّى إنّ النّظر إليه يثير الغيرة. فمن يستطيع في مثل سنّه أن يستمتع بهذه الصّغائر بدل أن يطمح ملء جهده إلى تحقيق المستحيل؟ أخيرا، عندما حانت السّاعة الخامسة واقترب موعد نوم الأطفال، اتّخذ الجميع طريق العودة. حشر الأطفال أوّلا في الترام

المحتشد، بينما وقف الآخرون متراصّين وسط ضجيج العجلات الصّاخب. أشرقت الذّكريات في رأس كريستين فجأة: تلك السّيّارة الرّائعة المدهشة في ضوء الصّباح، الهواء العبق برائحة الزّرع، المقعد المريح والمنظر الطّبيعيّ يعبر بسرعة من أمامها. كم من الوقت ظلّت تحلم؟ إنّها لا تعرف حقّا. نبّهها زوج أختها بنقرة على كتفها: «حان وقت النّزول. هل تمكثين معنا في انتظار القطار؟ يمكننا أن نشرب قهوة معا. انتظري. سأفسح لك الطّريق».

استخدم مرفقيه كي يتقدّم بقامته القصيرة وجسده السّمين، حتّى توصّل إلى أن يفسح مسلكا صغيرا وسط البطون والأكتاف والأظهار التي تتراجع بصعوبة. كان قد وصل إلى الباب عندما انفجرت الاحتجاجات: «لا تغرز مرفقك في معدتي أيّها الأخرق!»، صاح به رجل طويل القامة نحيف، يضع قبّعة رياضيّة على رأسه. «من الأخرق؟». تنحنح الرّجل الطّويل. وانكمش على نفسه، بينما راح الجميع يحدّقون فيه. فجأة، تغيّرت نبرة الصّوت: «فردينان! مستحيل! أوه، كدت أن أتعارك معك». اندهش الآخر أيضا. ثمّ ضحك. وتصافح الرّجلان، وهما ينظران في عيني بعضهما البعض، دون أن ينفصلا، ممّا اضطرّ السّائق إلى التّدخّل: «إذا كان هناك من السّادة والسّيّدات من يريد أن ينزل، فعليه أن يفعل ذلك الآن. ليس لدينا متّسع من الوقت». «تعال! هيّا معنا. إنّنا نسكن في مكان قريب من هنا. لا هذا مستحيل! هيّا إذن. تعال!». أشرق وجه الرّجل الطّويل النّحيف ذي القبّعة الرّياضيّة. ومن ارتفاعه ذاك، حطّ يده على كتف زوج الأخت. «بكلّ تأكيد فرانز! أذهب معك». نزلا معا.

وكان زوج الأخت قد استعاد من جديد إحساسه بالمفاجأة. فقال: لا، حقّا هذا مستحيل... أن نتمكّن من اللّقاء مجدّدا! كم مرّة فكّرت فيك وتساءلت عن مكانك! كم مرّة هممت بأن أكتب إلى نزلك حتّى أسأل عنك! أتعرف ماذا يحدث للمرء؟ ينسى دوما. ويؤجّل عمله إلى الغد. والآن ها أنت هنا! يا للمفاجأة! كم أنا سعيد بذلك!».

كان الرّجل الغريب يقف قبالته، فيما تشير ارتعاشة خفيفة على شفتيه إلى سعادته هو الآخر. «انس الأمر يا فرانز! إنّني أصدّقك». وربّت على كتفه، قبل أن يضيف: «ولكن، عرّفني الآن على هاتين السّيّدتين! أحسب أنّ إحداهما هي نيلّي، زوجتك التي طالما حدّثتني عنها». «طبعا، طبعا! ولكن انتظر قليلا. مازلت مذهولا إلى الآن... لا حقّا، أيّ سعادة هذه! إنّه أنت فردينان!» ثمّ التفت إلى الآخرين: «أتعرفين؟ إنّه فردينان... فردينان فارنر الذي حدّثتك عنه مرارا. لقد قضّينا سنتين معا في نفس الثّكنة في سيبيريا. إنّه الوحيد -تعرفين ذلك- الوحيد الذي كان طيّبا ولائقا من بين حثالة الرّوثينيّين[1] والصّرب تلك التي حشرنا معها... الوحيد الذي يمكن الحديث معه والثّقة به... لا، هذا مستحيل! ولكن، عليك الآن أن تصعد معنا. هناك الكثير ممّا أريدك أن تخبرني به. لا، هذا لا يصدّق! لو قال لي أحدهم إنّني سأحظى بهذه السّعادة اليوم لما... لو ركبت التّرام اللاّحق فحسب، لما التقيت بك».

---

(1) الروثينيون أو الروسينيّون Ruthenian-Serbian: مجموعة عرقيّة مشتّتة بين دول أوروبا الشّرقية. يتكلّمون اللّغة السلافيّة الشّرقيّة التي تسمّى اللّغة الرّوسينيّة.

لم تر كريستين من قبل زوج أختها الهادئ الرّصين يهتزّ بهذا الشّكل. لقد صعد الدّرج وهو يوشك على الرّكض. ثمّ سحب صديقه. وأدخله أوّلا. أمّا الصّديق الذي تشير ابتسامته إلى تفوّقه عليه فقد استسلم للحماسة المتجدّدة لرفيقه في الحرب. «اخلع سترتك! ولتكن على راحتك كأنّك في بيتك. اجلس هنا على المقعد المريح. نيلّي! قهوة من أجلنا رجاء! وشيئا من الكحول أيضا والسّجائر! دعني أتأمّلك قليلا. لم تعد شابّا. يبدو لي أنّك أصبحت نحيلا جدّا. يجب أن تُسمَّن يا رجل».

استقبل الرّجل الفحص بمزاج مرح. فقد أمتعته سعادة صديقه الطّفوليّة. كان وجهه الصّارم الثّابت ذو الجبهة النّاتئة والوجنتين البارزتين يرقّ شيئا فشيئا. وقد كانت كريستين أيضا تتأمّله، مستذكرة إحدى اللّوحات التي شاهدتها هذا الصّباح في المتحف. إنّها رسم لراهب، رسمه فنّان إسبانيّ نسيت اسمه... نفس الوجه العظميّ الزّاهد الذي يوشك أن يكون بلا لحم... نفس الخطّ المتوتّر تحت الأنف. ربّت الرّجل بودّ على كتف زوج الأخت: «لعلّك على حقّ. ربّما كان يجدر بنا أن نستمرّ في تقاسم كلّ شيء، مثلما كنّا نقتسم المعلّبات في المعسكر. كان بإمكانك أن تمنحني القليل من دهونك. وستكون الأمور على ما يرام. كما أنّ زوجتك لن تعترض على ذلك، على الأرجح».

«ولكن، أخبرني الآن يا فرديناند. إنّني أتحرّق شوقا لمعرفة شيء مّا. عندما قام الصّليب الأحمر بنقلنا، كنت أنا في الدّفعة الأولى وأنت في الثّانية، وكان عليك أن تلتحق بنا بعد يوم فحسب. لقد مكثنا

يومين إضافيّين على الحدود النّمساويّة، إذ لم يكن هناك أيّ فحم من أجل القطارات. وقد انتظرت قدومك خلال اليومين ساعة بعد أخرى. ذهبنا عشر مرّات أو عشرين ربّما إلى مدير المحطّة لنطلب منه أن يرسل برقيّة إليك. ولكنّ الفوضى كانت تعمّ المكان. وفي النّهاية، غادرنا الحدود التّشيكيّة بعد يومين في اتّجاه فيينا، في رحلة دامت سبع عشرة ساعة. ما الذي حدث لك إذن؟»

«حسنا، كان بإمكانك أن تنتظر سنتين على الحدود. لقد حالفكم الحظّ. أمّا نحن فقد عانينا جميع الأهوال. وصلت البرقيّات بعد نصف ساعة من رحيلكم، لتعلمنا بأنّ القوّات التّشيكيّة قد فجّرت السّكك الحديديّة. ولذلك عدنا إلى سيبيريا. لم يكن الأمر هيّنا. لكنّنا لم ننتبه إلى ذلك في البداية. حسبنا أنّ المسألة ستحسم في ثمانية أيّام أو أسبوعين أو شهر على أقصى تقدير. ولكن أن تدوم سنتين... لا أحد منّا تخيّل ذلك حتّى. لم ينج من بين سبعين جنديّا سوى ما يناهز عشرة أفراد... كان هناك الحمر من جهة والبيض من جهة أخرى وكذلك رانغل[1]... حرب بلا انقطاع... نتقدّم ومن ثمّ نتراجع وهكذا... مقذوفين مثل حبّات قمح في كيس. ولم يتمكّن الصّليب الأحمر من إعادتنا إلى الوطن إلاّ سنة 1921، عبر الحدود الفنلنديّة. نعم، يا صديقي. لقد رأينا كلّ الأهوال بأنواعها. ولهذا السّبب لم نتكرّش مثلك».

«أيّ حظّ سيّء هذا! هل سمعت ذلك يا نيلّي؟ كلّ ذلك بسبب نصف ساعة فحسب. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا حدث... عن

---

(1) بيتر ڤون رانغل Peter von Wrangel (1878- 1928): القائد الأعلى للجيش الأبيض (الموالي للقيصر) في القرم.

كونك قد علقت في كلّ تلك الفوضى... أنت، أيّها الرّجل الطّيب من بين الجميع! وماذا فعلت خلال السّنتين؟».

«يا صديقي، إذا كان عليّ أن أسرد لك كلّ تفصيل فلن نتمكّن من فعل ذلك في يوم واحد. لقد شاركنا في الحصاد. وعملنا في المصنع. أوصلت الجرائد. ورقنتُ النّصوص على الآلة الكاتبة. وقاتلتُ لأسبوعين في صفوف الحمر عندما أدركوا بوّابات المدينة. وتوسّلتهم مع المزارعين عندما دخلوها. حسنا، فلنختم هذا الحديث، لأنّني حين أفكّر في تلك الأيّام لا أدرك حقّا كيف أمكنني أن أكون جالسا هنا أدخّن سيجارتي».

شعر زوج الأخت بالإثارة. وردّ عليه هاتفا: «حسنا، حسنا. قد لا يعرف المرء حقّا كم هو محظوظ. ماذا لو مكثت نيلّي هنا مع الأطفال وحيدين طيلة سنتين؟ أمر لا يصدّق! وأنت أيّها الرّفيق الطّيب، لقد تعرّضت بمفردك لكلّ هذا الأذى! ولكنّك محظوظ في النّهاية. حمدا للرّبّ لأنّك ما تزال قطعة واحدة!».

أخذ الغريب سيجارته. وسحقها بغضب في المنفضة. وقد تجّهم وجهه فجأة: «نعم، حسنا... يمكنك أن تقول إنّني محظوظ، إذ لم يصبني أيّ سوء تقريبا. لقد كسرت إصبعين فحسب خلال اليوم الأخير. يمكننا أن نسمّي ذلك حظّا جيّدا. فقد حدثت الأمور ببساطة. كان يومنا الأخير. ولم نعد قادرين على التّحمّل، نحن النّاجين المحشورين في ثكنة واحدة. لقد أفرغت عربة حبوب في محطّة القطار من أجلنا كي نكمل الطّريق. ومكثنا سبعين شخصا بدل أربعين كما هي العادة، متراصّين تماما، حتّى إنّ الواحد منّا يعجز عن الالتفات.

أمّا بالنّسبة إلى حاجات معيّنة، فإنّني لا أستطيع أن أقول لك شيئا في حضرة السّيّدتين. وعلى أيّة حال، كنّا نتقدّم في طريقنا. وهذا هو الأهمّ. وفي محطّة أخرى، صعد عشرون جنديّا إضافيّا. وبمؤخّرات البنادق، تمكّنوا من إفساح المجال لهم. كان الواحد منّا يدفع الآخر مرّة بعد أخرى حتّى توصّلنا إلى ذلك. ولكنّ خمسة منّا أو ستّة قد داستهم الأقدام. وهكذا سافرنا طيلة سبع ساعات، مندسّين بعضنا في بعض، نئنُّ ونصرخ ونشتم ونتصبّب عرقا ونُتنا. كنتُ في موقف لصق الجدار، ويداي ممدودتان أمامي حتّى لا يسحق الجمع قفصي الصّدريّ إزاء الخشب. ومع ذلك، فقد كسر إصبعاي وتمزّق أحد أوتاري. ومكثت طيلة ستّ ساعات بلا نفس واحد، أكاد أختنق تماما. واستمرّت الرّحلة حتّى اللّيل. نعم، معك حقّ. إنّني محظوظ في النّهاية... مجرّد كسر في إصبعين وتمزّق في أحد الأوتار... حصيلة تافهة!». ثمّ رفع يده. وعرض إحدى أصابعه. وكان جامدا لا يمكن ثنيه. «حصيلة تافهة، أليس كذلك؟ إصبع واحدة بعد حرب عالميّة وأربع سنوات في سيبيريا؟! ولكن، لا أحد بإمكانه أن يتخيّل ما تفعله إصبع ميّتة في يد حيّة. لا يمكنك الرّسم. لا مجال لأن تكون مهندسا. لا يمكنك في مكتبك أن ترقن على الآلة الكاتبة. ولا يمكن أن تمسك بشيء حين تُضطرّ إلى القيام بعمل مجهد. أمّا هذا الوتر الصّغير اللّعين، فهو مجرّد خيط رفيع لا أكثر. ولكن، كلّ ما تريد فعله في الحياة معلّق بهذا الخيط الرّقيق، كأنّك تخطئ في رسم معماريّ بمقدار سنتيمتر واحد -أمر تافه أليس كذلك؟- وها إنّ البناية كلّها تنهار».

اندهش فرانز تماما. وظلّ يردّد بلهفة: «لا ليس تافها. معك حقّ.

ليس تافها». ويبدو جليّا أنّه يودّ لو كان بإمكانه أن يمسّح على اليد العاجزة. تجهّمت المرأتان كذلك. وتأمّلتا الرّجل بانتباه، بينما استجمع فرانز شتاته. وقال: «نعم، أكمل رجاء. وماذا فعلت بعد ذلك؟». «حسنا، لقد قمت بما أخبرتك به دوما. استأنفت دراستي في المعهد التّقنيّ. وأعدتُ ربط الخيط من حيث انقطع سلفا. لقد جلست من جديد في الخامسة والعشرين على مقعد الدّراسة الذي هجرته قبل ستّ سنوات. تعلّمت في النّهاية أن أرسم باليد اليسرى. ومن ثمّ حدث شيء آخر، أمر تافه جديد».

- ماذا؟

- لقد تشكّل مجتمعنا على نحو جعل التّعليم مكلّفا إلى حدّ مّا. ولقد فاتني هذا الأمر البسيط التّافه أيضا... لا نهاية للتّفاهات!

- ولكن كيف؟ إنّك تملك في المقابل الكثير من المال. لديك منزل في ميرانو وحقول وحانة ودكّان التّبغ ومتجر البقالة... لقد حدّثتني عن كلّ هذا... بالإضافة إلى جدّتك التي لم تفعل شيئا سوى ادّخار المال والتي لم تكن تهدر زرّا واحدا... تلك التي تنام في غرفة بلا تدفئة لأنّها لا تريد أن تنفق بعض الحطب وشيئا من الورق لإشعال النّار... ماذا حدث لها؟

- أوه، ما تزال تملك منزلا جميلا بحديقة رائعة. إنّه قصر عظيم في الحقيقة. كنت عائدا من عندها عندما التقيتني في التّرام، من لانتس تحديدا، حيث دار المسنّين التي وافقت على قبولها بعد إجراءات طويلة مضنية. وبالنّسبة إلى المال، فهي تملك منه الكثير أيضا في خزينة حديديّة تفيض به، مائتي ألف كرونة

بأوراق قديمة من فئة الألف، تنام في النّهار داخل الخزينة وترتاح في اللّيل تحت سريرها. يسخر منها جميع الأطبّاء لهذا الأمر. ويضحك الممرّضون لذلك... مائتا ألف كرونة! لقد كانت سيّدة نمساويّة صالحة، باعت كلّ شيء، الكروم والحانة والمتجر، لأنّها لم ترد أن تتحوّل إلى إيطاليّة. ثمّ جعلت المبلغ في أوراق ألفيّة جميلة وجذّابة وجديدة، طبعت أثناء الحرب. وهي ما تزال الآن موجودة تحت سريرها داخل الخزينة. تقسم الجدّة أنّها ستستعيد قيمتها ذات يوم. فليس من المعقول أنّ ما يساوي عشرين أو خمسا وعشرين هكتارا من الأراضي ونزلا حجريّا جميلا وأثاثا عائليّا قديما وخمسين سنة من العمل يمكن أن ينعدم فجأة. أوه، نعم... لا تستطيع العجوز الطّيّبة التي أدركت الخامسة والسّبعين أن تفهم هذا. مازالت تؤمن حتّى الآن بالرّبّ الرّحيم وعدالته الأرضيّة».

سحب غليونا من جيبه. عبّأه تبغا. وأخذ ينفث الدّخان بتوتّر. كانت كريستين تدرك جيّدا ما تحمله هذه الحركة من غضب. فهذا الحنق البارد القاسي المشحون بالازدراء مألوف بالنّسبة إليها. وبشكل مّا أحسّت أنّه حليفها. حدّقت شقيقتها في وجهه بأسف. لا شكّ أنّها تتعاطف مع هذا الشّخص الذي ملأ الغرفة دخانا، والذي يتعامل زوجها معه كأنّه صبيّ أمام مدرّس. لهذا السّبب أيضا انزعجت من تواضع فرانز أمام هذا الرّجل ذي الثّياب الرّثّة، العدوانيّ -وهذا ما يمكن استنشاقه بسهولة في الهواء- الذي تضوع منه رائحة الثّورة. إنّه يلقي بالحجارة في بركة راحتها السّاكنة. وحتّى فرانز نفسه، كان

مشدوها، يحدّق فيه بتودّد وفزع في الآن نفسه. ثمّ قال له متلكّئا: «هيّا أكمل حديثك. ماذا فعلت بعد ذلك؟». «كلّ ما يمكن أن يخطر ببالك. فكّرت في البداية أنّني إذا عملت عملا جزئيّا فإنّني سأتمكّن من إتمام دراستي. ولكنّ الأمر لم ينجح. فقد كنت أتوصّل بصعوبة إلى توفير طعامي اليوميّ. نعم يا عزيزي فرانز، لا أحد كان يرغب في الفتية الذين قضّوا شتاءين متتاليين في سيبيريا ثمّ عادوا بأنصاف الأيادي. كان هناك نشيد واحد يعمّ كلّ الامكنة: ‹يؤسفنا... يؤسفنا›، بينما يجلس الآخرون على مؤخّراتهم السّمينة في مكاتبهم بأصابع سليمة ويعملون. لقد تشرّدت بسبب تلك التّفاهة». «ولكنّك تملك الحقّ في منحة العجز. لست قادرا على العمل، أو بعبارة أخرى إنّك تملك إعاقة. يجب أن تتلقّى مقابلا مادّيا بسبب ذلك. إنّه حقّك».

«هل تعتقد ذلك؟ أنا أيضا صدّقت هذا الأمر. كنتُ أحسب أنّ على الدّولة أن تساعد شخصا خسر منزله وكرومه وإصبعه وستّ سنوات من حياته. ولكن لم يحدث ذلك يا عزيزي. فكلّ شيء يتراجع إلى الوراء في هذا البلد. ظننتُ أنّ حقوقي هذه ستكفي لأتلقّى المساعدة. وذهبتُ إلى مكتب المنح. وقدّمتُ لهم وثائقي الحربيّة. وكشفت لهم إصبعي، ولكن هباء. في البداية، كان عليّ أن أقدّم دليلا على أنّ الإصابة قد وقعت أثناء الحرب أو لواحقها. ولم يكن ذلك سهلا بما أنّ الحرب قد انتهت سنة 1918، فيما حدثت الإصابة سنة 1921، في ظروف لم يتمّ تسجيلها وتوثيقها. وحتّى هذا كان يمكن تدبّر أمره. ولكنّ السّادة البيروقراطيّين قد حقّقوا اكتشافا عظيما، وهو أنّني لستُ مواطنا نمساويّا، بما أنّ وثائق التّعميد تشير

إلى ولادتي ونشأتي في مقاطعة ميرانو. ولكي أحصل على الجنسيّة النمساويّة، كان عليّ أن أتقدّم بطلبها في المواعيد المحدّدة لذلك. وهكذا قضي الأمر». «ولكن لماذا؟ لماذا لم تتقدّم بطلبها؟». «ولكن، يا إلهي! لا تطرح عليّ أسئلة تضارع غباء أسئلتهم! كأنّهم هناك في خرب سيبيريا وأكواخها القشّ، سنة 1919، قد علّقوا لنا الجريدة النّمساويّة الألمانيّة الرّسميّة؟! يا صديقي لم نكن نعرف في تلك القرية التّتريّة ما إذا كانت فيينا جزءا من بوهيميا أم إيطاليا. كما أنّ ذلك لم يكن يعنينا بتاتا. لقد كان اهتمامنا الوحيد منصبّا على العثور على قطعة خبز وحشوها بين الأسنان... كيف نتخلّص من القمل وكيف نوفّر من أجل السّاعات الخمس التّالية علبة ثقاب وبعض السّجائر. رائع! كان عليّ أن أتقدّم في تلك اللّحظات بطلب الجنسيّة النّمساويّة! في النّهاية، قدّموا لي خرقة ورق مكتوب فيها إنّه في ضوء البنود 65، 71 و74 من معاهدة سانت جيرمان التي أبرمت في العاشر من سبتمبر 1919، يمكن افتراض أنّني مواطن نمساويّ. ولكنّني أبيعك هذه الخرقة مقابل علبة سجائر مصريّة، لأنّني لم أحصل في كلّ تلك المكاتب على فلس واحد».

أحسّ فرانس هذه المرّة برائحة السّلطة. واستعاد نشاطه فجأة: «يمكنني أن أتكفّل بهذا. ثق بي. سنحلّ المشكلة أخيرا. إذا كان بإمكان أحد أن يشهد على خدمتك العسكريّة أثناء الحرب، فإنّه أنا دون شكّ. إنّني أعرف بعض أعضاء المجلس عن طريق الحزب. وسيفسحون لنا الطّريق لتتحصّل في النّهاية على توصية من المجلس البلديّ. سترى قريبا. يمكنك أن تعوّل عليّ. وسنحلّ المشكلة». «شكرا يا صديقي

العزيز. شكرا لك من أجل كلّ شيء. لكنّني اكتفيت من الإجراءات. صدّقني، لا يمكنك تخيّل حجم الوثائق التي توصّلتُ إلى تجميعها: وثائق عسكريّة، وثائق مدنيّة، شهادة من المحافظ، من القنصليّة الإيطاليّة، شهادة عطالة عن العمل وما لا يمكن لي أن أتذكّره من ورق الخراء. لقد أنفقتُ في التّوثيق واقتناء الطّوابع البريديّة ما يفوق المنحة السّنويّة البائسة. أهلكت ساقيّ في التّسكّع من مكان إلى آخر. فقد ذهبتُ إلى دار القضاء ووزارة الحرب ومراكز الشّرطة ووزارة العدل. وفي كلّ مرّة، يتمّ تحويل وجهتي إلى باب جديد. صعدتُ كلّ درج ممكن. ونزلتُ منه بلا طائل، حتّى إنّني لم أترك مكانا لم أبصق فيه ازدراء لهؤلاء. لا، لا يا عزيزي. أفضّل أن أهلك على أن أعود إلى هذا السّباق الأخرق من مكتب إلى آخر».

نظر فرانز في وجهه متوجّسا، كأنّه تمّ القبض عليه أثناء جريمة. فقد ثقلت عليه الآن حياته المريحة. وشعر بالذّنب والإحراج. ولكنّه استأنف كلامه: «وماذا تفعل الآن؟». «أشياء كثيرة متفرّقة... كلّ ما يمكن أن يعترضني. إنّني أعمل الآن تقنيّ بناء، أي نصف مهندس نصف مراقب، في فلوريدسدورف[1]. يدفعون لي مبلغا محترما على الأقلّ. وسيحتفظون بي حتّى نهاية الأشغال أو إفلاس الشّركة. وحينئذ، سأجد شيئا آخر. لست قلقا بخصوص هذا الأمر. لكن ما حدّثتك عنه هناك، ونحن مستلقيان على أسرّة الخشب، أن أصير مهندسا ومشيّد جسور... كلّ هذا انتهى. لا يمكنني أن أستدرك

(1) فلوريدسدورف Floridsdorf: من الأحياء الشماليّة في فيينا.

ذلك الوقت الذي أهدرته في أحلام اليقظة خلف الأسلاك الشّائكة والتّدخين والاختباء من ملجإ إلى آخر. لقد أغلق باب الجامعة. ولم يعد بإمكاني فتحه من جديد. سقط المفتاح من بين يديّ بضربة من الخلف في بداية الحرب. ولقد تركته هناك في وحل سيبيريا. ولكن، فلنكفّ عن هذا الحديث. أعطني رجاء كأس كونياك. إنّنا لم نتعلّم من الحرب سوى الكحول والسّجائر».

ملأ فرانز الكأس في امتثال واضح، ويداه ترتجفان بتوتّر: «لا، ليس الأمر هيّنا... من المؤلم أن يهان رفيق طيّب وذكيّ ومجتهد مثلك. يا للعار! كنت لأراهن بكلّ ما أملكه على نجاحك وتفوّقك. إذا كان هناك من يستحقّ هذا النّجاح، فهو أنت دون شكّ. للأسف، حدثت الأمور بشكل مختلف. يجب أن يتغيّر هذا الوضع. لا شكّ أنّ هناك حلاّ مّا».

«يجب؟! أهذا هو رأيك؟ لقد كنتُ أعتقد نفس الشّيء طيلة خمس سنوات تلت عودتي من الحرب. لكنّ هذه «اليَجِبُ» ليست شيئا آخر سوى حبّة جوز لا يمكن كسرها. ومهما هززت الشّجرة، فلن تسقط أبدا. تحدث الأشياء في هذا العالم بشكل مختلف عن الذي تعلّمناه في كتب القراءة... «كن دوما وفيّا ونزيها»... لسنا سحالي يا صديقي، تنبت أذيالها بسرعة بعد أن يتمّ اقتلاعها. حين تبتر أجمل ستّ سنوات من حياة رجل، من الثّامنة عشر إلى الرّابعة والعشرين، فإنّه يظلّ بشكل مّا معاقا وعاجزا إلى الأبد، حتّى لو حالفه الحظّ -كما تقول- وعاد إلى بيته سالما. فعندما أبحث عن عمل، لا قيمة لديّ تجاوز قيمة صبيّ مبتدئ أو مراهق بائس. وعندما أنظر في المرآة، أرى وجه رجل

في الأربعين. لا، لقد جئنا إلى العالم في زمن تعيس. وليس هناك طبيب واحد بإمكانه أن يعالجنا من بتر السّنوات السّتّ، ويشفينا منه. هل ستفعل الدّولة ذلك؟ تلك الفساد الأسمى؟! اللّصّ الأكبر؟! اذكر لي واحدا من بين الوزراء الأربعين، المكلّفين خلال الحرب والسّلم، بالشّؤون العدليّة والتّأمين الاجتماعيّ والتّجارة والتّبادلات، قام بواجبه إزاء النّاس ومنح لكلّ واحد منهم حقوقه! لقد ألقوا بنا فوضى مسيرة رادتسكي[1]، وهم يهتفون حفظ اللهّ الوطن! وها هم الآن يخادعوننا بشكل آخر. نعم، يا عزيزي. عندما تنظر إلى العالم من الأسفل، حيث الوحل والوسخ فإنّك لا تراه جميلا دون شكّ».

تلبّد وجه فرانز، وقد لاحظ انزعاج زوجته. وفي غمرة شعوره بالحرج، حاول أن يجد عذرا لصديقه: «ماذا تقول يا فريدي؟! أكاد لا أتعرّف عليك. كان عليكما أن ترياه هناك. لقد كان أفضل الرّفاق وأكثرهم صبرا وأقلّهم تذمّرا، المحترم الوحيد من بين أولئك الأوغاد. مازلت أتذكّر إلى الآن لحظة وصوله. كان صبيّا نحيلا في التّاسعة عشر في تلك الفترة. وبينما يبتهج الجميع لانتهاء الإعصار في نظرهم، كان هو ساخطا لأنّهم قبضوا عليه أثناء الانسحاب دون أن يتمكّن من القتال والموت من أجل الوطن. أتذكّر أيضا وصوله إلى الجبهة في اللّيلة الأولى -لا أحد رأى ذلك من قبل- وهو يقاتل بعد أن انفلت للتّوّ من تحت تنورة أمّه. لقد رأيناه يركع ويصلّي للرّبّ. وعندما سخر أحدهم من الإمبراطور والجيش، انقضّ عليه يريد أن

(1) جوزيف رادتسكي: جنرال نمساويّ خلّدته مسيرة سمّيت باسمه في عهد يوهان شتراوس الأب، احتفاء بفوزه في معركة كوستوزا سنة 1848.

يقتلع حنجرته. هذا ما كانه من قبل، أكثرنا قيمة وقدرا. لا يشكّك في شيء تنشره الجرائد. ولا يتردّد في كلمة داخل بيان عسكريّ. وها هو الآن يتحدّث بهذه الطّريقة!»

نظر إليه فرديناند متجهّما. وقال: «أعرف أنّني ابتلعتُ كلّ طعم مثل صبيّ ساذج. لكنّكم أيقظتموني. ألم تقولوا لي من اليوم الأوّل إنّ كلّ ذلك مجرّد كذب وبهتان؟! وإنّ جنرالاتنا عجزة وضبّاطنا السّامين لصوص وإنّ من لا يستسلم مجرّد أبله؟! من كان هناك البولشيفيّ العظيم، أنا أم أنت؟ من الذي كان يخطب فينا أيّها الأحمق عن الاشتراكيّة والثّورة العالميّة؟ من الذي التقط الرّاية الحمراء وذهب إلى مخيّم الضّبّاط لينتزع شاراتهم؟ حسنا، حاول أن تتذكّر قليلا. من الذي ألقى تلك الخطبة العظيمة في قصر المحافظ وإلى جانب المفوّض السّوفياتيّ، معلنا أنّ الأسرى النّمساويّين لم يعودوا ميليشيا الإمبراطور وإنّما جنود الثّورة العالميّة، وأنّهم سيعودون إلى بيوتهم ليحطّموا الرّأسماليّة ويبنوا مجتمع النّظام والعدالة؟ ما الذي حدث للتّطهير العظيم الآن، وقد عثرت على طبقك المفضّل أيّها الزّعيم؟».

انتفضت نيلّي واقفة. وشرعت في إخلاء الطّاولة. لم تكن تخفي غضبها عمّن حولها. فهي في شقّتها على أيّة حال. وزوجها يسمح لهذا الغريب بأن يوبّخه كأنّه مجرّد صبيّ. لاحظت كريستين أيضا غضب أختها، ولكن بمتعة غريبة. وقد أوشكت أن تنفجر ضحكا، وهي تتأمّل زوج أختها، الأمين العامّ المستقبليّ للمجلس المحلّيّ، جالسا في حشمة وهو يتنحنح ليبرّر موقفه: «ومع ذلك، فقد فعلنا كلّ ما بإمكاننا التّوصّل إليه. شرعنا في الثّورة منذ اليوم الأوّل». «ثورة؟

هلاّ منحتني سيجارة أخرى رجاء حتّى أنفخ في ثورتك الخرقاء؟ لقد عدتم ولّعتم الشّعار النّمساويّ. وظللتم محترمين ومطيعين. لم تلمسوا شيئا في المتجر. ما في الأعلى بقي في مكانه. وما في الأسفل مكث في الأسفل. لم تحرّكوا قبضة واحدة. ولم تقلبوا شيئا رأسا على عقب. ما فعلتموه ليس ثورة. إنّه إحدى مسرحيّات نسترويّ[1]. وقف فجأة. وراح يمشي في مكانه، جيئة وذهابا. ثمّ انتصب أمام فرانز. وقال: «لا تسئ فهمي. فأنا لا أنتمي إلى الرّاية الحمراء. ولكنّني عاينتُ الحرب الأهليّة وأعرفها جيّدا. وحتّى لو أحرقوا عينيّ، فلن أستطيع نسيانها. عندما استعاد السّوفييت إحدى القرى التي تعاقب الأحمر والأبيض عليها ثلاث مرّات، قاموا بتجميعنا كي نحشر القتلى في الأرض. لقد دفنتهم بيديّ هاتين. كانوا جثثا متفحّمة ممزّقة، أطفالا ونساء وجيادا، مكدّسين بعضهم على بعض... مشهد مروّع وتعفّن لا مثيل له! منذ تلك اللّحظة، صرتُ أدرك جيّدا ما تعنيه كلمة الحرب الأهليّة. وإذا كنت سأحقّق عدالة السّماء الأبديّة من خلال فظاعات كتلك، فلن أشارك فيها مطلقا. إنّها لم تعد تعنيني ولا تستدعي ذرّة من اهتمامي. لستُ مع البولشيفيّين أو ضدّهم. ولستُ شيوعيّا ولا رأسماليّا. فلا فرق بينهما عندي. إنّ هاجسي الوحيد هو ذاتي. والدّولة الوحيدة التي أريدُ أن أخدمها هي عملي. ولكن في ما يتعلّق بسؤال الأجيال القادمة وكيفيّة تأمين سعادتها بطريقة مّا أو بأخرى، بواسطة الشّيوعيّة أو الفاشيّة أو الاشتراكيّة، فكلّ ذلك لا يعنيني في شيء. ما

(1) يوهان نسترويّ Johann Nestroy (1801 - 1862): ممثّل وكاتب مسرحيّ نمساويّ، يعتبر الرّمز الأكبر في زمنه للكوميديا الشّعبيّة في فيينا.

دخلي أنا في الطّريقة التي ستحيا وفقها هذه الأجيال؟ لا هاجس لديّ ولا طموح سوى كيفيّة ترميم حياتي وإعادة بنائها من جديد، حتّى أحقّق ما ولدتُ من أجله. وعندما أبلغ مبتغاي ذاك وأعيد النّظام إلى حياتي، سأفكّر ربّما في اللّيل، بعد تناول عشائي، في كيفيّة إعادة النّظام إلى العالم. ولكن قبل ذلك كلّه، عليّ أن أعرف أين أقف تحديدا. إنّكم تملكون كلّ الوقت الكافي لتهتمّوا بمسائل أخرى. أمّا أنا، فلا تهمّني سوى شؤوني الخاصّة».

صدرت عن فرانز حركة مّا. فاستأنف فرديناند: «ولكن، لا... إنّني لا أستهدفك بكلامي يا فرانز. أعرف أنّك رجل طيّب... إنّني أعرفك جيّدا. وأنا متيقّن من أنّك لو استطعت أن تفرغ بنك الدّولة من أجلي لفعلت ذلك حتما، لسمّيتني وزيرا حتّى. أنت رجل طيّب وودود. وذاك هو خطؤك... تلك هي جريمتك. لقد كنّا لطيفين وسذّجا. وبهذا الشّكل استطاع الآخرون التّلاعب بنا بسهولة. لا، يا عزيزي. لقد انتهى كلّ شيء بالنّسبة إليّ. ولا حاجة إلى أن يحدّثني أيّ شخص عن الآخرين الذين يعانون أكثر منّي. فلن يواسيني ذلك أبدا. لن يقنعني أحد بأنّني كنت محظوظًا لأنّني ما أزال أحتفظ بذراعيّ وساقيَّ، ولأنني لا أسير مستندًا إلى عكّاز. لا أريد أن أسمع تلك التّخاريف التي تقول إنّ القدرة على التّنفّس وتجنّب الجوع تكفيان لتكون الأمور على ما يرام. لم أعد أصدّق شيئا. ولم أعد أؤمن بشيء... لا بالرّبّ ولا بالدّولة ولا بأيّ معنى ممكن للعالم... لا شيء. وسأظلّ كذلك ما دمتُ أشعر بأنّني لم أمنح ما أستحقّه، حقّي في الحياة. وما دمتُ لا أملك هذا الحقّ، سأظلّ أعلن أنّه قد سرق منّي

وقد تمّ خداعي. لن أستسلم ما دمتُ غير متيقّن من قدرتي على أن أعيش حياتي الحقيقيّة، بدل أن أكتفي بتحقيق البقاء معتمدا على نُتَف يتقيّؤها الآخرون. أيمكنك فهم كلّ هذا؟».

«نعم». ونظر الجميع فجأة إلى كريستين التي احمرّت خجلا، إذ لم تنتبه إلى هذه النّعم وهي تنفلتُ عنوة من بين شفتيها. شعرت بالارتباك، وهي تلاحظ أنّها قد تحوّلت إلى محور الفضول في الغرفة. قفزت نيلّي في مكانها، وقد انتهزت الفرصة لتفجّر غضبها: «ما دخلك أنت؟ وماذا تعرفين عن الحرب؟ ما علاقتك بالحرب أصلا؟». وعلى الفور، اشتعلت الغرفة توتّرا. كانت كريستين سعيدة أيضا بقدرتها على تسريح غضبها. «لا شيء دون شكّ... لا شيء سوى أنّها دمّرتنا جميعا... سوى أنّها أفقدتنا أخا، ربّما نسيته تماما، مثلما نسيت النّهاية البائسة لأبينا وكلّ الأشياء الأخرى». «لكنّك لم تفتقري إلى شيء. كبرت في وضع جيّد. ويجدر بك أن تكوني سعيدة بذلك». «آه، يجدر بي أن أكون سعيدة! عليَّ ربّما أن أشكر القدر أيضا لإلقائه بي في حفرة الأجلاف تلك. ومع ذلك يبدو أنّك لا تحبّينها. فقد كنت تزوريننا في العطلات الرّسميّة فحسب. كلّ ما قاله السّيّد فارنر صحيح. لقد سرقوا منّا سنوات حياتنا. ولم يمنحونا شيئا في المقابل، ولا حتّى لحظة استراحة أو فرح أو عطلة أو استرخاء».

«ياه! ما من عطلة؟! لقد عدت للتّوّ من سويسرا، حيث أفخم النّزل على الإطلاق. ورغم ذلك، تتذمّرين!». «لم أفعل ذلك أبدا. بل إنّني سمعتك أنت تتذمّرين طيلة سنوات الحرب. أمّا بالنّسبة إلى سويسرا إذن، فإنّ ما رأيته هناك هو ما يمنحني الحقّ في التّكلّم. لقد

صرت الآن، بفضل ما رأيته هناك، أعرف جيّدا ما أُخذ منّا... وكيف خرّبت حياتنا وما...».

توقّفت فجأة في ارتباك واضح، وقد أحسّت أنّ الرّجل ينظر إليها باهتمام وتأثّر كبيرين. لعلّها أفرطت في البوح بما يختضّ داخلها. ولذلك غيّرت نبرة صوتها. واستأنفت كلامها: «لا مجال للمقارنة دون شكّ. فهناك من عانى أكثر منّا. ولكنّ كلّ واحد فينا قد تلقّى نصيبه وكفايته. لم أقل شيئا من قبل. ولم أكن أبدا عبئا على أحد، ولا اشتكيت لأحد. ولكن عندما تقولين لي...» قاطعها فرانز: «الهدوء أيّها الأطفال! لا تتشاجروا. فيم سيفيدنا ذلك؟ ما الذي نستطيع فعله نحن الأربعة؟ لا مزيد من السّياسة. فهي تنتهي بالخصومات دوما. فلنتحدّث في شيء آخر، حتّى لا تفسدوا عليّ فرحتي! لا يمكنكم تخيّل سعادتي برؤية هذا الرّجل إلى جانبي، حتّى وهو يتذمّر ويمتعض منّي».

خيّم الهدوء من جديد على الجلسة، مثلما يهبّ النّسيم المنعش بعد العاصفة. واستسلم الجميع للحظات لهذا السّكون والانشراح. ثمّ نهض فردينان من مقعده. وقال: «عليّ أن أغادر الآن. استدعِ ولديك رجاء. أريد أن أراهما ثانية». نودي على الطّفلين. فقدما، وهما يحدّقان بفضول واستغراب في الرّجل الغريب. «هذا هو رودريش، طفل ما قبل الحرب. لقد سمعتك تتحدّث عنه في تلك الأيّام. وأمّا الثّاني الذي لا أعرفه من قبل، فهو... ما هو اسمه؟». «يواكيم».

- يواكيم؟ أليس من المفترض أن يكون له اسم آخر يا فرانز؟

- يا إلهي! فريدي... نسيت الأمر تماما. أترين يا نيلّي؟ لقد اتّفقنا

أن يكون كلّ واحدا منّا عرّابا لطفل الآخر، إذا ما استطعنا النّجاة وأنجب كلّ واحدا منّا ولدا. لقد نسيت ذلك تماما. ألست غاضبا منّي؟

- أعتقد أنّ كلاّ منّا لا يستطيع أن يغضب من الآخر يا صديقي. لو كنّا نرغب في الخصومة، لكنّا فعلنا ذلك هناك، حيث لدينا المتّسع من الوقت. ولكن، أترى؟ هذا هو الدّليل. إنّ نسياننا لكلّ شيء يضع نقطة النّهاية. ولعلّ ذلك هو الأفضل. (مسّح بيده على رأس الطّفل. ولمع بريق تأثّر في عينيه) لعلّ الاسم لم يكن ليجلب له الحظّ.

لقد هدأ الآن تماما. فمنذ أن مسّح على رأس يواكيم، استعاد وجهه شيئا من رقّة الطّفولة. وبنبرة هادئة مسترضية، قال لنيلّي: «المعذرة سيّدتي! أعرف أنّني لست ضيفا مريحا. وقد لاحظت بوضوح أنّ محادثتي مع فرانز ضايقتك. ولكن، بما أنّ كلّ واحد فينا قد فلى رأس الآخر من القمل طيلة سنتين، وحلق له لحيته، وأكل معه من نفس الطّاس، واستلقى إلى جانبه في نفس القذارة، فإنّ التّحذلق والتكلّف في حديثنا مع بعضنا البعض يعتبر جريمة شنيعة. إنّ الواحد منّا حين يلتقي برفيق الحرب، يستعيد في حضوره لهجة تلك الأيّام. وإذا كنت قد أسأت التّعامل نوعا مّا مع فرانز، فلأنّني انسقتُ لوهلة مع غضبي. ولكنّه يعرف جيّدا -وأنا متيقّن من ذلك- ألاّ شيء سيفرّقنا أبدا. ولذلك أعتذر منك فحسب. وأتفهّم تماما أنّك ستشعرين بالسّعادة لرؤيتي، وأنا أنزل الدّرج وأغادر. أؤكّد لك أنّني أتفهّم ذلك».

كتمت نيلّي غيظها، وهي تعلم أنّه قد قال للتّوّ ما تفكّر فيه: «لا، لا... سأكون دوما سعيدة باستقبالك. كما أنّ لقاء زوجي برفيقه هو أمر رائع. تعال إذن لتتغدّى معنا ذات أحد. سوف يسعدنا ذلك دون شكّ». ولكنّ كلمة «يسعدنا» قد رنّت بفتور بين شفتيها ولم تكن مقنعة. كما أنّ يدها التي صافحته كانت باردة ومتراخية. ثمّ غادر دون أن يتوجّه إلى كريستين بشيء، رغم أنّها أحسّت لوهلة بنظرته الفضوليّة الحارّة، قبل أن ينصرف ويلحق به فرانز. «سأرافقك إلى باب البناية».

وما أن اجتازا الباب حتّى فتحت نيلّي النّوافذ على مصاريعها. وقالت لكريستين بنبرة اعتذار: «لقد ملأ الغرفة دخانا حدّ الاختناق». ثمّ أفرغت منفضة السّجائر بحركة واحدة، مطلقة صوتا حادّا شبيها بصوتها. وفهمت كريستين مشاعرها. إنّها تريد أن تطرد بحركاتها هذه كلّ ما أدخله هذا الرّجل معه إلى بيتها. تأمّلت كريستين أختها كأنّها امرأة غريبة. كم أصبحت قاسية وضامرة ونحيلة جدّا هذه المرأة التي كانت يوما مّا حيويّة ورشيقة! ومثل بخيل يتشبّثُ بأمواله، تتمسّك هي بزوجها. ولا تريد أن تتخلّى عن أيّ نتفة منه ولو لصديق. يجب أن يكون ملكا لها برمّته، خاضعا وعاملا بجدّ وإصرار، مدّخرا ما يلزم حتّى تصبح هي في النّهاية زوجة الأمين العامّ للمجلس المحلّيّ. تنظر لأوّل مرّة في حياتها لأختها التي كانت تنحني أمامها احتراما نظرة ازدراء وكراهية، لأنّها لا تفهم شيئا ولا تريد أن تفهم حتّى.

لحسن الحظّ، عاد فرانز بسرعة. ولكنّ صمتا حادّا ومقلقا خيّم مجدّدا على الغرفة. تقدّم بتردّد. واقترب من المرأتين، كمن يتحسّس طريقه في أرض ملغومة. «لقد بقيت وقتا طويلا معه في الأسفل. هذا

لا يزعجني، لأنّنا سنحظى على أيّة حال بشرف ضيافته مجدّدا. ولكن، حين يعلق النّاس في القعر، فإنّهم يتسلّقون بحماسة درجات الآخرين». اندهش فرانز لكلماتها. وقال: «أوه يا نيلّي! ما بك؟ ماذا تقولين؟! إنّك لا تعرفين هذا الشّخص. لو كان يريد شيئا منّي لجاء منذ فترة طويلة إلى بيتي. كان بإمكانه أن يعثر على عنواني بسهولة في الدّليل الحكوميّ. ألا تفهمين أنّه لم يأت إلى هنا بسبب ظروفه العسيرة؟ إنّه يدرك جيّدا أنّني لن أعترض على منحه كلّ ما يحتاجه». «آه، طبعا! ألست سخيّا جدّا عندما يتعلّق الأمر بأمثاله؟! بالنّسبة إليّ، يمكنك أن تلتقي به. لست أمنعك من ذلك. ولكن هنا، في بيتنا... مستحيل! انظر إلى الثّقب الذي أحدثه بسيجارته. وانظر إلى خشب الأرضيّة. صاحبك هذا لم يمسح قدميه حتّى. يمكننا الآن أن ننظّف آثاره. إذا كان هذا يعجبك، فلا مانع لديّ».

ضمّت كريستين قبضتيها بقوّة. فقد شعرت بالخجل من شقيقتها. وأشفقت على زوجها الذي ظلّ خانعا وعاجزا عن الرّدّ على قسوة زوجته وصرامتها. لم تعد تحتمل المكوث أكثر. ولذلك وقفت. وقالت: «عليّ أن أغادر أنا أيضا، وإلاّ سيفوتني القطار. لا تنزعجا منّي رجاء، لأنّني أثقلت عليكما ببقائي طويلا عندكما». «لا، طبعا لا. عودي لزيارتنا قريبا». قالت الأخت هذه الكلمات، كمن يرجو ليلة سعيدة لغريب. فهناك شيء مّا يفرّقهما. إحداهما تمقُت روح التّمرّد والثّورة. والأخرى تكره الاستكانة الأخلاقيّة لشقيقتها.

بينما كانت كريستين تنزل الدّرج، حدست فجأة بأنّ الرّجل ينتظرها في الأسفل. وعبثا، حاولت أن تطرد هذه الفكرة من رأسها.

لقد اكتفى منذ حين بإلقاء نظرة فضوليّة سريعة باتّجاهها، دون أن يبادرها بأيّ كلمة. وعلى أيّة حال، لم تكن متيقّنة ما إذا كانت راغبة في أن يحدث لقاء كهذا بينهما أم لا. ولكنّ الفكرة تشبّثت بها. وتحوّلت بقوّة مدهشة، شيئا فشيئا، بينما تنزل الدّرجات الواحدة تلو الأخرى، إلى يقين. ولهذا السّبب، لم تتفاجأ عندما غادرت البناية، ورأت تلك القبّعة الرّياضيّة تلوح أمامها. بدا لها قلقا ومتوتّرا.

«اعذريني آنستي على انتظاري لك هنا»، قال بصوت مختلف تماما، صوت ثان يبدو بشكل مّا حييّا وخجولا ومتحفّظا، ويختلف عن ذاك الصّوت القويّ الحيويّ العنيف. «ولكنّني ظللتُ طيلة هذا الوقت أفكّر في قلق ما إذا كانت قد... ما إذا كانت أختك قد غضبت منك... أقصد بما أنّني كنتُ وقحا مع فرانز... بما أنّك... بما أنّك قد وافقتني على كلامي... أشعر بالأسف لأنّني عاملته بتلك الخشونة... أعرف أنّه من غير اللاّئق التّصرّف بهذا الشّكل في بيت غريب وأمام غرباء. ولكن كلامي... لم أقصد به سوءا، بل بالعكس من ذلك... إنّه رجل طيّب وصديق رائع... رجل طيّب حقّا، قلّما يلتقي المرء بأمثاله... في الحقيقة، عندما رأيته أمامي أوشكتُ أن أرتمي عليه وأقبّله وأكشف له فرحتي بلقائه مثلما فعل هو... ولكنّني -افهميني رجاء- شعرتُ بالخجل... الخجل أمامك وأمام أختك... يبدو المرء سخيفا في عيون الآخرين حين ينقاد بلا هوادة وراء عواطفه... ولأنّني كنتُ أشعر بالخجل أسأت التّصرّف معه... فعلتُ ذلك رغما عنّي... حقّا، لم أستطع أن أمنع نفسي. كنتُ أنظر إليه، وهو يجلس مكوّرا وراضيا بكرشه تلك وفنجان قهوته وجهاز الغراموفون. فأردتُ أن

أشاكسه وأستفزّه قليلا... صدّقيني، إنّك لم تعرفيه هناك، حيث كان أكثر ضراوة. يقضّي اليوم بطوله، وهو يخطب في مسائل الثّورة والهدم والتّشييد! واليوم، أراه خانعا في سكون، مجرّد شبح بيتيّ راضٍ عن كلّ شيء... عن زوجته وأبنائه وحزبه وشقّته المرصوصة في بناية جماعيّة، حيث الأزهار في الشّرفة... مجرّد برجوازيّ صغير في سلام مع الرّبّ والعالم... ولهذا كان عليّ أن أحرجه قليلا وأزحزح قناعاته. ودون شكّ، ظنّت شقيقتك أنّني غيور من نجاحاته... ولكنّني أقسم لك أنّني سعدتُ بوضعه الجيّد. وإذا كنتُ قد شاكسته قليلا، فذلك... فذلك لأنّني أردتُ أن أربّت على كتفه أو بطنه ربّما، وأن أعانقه... إنّه صديقي القديم العزيز فرانز... ولكنّني كنتُ أشعر بالخجل أمامك...».

ابتسمت كريستين رغما عنها. فقد استوعبت حتّى رغبتَه في لكز بطن الرّجل الطّيب بشكل ودود وساخر نوعا مّا. «نعم، فهمت ذلك على الفور. لقد أثقلت عليك بشكل مّا رؤيتُه، وهو يعبّر لك عن سعادته بحماسة كبيرة، مهتمّا بأدقّ التّفاصيل. أفهم تماما شعورك بالضّيق حيال ذلك». «يسرّني أن أسمع هذا منك. فأختك لم تلاحظ ذلك، أو لعلّها لاحظت أنّه تحوّل إلى رجل آخر تماما ما أن رآني... رجل مجهول بالنّسبة إليها، كنت قد خبرته وخبرني أكثر من الزّوج وزوجته، عندما كنّا هناك حبيسين في زنزانة واحدة ليل نهار... رجل يمكنني أن أدفعه إلى فعل أيّ شيء أريده وكذلك هو... لقد أحسّت ذلك بقوّة إلى درجة أنّني حاولتُ إخفاء ذلك وتصرّفت معه كأنّني أشعر بالغضب والغيرة منه... صحيح أنّني مفعم بالغضب. ولكنّني لم أحسد أحدا من قبل... إنّني أقصد ذلك الحسد الذي يدفعني إلى

القول إنّني أرغب في حياة جميلة لي وأخرى قاسية من أجل الآخرين. أعترف بأنّ لكل شخص سعادته الخاصّة... ولكن، طبعا... لا أستطيع أن أمنع نفسي... لا أحد بإمكانه فعل ذلك... أقصد أنّك إذا رأيت شخصا ينعم بالدّفء، ستقولين لم لا أكون مثله... أتفهمينني جيّدا؟ إنّني أغبطه. ولست أحسده».

ذهلت كريستين تماما. فقد تلفّظ الرّجل الذي يقابلها الآن بما كانت تفكّر فيه منذ فترة طويلة. لقد صاغ بوضوح كبير ما كانت تشعر به في غموض. إنّها لا تريد أن تنتزع شيئا من الآخرين، بل تطلب حقّها فحسب. وتسأل نصيبها من الوجود والحياة. تريد ألاّ تمكث أكثر في الأسفل وفي الخارج، بقدمين عالقتين في الثّلج بينما ينعم الآخرون بالدّفء في الدّاخل. لاحظ فردينان ذهولها. وحسِب أنّها انزعجت، وسئمت رفقته وتريد الانصراف. ولهذا تسمّر أمامها لوهلة. ثمّ تنحنح كأنّه يوشك على الذّهاب. راقبت حركته جيّدا. فلمحت حذاءه البالي وسرواله القديم المجعّد. وأدركت أنّ فقره الجليّ هو ما يجعل رجلا بذكائه وحيويّته مرتبكا ومتردّدا إزاءها. وفي تلك اللّحظة تحديدا، ومضت أمام عينيها ذكرى النّزل واستعادت يدُها ارتجافها، وهي تحمل الحقيبة مغادرة. وأحسّت ملء جسدها بارتباكه كأنّها هو. شعرت بالحاجة إلى مساعدته، أو بالأحرى مساعدة نفسها في صورته. «عليّ أن أذهب إلى المحطّة الآن»، قالت ذلك وهي تلاحظ بنوع من الفخر اضطرابه. «ولكن، إذا أردت أن ترافقني...» «أوه، بسعادة عظيمة». ولمحت كريستين لمعان عينيه من السّعادة. ووجدت ذلك رائعا.

كان يمشي إلى جانبها، مسترسلا في الاعتذار: «كان ذلك تصرّفا غبيّا من جهتي. إنّ الأمر يضايقني، إذ لم يكن يجدر بي أن أتعامل معه بذلك الشّكل. كان عليّ ألاّ أتجاهل شقيقتك أثناء حديثي. إنّها زوجته. وبالنّسبة إليها، أنا مجرّد شخص غريب. من المفترض أن أسأل عن الطّفلين أوّلا... ما إذا كانت دراستهما بخير وفي أيّ صفّ هما... إجمالا تلك المسائل التي تخصّهما. ولكنّني حين رأيته، انسقت مع عواطفي ونسيت كلّ شيء، لأنّني استعدتُ الدّفء الإنسانيّ. إنّه في النّهاية الرّجل الوحيد الذي يعرفني ويفهمني... لا أقصد أنّنا متناغمان تماما... فهو يختلف عنيّ كثيرا... أفضل منّي وأكثر احتراما... ومن زاوية أخرى تماما، كلّ ما أريده وأرغب في تحقيقه مخفيّ عنه... ومع ذلك، فقد ألقى بنا القدر معا، يوما بعد آخر وليلة تلو أخرى، في مكان خارج العالم، كأنّنا نتشارك جزيرة مهجورة... لن أشرح له ما أكبته في قلبي. ورغم ذلك، فهو يحدسه أفضل من أيّ شخص آخر. منذ اللّحظة التي دخلت فيها إلى الغرفة، عرفت كلّ شيء عنه، أكثر ربّما ممّا كان يعرفه هو عن نفسه. وقد أدرك ذلك جيّدا... ولذلك انزعج كأنني هجمتُ عليه أثناء اقترافه لجرم مّا... كما أنّه شعر بالخجل والحرج... ممّ؟ لا أعرف حقّا... ربّما من كرشه أو تحوّله إلى برجوازيّ شريف... وفي تلك اللّحظة عاد من جديد فرانز الآخر. وغابت زوجته وغبت أنت أيضا. وكنّا نودّ لو كان بإمكاننا أن نترككما على ذلك النّحو ونحن نثرثر ونتحاور طيلة اللّيل... نعم وقد أحسّت شقيقتك بذلك. ومنذ أن التقينا مجدّدا، استعدنا شعورا عظيما بالرّاحة، لأنّ كلّ واحد منّا يعلم جيّدا أنّه يملك صديقا يسنده

في لحظات الشّدّة والعسر. فالآخرون... لا، لا يمكنك أن تفهمي مقصدي. ولست قادرا على شرحه حتّى. ولكن يشبّه إليّ، منذ أن عدتُ بعد تلك السّنوات السّتّ التي قضّيتها في عالم آخر، أنّني عدتُ من رحلة إلى القمر. لقد أصبح النّاس الذين كنت أعيش معهم من قبل غرباء تماما. وحين أجلس إلى طاولة الطّعام مع عائلتي أو جدّتي، لا أجد أيّ كلمة أقولها. لا أستطيع أن أشاركهم أفراحهم. وكلّ ما يفعلونه يبدو لي غريبا لا معنى له. تشبه حالنا من يرى من الجهة الأخرى في الشّارع مجموعة من النّاس يرقصون في حانة، لكنّه لا يستطيع سماع الموسيقى. فيتساءل لم يهتزّون بابتهاج على إيقاعات لا يدركها. يبدو لنا سلوكهم غير مفهوم. وكذلك موقفنا بالنّسبة إليهم. ولهذا السّبب يحسبنا معظمهم غيورين وحقودين. ولكنّه ببساطة سوء فهم متبادل... كأنّنا نتكلّم لغة أخرى، ونطمح إلى غير أهدافهم... ولكن، المعذرة آنستي. إنّني أتحدّث بلا انقطاع. وأتفوّه بالحماقات... في الحقيقة، لا أطلب منك أن تحاولي فهم ما أقوله».

توقّفت كريستين. ونظرت إليه. «إنّك مخطئ. أفهم جيّدا ما تقوله. بل إنّني أعي كلّ كلمة... أقصد أنّني... قبل سنة أو قبل أشهر حتّى، لم أكن مهيّأة لأفهم كلماتك هذه. ولكن منذ أن عدت...». وانتبهتْ إلى ما تهمّ بقوله فجأة. فاستدركت في اللّحظة الأخيرة. ولوهلة، كادت أن تعترف بكلّ شيء لهذا الغريب. غيّرت نبرة صوتها بشكل مفاجئ. وأردفت: «عليّ أن أخبرك بشيء آخر. يجب أن أذهب لإحضار حقيبتي من النّزل الذي قضّيت فيه ليلتي. فأنا هنا من الأمس. ولم أصل هذا الصّباح كما تعتقد أختي وزوجها... لم أرد أن أقول ذلك لهما حتّى لا

تغضب شقيقتي من عدم مكوثي عندها. لا أحبّ أن أثقل على أحد. أردت فقط أن أرجو منك ألاّ تخبر فرانز بذلك إذا ما التقيته مجدّدا».
«طبعا، دون شكّ».

وأحسّت به مجدّدا سعيدا وممتنّا لأنّها منحته ثقتها. ذهبا معا لاستلام الحقيبة. أراد أن يحملها عنها. ولكنّها رفضت. «لا، لا تفعل هذا بيدك تلك... أنت نفسك...». وصمتت، إذ شعرت أنّها تهينه. «لقد أخطأتُ بقول ذلك -همست في سرّها- جعلته يشعر بالنّقص. وأحرجته بشكل لا يليق». مدّت له الحقيبة في النّهاية. وعند وصولهما إلى المحطّة، انتظرا قدوم القطار خمسا وأربعين دقيقة. لذا فقد جلسا يتحدّثان في قاعة الانتظار، عن زوج أختها ومكتب البريد والوضع السّياسيّ في النّمسا. لا شيء حميميّ في تلك المحاورة المفتوحة التي وجدا نفسيهما متّفقين في معظم آرائها. وقد فرض ذكاؤه وسرعة بديهته الاحترام على كريستين. ثمّ جاء القطار. فنهضت قائلة: «عليّ أن أذهب الآن».

وقف هو الآخر متأسّفا نوعا مّا. وقد شعرت كريستين بالسّعادة والتّأثّر لانزعاجه الصّادق من انقطاع حديثهما. سيقضّي اللّيلة بمفرده -هكذا فكّرت في سرّها- وأحسّت بالفخر لأنّ القدر قد ساق إليها رجلا يهتمّ بها، وهي النّكرة مساعدة مكتب البريد، المسؤولة عن بيع الطّوابع البريديّة وختم البرقيّات وإجراء الاتّصالات. ها هي الآن تعني شيئا مّا لهذا الرّجل. أيقظ الوجه المتأسّف داخلها شعورا بالشّفقة. فاستدركت فجأة. وقالت له: «في الحقيقة، يمكنني أن أستقلّ قطار اللّيل الذي يغادر على السّاعة العاشرة وعشرين دقيقة.

باستطاعتنا أن نتنزّه قليلا، ونتعشّى في مكان مّا... أقصد إذا لم تكن لديك مواعيد مسبقة...». وأثناء كلامها، لاحظت بتلذّذ ذلك الفرح البادي في عيني رفيقها اللاّمعتين. أشرق وجهه على الفور. وردّ بصوت متحمّس: «أوه! لا موعد لديّ مطلقا».

أودعا الحقيبة في المحطّة. وراحا يتجوّلان لفترة في الشّوارع والأزقّة. وشيئا فشيئا، أعتم الضّباب المزرقّ مساء سبتمبر ذاك. وطفت هالات المصابيح بين المنازل، مثل أقمار صغيرة بيضاء. مشيا جنبا إلى جنب، متسكّعين بخطى بطيئة، وهما يتحدّثان كيفما اتّفق في مسائل كثيرة. عثرا في إحدى الضّواحي على حانة صغيرة، حيث فكّرا في الجلوس داخل الفناء الخلفيّ المعرّش باللّبلاب في كلّ طاولة. هناك يجلسان في عزلتهما، يراهما الآخرون دون أن يتمكّنوا من مراقبتهما. كانا مستمتعين بالعثور على ركن شاغر في إحدى زوايا الحديقة، حيث تطفو أنغام الفالس قادمة عبر إحدى النّوافذ. تتعالى الضّحكات من الطّاولات المجاورة. وتلوح الوجوه المنتفخة الهانئة للسّكارى الوحيدين. وعلى كلّ طاولة وضع فانوس يستقدم الحشرات السّوداء الصّغيرة لتحوّم حوله. كان الجوّ منعشا بشكل رائع. وضع قبّعته على الطّاولة. وجلس أمامها. فرأت بوضوح وجهه المضاء. وبدا لها وجها تيروليّا[1] بملامح صارمة وعظام ناتئة وتجاعيد صغيرة حول العينين والفم. إنّه وجه متوتّر قاس يكاد يكون مخرّبا. ولكنّ وجها آخر يختبئ خلفه، وجه ثانٍ مثل صوته الآخر المستتر وراء صوته الغاضب. يتكشّف هذا الوجه كلّما ابتسم وتراخت طيّاته

---

(1) نسبة إلى تيرول Tyrol في قلب جبال الألب.

وتراجع العنف من نظرته ليفسح المجال للصّفاء. تحوّل إذن إلى رجل رقيق يافع، يكاد يكون طفلا واثقا وعطوفا. وقد أدركت بحدس غريزيّ أنّ هذا الفتى هو الذي عرفه زوج شقيقتها في تلك السّنوات المنصرمة. يتراوح الوجهان بشكل غريب أثناء حديثهما. فما أن يقطّب حاجبيه أو يتجهّم قليلا، حتّى تظهر ظلال قاتمة مثل غيمة تشقّ فجأة مرجا أخضر فتعتمه. «غريب حقّا! هل من الممكن أنّ كائنين مختلفين يسكنان داخله؟». ثمّ تذكّرت تحوّلها هي الأخرى، من أعماق تلك المرآة المنسيّة البعيدة التي صارت تعكسُ الآن وجوها أخرى.

أحضر النّادل تلك الأطباق البسيطة التي طلباها مع كأسين من الغمبولدسكيرشنر[1]. تناول فردينان كأسه مبتسماً. ولكنّه عندما نهض ليقرع النّخب بكأسها، تناهى إلى سمعه صوت تكتكة خفيفة. لقد انفكّ أحد أزرار معطفه. وتدحرج على المائدة بشكل ساخر، قبل أن يسقط أرضًا. تجهّم وجهه على الفور. وحاول أن يمسك بالزّرّ كي يخفيه. ولكنّه ارتبك تماما حين لاحظ أنّ كريستين لم تغفل عن الحادث الصّغير، واكتفت بإشاحة نظرها. فقد فهمت جيّدا المعنى الكامن في هذا السّقوط: ليس هناك من يعتني بهذا الرّجل ويهتمّ بشؤونه. ما من امرأة في حياته! كانت متيقّنة من ذلك، وهي تتأمّل بعينين خبيرتين قبّعته المجعّدة برباطها المغبرّ، وسرواله الرّثّ غير المكويّ. واستطاعت بتجربتها الخاصّة أن تتفهّم شعوره بالحزن الشّديد. «التقط الزّرّ»، قالت له، «أحمل معي دومًا إبرة وخيطا، لأنّ من هو مثلنا مضطرّ إلى القيام بكلّ شيء بنفسه. هات! سأخيطه لك من جديد».

(1) غمبولدسكيرشنر Gumpoldskirchner: نبيذ يصنع في مدينة نمساويّة بنفس الاسم.

«لا»، أجابها بفزع. ومع ذلك، فقد استجاب لطلبها. والتقط الزّرّ اللّعين من بين الحصباء. لكنّه احتفظ به في كفّه، متردّدا وممانعا. «لا، لا»، توسّل إليها. «سأتكفّل بذلك في المنزل». وعندما أصرّت احتدّ صوته بعض الشّيء: «لا، لا تفعلي ذلك... قلت لك لا!»، كان صوته متوتّرا، وهو يثبّت زرّين آخرين في معطفه. لم ترد كريستين أن تلحّ أكثر، وهي تلاحظ شعوره بالخجل؛ وتشوّش شيء مّا في تلك الألفة بينهما. لقد أوشك بسبب الخجل أن يُفرج عن عدوانيّته.

وهذا ما فعله في النّهاية، حين نظر إليها بصرامة قائلًا: «حسنًا، ربّما لا أرتدي ثيابًا لائقة، لكنّني لم أكن أعرف أنّني سأتعرّض للفحص والمراقبة. هذه الملابس مناسبة لزيارة دار المسنّين. ولو كنت أعلم مسبقا بلقائنا، لارتديتُ ما هو أكثر ملاءمة. في الحقيقة، إنّني أكذب. ليس لديَّ المال الكافي لفعل ذلك. وهذا كلّ ما في الأمر. ليس لديَّ ما يكفي لأيّ شيء. اشتريت بعض الأحذية الجديدة. فاهترأت القبّعة بعذ ذلك. واشتريت قبّعة. فتمزّق المعطف. أحاول أن أشتري من هنا ومن هناك. لكنّني لا أنجح في تدبّر أمري. وقد أكون المخطئ في النّهاية. ولكن، لم أعد أهتمّ لذلك. إذن، هذه هي الحال... إنّني أرتدي ثيابا بالية».

حرّكت كريستين شفتيها لتجيبه. لكنّه قاطعها: «أرجوكِ، وفّري عليّ عبارات المواساة. فأنا أعرف كلّ ما ستقولينه مقدّمًا. ستقولين لي إنّ الفقر ليس عيبا أو مدعاة للخجل. وهذا ليس صحيحا، ما لم يكن المرء قادرًا على إخفائه على الأقلّ. ولكنّ الشّعور بالخزي لا مفرّ منه. ليس هناك ما يمكن فعله إزاءه. يشبه الأمر شعور من يترك بقعة دبقة

على طاولة أحدهم، وبغضّ النّظر عمّا إذا كان مُستحقّا وشريفًا أم لا، فإنّ الفقر نَتِن دوما. نعم، رائحته كريهة، مثل غرفة مغلّقة في طابق أرضيّ، لا يصل إليها الهواء، أو ثياب قذرة يجب تغييرها. ستشتمّين الرّائحة بنفسك كأنّك كتلة من مياه المجاري. ولا يمكنكِ إزالتها مطلقا. لا يجدي نفعًا أن ترتدي قبّعة جديدة، مثلما لا يفيدك في شيء أن تغسلي فمك بعد أن تتجشّئي. إنّه شيء يحيط بك، ويلفّك. وأيّ شخص يتأمّلك أو ينظر إليك نظرة سريعة سيتعرّف إليه على الفور. فقد شعرتْ به شقيقتك مثلا منذ اللّحظة الأولى. أعرف تلك النّظرة التي ترمق بها النّساء رجلا أجرب. كما أعرف أنّ المسألة محرجة بالنّسبة إلى الآخرين، ولكن اللّعنة! الأمر أكثر إحراجًا عندما يكون الواحد منّا هو المعنيّ بالأمر. لا يمكنك أن تتملّص من الموقف أو تتجاوزه: وأفضل ما يمكن فعله في تلك الحالة هو هذا...». وتناول كأسه، مترشّفا ببطء غريب. «هذه هي المشكلة الاجتماعيّة الأكبر. يمكننا الآن أن نفهم لم تنغمس الطّبقات السّفلى بلا هوادة في الكحول. هذا هو السّؤال الذي يشغل عقول الكونتيسات والنّبيلات، وهنّ يحتسين الشّاي. ففي تلك الدّقائق بل السّاعات القليلة، ينسى المرء أنّه مجرّد مذلّة للآخرين ولنفسه. ليس موقفا جميلا أن يراكِ شخص مّا في صحبة من يرتدي هذه الملابس. أعرف ذلك. ولكنّ الأمر ليس ممتعا بالنّسبة إليّ أيضا. لا تكوني خجولة. وواصلي كلامك كما شئت... فقط... وفّري عليّ الأدب والشّفقة!».

أزاح مقعده إلى الخلف. وبدا كأنّه يهمّ بالمغادرة. فمدّت كريستين يدها سريعًا. وأمسكت ذراعه، قائلة: «دون هذه الضّجّة! هل ينبغي لهؤلاء النّاس أن يعرفوا كلّ شيء؟ اقترب قليلا».

استجاب بهدوء لطلبها، وقد تلاشت مقاومته، واستعاد ارتباكه من جديد. أمّا كريستين، فقد حاولت أن تخفي مدى تأسّفها. وقالت: «لماذا تعذّب نفسك وتعذّبني؟ كلّ هذا لا معنى له. ما الذي يجعلك تعتقد أنّني إحدى السّيّدات النّبيلات؟ لو كنتُ كذلك لما فهمتُ كلمة واحدة ممّا تقوله، ولاعتقدتُ أنّك مفرط في الانفعال، وتفتقر إلى العقلانيّة، ومزدحم بالحقد أيضا. لكنّني أفهمك تماما. وسأخبرك الآن بالسّبب. ولكن اقترب أكثر. فلا داعي لأن يسمع الجميع ما سأقوله لك.»

حدّثته عن كلّ شيء. وحكت له عن الغضب والخزي، والابتهاج، والتّحوّل. كان من الجيّد بالنّسبة إليها أن تتحدّث للمرّة الأولى عن هذيان الثّروة ذاك. وحتّى وهي تسرد له كيف حسبها موظّف الاستقبال لصّة لأنّها تحمل حقيبتها وترتدي ثيابها الرّثّة، فقد أحسّت بالرّاحة. ظلّ فرديناند ساكنا في مكانه. ولكنّ مشهد منخريه المنفتحين جعلها تشعر أنّه قد استنشق حكايتها كلّها داخله. لقد فهمها هو الآخر. وتضامن معها. فهو مثلها في النّهاية، مليء بالغضب ولا مرئيّ من الجميع. وما أن انفتحت بوّابات الفيضان، حتّى استحال غلقها ثانية. اعترفت له بأكثر ممّا كانت تنوي أن تكشفه عن نفسها، وعن كراهيتها للقرية، وغضبها بسبب السّنوات المهدورة. وانفلتت الكلمات من بين شفتيها بقوّة وحيويّة، كما لم تفعل من قبل مع أيّ شخص آخر.

مكث صامتًا، دون أن ينظر إليها، وهو ينهار شيئا فشيئا، إلى أن تكلّم أخيرا، كأنّه يحدّثها من أعماق الهاوية: «اغفري لي تهجّمي عليك رجاء. لقد كان ذلك تصرّفا أخرق. أريد أن أجلد نفسي كلّما سمحتُ

لها بأن تنفلت هكذا، بكلّ ذلك الغضب والتّهجّم، كأنّ أوّل شخص ألتقيه في طريقي هو المسؤول عن كلّ شيء، وكأنّني الوحيد الذي مرَّ بتلك المصاعب. أعلم أنّني واحد من بين جحافل كثيرة تعدّ بالملايين. ففي طريقي إلى العمل كلّ صباح، أرى النّاس وهم يجتازون أبواب بيوتهم ناعسين ومكتئبين بوجوه خاوية. أراهم متّجهين إلى وظائف لم يختاروها ولم يحبّوها، بل إنّها لا تعني لهم شيئا على الإطلاق. وأشاهدهم مجدّدا في المساء، داخل عربات التّرام، عائدين صوب منازلهم، بوجوه كالحة وأقدام ثقيلة، منهكين هباء من أجل لا شيء، أو من أجل شيء مّا لا يدركونه. لا أحد منهم يعرف أو يصدّق أو يشعر حقّا بهذه العبثيّة العمياء التي تنهشني. يعني المضيّ قُدما في الحياة بالنسبة إليهم كسب عشرة شيلنغات إضافيّة في الشّهر أو ترقّي درجة في الوظيفة؛ لا شيء سوى طوق آخر في عنق الكلب. إنّهم يذهبون هانئين إلى اجتماعاتهم المسائيّة، ليصغوا بانتباه إلى قصص عن انهيار الرّأسمالية الوشيك واجتياح الاشتراكيّة لأقطار العالم؛ «انتظروا عقدًا آخر، أو عقدين. وسوف ينهار النّظام كلّيّا». وتسترسل الأنشودة في هذه الشّعارات... لكنّني لست صبورًا مثلهم. لا يمكنني أن أنتظر عقدا أو عقدين. أنا في الثّلاثين من العمر. وقد ضاع منّي إحدى عشر عامًا... في الثّلاثين، ومازلت لا أعرف من أكون، وما الجدوى من وجودي. لم أر شيئًا سوى الدّماء والعرق والقذارة. لم أفعل شيئًا سوى الانتظار، والانتظار، ثم المزيد من الانتظار. لم أعد أحتمل كلّ ذلك. لم أعد أطيق أن أمكث في القاع وفي الخارج. يملؤني هذا سخطا. ويقودني نحو الجنون. أشعر أنّ الوقت ينفد منّي، بينما أكتفي بأعمال

تافهة من أجل الآخرين، متيقّنا من أنّ مستواي لا يقلّ عن مستوى المهندس الذي يوجّه إليّ الأوامر. كما أنّني أشارك أصحاب القمّة أولئك معرفتهم. أتنفّس الهواء نفسه. وفي عروقي تجري الدّماء ذاتها. كلّ ما في الأمر أنّني ظهرت في وقت متأخّر. سقطتُ من القطار. ولم أعد قادرا على اللّحاق به مهما كانت سرعتي في الرّكض. أعرف أنّني قادر على فعل كلّ شيء. لقد تعلّمتُ بعض الأمور المهمّة. ولا يمكن لأحد أن يقول إنّني غبيّ. كنتُ الأوّل في المدرسة الثّانويّة، وكذلك في مدرسة الدّير. تفوّقتُ في الموسيقى. ودرستُ الفرنسيّة مع أحد الكهّان القادمين من أوفيرن[1]. ولكنّني لا أملك بيانو. وليس لديّ أيّ وسيلة للتّمرّن على العزف. ولهذا بدأت أفقد تلك الموهبة. كما أنّني لا أجد أحدًا أتحدّث معه الفرنسيّة. فنسيتها أيضا. كنتُ منكبّا على كتبي خلال السّنتين اللّتين قضّيتهما في المدرسة التقنيّة، بينما كان الآخرون يتسكّعون في الملاهي اللّيليّة. وحتّى في زريبة الخنازير التي تُدعى سيبيريا، ظللتُ أعمل طيلة الوقت. لكنّني لم أحصّل شيئا في النّهاية. كنتُ في حاجة إلى سنة فحسب، سنة واحدة، تكون لي بمثابة ركضة الانطلاق التي تسبق القفز... سنة واحدة وأكون في القمّة... أين؟ وكيف؟ لا أدري. لكنّني متيقّن من أنّني أعضّ عليها بالنّواجذ، وأستخدم كلّ عضلة في جسدي، وأدرس عشر ساعات في اليوم، أو أربع عشرة ساعة إذا لزم الأمر... بضع سنوات أخرى من الكدّ والجدّ، وكنت لأصل إلى القمّة مع الآخرين. كنت لأشعر بالتّعب... هذا صحيح... ولكن سعيدا بذلك، وفي سلام مع نفسي. كان بإمكاني

(1) أوفيرن Auvergne: منطقة تاريخيّة بفرنسا.

أن أقول أخيرا: لقد فعلتها. وانتهى الأمر! لكنّني لا أستطيع الآن... أنني أمقتهم جميعًا، هؤلاء السّعداء. أضطرّ إلى رؤيتهم باستمرار. فأضمّ قبضتيّ داخل جيبي، حتّى لا أنقضّ عليهم وعلى سكينتهم. انظري إلى هؤلاء الثّلاثة هناك. طيلة حديثي معك، وأنا أتأمّلهم في غضب. ولا أعرف لماذا، ربّما بدافع من الغيرة، وربّما لأنّهم أغبياء جدّا وسعداء بذلك، يتمتّعون باحترام كبير، ويقضون وقتًا ممتعًا. انظري إليهم مليّا. قد يكون الأوّل وكيل مبيعات في إحدى المتاجر، يسحب الرّزم طيلة اليوم من الرّفوف، وهو يهذي بشتّى الحماقات: «آخر موضة... 1.80 للمتر الواحد... بضاعة إنجليزيّة رائعة، تدوم طويلًا ولا تبلى...». ثمّ يعيدها إلى مكانها. ويتناول شيئًا آخر. وفي المساء، يعود إلى المنزل، وهو يحسب أنّ تلك القذارة يمكن أن تعتبر حياة حقيقيّة. أمّا الآن، فتأمّلي جيّدا رفيقيه. يعمل هذا على الأرجح في مكتب الضّرائب أو في خزينة مكتب البريد. يعالج الأرقام طيلة النّهار... أرقام كثيرة، مئات الآلاف، الملايين من الأرقام والفوائد، والائتمانات والقروض ولا يعلم حتّى أصحابها، ولا من أين تأتي هذه الأموال وإلى أين تذهب، ومن يملك هذا، ومن يدين بذاك... لا يعرف شيئًا. وفي المساء، يعود كذلك إلى منزله، وهو يعتقد أنّ هذه القذارة تسمّى حياة. بالنّسبة إلى الثالث... تُرى ماذا يعمل؟ لا أعرف حقّا... ربّما هو موظّف في مكتب البلديّة، أو في مكان آخر، لكن، يمكن القول من شكل قميصه إنّه موظّف في إحدى المكاتب، حيث لا شيء سوى الورق... ورق، ورق في كلّ مكان... نفس المكتب الخشبيّ، ونفس اليد تقوم بنفس العمل طوال اليوم. وبما أنّ اليوم

هو الأحد، فقد وضعوا المراهم في شعورهم. وانطلقوا سعداء. لقد كانوا يشاهدون على الأرجح مباراة كرة قدم، أو سباقا مّا أو يرافقون إحدى الفتيات. وها هم يتحدّثون الآن عن ذلك. ويتباهون بعضهم أمام بعض. فيروي كلّ واحد منهم قصص ذكائه وفطنته ومهاراته. أنصتي إليهم وهم يضحكون، ناعمين هادئين وراضين عن أنفسهم؛ إنّهم مجرّد آلات فازت باستراحة يوم الأحد، جثث أفلتت اليوم من المشرحة. انظري إلى طريقتهم في الضّحك. إنّهم متحمّسون جدّا، أولاد القحبة، لأنّ هناك من أرخى لهم اللّجام قليلًا، فاعتقدوا أنّهم يملكون هذا المكان بل العالم كلّه! كم أرغب في تحطيم رؤوسهم!».

كان يتنفّس بصعوبة، وهو يسترسل: «لكن هذا هراء. أعرف ذلك... الملاحظة الخاطئة دوما... ربّما يكون أولاد القحبة هؤلاء فقراء. ولكنّهم ليسوا أغبياء أبدًا. إنّهم يتّبعون النّهج الذّكيّ: يتقبّلون ذواتهم كما هي. يريدون أنفسهم أمواتًا -وهم كذلك فعلا- وبهذا الشّكل يتوقّفون عن الشّعور بأيّ شيء. يا لي من أحمق يريد أن يصفع هؤلاء الرّجال الصّغار السّعداء! أودّ أن أرجّهم، ربّما كي يكون لي قطيع أقوده، ولا أمكث بعد الآن وحيدا. أعرف أنّ هذا هو الغباء بعينه... أنّني أقطع أنفي نكاية في وجهي. ولكن، لا أستطيع أن أمنع نفسي... تلك الأعوام المسمومة المحذوفة من حياتي قد غمرتني بكراهية لا حدّ لها، إلى درجة أنّني سئمتُ كلّ شيء، وصرت أفيض حقدا. وكلّما أوشك هذا الحقد على السّيلان خارجي ركضتُ فورًا إلى المنزل أو المكتبة العامّة. لكنّني لم أعد أستمتع بالقراءة، إذ لا علاقة لي بالرّوايات التي تكتب هذه الأيّام. تدفعني هذه القصص البائسة عن لقاء هانسل

بغريتل[1] ولقاء غريتل بهانسل، أو خيانة ماري لجون[2]، وخيانة جون لماري إلى التّقيّؤ. أمّا الكتب التي تتحدّث عن الحرب، فلست في حاجة إليها. ولا أستطيع كذلك أن أشرع في الدّراسة من جديد، طالما لا فائدة ترجى من ذلك. فأنا لا أملك طوق كلاب أكاديميّا. وليس لديَّ المال الكافي لتحصيله. وبما أنّني لا أملك المال ولا أستطيع توفيره، فلا نصيب لي سوى هذا الغضب المتنامي في أحشائي، والذي يدفعني إلى أن أحبس نفسي كما لو كنتُ حيوانا متوحّشا. لا شيء يدفع المرء إلى الجنون أكثر من رغبته في الدّفاع عن نفسه ضدّ ما لا يمكن الإمساك به حتّى، ضدّ شيء مّا يُخضِعُه له الجنس البشريّ برمّته، وما من أحد بعينه يمكن أن يمسكه ويقتصّ منه. يدرك فرانزل جيّدا كلّ هذه المسائل. وما أريد فعله الآن هو أن أذكّره بها وبتلك الأيّام التي كنّا نستلقي فيها على أرضيّة الثّكنة ليلًا، نعوي ونئنّ في الوحل بغضب، ونحطّم الزّجاجات من فرط الضّغينة، ونتآمر كي نختلس المعول ونُنهك نيكولاي البائس صاحب المزاج الحلو، نيكولاي الهادئ والحارس الطّيّب الذي كان في الواقع صديقًا لنا، لأنّه الشّخص الوحيد الذي كان بإمكاننا التّجرّؤ عليه من بين جميع الحرّاس المسؤولين عن حبسنا. كان ذلك هو السّبب الوحيد في الحقيقة. وأنا متأكّد أنّك ستفهمين الآن أيضًا لِمَ جعلتني رؤية فرانزل أشعر بكلّ هذه المرارة. لقد نسيت منذ زمن أنّ هناك شخصا مّا بإمكانه أن يستوعبني. ولكنّي شعرت على الفور بأنّه يفهمني. ثمّ أحسست أنّك كذلك أيضا!».

---

(1) هانسل وغريتل Hänsel und Gretel: حكاية خياليّة من حكايات الأخوين غريم.

(2) جون وماري Mary and John: من شخصيّات قصص شارلوك هولمز لآرثر كونان.

رفعتْ عينيها. فغمرتها نظرتُه المتأمّلة. ولكنّه استعاد خجله مجدّدا. «سامحيني»، قال لها بصوته الآخر، النّاعم، القلق، والمناقض تمامًا لصوته العدوانيّ الغاضب القاسي. «المعذرة! كان عليّ ألاّ أستغرق في الحديث عن نفسي بهذا الشّكل... سلوك فظّ... أعرف ذلك. ولكن، أحسب أنّ كلّ ما قلته خلال الشّهر المنقضي لا يجاوز كلماتي هذه لك». نظرت كريستين إلى الفانوس، وقد لاحظت أنّ نسيما باردا يهزّه قليلا فترتعشُ الشّعلة، ويتوهّج مركزه الأزرق الشّبيه بقلب بشريّ. ثمّ قالت: «وكذلك أنا».

صمتَا لبرهة من الوقت. فقد أنهكتهما معا هذه المحاورة المتوتّرة المفعمة بالألم. كانت الأضواء تخفتُ على الطّاولات المجاورة. وقد أعتمت النّوافذ التي تطلّ على الفناء. وسكت الغراموفون عن الموسيقى. وشرع النّادل في تنظيف الطّاولات المجاورة في عجلة. الآن فقط تذكّرت الوقت. «أعتقد أنّ عليّ أن أنصرف الآن. فالقطار الأخير يغادر في العاشرة وعشرين دقيقة. كم السّاعة الآن؟».

اكفهرّ وجهه للحظة. ثمّ ابتسم مجدّدا: «أترين؟ إنّني أتحسّن»، قال منشرحا. «لو سألتني هذا السّؤال منذ ساعة، لكان اللّؤم الخبيث في داخلي قد انقضّ عليك. ولكنّني الآن أستطيع أن أتحدّث معك كأنّك رفيق سلاح قديم... كأنّك فرانز العزيز... لقد رهنتُ ساعتي. وليس من أجل المال حتّى... إنّها ساعة ذهبيّة جميلة، مرصّعة بالماس، منحها الأرشيدوق لوالدي بعد أن تولّى تنظيم حفلة صيد على شرفه، وتحمّل مسؤولية المطبخ كاملة، فاعتقد الجميع أنّه قام بعمل عظيم. وستفهمين -لأنّك تفهمين دوما كلّ شيء- أنّك إذا ارتديتِ ساعة

ذهبيّة مرصّعة بالماس في موقع بناء، فإنّها ستبدو كإبهام ملتهب في اليد. وعلى أيّة حال، فإنّه من الخطر أن تكون لديَّ ساعة كهذه حيث أقيم. لكنّني لم أرد بيعها. يمكنك أن تسمّي ذلك مؤونة الطّوارئ. ولهذا اكتفيتُ برهنها».

ابتسم لها، كمن أنجز للتّوّ عملًا بطوليّا. «أترين؟ قلتُ هذا بشيء من الهدوء. إنّني أتحسّن وأحرز تقدّما». صفَا الهواء حولهما، كأنّ عاصفة قد انقشعت للتّوّ. وتلاشى التّوتّر. وحلَّ مكانه نوع من الإعياء اللّذيذ. شعر كلاهما بالثّقة تجاه الآخر وبشيء مّا يشبه صداقة هادئة، بدلًا من التّحديق المتوتّر في بعضهما البعض. كانا مستمتعين بالمشي سويّا، وهما يقتربان من الطّريق المؤدّية إلى المحطّة. خيَّم الظّلام فوق العيون الفضوليّة السّوداء المغروزة في نوافذ المنازل. كانت حجارة الرّصيف باردة والخوف من الفراق مكشّرا فوقهما. وما أن اقتربا من وجهتهما حتّى تسارعت خطواتهما في توتّر.

اقتنت تذكرتها. والتفتت لتلاحظ وجهه، وقد تغيّرت ملامحه مرّة أخرى. غابت عيناه في ظلّ داكن أسفل جبهته. وتلاشى توهّج الامتنان ذاك الذي جعلها سعيدة لوهلة قبل أن يندثر. أمّا هو، ولأنّه لم ينتبه إلى مراقبتها له، فقد أحكم شدّ معطفه حول جسده، كأنّه يتجمّد في تلك اللّحظة. شعرتْ فجأةً بالأسف من أجله: «سأعود قريبا، الأحد القادم ربّما. وإذا كان لديك وقت...».

«دوما... إنّه الشّيء الوحيد الذي أملكه، بل أملك الكثير منه. ولكنّني لا أفضّل... لا أفضّل أن...». وانقطعت كلماته.

«ما الذي لا تفضّله؟».

«لا أفضّل... أقصد... لا تزعجي نفسك من أجلي. لقد كنتِ طيّبة جدّا معي. أعرف أنّني مضجر. ولعلّك تقولين لنفسك لاحقا، على متن القطار، أو غدًا: لمَ أمنح وقتي لهذا الغريب المتباكي؟ هكذا تسير الأمور معي. يخبرني أحدهم بسرّ ثقيل في حياته. فأتأثّر جدّا. ولكن ما أن ينصرف حتّى أقول لنفسي: عليه اللّعنة! لماذا يحمّلني عبء مشاكله؟ لدينا جميعا ما يكفينا... ولهذا، لا تحمّلي نفسك أيّ عناء. ولا تقولي إنّ عليَّ أن أساعده. سأكون بخير بمفردي...».

التفتت كريستين دونه. فقد آلمتها جدّا رؤيته، وهو يقسو على نفسه. لكنّه أساء الفهم. وظنّ أنّها غاضبة منه. فانسحب الصّوت الغاضب البغيض على الفور. وترك مكانه لذلك الصّوت الطّفوليّ الهادئ الخجول: «أقصد طبعًا... سأكون سعيدا جدّا... لكنّني فكّرت فحسب... كنتُ أحاول أن أقول...». راح يتلعثم بارتباك شديد. وبدا وجهه الطّفوليّ الحزين كأنّه يتوسّل المغفرة. لقد فهمتْ تلعثمه. وأدركت أنّ هذا الرّجل العنيد الذي يعتصره الخجل، يرغب في رؤيتها مجدّدا، لكنّه يخشى أن يطلب ذلك منها.

غمرها شعور جارف بالدّفء والعطف الأموميّ. وأرادت أن تواسي هذا الرّجل المعذّب قلبه، وتلطّف كبريائه الحادّ بكلمة أو حركة مّا. رغبت في أن تنقر جبينه أو تقول له: «أيّها الصبيّ السّخيف!». لكنّه مرهف سريع التّأثّر، حتّى إنّها توجّست من ذلك. «أنا آسفة»، قالت بِشكل غير متوقّع. «ولكن، أعتقد أنّ عليّ أن أغادر الآن».

«هل أنتِ... هل أنتِ آسفة حقًا؟». ونظر إليها نظرة احتياج شديد مفعمة بيأسٍ من هجره النّاس جميعا. بدا كأنّه يقف في تلك

اللّحظة بمفرده في غرفة الانتظار، ويحدّق محبطا في القطار وهو يحملها بعيدا، وحيدًا في المدينة... وحيدًا في العالم. وأحسّت بثقل مشاعره يجثم فوقها. كانت ترتجف لشعورها مجدّدا بأنّ شخصا مّا يرغب فيها، وبشكل أعمق من أيّ مرّة أخرى في حياتها! وأحسّت بإثبات وجودها وتوكيد معنى حياتها. من الرّائع أن تشعر بأنّ هناك من يحبها أخيرًا. عليها أن تكافئه من أجل ذلك.

ودفعة واحدة، اتّخذت قرارها في ومضة عين دون أيّ تفكير. التفتتْ. وعادت إليه. فقالت بتمعّن (رغم أنّها لم تكن متردّدة بتاتا): «أتعرف؟ يمكنني أن أمكث معك وأستقلّ قطار الخامسة والنّصف، غدا صباحا. وهكذا أستطيع أن أصل في الموعد إلى عملي البائس».

حدَّق فيها مليّا. وكادت أنفاسها تنقطع عندما رأت ذلك البريق المفاجئ في عينيه. استعادت ملامحه الحياة من جديد، مثل غرفة مظلمة يضيئها توهّج عود كبريت. لقد فهم كلّ شيء بحدس متيقّظ. وها هو يمتلك الشّجاعة ليمسكها الآن من ذراعها ويقول لها بسرور: «نعم، ابقي. ابقي معي...».

لم تبد أيّ اعتراض، وهو يقودها بعيدًا. كانت ذراعه قويّة ودافئة، ترتجف من السّعادة حتّى إنّها وجدت نفسها ترتعش هي الأخرى. لم تسأله عن وجهتها. ولماذا تزعج نفسها بالتّفكير في ذلك؟ لا يهمّ. لقد حسمتْ قرارها بالفعل. واستسلمتْ لإرادتها، طوعًا وفي ابتهاج لا مثيل له. كان كلّ شيء داخلها بما في ذلك إرادتها وعقلها مرتخيا تماما، كأنّ شخصا مّا قد ضغط على زرّ الإيقاف. هل تحبّ هذا الرّجل الذي ما يزال غريبا بالنّسبة إليها؟ هل تريده حقّا؟

لم تفكّر في أيّ شيء من هذا. فقد كانت تائهة في تيّار إرادتها وغفلة مشاعرها المركّزة وبهجة انفصالها عن كلّ شيء.

لم تعد الآن مهتمّة بما يحدث. أمّا هو فقد شعر بذراعه تقودها وبجسدها مستسلما، كغصن ينجرف نحو الشّلاّلات. أغمضت عينيها مرّات عديدة، حتّى تحسّ بشكل أفضل برغبته فيها وانفلاته بها. ثمّ حانت لحظة التّوتّر؛ سكت قليلا. وبدا منكمشًا على نفسه: «كنت أودّ لو... لو أدعوك إلى بيتي... ولكن... ليس ذلك ممكنا... لا أعيش بمفردي... عليَّ أن أجد غرفة أخرى... يمكننا أن نذهب إلى مكان آخر... إلى فندق مّا، لا ذلك الذي أقمتِ فيه بالأمس... يمكننا أن...».

«نعم، نعم»، أجابته دون أن تعي حقّا ما تقوله. كانت كلمة «فندق» تزيد من سعادتها. وتذكّرها بالغرفة اللاّمعة والأثاث الصّقيل والسّكون المهيب في اللّيل. وبدا أنّ نبض إنجادين القويّ يطفو بشكل غامض أمام عينيها. «نعم»، قالت مستغرقةً في حلمها بقصّة الحبّ السّعيد. «نعم».

كانت الشّوارع تضيق أكثر كلّما تقدّما في المشي. وبدا فردينان فاقدا لثقته بنفسه، وهو يتأمّل البنايات في قلق. وفي النّهاية، رأى هدفه عبر إحدى الأزقّة الصّغيرة المخفيّة، تحت لافتة كهربائيّة. قادها معه. ولم تتردّد في الاستجابة. وكان الباب شبيها بنفق مظلم.

ربّما كان المدخل مُضاءً عن قصد بمصباح واحد. ظهر موظّف استقبال يرتدي قميصًا بأكمام قذرة، من خلف الحاجز الزّجاجيّ. تهامس الرّجلان كأنّهما يدبّران أمرا خفيّا. وتبادلت يداهما شيئًا مّا قد يكون نقودا أو مفاتيح. في تلك الأثناء، كانت كريستين واقفةً بمفردها

في الرّدهة المعتمة، تنظر إلى الحائط البالي، وتشعر بخيبة أمل قويّة من هذ المكان القذر. ولم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك. فقد أعادت كلمة «فندق» إليها ذكريات الرّدهة الأخرى، حيث الزّجاج اللاّمع والضّوء المتوهّج، والتّرف والرّخاء.

«رقم تسعة»، هكذا صاح موظّف الاستقبال. وأضاف بنفس الصّوت المرتفع: «في الطّابق الأوّل»، كأنّه يحاول أن يجعل كلماته مسموعة في الطّوابق العليا. اتّجه فردينان نحوها. وأمسك بذراعها. فنظرت إليه نظرة تضرّع. وقالت: «ألا يمكن أن...». ولم تكن تعرف ما تريد قوله حقّا. لكنّه لمح الفزع في عينيها. وأدرك أنّها تريد أن تذهب إلى مكان آخر. «لا، جميع الأماكن بهذه الحال... لا أعرف أيّ فندق آخر، حتّى إنّني لم أزر هذا من قبل». وتناول ذراعها مجدّدا، وهو يقودها عبر الدّرج. شعرت بالعجز تماما، كأنّ الشّلل قد انتشر في كامل جسدها.

أطلّت من إحدى الأبواب المفتوحة خادمة ذات عينين غائمتين وثياب قذرة، تمامًا كثياب موظّف الاستقبال في الطّابق السّفليّ. وقالت لهما: «سأحضر لكما مناشف نظيفة». دخلا. وأغلقا الباب خلفهما. كانت الحجرة صندوقا أسود مخيفا بنافذة واحدة وكرسيّ واحد ومعلاق وموقف للاستحمام. ولا أثاث سوى السّرير الكبير ذي الملاءات المطويّة، الذي يملأ الغرفة برمّتها. لم تكن هناك أيّ طريقة لتفاديه أو الالتفاف من حوله أو النّظر إليه عن بعد. تضوع في الهواء رائحة السّجائر العفنة الثّقيلة والصّابون الرّخيص وروائح أخرى كريهة. أغلقت كريستين فمها بشكل عفويّ، كي لا تستنشق

هذا الهواء. وأحسّت لوهلة أنّها توشك أن يُغمى عليها من فرط التّقزّز. اندفعت إلى النّافذة كي تفتحها، طلبا لهواء نقيّ، كأنّها تحاول النّجاة من منجم مليء بالغاز.

سمعت طرقا خفيفا على الباب. فقفزت في مكانها. ولكنّها خادمة الغرف، وقد أحضرت المناشف النّظيفة، ووضعتها في موقف الاستحمام. وعندما لاحظت أنّ كريستين قد فتحت النّافذة في تلك الغرفة المضاءة، قالت لها: «من فضلك، أسدلي السّتائر أوّلا». كان هناك شيء من التّوتّر يتخلّل صوتها. ثمّ انسلّت مغادرة.

تسمّرت كريستين عند النّافذة، وهي تفكّر في كلمة «أوّلا» تلك. إذن، هذا هو السّبب الذي يستقدم النّاس إلى هذه الأمكنة المتوارية في الأزقّة الخلفيّة، هذه الحفر القذرة... السّبب الوحيد. لعلّ الفكرة قد أفزعتها. ولعلّه حسبها قد جاءت معه من أجل ذلك الأمر فحسب. ورغم أنّه لم يكن قادرا على رؤية وجهها المثبّت باتّجاه الشّارع، فقد لمح خيالها المنعكس على النّافذة ولاحظ كتفيها المرتجفين. اقترب منها أكثر. ولكنّه خشي أن يجرحها بأيّ كلمة. لمس كتفيها. وعندما أدرك أصابعها وجدها باردة ترتعش. أراد أن يُهدّئ من روعها. وقد أدركت ذلك. فقالت له دون أن تلتفت: «المعذرة، فقد أحسست بالغثيان. سأتحسّن في غضون دقيقة. أحتاج فقط إلى قليل من الهواء المنعش... إنّها... فقط...».

أرادت أن تقول له: «إنّها المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى مكان كهذا، إلى غرفة كهذه». لكنّها ضمّت شفتيها بقوّة. لا حاجة إلى أن يعرف ذلك. وفجأة، التفتتْ إليه. وأغلقت النّافذة. وأمرته قائلة:

«أطفئ الأنوار». ضغط على مفتاح الكهرباء. وغرقت الغرفة في الظّلام. واختفى مشهد القذارة. أصبح الفراش الآن مجرّد بقعة بيضاء في دكنة الغرفة. ولكنّها ما تزال خائفة. سمعت أصواتا غريبة في قلب الظّلام، طقطقة أوّل الأمر، ومن ثمّ تأوّها وضحكا وقعقعة وصوت خطوات قدمين حافيتين على الأرض، وماء يتقاطر في مكان مّا... كانت البناية مزدحمة بأعمال غرباء ماجنين. وأحسّت كريستين أنّها مخصّصة قصرا للمضاجعة. شيئا فشيئا، تملّكها الفزع. وأخذت القشعريرة تتمدّد في جلدها إلى أن أدركت مفاصلها المتشنّجة، ومن ثمّ عقلها وقلبها. فقدْ بدت ساهمة تماما، دون أيّ تفكير أو مشاعر. فَقَد كلّ شيء أهمّيته بالنّسبة إليها. وصار كلّ ما يحيط بها أجنبيّا لا معنى له، بما في ذلك نَفَس هذا الغريب إلى جانبها. لحسن الحظّ أنّه كان لطيفا. واكتفى بإمساك يدها ليسحبها إليه عند حافّة السّرير، حيث مكثا صامتين بكامل ملابسهما. مسّح بنعومة على كمّ قميصها ثمّ على يدها، منتظرًا بصبر أن يهجرها الخوف ويذوب، على التّدريج، هذا الجليد الذي يكبّلها. وقد تأثّرت بطاعته واستسلامه. ولذلك لم تقاومه عندما أخذها أخيرا بين ذراعيه.

ولكن، حتّى عناقه المحموم لم يبدّد فزعها كلّيّا. لم يكن قادرا على بلوغ البرد الكامن عميقا داخلها. إذ هناك شيء مّا في نفسها لا تدركه الرّاحة، شيء يلجم انشراحها دوما. خلع ثيابها. فشعرت بجسده قويّا عاريًا دافئًا ومشعًا، لكنّ جسدها هي بقي رطبًا مثل إسفنجة. أحسّت بقوّة رغبته فيها. ولكنّ ذلك لم يطرد شعورها بقذارة المكان. انشدّت أوتار أعصابها، عندما جذبها إليه. وأرادت أن تنفلت، لا

منه ومن شوقه، بل من ذلك المكان الفظيع، حيث يدفع النّاس ثمن جماعهم كالبهائم. (بسرعة، لا تبطئ، مَن التّالي؟) وحيث يُباع العناق كطوابع البريد أو الصّحف التي ترمى جانبا بعد الانتهاء منها. كان الهواء ثقيلا ورطبا وخانقا، مجرّد بخار يتصاعد من حرارة أجساد الآخرين. شعرت بالخزي لا لأنّها منحته نفسها، بل لأنّ أمرًا مهيبا كهذا يحدث الآن في مكان مفعم بالقذارة والمذلّة. اشتدّ توتّر أعصابها. وأخذت تقاومه نوعا مّا. ثمّ تأوّهتْ بشكل غريب. وانفلتت دموعها من البؤس والغضب اللذيْن حوّلا جسدها إلى قصبة مرتجفة. فهم فردينان بكاءها باعتباره لومًا موجّها إليه. فمسّح على كتفيها. ولكنّه خشي أن يتكلّم. قالت له فجأة، وهي تلاحظ حزنه: «لا تقلق. أشعر فقط بنوبة سخيفة... لا تقلق. ستزول قريبا. إنّني...». وتوقّفت ثانيةً، قبل أن تضيف: «انس الأمر. ليس بيدك حيلة».

ظلّ صامتًا، وقد فهم شعورها وتفهّم خيبة أملها وألمها الجسديّ الشّديد، بل إنّه شعر بالخجل من مصارحتها بكونه لم يبحث عن فندق أو غرفة أفضل، لأنّه لم يكن يملك سوى ثمانية شيلنغات، وأنه فكّر حتّى في رهن خاتمه ليتمّم أجر الغرفة إذا ما تبيّن أنّها ستكلّفه أكثر من ذلك. لكنّه لم يرد أن يشير إلى المال. وجلس صامتًا في تعاسة، منتظرًا خفوت انفعالها في صبرٍ.

كان توتّر كريستين قد بلغ ذروته. وهي ما تزال منتبهة إلى الِأصوات التي تهجم من الغرفة المجاورة، ومن أعلى ومن أسفل، ومن الأروقة، أصوات خطوات الأقدام والضّحك والسّعال والتّأوّه. هناك شخص مّا في الغرفة المجاورة يبدو أنّه ثمل تماما، إذ لم يكفّ

عن النّعيق. وفجأة، سمِعت صوت صفعة على لحم عارٍ وضحكةً نسائيّة خليعة. لم يعد الأمر محتملًا. وكلّما امتدّ صمت رفيقها، ازداد نفاذ الأصوات إلى سمعها. شعرت بخوف مباغت. وأخذت تبكي: «قل شيئًا! تحدّث معي! ليس عليَّ أن أسمع تلك الأصوات القادمة من الغرفة المجاورة. أوه! إنّه أمر فظيع. المكان فظيع هنا. لا أكاد أعي شيئًا. وأشعر بالرّعب. من فضلك، قل شيئًا. تحدّث معي حتّى لا... حتّى لا تصلني تلك الأصوات... هذا المكان مريع».

أخذ نفسًا عميقًا. ثمّ قال لها: «نعم، هذا المكان فظيع. وأشعر بالخزي لأنّه لم يكن يجدر بي أن آتي بكِ إلى هنا. لكنّني لم أتوقّع هذا أيضا». ومع ذلك، لم تهدّئ كلماته اللّطيفة من حدّة خوفها. وها هي ترتجف مجدّدا. أرادت أن تسيطر على نفسها وعلى جسدها المرتعش، وتقمع اشمئزازها من تلك الملاءات الرّطبة، والأصوات الفظيعة التي تصلها من الغرفة المجاورة، بل من كلّ ركن في ذلك المكان المقزّز. لكنّها لم تنجح في ذلك. وعصفت بها قشعريرة قويّة.

انحنى عليها قائلًا: «صدّقيني، أتفهّم كم يبدو لك الأمر فظيعًا. لقد مررتُ بهذا من قبل، عندما خضت تجربتي الأولى مع امرأة... إنّه ليس أمرا يُنسى. عندما وصلت في تلك الفترة إلى وحدتي العسكرية وسُجنت على الفور... لم أكن أعلم شيئًا حتّى تلك اللّحظة. وكان البقيّة –بما فيهم زوج شقيقتك– يسخرون منّي وينادونني طيلة الوقت بالشّيخ البتول. لا أعلم ما إذا كان ذلك بدافع من الوضاعة فحسب. لكنّهم تحدّثوا عن الأمر طوال الوقت. ولم يطرقوا شيئا آخر ليل نهار. أخذوا يتحدّثون باستمرار عن النّساء بشتّى أنواعهنّ. وانطلق كلّ

منهم يروي مغامراته مئات المرّات، حتّى حفظناها عن ظهر قلب. وكانوا يملكون صورًا فظيعة كذلك، بل إنّهم رسموا بعضا منها على جدران السّجن... أصابني الاستماع إلى أحاديثهم التي لا تنقطع بالقرف. وكنت في التّاسعة عشر أو العشرين آنذاك... في تلك السّنّ التي تستغرق الرّغبة فيها المرء حدّ الإعياء.

ثم اندلعت الثّورة. وأرسلونا إلى سيبيريا. وفرّقت الحرب بيني وبين زوج شقيقتك. لقد ساقونا من جميع الاتّجاهات مثل القطيع، إلى أن حدث في إحدى الأمسيات أن جلس معنا واحد من الجنود، كان من المفترض أن يقوم بحراستنا. ولكن أين المفرّ على أيّة حال؟ لقد اعتنى بنا هذا الشّابّ. وأحبّنا. ومازال بإمكاني تذكّر وجهه المنشرح، بأنفه الذي يشبه البطاطا وفمه الواسع المبتسم. ولكن ما كنت أريد قوله... حسنًا... ذات مساء، جلس معي جلسة أخ حذو أخيه. وسألني كم مرَّ عليَّ من الوقت منذ أن حظيت بالمتعة مع امرأة. بالطّبع شعرت بالخجل من أن أخبره أنّني لم أختبر ذلك من قبل. لا بدّ أنّ أيّ رجل قد مرَّ بهذا الموقف (وفكَّرت هي في سرّها، كأنّها تقول له: «وأيّ امرأة أيضًا») لذا قلت له: منذ عامين. فصعق من الدّهشة. وصرخ: يا إلهي![1]... مازال بإمكاني رؤية وجهه مشدوهًا. اقترب منّي. وهدهدني كالرّضيع، قائلا: أوه أيّها الرّفيق البائس... يا لك من مسكين! سوف تصبح مريضا بهذا الشّكل. وظلّ يربّت على كتفي. ثمّ استغرق في التّفكير، علما وأنّ عمليّة كهذه، أي وضع فكرة إلى جانب الأخرى، يعتبر أمرًا يتطلّب مجهودًا كبيرًا بالنّسبة إلى رجل ذي رأس ثقيلة مثل سيرغي. وهو أصعب من

---

(1) باللّفظ الرّوسيّ في الأصل ولكن بحروف ألمانيّة.

حمل جذع شجرة. لقد شحُب وجهه تماما. وظلّ صامتا وساهما لفترة حتّى قال أخيرًا: «انتظر يا شقيقي الصّغير... سأحلّ المشكلة، وأجد لك امرأة. هناك الكثير من النّساء في القرية، زوجات جنود وأرامل. سأصطحبك إلى واحدة منهنّ ليلًا. أعرف أنّك لن تهرب». في الحقيقة، لم أجبه لا بالموافقة ولا بالرّفض. ولم أشعر بالرّغبة أو الاهتمام... تساءلت كيف يمكن للأمر أن يكون... مجرّد مزارعة بريّة... مع أنّ الشّعور بالدّفء والاتّصال... ألاّ يشعر المرء بوحدة قاتلة... لا أعرف ما إذا كنتِ تفهمين قصدي...». همست كريستين: «نعم، يمكنني أن أفهم ذلك».

«وبالفعل، أتى إليّ ذات مساء في الثّكنة. صفّر بهدوء كما اتّفقنا. وفي الخارج تحت جنح الظلام، وقفت امرأة إلى جانبه. كانت قصيرة وبدينة وشعرها زلق كالزّيت أسفل وشاح مزركش. قال سيرغي: «هذا هو. أترغبين فيه؟». تأمّلتني المرأة بعينيها الصّغيرتين عن كثب في الظّلام. وردّت: «نعم». سار ثلاثتنا لمسافة طويلة. وأتى سيرغي معنا أيضًا. «كم أنت بعيد جدّا عن موطنك أيّها المسكين!»، قالت له بإشفاق. «ولم تنل امرأة واحدة... إنّك دومًا برفقة الرّجال... يا لك من مسكين!». كانت ودودة دافئة الصّوت. وعرفتُ أنّها رافقتني بدافع الشّفقة لا غير. قالت لي: «لقد أطلقوا النّار على زوجي. كان ضخمًا مثل شجرة دردار، قويّا كدبّ فتيّ. لم يسكر أبدًا. ولم يضربني قطّ. إنّه أفضل رجال القرية على الإطلاق. وها إنّي أعيش الآن مع أطفالي وحماتي. كم كان الرّبّ قاسيا معنا!». رافقتها إلى منزلها. وهو كوخ أبيض، مغطًّى بالقشّ، ذو نوافذ صغيرة مغلقة كلّها. عندما

أدخلتني لسعَ الدّخان وجهي. وكان الهواء كثيفًا وساخنًا، كأنّنا في منجم ملوّث. اصطحبتني إلى الدّاخل، حيث الفراش المثبّت فوق الفرن. فاضطررت إلى أن أتسلّقه. تحرّك شيء مّا فجأة. وجفلت. قالت لي مُطمئنّة: «إنّهم الأطفال». أدركتُ الآن أنّ الغرفة مزدحمة بالأنفاس. سمعتُ صوت سعال، فطمأنتني ثانية: «الجدّة مريضة، يكاد صدرها يقتلها»، كلّ تلك الأنفاس، وتلك الرّوائح النّتنة... ولم أكن أعلم عدد من كانوا معي في الغرفة. لعلّهم خمسة أو ستّة أو ربّما أكثر... أصابني كلّ ذلك بالشّلل. وأحسستُ أنّه من الفظاعة أن أفعل أيّ شيء مع تلك المرأة... كان الموقف مريعا بشكل لا يوصف، والأطفال نائمين بالقرب منّي، بالإضافة إلى شخص آخر لم أعرف ما إذا كان أمّها أم حماتها. لم تستطع أن تفهم سبب تردّدي. وأخذتْ تدفعني لإتمام الأمر. خلعتْ ثيابي. وفكّتْ حذائي. وبدتْ حزينة. شرعت تدلّلني بلطف ورقّة كأنّني طفلها. كان أمرًا مؤثّرًا حقّا أن تتصرّف معي بذلك العطف. ثمّ جذبتني نحوها ببطء وإصرار. لها ثديان ناعمان ودافئان وكبيران كأرغفة الخبز الطّازج، وفم رقيق ناعم. تأثّرتُ جدّا بتواضعها وإذعانها. وأحببتها في النّهاية. شعرتُ بالامتنان تجاهها. ولكنّ الهلع لم يفارقني. فلم أستطع تحمّل حركة الأطفال من حولي أو تأوّه الجدّة. وهربتُ قبل حلول الفجر... خفت أن يراني أحد الأطفال أو تلمحني العجوز المريضة. وأنا على يقين أنّ وجود رجل غريب هناك هو أمر مألوف بالنّسبة إليهم. ومع ذلك، عجزت عن القيام بالأمر. وهربت. رافقتني إلى البوّابة مثل كلبٍ أو قطّة. وأخبرتني أنّها تهب نفسها لي منذ تلك اللّحظة... أمر مؤثّر حقّا. أخذتني إلى الإسطبل. وقدّمت لي

شيئا من حليب البقر الدّافئ الطّازج. ومنحتني بعض الخبز من أجل الطّريق، وغليونًا كذلك... لا بدّ أنّه غليون زوجها... ثمّ سألتني... لا... بل توسّلت إليَّ: «هل ستأتي هذه اللّيلة؟». لكنّني لم أعد إليها مجدّدًا، ذلك أنّ ذكرى الكوخ والدّخان والأطفال والجدّة والبقّ الذي كان يركض فوق الأرض... كلّ شيء هناك كان مريعًا. ورغم ذلك، ظللت أشعر بالامتنان لها. واليوم، أفكّر فيها بـ.... نعم... بنوع من الحبّ... تلك الطّريقة التي منحتني بها الحليب من ضرع البقرة، والخبز، وجسدها... آه! أعرف أنّني آذيت كبرياءها لأنّني لم أعد إليها... والآخرون... لم يفهموا مطلقا. حسدوني جميعا... كانوا في حالة بائسة غارقين في وحدة حقيقيّة. ولذلك حسدوني. كنتُ في كلّ يوم أعقد العزم على الذّهاب إليها. ولكن...».

«يا إلهي!»، صاحت كريستين فجأةً، «ما الذي يحدث؟». نهضت، وهي تحاول أن تصغي إلى شيء مّا. أراد أن يقول «لا شيء». لكنّه كان خائفًا أيضًا. شيء مّا يحدث في الرّواق... هناك أصوات مرتفعة وصراخ وصياح وجلبة قويّة. يصرخ أحدهم. ويضحك آخر، فيما يطلق ثالث سلسلة من الأوامر. لا بدّ أنّ شيئًا مّا قد حدث. قال: «انتظري». ونهض سريعًا. ارتدى ثيابه على عجل. وراح يصغي عند الباب. «سأذهب لأرى ما يحدث».

ومثل نائم يستيقظ صارخا ومولولا من كابوسه، ضجّ الفندق الرّخيص فجأةً بأصوات غير مفهومة. كان هناك هرج ومرج. تعالت أصوات النّاس، صاعدين الدّرج ونازلين إلى الأسفل. سُمعت أصوات الهاتف وخطوات الأقدام وإغلاق النّوافذ بعنف. وارتفع

الصّراخ ممتزجا بأسئلة مرتبكة، تطوف وتسري هنا وهناك في كلّ جانب. كانت أصواتا غريبة، طقطقات أصابع وقبضات تنهال على الأبواب وأقدام مدوّية بدلًا من أصوات الأقدام الحافية على الأرض. لا شكّ أنّ شيئًا مّا قد حدث. صرخت امرأة. وتجادل الرّجال بعنف. وسقط شيء مّا، قد يكون مقعدا. وهناك سيّارة تثير الجلبة في الخارج. لقد اضطرمت البناية كلّها. وسمعت كريستين وقع أقدام تركض من فوقها، ومن ثمّ صوت السّكران المذعور في الغرفة المجاورة... كراسيّ يصطدم بعضها ببعض ومفاتيح تصلصل من الغرف الأخرى. تحوّلت البناية كلّها إلى خليّة نحل صاخبة.

عاد فردينان شاحبًا وقلقًا، وقد انشدّ على جانبي فمه خطّان متوتّران وهو يرتجف تماما. سألته كريستين: «ما الأمر؟». وكانت ما تزال على الفراش. أضاء الغرفة. فنهضت من مكانها، على نحو غريزي، وهي نصف عارية. أجابها بصوت خفيض: «لا شيء. إنّها عمليّة تفتيش. إنّهم يفحصون الفندق».

«مَن؟».

«الشّرطة».

«هل سيأتون إلى هنا أيضًا؟».

«ربّما... هذا ممكن. ولكن لا تقلقي».

«أيمكنهم أن يتّخذوا ضدّنا أيّ إجراءات؟ أقصد لأنّني معك؟».

«لا، لا تقلقي. لديَّ هويّتي. وقد حجزتُ الغرفة بشكل رسميّ. لا تقلقي. سأهتمّ بكلّ شيء. أعرف كيف أتعامل مع هذه المسائل

جيّدًا. فقد خبرتها عند إقامتي بإحدى النّزل بفافوريتن[1]، حيث كنتُ أعيش من قبل. إنّها مجرّد إجراءات شكليّة. ولكن...». وأظلم وجهه فجأة. واستعاد تجهّمه مرّة أخرى. «لكنّنا نحن من ينبغي علينا دوما الخضوع لكلّ هذه الإجراءات... وقد يكسر عنق أحد الشّياطين الصّغيرة المسكينة... لا أحد يُنتزع من سريره في منتصف اللّيل سوانا نحن. إنّهم لا يلاحقون أحدًا آخر ملاحقة الكلاب... ولكن لا تقلقي... سأتولّى الأمر... ارتدي ثيابك فحسب».

«أطفئ الأنوار». وشعرت بالخزي مجدّدًا. واحتاجت إلى كلّ قوّتها، كي تتمكّن من ارتداء ثيابها. مازالت أطرافها متصلّبة. جلسا ثانيةً على الفراش، وهي منهكة تماما. لقد أحسّت منذ اللّحظة الأولى في هذا المكان المريع بالسّكون الذيْ يسبق العاصفة. وها قد حلّت الآن.

استمرّت أصوات الطّرق في الطّابق السّفليّ. وكان بالإمكان سماع عمليّة التّفتيش، تنتقل من غرفة إلى أخرى. وفي كلّ مرّة تسمع فيها صوت طرقاتهم على إحدى الأبواب الخشبيّة، تشعر أنّ الضرّبة تصيب قلبها. جلس فردينان إلى جانبها، وهو يُمسّح على يديها. «إنّه خطئي. سامحيني... كان عليّ أن أفكّر جيّدًا... ولكن... لم تكن لديَّ أيّ فكرة أخرى. وقد أردتُ... أردت ملء قلبي أن أكون معكِ... سامحيني». واستمرّ يمسّح على يديها. لكنّهما ظلّتا باردتين مرتجفتين. وكان جسدها بأكمله يهتزّ رعشة وخوفا.

---

(1) فافوريتن Favoriten: إحدى مقاطعات فيينا.

«لا تقلقي»، قال محاولًا تهدئتها. «ليس بإمكانهم أن يقوموا بأيّ إجراء ضدّك. وإذا... إذا قام أحد هؤلاء الأوغاد بالتّحرّش بكِ، فسأتصدّى له. لست ضعيفًا... لم أقضِ أربعة أعوام في الجحيم، كي أنحني في النّهاية أمام أولئك الأوغاد المغلّفين بالزّيّ الرّسميّ، حرّاس اللّيل... سألقّنهم درسًا لا ينسى». «لا»، توسّلته في قلق، عندما رأته يخرج شيئًا حسبته سلاحًا. «اهدأ من فضلك... إن كنت تحبّني حقًّا، فاهدأ... أفضّل أن...». ولم تستطع أن تكمل كلامها.

اقترب صوت الأقدام أكثر. وبدت موشكة على بلوغهما. كانت غرفتهما الثّالثة. وها قد سمعا صوت الطّرق على باب الغرفة الأولى. حبسا أنفاسهما. وأصغيا لكلّ شيء عبر الباب الرّهيف. لم تستغرق الغرفة الأولى وقتًا طويلًا. وها قد انتقلت الأصوات الآن إلى الثّانية. ثلاث طرقات... طق، طق، طق... سمعا صوت الباب، وهو يُفتح. وعلا صياح السّكران: «أليس لديكم ما تفعلونه سوى إزعاج النّاس المحترمين في مثل هذا الوقت من اللّيل؟ لماذا لا تطاردون المحتالين واللّصوص؟». وأجابه صوت غليظ خشن: «أوراقك!». ثم قال شيئًا آخر بصوت هادئ. «إنّها خطيبتي. نعم... خطيبتي... يمكنني أن أثبت ذلك. نحن مخطوبان منذ سنتين». وبدا أنّ هذا كافٍ. وأُغلِق الباب.

حان دورهما الآن. كانت المسافة بين الغرفتين لا تجاوز خمس خطوات أو ستّا... خطوة، اثنتان، ثلاث... تجمّد الدّم في عروق كريستين. وبلغهما صوت الطّرق على الباب. وقف مفتّش الشّرطة عند العتبة. وواجهه فردينان بهدوء. بدا وجه المفتّش سعيدًا، مكوّرا، واسعًا، ذا شارب صغير ساحر، بالرّغم من الحمرة التي تكسوه بسبب

الياقة المحكمة في زيّه. يمكن للمرء أن يتخيّله بسهولة في ثيابه المنزليّة، وهو يومئ برأسه ناعسًا على أنغام أغنية شعبيّة. أمّا الآن، فهو يعبس بصرامة. ويقول: «هل لديك أوراق؟». تقدّم فردينان إلى الأمام: «ها هي أوراقي وشهادتي العسكريّة أيضًا إذا أردتها. فمن يملك مثلها لا يفاجئه تدهور الأحوال». تجاهل المفتّش السّخرية. وفحص أوراق الهويّة، متثبّتا من استمارة التّسجيل، قبل أن يرمق كريستين بنظرة عابرة. أشاحت بوجهها بعيدًا. واندفعت صوب المقعد كأنّها سجينة في قفص الاتّهام. خفض المفتّش صوته، قائلا: «أتعرف هذه السّيّدة بشكل شخصيّ؟ أقصد، هل تعرفها منذ فترة؟». كان يحاول تسهيل الأمر. «نعم»، ردّ عليه فردينان. وأجابه المفتّش: «شكرًا لك». وحيّاه. وأوشك على الانصراف عندما قال له فردينان المرتجف غضبا لرؤية كريستين، وهي ذليلة أمام تساهل المفتّش معهما:

«أودّ فقط معرفة ما... إذا كانت هذه الحملات اللّيليّة تحدث أيضًا في فندق بريستول وبقية فنادق شارع رينغ أيضًا أم إنّها مقتصرة على هذا المكان؟». ارتسم على وجه المفتّش تعبير احترافيّ بارد. وأجاب بإباء: «ليس لديَّ معلومات أمدّك بها. أنا هنا تنفيذا للأوامر فحسب. ومع ذلك، لو كنت مكانك لشعرت بالسّعادة لأنّه لم يتمّ التّحقيق معي عن كثب، ولم تُفحص المعلومات المتعلّقة بزوجتي في التّسجيل بشكل جيّد». وشدَّد على كلمة «زوجتي»، حتّى إنّ فردينان صرَّ على أسنانه، محاولا أن يكتم غيظه. لقد اعتصر يديه خلف ظهره، كي يمنعهما من لكْمِ ممثّل الحكومة هذا في وجهه. ولكنّ المفتّش الذي بدا متعوّدًا على مثل هذه المواقف، أغلق الباب بهدوء من خلفه دون

أي نظرة أخرى. حدَّق في الباب، وهو يغلي حنقًا. ثم تذكّر كريستين. كانت تحشر نفسها في المقعد، حتّى كادت أن تصير جزءا منه ويقتلها الخوف. مسّح على كتفها. وهتف:

«أترين؟ لم يسأل عن اسمك حتّى... مجرّد إجراءات روتينيّة، كلّ ما يريدونه منها هو تدميرنا وقلب حياتنا رأسًا على عقبٍ. أذكر أنّني قرأت في إحدى الصّحف منذ أسبوع عن امرأة ألقت بنفسها من النّافذة، لأنّها كانت خائفة من أن يتمّ الإبلاغ عنها، وأن تكتشف أمّها الحكاية... أو أنّها قد تتعرّض لفحص عن الأمراض الجنسيّة. ظنّت أنّه من الأفضل لها أن ترمي بنفسها من الطّابق الثالث. قرأتُ تلك القصّة التي كتبت في سطرين، سطرين فقط... إنّه مجرّد أمر بسيط لسنا معتادين عليه. وهذا كلّ ما في الأمر. بإمكانك على الأقلّ أن تحظي بقبر خاصّ إذا فعلت ذلك، بدلًا من أن يدفنوك في مقبرة عامّة مثلما كان يحدث في الماضي... عشرة آلاف ميّت كلّ يوم... وهل يقارن شخص واحد بكلّ هؤلاء، خصوصا إذا كان واحدا مثلنا... لا حقوق له؟ أمّا في الفنادق الفخمة، فالمرء يتلقّى التّحيّة. ويؤتى بالمحقّقين حمايةً لمجوهرات السّيّدات فحسب. ولا أحد يتجسّس عليه ليلا ليتثبّت من هويّته المدنيّة. ولكن لماذا يجدر بنا أن نشعر بالحرج؟».

مازالت كريستين غارقة في جمودها، وقد تذكّرتْ شيئًا تحدّثت عنه فتاة مانهايم: الأبواب التي تُفتح وتُغلق طيلة اللّيل. لقد تذكّرت الأسرّة البيضاء الواسعة الزّاهية في ضوء الصّباح الباكر، وتلك الأبواب الصّامتة التي تشبه الوسائد، والسّجاجيد النّاعمة، ومزهريّة الورد عند السّرير... يمكن لكلّ شيء هناك أن يبدو محبّبًا وجميلًا ومريحًا. أمّا

هنا... وارتعشت تقزّزا. فوقفَ إلى جانبها يائسًا، وهو يقول: «هوّني عليكِ. لقد انتهى الأمر الآن». لكنّ جسدها البارد مازال منكمشا بين يديه. تمزّق شيء مّا داخلها مثل شراع شُدّ إلى أقصاه وتجاوز قدرته على الاحتمال. كانت أعصابها متوتّرة جدّا. فلم تتمكّن من سماع أيّ شيء، ما عدا الطّرق العنيف الذي ما يزال ينتقل من غرفة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر.

إنّهم الآن في الطّابق العلويّ، وقد احتدّ الطّرق فجأة. وازدادت قوّته: «افتحوا باسم القانون!». أنصتا في صمت. علت الهمهمة ثانية. لكنّ هذا الصّوت الذي يصلهما الآن صوت قبضة مدوّية، وليس مجرّد طرق عاديّ على الخشب. امتدّت القبضة إلى جميع الأبواب. «افتحوا! افتحوا!». كان الصّوت يصرخ آمرًا. وبدا كأنّ أحدهم يقاوم. سُمع صفير في البداية، ثمّ خطوات أقدام على الدّرج: «افتحوا... الآن!». ثمّ انتشرت هزّة عنيفة في كامل البناية. تكسّرت الأخشاب. وصرخت امرأة صرخة فزع مرعبة. وتحطّمت المقاعد على الأرض. واندلعت معركة تساقطت خلالها الأجساد كحقائب مليئة بالأحجار. ثمّ تحوّلت الصّرخات الحادّة إلى عويل ونحيب.

أصغيا كأنّهما في قلب الحدث، وكأنّ فرديناند هو الذي كان في الأعلى يقاوم رجال الشّرطة في غضب، وكريستين تعوي وتنتحب أسفل قبضاتهم المدرّبة، نصف عارية وساخطة. وصلت الصّرخة بوضوح مفزع: «لن أذهب... لن أذهب...». وتعالى العويل والصّياح. وتحطّم الزّجاج. لا بدّ أنّ المرأة المنهكة قد كسرت زجاج إحدى النّوافذ، أو أنّ شخصًا آخر قام بذلك. والآن أمسكوا بها، اثنان

أو ثلاثة منهم (هذا ما تصوّره فرديناند وكريستين). وها هم يسحبونها معهم. لا شكّ أنّهم ألقوا بها أرضا. فقد سرى صوت سقوطها على الأرضيّة ومقاومتها عبر الجدران. سحبوها عبر الرّدهة. ونزلوا بها الدّرج، بينما أخذت صرخات فزعها تخفت شيئا فشيئا: «لن أذهب... لن أذهب... دعوني! النّجدة!». وصلوا إلى الطّابق الأرضيّ. وسمع صوت المحرّك. لقد تمّ شحنها داخل السّيّارة مثلما تُشحنُ الدّوابّ.

ساد الهدوء ثانية، بل إنّ المكان صار أهدأ من قبل. واجتاحته الكآبة مثل غيمة كثيفة حطّت فوق البناية. حاول أن يأخذها بين ذراعيه ويُقبِّل جبينها البارد. لكنّها تداعت على صدره. قبَّلها. فلم تستجب شفتاها لشدّة جفافهما. حاول أن يجلسها على الفراش. وكانت منهكة تشعر بالغثيان. فانهارت، بينما انحنى عليها. وأخذ يمسّح على شعرها. أخيرا، فتحت عينيها. وهمست: «فلنرحل من هنا! خذني بعيدًا! لم أعد أحتمل هذا المكان، ولو لثانية واحدة». ثم ركعت أمامه. «أتوسّل إليك... خذني بعيدًا! خذني بعيدًا عن هذا المكان المريع!».

حاول أن يهدّئها: «ولكن، إلى أين يا عزيزتي... لم تبلغ السّاعة الرّابعة والنّصف. ولن يصل قطارك قبل ساعة أخرى. إلى أين يمكن أن نذهب الآن؟ ألا تريدين الاستراحة قليلا؟». «لا، لا، لا». رمقت ذلك الفراش المجعّد بنظرة ملؤها التّقزّز. «ألا يمكن أن نبتعد من هنا؟ فلنرحل بعيدًا! دعنا نبتعد فحسب... ولن نرجع أبدًا... أبدًا... إلى مكان كهذا... أبدًا».

استجاب لتوسّلها في النّهاية. وفي حجرة موظّف الاستقبال، كان أحد رجال الشّرطة يواصل فحص سجلّ الفندق وتدوين

الملاحظات، بنظرة أشبه بلكمة. ترنّحت كريستين. فأسندها فردينان، بينما انحنى رجل الشّرطة على السّجلّ مجدّدا. كان الهواء في الزّقاق نقيّا ومفعما بالحرّيّة. فتنفّست عميقًا كأنّها بعثت للحياة مرّة أخرى.

كان الصّباح ما يزال بعيدا. ولكنّ مصابيح الشّارع بدأت تخفت. بدا كلّ شيء منهكا أمام عينيها، الأزقّة الفارغة والبنايات الكئيبة الموحشة والمتاجر المغلقة وبعض المتسكّعين في الشّوارع. تتبختر جياد المزارعين بتثاقل حانية رؤوسها، وهي تجرّ العربات المليئة بالخضراوات في طريقها إلى السّوق، شبيهة بقاطرات تنبعث منها رائحة عطنة. قعقعت عربات الحليب على الأرصفة. وصلصلت العلب لوهلة. ثمّ عاد الهدوء المتجهّم الكئيب. لم يكن هناك إلاّ القليل من النّاس، صبية المخابز، ومنظّفو القناة وبعض العمّال الآخرين، يلوح النّعاس في وجوههم الرّماديّة الشّاحبة من شدّة الإرهاق والامتعاض.

أحسّ فردينان وكريستين بذلك الحقد الطّبيعيّ المتبادل بين أولئك الذين نعموا بالنّوم وأولئك المتقلقلين في المدينة النّائمة. وتقدّما في صمت وسط الظّلام، متّجهين نحو محطّة القطار، حيث يستطيع أيّ شخص أن يجلس ويستريح وحيث بيت المشرّدين.

جلسا في إحدى زوايا غرفة الانتظار. كان الرّجال والنّساء ممدّدين على المقاعد الخشبيّة الطّويلة، نائمين بأفواه فاغرة، وصُررهم إلى جوارهم، كأنّهم هم أنفسهم حزم مسحوقة بعثرها القدرُ. تتناهى إلى سمعهما بين الحين والآخر أصوات لهاث قادمة من الخارج وقاطرات يتمّ نقلها بين السّكك. وفي ما عدا ذلك، كان الهدوء يخيّم على المكان.

«توقّفي عن التّفكير في الأمر. لم يلحق بنا أيّ ضرر. وفي المرّة القادمة سأكون حريصا على ألاّ يحدث مثل هذا. قد تلومينني دون قصد منك. ولكنّه ليس خطئي».

«نعم»، أجابت هامسة، كأنّها تُحدّث نفسها. «أعرف ذلك. أعرف أنّ هذا ليس خطأك. ولكن خطأ مَن هو؟ لماذا نكون نحن من يعاني دوما؟ لم نقترف ذنبا. ولم نُسئ إلى أحد. ورغم ذلك، كلّما خطونا خطوة نجدُ أنفسنا عالقين في فخّ. لم أكن يوما متطلّبة. ذات مرّة، حظيتُ بعطلة. وأردتُ أن أصبح كالآخرين، حرّة في كنف الرّاحة... ثمانية أيّام أو أسبوعان، وحدث ما حدث لأمّي. ومرّةً أخرى أردتُ أن...». وتوقّفت عن الكلام.

حاول أن يهدّئها: «ولكن، يا عزيزتي. لقد انتهى الأمر على خير. فكّري قليلا. لقد كانوا يبحثون عن شخص معيّن. وها قد قبضوا عليه. كلّ ما في الأمر أنّ حظّنا كان سيّئًا».

«أعلم ذلك... أعلم أنّه مجرّد حظّ سيّء. ولكنّ ما حدث هناك... إنّك لا تفهم قصدي... لا يا فردينان، عليك أن تكون امرأة كي تفهم ما أعنيه. وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن تتخيّل كيف يبدو الأمر بالنّسبة إلى فتاة يافعة، بل طفلة صغيرة تحلم بأن تكتشف نفسها مع رجل تحبّه. إنّ كلّ فتاة تحلم بهذا. لا يمكنك تصوّر ذلك مهما حدّثتكَ صديقاتك عن الأمر. ولكن كلّ فتاة، كلّ امرأة، تعتبر هذا الأمر شديد الأهمّيّة. تنظر إليه باعتباره شيئًا جميلًا، بل أجمل شيء في حياتها، بشكل لا يمكنني أن أشرحه بوضوح... بطريقة... نعم، كأنّه الأمر الذي تحيا حقّا من أجله، كأنّه ما يجعلها تعلو فوق كلّ هذا العبث.

تظلّ لسنوات طويلة، وهي تحلم بالأمر وتتخيّله... لا، لا في الحقيقة لا يمكن للفتاة أن تتخيّل هذا... إنّها لا تريد ذلك ولا تستطيع... هي تحلم به فحسب، بوصفه شيئا جميلا وغامضا جدّا مثلما... ثمّ تجد الأمر قد تحوّل إلى أمر مريع شنيع مميت... لا، لا يمكن تقبّل أن يصير كلّ ذلك حطاما، لأنّه ما من أحد يمكنه أن يعيده لنا حين يتحطّم ويتلطّخ».

مسّح على يدها. لكنّها ظلّت تُحدّق في الأرضيّة الخشبيّة القذرة، دون أن تُعيره انتباهها. «وأن تتصوّر تحوّل كلّ هذا إلى ما لا يزيد عن حفنة قذرة من المال الحقير... كان بإمكاني، بواسطة كمّيّة قليلة من المال... ورقتان أو ثلاث وأكون من بين المحظوظات. أغادر إلى مكان مّا في إحدى السّيّارات... إلى مكان لا يستطيع أحد أن يلاحقني فيه، حيث أكون حرّة بمفردي. أوه... كم رائع أن يحظى المرء بالرّاحة! وأنت أيضًا، كان ذلك ليغيّر كلّ شيء في حياتك... ستكون خلوا من هذه الكآبة والحيرة. لكنّنا أشبه بالكلاب... إنّ أناسا مثلنا يزحفون في حظائر الآخرين. ويُجلدون بالسّياط... لا، لم أكن أحسب أبدًا أنّ الأمر سيكون مخيفًا إلى هذه الدّرجة». وعندما رفعت رأسها. ونظرت إلى وجهه، أردفت بسرعة: «أعرف، أعرف أنّك غير مسؤول عن هذا. وربّما لم أتجاوز الحكاية حتّى الآن... أقصد ذلك الرّعب... عليك فقط أن تتفهّم لم يبدو الأمر شنيعا في نظري. امنحني بعض الوقت، وسأتجاوزه».

«ولكنّك ستعودين... هل ستعودين مجدّدًا؟».

أراحها سؤاله المتلهّف. فقد كان أوّل عبارة دافئة تسمعها.

«نعم»، أجابته. «سآتي مجدّدًا. تأكّد من ذلك... الأحد القادم... فقط لا أطلب منك سوى... لا أطلب منك شيئا آخر».

«نعم»، قال هامسًا. «أفهم ما تقصدين».

استقلّت القطار. وذهب هو إلى حانة المحطّة. فاحتسى أقداحا من البراندي على عجل، إذ كان يشعر بالعطش الشّديد. انتشر البراندي في جسده مثل اللّهب. وتمكّن أخيرًا من أن يحرّك أطرافه. أخذ يمشي في الشّارع مُسرعًا وملوّحًا بذراعيه في وجه عدوّ لا مرئيّ. راقبه النّاس بدهشة وتعجّب. وفي عمله بموقع البناء، لاحظ الجميع غضبه الدّائم وفظاظته المفاجئة. وفي مكتب البريد، جلست كريستين كعادتها كئيبةً وصامتة. وكلّما فكّرا في بعضهما البعض، لم تكن مشاعرهما مفعمة بالشّغف أو الحبّ، بل بشيء ممّا يشبه الشّفقة. ولم تكن تلك الشّفقة التي يفكّر بها المرء في من يحبّه، وإنّما في صديق وقع في ورطة.

صارت كريستين بعد ذلك تذهب إلى فيينا كلّ أحد. لقد كان يوم عطلتها الوحيد، بما أنّها استنفدت أيّام إجازاتها في الصّيف. تطوّرت علاقتها بفردينان. وأصبحت أكثر متانة. وبالرّغم من أنّهما كانا منهكين، تغمرهما الخيبة إزاء كلّ عاطفة أو علاقة حميمة مفعمة بالشّغف والتّفاؤل، فقد اعتبرا نفسيهما محظوظيْن، لقدرتهما على أن يأتمن كلّ واحد منهما الآخر على أسراره. كانا يقتصدان طيلة الأسبوع من أجل يوم الأحد، يومهما المشترك. وقد أرادا أن يقضّياه دون شحّ أو تقتير. يقصدان إحدى المقاهي أو المطاعم. يلتقطان بعض الصّور. وينفقان ما تيسّر من الشّيلنغات، دون أن يقلقا بشأن المال. وكانا يدّخران كذلك الكلمات والمشاعر. ويفكّران مليّا في ما سيقوله كلّ

منهما للآخر عند اللّقاء، سعيدين لوجود هذا الطّرف الآخر الذي يصغي لأسرارهما بانتباه وتعاطف. وبعد أشهر طويلة، أصبح كلّ واحد منهما يعبر أيّام الاثنين والثّلاثاء والأربعاء، وبصبر أقلّ أيّام الخميس والجمعة والسّبت، مترقّبين بلا هوادة هذه الفرحة الصّغيرة. ولكنّ قيدا مّا ظلّ كامنا بينهما، إذ لم يتلفّظا أبدًا بتلك الكلمات التي تسيل من شفاه المحبّين. ولم يتحدّثا عن الزّواج أو البقاء معا إلى الأبد. يبدو لهما كلّ شيء مبهمًا وبعيدًا، إذ لم يحصّلا منذ البداية ما يكفيهما لتحقيق ذلك. تصل عادة في غضون السّاعة التّاسعة، لأنّها لم تكن تريد أن تقضّي مساء السّبت في فيينا. فمن المكلّف أن تحجز غرفة بمفردها في الفندق، بالإضافة إلى أنّ مجرّد التّفكير في مشاركته الغرفة يبعث الرّعشة في جسدها. يذهب لاستقبالها. ومن ثمّ يسيران عبر الشّوارع. ويجلسان بعد ذلك على مقعد في الحديقة العامّة. يستقلاّن لاحقا قطار العاصمة حتّى يبحثا عن مكان خارج المدينة. ثمّ يتناولان الغداء. ويتسكّعان في الغابات. كان الأمر لطيفًا جدّا، حتّى إنّهما حافظا على شعورهما بالمتعة والامتنان في كلّ مرّة، تغمرهما السّعادة، وهما يسيران في أحد الحقول مع شخص آخر، إذ يجدان في ذلك نوعا من التّغيير. ويتلذّذان بتلك المتع الصّغيرة المتاحة لأفقر النّاس مثل سماء الخريف الزّرقاء وشمس سبتمبر الذّهبيّة والزّهور المتفرّقة ويوم عطلة مميّز من بدايته إلى نهايته. أصبح الموعد ذا أهمّيّة كبرى بالنّسبة إليهما. وخلال الأسبوع، يتطلّع كلّ منهما إلى الأحد القادم بصبر أولئك الذين علّمتهم المصاعب ألّا يرفعوا سقف انتظاراتهم أبدًا.

وفي آخر آحاد أكتوبر، احتدّ الخريف تماما. فاكتسحت الرّياحُ

الشّوارع. وكدّرت السّحبُ السّماء. وأمطرت من الصّباح حتّى المساء. وبدا كلّ شيء فجأة عبثيّا بعيد المنال. لم يعد بإمكانهما التّجوّل في الشّوارع طيلة اليوم دون مظلّة. ولا بدّ من ارتداء المعاطف الثّقيلة أيضا. لا فائدة من الجلوس في إحدى المقاهي المزدحمة، حيث تصطدم السّيقان بعضها ببعض تحت الطّاولات علامة على الألفة والمودّة، وحيث يتعذّر عليهما التّحدّث بسبب ازدحام أولئك الغرباء. ولكنّهما لا يعرفان وجهة أخرى. وفي النّهاية، أحسّا بأنّ الوقت يتحوّل إلى عبء ثقيل رغم أهمّيّته بالنّسبة إليهما.

لقد أدركا ما يحتاجان إليه. وهو أمر بسيط جدّا. يجدر بهما أن يجدا غرفة لهما فحسب، بضعة أمتار مربّعة من الخصوصيّة، أربعة جدران يملكانها معا ليوم واحد. لقد فهما أنّه من الغباء أن يجوب جسدان فتيّان منجذبان إلى بعضهما البعض الشّوارع بلا هدف طيلة اليوم وبثياب مبلّلة، أو يجلسا في غرف مزدحمة، عاجزيْن عن المجازفة بقضاء ليلة أخرى في أحد الفنادق. كان أبسط شيء ينبغي على فرديناند أن يفعله هو إيجاد مكانٍ تستطيع أن تزوره فيه. لكنّه يكسب حوالي 170 شيلنغ في الشّهر. ويعيش في منزل امرأة عجوز، يتوجّب عليه أن يمرّ بغرفتها في طريقه إلى غرفته الخاصّة. ولم يكن عازما على مغادرة المكان. فقد تحمّلت تأخّره في دفع الإيجار والفواتير خلال الأشهر التي قضّاها عاطلا عن العمل. وهو يدين لها الآن بمائتي شيلنغ، يسدّدها شهرًا تِلو الآخر. وليس لديه أمل في أن يتخلّص من ديونه قبل ثلاثة أشهر قادمة. لم يخبر كريستين بكلّ هذا. ولم يشرح لها شيئا منه. فرغم صداقتهما الحميمة، مازال يشعر بالخجل من اكتشافها لفقره وديونه.

لكنّها تدرك جيّدا أنّ المال هو سبب بقائه في تلك الغرفة. ورغبت في أن تقرضه شيئا منه. لكنّ المرأة داخلها خشيت أن تجرحه، وأن يحسب هو أنّها تريد أن تستأثر به، فيكون ملكا لها وحدها. ولذلك اكتفت بالصّمت. وجلست معه بلا أمل في مقهى مزدحم بدخان السّجائر، يراقبان النّوافذ، وينتظران أن يتوقّف المطر. إنّ سلطة المال عظيمة حين يكون متاحا. ولكنّها أكثر عظمة حين يُفقد. فهو يمنحك في الآن ذاته هبة الحرّيّة المقدسّة وذلك السّخط الشّيطانيّ الذي يجتاح أولئك الزّاحفين من دونه. أحسّا بالحاجة إليه كما لم يفعلا من قبل أبدا. وامتلأت روحاهما بالغضب والمرارة كلّما لمحا في عتمة الفجر الضّوء المشرق يطلّ من النّوافذ، حيث السّتائر الذّهبيّة المتوهّجة تمنح الرّاحة والحرّيّة لمئات الآلاف من البشر، رجال مع نساء يبادلنهم الرّغبة، بينما هما بلا مأوى، يتسكّعان في الطّرقات بلا هدف تحت المطر. كان الأمر قاسيًا جدّا وشبيها بغريق يموت عطشا في عمق البحر. تشعّ الغرف الهادئة ضوءًا ودفئًا. وتخبّئ داخلها أسرّةً ناعمة، عشرات الآلاف من الأسرّة، بل مئات الآلاف وما لا يُحصى منها. ومع ذلك، فليس لديهما هما الاثنان مكان يضمّهما معا، حيث يمكن لهما أن يتعانقا وتتلامس شفاههما للحظة واحدة. لا شيء يشبع عطشهما الحارق، وغضبهما من كلّ ذلك العبث، إلاّ حلم ألاّ تستمرّ هذه الحال إلى الأبد. ولهذا، شرع كلّ منهما في الكذب. حطّت عيناه برفقتها في المقهى على إعلانات العمل. ورأته لاحقا يكتب رسائل طلبًا لوظيفة. قال لها إنّ لديه آمالا كبيرة في عمل رائع، ذلك أنّ أحد رفاق السّلاح سيجد له وظيفة إداريّة في شركة بناء ضخمة. وسيجني أموالًا طائلة ويتمكّن من

استئناف دراساته الهندسيّة، ويصبح مهندسًا معماريًا ناجحا. قالت له -ولم تكن هذه كذبة منها- إنّها تقدّمت بطلب رسميّ لإدارة البريد المركزيّة حتّى يتمّ نقلها إلى فيينا. فعمّها يملك علاقات قويّة في صلب الإدارة. كانت متيقّنة من أنّها ستستقبل أخبارًا جيّدة في غضون أسبوع أو اثنين. ولكنّ الذي لم تذكره هو أنّها فاجأتْ عمّها في إحدى الأمسيات كي تطلب منه ذلك. دقت الجرس في الثّامنة والنّصف، بعد أن استرقت السّمع عند النّوافذ. كانت الأسرة داخل المنزل. رنّ الجرس في الرّدهة. ثمّ ظهر عمّها بنفسه، والتّوتّر بادٍ في ملامحه. قال لها إنّه من سوء الحظّ أن تزوره في ذلك اليوم تحديدًا، لأنّ زوجته وأبناءه ليسوا في البيت (وقد علمت من المعاطف المعلّقة أنّ هذا غير صحيح) وإنّ لديه صديقين سيتناولان العشاء عنده. ولولا هذا لطلب منها الدّخول. ولكنّه سألها عمّت يمكن أن يساعدها فيه. فأخذت تشرح له القصّة كلّها، بينما يستمع هو ويتمتم: «نعم، نعم، نعم بالطّبع». لقد كانت متيقّنة من خوفه أن تطلب منه بعض المال، ورغبته في أن يصرفها على الفور. لم تخبر فردينان بكلّ هذا. فلماذا تثبّط عزيمته على أيّ حال؟ لم تخبره أيضا بأنّها اشترت تذكرة يانصيب، وانتظرت المعجزة مثل جميع الفقراء. كان من الأفضل أن تكذب، وتقول له إنّها أرسلت لخالتها كي تساعدها في إيجاد وظيفة أو الذّهاب إلى أمريكا، وعندما تصل إلى هناك سوف تساعده في أن يلحق بها ويجد عملًا يليق برجل ذكيّ وبارع مثله.

ولم يصدّقها. لذا فقد جلسا هناك مهملين، وقد أزال المطر فرحتهما، وأزالت الظّلمة بريق عيونهما، وأصبحا مقتنعين بوضعهما

الميؤوس منه. تحدّثا عن عيد الاستقلال واحتفالات عيد الميلاد، إذ سينعمان خلالها بعطلة ليومين. ويمكنهما حينئذ أن يذهبا إلى إحدى الأماكن. ولكنّ شهري نوفمبر وديسمبر ما يزالان بعيدين. ومازال أمامهما متّسع طويل من الوقت المفعم بالفراغ واليأس، قبل أن يحلّ هذا الموعد.

كانا يخادعان بعضهما البعض. وقد عرف كلاهما حجم الغباء والتّعاسة الكامنين في هذا الجلوس داخل غرفة مزدحمة بالغرباء الصّاخبين، بينما كلّ ما يرغبان فيه حقًا هو أن يمكثا بمفردهما. كم كان غبيًّا بالنّسبة إليهما أن يتبادلا الأكاذيب البيضاء، بينما يئنّ جسداهما وروحاهما من أجل الحقيقة ومن أجل حميميّة أكبر تجمعهما.

«من المؤكّد أن يكون الجوّ صافيا يوم الأحد القادم»، قالت له. «لا يمكن أن يستمرّ المطر إلى الأبد».

«نعم، أنا على يقين من ذلك». لكنّهما كانا مكتئبيْن ويعرفان جيّدا أنّ الشّتاء -عدوّ من لا مأوى له- قادم في الطّريق، وأنّ الأمر إذن لن يتحسّن. ومكثا ينتظران المعجزة بين أحد وآخر. ولم تأت المعجزة مطلقا. سارا معا. وتناولا الطّعام سويّا. وتحدّثا. وأصبحت رفقتهما شيئا فشيئا مصدرا للبؤس. تشاجرا عدّة مرّات. لكنهما تصالحا لاحقا، لأنّهما عرفا أنّ غضبهما ينبتُ أساسا من هذا الموقف العبثيّ الذي وقعا فيه. يتطلّعان طيلة الأسبوع بلهفة إلى يوم اللّقاء. ولكنّهما في مساء يوم الأحد يشعران دومًا بأنّ شيئا مّا يعكّر صفوهما. إنّه شيء عبثيّ يكمن في الفقر الذي يسحق كلّ ما لديهما من مشاعر. ولم يكن البقاء معا في تلك الحال أمرا قابلا للتّحمّل. ولكنّهما تحمّلاه.

وفي أحد أيّام نوفمبر الكئيبة، وضوء الظّهيرة المملّ ينعكس خلف نوافذ مكتب البريد القذرة، كانت كريستين تجري بعض الحسابات في مكتبها. لقد أصبحت قادرة على تغطية مصاريفها بصعوبة كبيرة، منذ أن بدأت في الذّهاب إلى فيينا في أيّام الآحاد: تذاكر القطار، الجلوس في المقاهي، وعربات التّرام ووجبات الغداء وما إلى ذلك... رفعت كلّ هذه الأشياء تكاليف معيشتها. لقد تمزّقت مظلّتها، وهي تركب القطار. وفقدت ذات يوم أحد قفّازيها. ولأنّها امرأة، فمن الطّبيعي أنّها كانت تشتري لنفسها من حين إلى آخر بعض الأغراض اللاّزمة قبل أن تلتقي فردينان، مثل قميص جديد أو حذاء أجمل. أدركت أثناء حساباتها أنّ هناك بعض العجز في ميزانيّتها الخاصّة. لم يكن عجزًا كبيرًا في الحقيقة، إثنا عشر شيلنغ فحسب. ويمكن لما تبقّى من فرنكاتها السّويسريّة أن يغطّيه بسهولة. ولكن مازال التّساؤل قائمًا: كيف يمكن أن تستمرّ في الذّهاب إلى المدينة كلّ يوم أحد، دون أن تغوص في مستنقع الدّيون؟ وقد جعلتها الغريزة البورجوازيّة المتوارثة عبر ثلاثة أجيال تشعر بالفزع من كلّ هذا. جلست في مكانها. وراحت تتدبّر المسألة: إلى أين أمضي بهذا الأمر؟ لقد كان الجوّ ماطرا وعاصفا في المرّة الأخيرة، قبل أربعة أيّام مضت. مكثا في المقهى طيلة الوقت، واقفين أسفل الأفاريز. ثمّ احتميا بإحدى الكنائس. وعادت في النّهاية إلى المنزل بثياب مبلّلة مجعّدة، والشّعور بالإنهاك والبؤس يسحق قلبها. كان فردينان مشتّتًا بشكل غريب. لا بدّ أنّه قد واجه مشكلة في موقع البناء أو أنّ طارئا آخر حدث له. كان يتصرّف بحدّة وفظاظة. ومرّت نصف ساعة دون أن يقول شيئًا. تمشّيا في صمت مثل غريبين. ما الذي

أزعجه يا ترى؟ هل يشعر بالغضب لأنّها لم تتحمّل الذّهاب معه إلى إحدى هذه الفنادق المريعة؟ -ما زالت ترتجف لمجرّد تذكّر ذلك!- أم إنّ السّبب يكمن في الطّقس السّيّء وتجوّلهما اليائس بلا هدف من مقهى إلى آخر؟ أم إنّ حالة التّشرّد التي أنهكتهما قد جرّدت صحبتهما من كلّ معنى، وانتزعت منهما كلّ فرح وبهجة؟ شيء مّا يموت بينهما. هكذا أحسّت. وكانت تعرف أنّ هذا الشّيء ليس صداقة ولا شعورا بالرّفقة. لم تعد لأيّ منهما القوّة الكافية للاستمرار في الكذب. لقد حسبا من قبل أنّ بإمكانهما أن يتساعدا، ويدفع الواحد منهما الآخر إلى الإيمان بوجود وسيلة للخروج من طريق الفقر المسدود. لكنّهما الآن غير قادرين على تصديق ذلك، بينما الشّتاء البارد يوشك أن يهجم عليهما.

لم تعد تعرف أين تبحث عن الأمل. كانت هناك رسالة مطبوعة في الدّرج الأيسر من مكتبها. لقد وصلت أمس من إدارة البريد بالنّمسا. وفيها ما يلي: «ردّا على طلبك المقدّم في 17 سبتمبر 1926، نأسف لإبلاغك أنّ عمليّة النّقل إلى مكتب البريد بفيينا غير متاحة حاليًا، بما أنّ أيّ زيادة للموظّفين في هذا المكتب مستحيلة، طبقًا للمرسوم الوزاريّ 1794 /BDZ، بالإضافة إلى عدم وجود أماكن شاغرة هناك».

لم تتوقّع إجابة أخرى في الحقيقة. ربّما تدخّل مستشار المجلس الخاصّ لفائدتها. وربّما نسي أن يفعل ذلك... وعلى أيّ حال، فإنّه الشّخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتها. تعني هذه الرسالة إذن بقاءها لسنة أخرى أو خمس سنوات، أو ربّما لبقيّة حياتها، في هذا العالم

العبثيّ. هل يجدر بها أن تخبر فرديناند بذلك؟ تساءلت، وهي تهزّ قلم الرّصاص في يدها. غريب أنّه لم يسأل عمّ حدث لطلبها أصلا. فلعلّه لم يصدّقها. لا، من الأفضل ألّا تعلمه بالإجابة. وسوف يفهم الأمر بمفرده، دون حاجة إلى الخوض فيه. لن يزيده الخبر إلاّ عذابا وألما، وقد فقد أيّ معنى له. في الحقيقة، يفقد العالم برمّته كلّ معنى ممكن أمام عينيها.

سمعتْ صوت الباب. فاعتدلت بشكل غريزيّ. وأخذت تُعدّل ملابسها وأدواتها من حولها. فعلت ذلك بشكل آليّ حتّى تُخرج نفسها من متاهة أفكارها، وتعود إلى واقع العمل. ولكنّ صوت الباب استأثر بانتباهها. فقد كان متقطّعا وثقيلا بشكل غير مألوف. من عادة الفلاّحين أن يغلقوا الباب بعنف، كأنّه باب إسطبل. قد يكون الهواء هو الذي حرّك الباب قليلا. فقاومه مُصدرا تلك الطّقطقة. نظرتْ عبر النّافذة. فصُعِقت، وهي تنظر إلى آخر شخص توقّعت قدومه إلى هناك. إنّه فرديناند.

فَغَر فم كريستين ذهولا. لم تكن تلك مفاجأةً سارّة على الإطلاق. وقد عرض عليها قبل ذلك عدّة مرّات أن يزورها، كي يوفّر عليها الرّحلة إلى فيينا. ولكنّها رفضت في كلّ مرّة بشكل قاطع. ربّما تشعر بالحرج من أن يراها في هذا المكتب الصّغير البائس، وهي ترتدي ذلك المئزر الذي خاطته بنفسها. وربّما كان رفضها بدافع من الكبرياء، أو شعور غامض لا يمكن وصفه. ولعلّها تخشى كذلك نميمة الجيران. ماذا ستقول زوجة صاحب المنزل والجارة الأخرى، إذا شاهدتاها تتنزّه في الغابات مع أحد الغرباء من فيينا؟ سيشعر فوكستالر بالألم

أيضًا. لكنّه الآن يقف أمامها؛ ولم تستطع أن تشعر بالبهجة إزاء هذا الموقف الذي وجدت نفسها فيه.

«انظري إلى حجم دهشتك! لقد كان هذا آخر ما تتوقّعينه! أليس كذلك؟»، كان يحاول أن يبدو مرحًا. لكنّ الانزعاج الواضح كبّل صوته.

«ماذا حدث؟ ما الأمر؟».

«لا شيء... ماذا تقصدين؟ لقد حظيتُ ببعض الوقت فحسب. وفكّرت أن أزوركِ. ألست سعيدة لذلك؟».

«نعم، نعم»، تمتمتْ. «أنا كذلك طبعا».

نظر من حوله. وقال: «أهذه إذن مملكتك؟ غرفة الاستقبال في شونبرون[1] أجمل منها وأفخم. ولكن يكفيك أنّكِ سيّدة نفسك. ولا رئيس لك هنا. وهذا في حدّ ذاته أمر عظيم». ظلّت صامتة، تتساءل في سرّها عمّ يريده؟

«ألم يحن الآن موعد استراحة الغداء؟ فكّرت في أن نتنزّه في منتصف النّهار قليلا، ونتحدّث». نظرت كريستين إلى السّاعة. كانت الحادية عشرة وخمسا وأربعين دقيقة. قالت: «لم يحن الوقت بعد. لكنّه أوشك... فقط... إنّني أعتقد أنّه من الأفضل ألّا نخرج هنا سويّا. لا يمكنك أن تتخيّل ماذا يحدث هنا عندما يراك النّاس بصحبة شخص غريب. ينفجرون جميعا بالأسئلة... البقّال والنّساء والمارّة والأطفال وكلّ شخص آخر... يسألون من هذا الذي خرجت معه... إنّني

(1) شونبرون Schönbrunn: إحدى مناطق فيينا.

أكره الكذب... وسيكون من الأفضل إذا ذهبت مباشرة عبر طريق الأبرشيّة صوب اليمين. وفي أسفل التّل، ستجد محطّات مسلك الصّليب التي تقود إلى كنيسة القدّيس ميخائيل عند المرتفع. عندما تدرك طرف الغابة، سترى صليبا ضخما يُلمح من تخوم القرية. وهناك مقاعد مخصّصة للحجّاج. انتظرني هناك، حيث لا يوجد أحد في الظّهيرة. سيكون الجميع منهمكين في تناول الغداء. ولن يجذب أحد الغرباء انتباههم. هل يمكنك أن تفعل هذا رجاءً؟ أوافيك في غضون خمس دقائق. ولدينا متّسع من الوقت حتّى الثّانية ظهرا».

«حسنًا! سأجد المكان. أراكِ هناك».

أغلق الباب من خلفه. وانتشر عبر جسدها صوتُ قرقعته الباب. لا بدّ أنّ شيئًا مّا قد حدث. إذ لم يكن ليأتي إلى هنا إلاّ إذا كان لديه سبب وجيه. هل يتعلّق الأمر بعمله يا ترى؟ يكلّفه القطار مبلغًا لا بأس به... ستّة شيلنغات، بالإضافة إلى رحلة العودة... لا بدّ من وجودِ سببٍ مهمّ لهذه الزّيارة. أغلقت النّافذة بيدين مرتعشتين. واستطاعت بصعوبة أن تدير المفتاح في القفل، وتغلق الباب. وأحسّت على الفور بتصلّب في ساقيْها.

«إلى أين أنتِ ذاهبة إذن؟»، هكذا سألتها السّيّدة هوبر أثناء عودتها من الحقول، عندما شاهدتها تتّجه نحو الغابات. وهو أمر غير معتاد في وقت الظهيرة. «سأتمشّى قليلًا»، أجابتها كريستين. عليك أنِ تشرح لهم كلّ خطوة تخطوها. إنّهم يراقبونك على مدار السّاعة. استحثّت خطاها في قلق، وهي تكاد تركض من فرط التّوتّر، عابرة أمام المحطّات الأخيرة لمسلك الصّليب. كان فردينان جالسًا على مقعد

صخريّ أسفل الصّليب، مُعلَّقا في الهواء من فوقه رجلُ الآلام، بيدين مُسمَّرتين، ورأس متوّجة بإكليل الشّوك، مائلة إلى إحدى الجانبين في استسلام تراجيديّ. امتزج مشهده الجانبيّ باللّوحة، وهو جالس على المقعد الحجريّ، أسفل الصّليب الهائل. كانت رأسه محنيّة في جلال. وتنمّ هيئته عن استغراق هائل في التّفكير، يحمل عصا يَخِزُ بها الأرض. لم ينتبه في البداية إلى صوت خطواتها، وهي تقترب منه. ثم استفاق من غفلته فجأة. وجذب العصا. ووضعها إلى جانبه. والتفتَ إليها، محدّقا فيها دون فضول أو حماسة أو عاطفة حتّى.

«ها قد جئتِ! اجلسي! نحن بمفردنا». كان جسدها يرتجف تماما، من فرط القلق. ولم يعد بإمكانها أن تخفي اضطرابها.

«ما الأمر؟ ماذا حدث؟».

«لا شيء»، هكذا أجابها، وهو يحدّق ساهما. «ماذا تقصدين؟».

«لا تعذّبني أكثر. لا بدّ أنّ شيئًا مّا قد حدث، حتّى تكون حرّا هذا اليوم».

«فيما يتعلّق بـ «حرّ»، فأنت محقّة. أنا اليوم حرّ فعلًا».

«ولكن لماذا؟ هل طردت من العمل؟».

أطلق ضحكةً وجيزة. واستأنف حديثه: «طردت؟ لا، لا على الإطلاق. ماذا تقولين بربّك؟ لقد انتهى البناء بكلّ بساطة».

«انتهى؟ ماذا تقصد؟ كيف يمكن أن ينتهي؟».

«انتهى... أعني أنّه انتهى. لقد أفلست شركتنا. واختفى المقاول. يقولون الآن إنّه محتال ماكر. أمّا قبل يومين فحسب، فقد كان حضرة

السّيّد المحترم. لقد لاحظت يوم السّبت أمرًا غريبا... كان يتحدّث في الهاتف طيلة اليوم، ويذرع المكان جيئة وذهابًا، مع أناس كثيرين، حتّى وصلت أجور العمّال. وحينئذ، دفع لنا نصف الأجور فقط... خطأ حسابيّ... هذا ما تمّ افتراضه من قبل الجميع وما قالته سكرتيرة الشّركة. فقد سحبوا مبلغًا صغيرا من البنك. وسيسدّدون الباقي يوم الإثنين. ولكن لم يحدث شيء يوم الاثنين، ولا يوم الثّلاثاء أو الأربعاء. واليوم اتّضح الأمر. لقد رحل الرّئيس. وتوقّفت أعمال البناء. أترين؟ لهذا يمكن لأناس مثلنا، ولو لمرّة واحدة، أن يستمتعوا بنزهة مفاجئة».

نظرت إليه مندهشةً. وقد أرعبتها طريقته في الكلام، وهو يخلط الهمّ بالسّخرية. «نعم، ولكن ألستَ موظّفًا رسميّا؟ هل يسمح لهم القانون بفصلك عن العمل؟». ضحكَ، «نعم، نعم، أعتقد أنّ للقانون ما يقوله في هذا الشّأن. وسوف نسمع منه. أليس كذلك؟ أمّا في الوقت الحاليّ، فقد فقدوا ختمهم البريديّ. وانتهى رصيدهم تمامًا. وحتّى الآلات الكاتبة تمّ رهنها. بإمكاننا إذن أن ننتظر. وعلى أيّ حال، لسنا نملك شيئا سوى الوقت».

«وماذا... ماذا ستفعل الآن؟».

ظلّ صامتا، دون أن يجيب. وراح يجيل العصا في التّراب ويحفر حفرًا صغيرة. ويكوّمها. كان من المؤلم جدّا رؤيته، وهو يفعل ذلك.

«أرجوك... ما... ما هي خططك الآن؟ ماذا ستفعل؟».

«ماذا سأفعل؟!»، ضحك ثانية تلك الضّحكة المتوتّرة الغريبة. «ماذا يمكن أن يفعل من هو في مثل حالتي؟ سأسحب من حسابي

البنكيّ... سأحيا على مدّخراتي، مع أنّني لا أعرف كيف سأفعل ذلك تحديدًا. فبعد ستّة أسابيع تقريبًا، سيسمحون لي بالحصول على منحة البطالة التي تمنّ بها علينا جمهوريّتنا الكريمة. سأحاول أن أعيش اعتمادا عليها، مثلما سيفعل الثّلاثمائة ألف الآخرون في أمّتنا المقيمة على الدّانوب، وإذا لم تنجح هذه المحاولة العظيمة... حسنًا، كلّ ما في الأمر أنّني سأموت في مزراب».

«هراء»، أغضبها هدوؤه الشّديد. «توقّف عن التّلفّظ بهذا الهراء.. كيف يمكن لأيّ إنسان أن يتحمّل كلّ هذه القسوة؟ إنسان مثلك... سيجد وظيفة دون شكّ... أنا على يقين من ذلك».

انتصب واقفا على قدميه. وضرب الأرض بعصاه. «لكنّني لا أريد وظيفة أخرى! لقد اكتفيت من كلّ هذا. هذه الكلمة تجعلني أشعر برغبة في الصّراخ. إحدى عشر عامًا مرّت الآن، وأنا أنتقل من وظيفة إلى أخرى، ألتحق بالعمل دون أن أثبت فيه. ثمّ أنتقل إلى آخر. وفي الحقيقة، لست موجودا في أيّ مكان على الإطلاق. قضّيت أربعة أعوام في الحرب، ومنها عبرتُ من مكان إلى آخر... بين حجري الرّحى دوما... ومن أجل شخص آخر... لم أعمل ولو لمرّة واحدة من أجلي... ثمّ تُطلق الصّافرة. ويُصرخ في وجهك: اخرج! هذا يكفي! اذهب إلى مكان آخر! ابدأ من جديد! ثمّ أعيد الأمر مرارًا وتكرارًا. لكنّني لم أعد قادرا على التّحمّل. لقد اكتفيتُ من كلّ هذا. وانتهيت».

كانت كريستين على وشك أن تقول شيئًا. لكنّه قاطعها: «لا يمكنني أن أستمرّ على هذا النّحو، صدّقيني! لقد اكتفيت... ولا أستطيع... صدّقيني لا أستطيع. أفضّل الموت على العودة إلى مكتب

التّوظيف والوقوف في الطّابور مثل متسوّل في انتظار تذكرة، ثمّ أخرى. ثم الرّكض صعودًا ونزولا على الدّرج، وكتابة الرّسائل التي لا يجيب عنها أحد، وملء الاستمارات التي يكنسها الكنّاس مع روث الخيول في الصّباح... لا، لم يعد بإمكاني تحمّل المزيد والتّذلّل في المكتب الخارجيّ، حتّى يسمحوا لي أخيرًا بلقاء أحد الموظّفين البائسين المتبجّحين، ذوي النظّرات المسمومة تلك والابتسامات الباردة اللاّمبالية، قبل أن يُعلِمني أنّ لديه مئات الأشخاص لينتخب منهم واحدا، وأنّه يمنّ عليّ بمجرّد قبوله الحديث معي... ثمّ يوشك قلبي على التّوقّف عن النّبض كلّما نظر أحدهم بإهمال إلى ملفّي وسيرتي الوظيفيّة، كأنّه يبصق عليها... ثم يقول لي: «سأسجّل اسمك. يمكنك أن ترجع في الغد». وأرجع في اليوم التّالي. فلا أجد شيئًا. وأذهب إليهم في اليوم الذي يليه حتّى أعثر في النّهاية على نتفة في مكان مّا... أتحصّل على الوظيفة أخيرا، قبل أن تُنتزع منّي مجدّدًا. لا... لا يمكنني تحمّل المزيد من ذلك. لقد تحمّلتُ الكثير سلفا. ومشيت لسبع ساعات في مسالك ريفيّة في روسيا، بحذاء ممزّق وقلب محطّم. شربت مياه المجاري. وحملت ثلاثة مدافع رشّاشة على ظهري. وتسوّلت من أجل رغيف خبز كأنّني سجين بائس. ودفنتُ جثثًا. وضُربت من قبل حارس سكّير. ولمّعت أحذية الشّركة كلّها. وبعتُ صورًا قذرة، حتّى أحظى بطعام يكفي لثلاثة أيّام. فعلتُ كلّ شيء. واحتملتُ كلّ ذلك، فقط لأنّني صدّقت أنّه سوف ينتهي يومًا مّا، وأحصل في النّهاية على عمل محترم، وأصعد إلى الطّابق الأوّل وربّما الثّاني. لكنّني كنتُ دوما أُنحّى جانبًا... لقد بلغتُ تلك النّقطة التي يمكنني فيها أن أقتل إنسانا آخر، وأفرغ فيه ذخيرتي حتّى لا أتوسّل

منه شيئا. لا يمكنني التّحمّل بعد الآن... لا يمكنني أن أواصل التّسكّع على أعتاب المكاتب الخارجيّة والوقوف في انتظار أن يمنحني أحدهم عملًا. لقد بلغت اليوم الثّلاثين من العمر. ولم يعد ممكنا بالنّسبة إليّ الاستمرار على هذه الحال».

لمست ذراعه، وهي تحاول أن تخفي حجم أسفها عليه. لكنّه لم يلاحظ أيّ شيء، كأنّها تهزّ جذع شجرة. «ها قد عرفتِ الآن. فلا تقلقي إذن. لم آت كي أنتحب. ولا أريد شفقة من أحدٍ، وفِّريها من أجل الآخرين. فربّما تُجْديهم نفعًا. لكنّها لن تُساعدني بعد الآن. جئتُ لأقول الوداع. إذ لا معنى لبقائنا معًا. لا أريد أن أعتمد عليكِ. فمازال لديَّ كبريائي. أفضّل الموت جوعًا! يُستحسن أن ننفصل، كما يفعل الرّاشدون، وألاّ يُثقل أحدنا على الآخر. هذا ما أردت أن أخبرك به، وشكرًا من أجل كلّ شيء».

«لكن يا فردينان». أمسكت ذراعه بقوّة. وتشبّثت بها، وهي ترتجف تماما. «فردينان، فردينان، فردينان!». وشعرت بالخوف يكبّلها، إذ لم تستطع أن تقول شيئا آخر. «لا، صدقًا! هل هناك أيّ معنى لبقائنا معا؟ ألا يؤلمك أيضا أن نسير في الشّوارع في تلك الحالة الرّثّة، ونتسكّع في المقاهي، دون أن يستطيع أحدنا مساعدة الآخر، ودون أن نتوقّف عن اختلاق الأكاذيب؟ كم سيستمرّ كلّ هذا؟ ماذا ننتظر في النّهاية؟ بلغت الثّلاثين، ولم تسنح لي الفرصة أبدًا لفعل أيّ شيء أريده... يوظّفونني مرّة. ثمّ يفصلونني عن العمل مرّات ومرّات. وفي كلّ شهر، يزداد عمري سنوات كثيرة. لم أر شيئًا من هذا العالم. ولم أحظ فيه بحياة. ظللتُ فقط أعتقد أنّ شيئًا مّا سيحدث

في النّهاية، وأنّه سيبدأ قريبًا. لكنّني الآن أدرك جيّدا ألاّ وجود لهذا الشّيء أصلا... ما من شيء آخر أبدًا. لقد أصبحتُ في حال ميؤوس منها. ولم أعد أحتمل المزيد من ذلك. عليكِ أن تتجنّبي مثل هذا النّوع من الأشخاص... كانت شقيقتك على حقّ في تخمينها. لقد وضعت نفسها حاجزا بيني وبين فرانزل، حتّى لا أستولي عليه وأسحبه معي إلى القاع. أمّا أنتِ... فكلّ ما أفعله معك هو أنّني أجرّك معي أيضا باتّجاه الهاوية. لا معنى لهذا... فلِمَ لا نقوم بما ينبغي فعله ونضع نهاية محترمة لعلاقتنا؟».

«نعم، ولكن... ماذا ستفعل؟».

جلس جامدًا مطبقا فمه. رفعت بصرها إليه. وانصدمت تماما عندما رأت الحفرة الصّغيرة التي رسمها أمامه بالعصا التي في يده. إنّه يحدّق الآن فيها، كأنّه يودّ أن يغوص بداخلها. بدتْ كأنّها تجذبه إلى أسفل. وفهمت كريستين كلّ شيء.

«أتعني...؟».

«نعم»، أجاب بهدوء، «هذا هو الأمر الوحيد المعقول. لقد اكتفيت ممّا حدث. ولا أريد أن أبدأ من جديد. لكن مازالت لديَّ القوّة لأقوم بما يلزم وأضع نهاية لكلّ شيء. لقد أقدم أربعة من جماعتنا على فعل هذا في روسيا. يمرّ الأمر سريعا في النّهاية... شاهدتُ وجوههم بعد ذلك. كانت هادئة وصافية، تنعم بالسّلام الأبديّ. ليس الأمر صعبًا كما يبدو. بل إنّه أسهل من المضيّ قدما بهذا الشّكل الفظيع».

كانت ما تزال ممسكة به. لكنّ ذراعيها قد تيبّستا. وتركته في هدوء.

«ألا تفهمين شعوري الآن؟»، سألها، وهو يرفع عينيه إليها بهدوء. «أجيبيني! لقد كنتِ نزيهة دومًا معي». وبعد برهة، قالت له: «أحيانا، يخطر الأمر ببالي أيضًا. لكنّني لم أجرؤ على التّفكير فيه بوضوح. إنّك محقّ فعلا. فلا معنى للاستمرار بهذه الطّريقة». نظر إليها حائرًا. أراد في يأسه ذاك أن يصدّقها. وقال: «أستفعلين ذلك أيضًا؟».

«نعم، معك أنت». أجابته بهدوء وتصميم، كأنّها تتحدّث عن نزهة. «ليست لديَّ الشّجاعة الكافية لأقوم بذلك بمفردي. لا أعرف... وإلاّ لكان الأمر قد حدث منذ سنوات طويلة».

«سوف تــ...». وظلّ يتمتم بسعادة، وهو يمسك بيديها. «نعم»، كرّرت بهدوء. «في أيّ وقت تريده... ولكن معك... لن أكذب عليك بعد الآن. لم يوافقوا على نقلي إلى فيينا. وها إنّي أهلك في هذه القرية البائسة. من الأفضل أن يتمّ الأمر سريعًا إذن، بدلًا من هذا البطء الفظيع. لم أكتب أيّ رسالة إلى أمريكا. وأعرف أنّهما لن يساعداني. فقد يرسلان عشرة أو عشرين دولارًا. ولكن، بم سينفعني ذلك؟ لا أريد مزيدًا من العذاب... أرجو أن يتمّ الأمر سريعًا. فأنت على حقّ».

حدَّق فيها طويلا. لم ينظر إليها أبدًا بمثل هذا الشّعور. لانت حدّة وجهه. وظهرت ابتسامة خلف عينيه المشعّتين بالتّحدّي. مسَّح على يديها. وقال: «لم أفكّر أبدًا أنّكِ... أنّكِ ستمضين معي إلى هذا الحدّ. أصبح الأمر أكثر سهولة من قبل... كنتُ قلقًا عليكِ».

جلسا مشابكين أصابع يديهما. ولو مرّ بهما أحد لحسبهما عاشقين مخطوبين حديثا، يعبران محطّات مسلك الصّليب، كي يُباركا خطبتهما.

لم يشعرا من قبل أبدا بكلّ هذه الرّاحة والثّقة. وهذه هي المرّة الأولى التي يتبادلان فيها ثقة مطلقة، المرّة الأولى التي يثقان فيها بالمستقبل. جلسا في تلك الحالة لفترة طويلة، وهما يتبادلان النّظرات، والهدوء يرتسم على وجهيهما، والسّلام يغمرهما. ثمّ سألته بهدوء:

«كيف... كيف تريد أن يكون الأمر؟».

وضع يده داخل جيبه الخلفيّ. وأخرج مسدّسا عسكريّا. فلمعت أشعّة شمس نوفمبر على فوهته الصّقيلة. ولم يدفعها السّلاح إلى الشّعور بالخوف.

«في الصّدغ مباشرة... لا تخافي. فيدي ثابتة. ولن ترتجف مطلقا... ثمّ سأطلق على القلب. إنّه مسدّس حربيّ من العيار الثّقيل. يمكنك أن تطمئنّي. سينتهي الأمر قبل أن يُسمع صوت الرّصاصتين في القرية. لا داعي للخوف».

نظرتْ إلى المسدّس بهدوء وفضول عمليّ. ثم لمحتْ بنظرة سريعة رجل الآلام والصّليب ينتصب شامخا فوق المقعد الصّخريّ، حيث يجلسان.

قالت بسرعة: «ليس هنا... ليس هنا... وليس الآن، لأنّ...»، ونظرت إليه، ويدها تتشبّث به أكثر من قبل. «أريد أوّلا أن نكون معا بحقّ، دون خوف أو اشمئزاز... ليلة كاملة... ربّما مازال هناك ما نقوله لبعضنا البعض... هذه الأشياء الأخيرة التي لا يفصح النّاس عنها أبدًا... ثمّ إنّني... أودّ أن أكون معك وحدك مرّة أخرى ولليلة كاملة. وليجدونا معا في الصّباح».

«نعم، إنّك على حقّ. على المرء أن يحصل على أفضل ما في الحياة قبل أن يغادرها. سامحيني على عدم التّفكير في ذلك».

جلسا صامتين مجدّدا. ولاطفهما النّسيم، وكانت أشعّة الشّمس دافئة لذيذة. شعرا أنّهما بخير وسعيدان أخيرا. صفا تفكيرهما على نحو مدهش. ثمّ دقّ جرس الكنيسة في القرية مرّة ومرّتين وثلاثا. فتيقّظت. وقالت: «إنّها الثّانية إلاّ ربع». أشرقت ضحكة على وجهه، وهو يقول: «انظري! هذا ما نحن عليه... إنّك شجاعة. ولا تخافين الموت. ومع ذلك، تخشين التّأخّر عن العمل. هكذا تمّ استعبادنا. وبهذا الشّكل ترسّخت العبوديّة فينا. لقد حان الوقت فعلًا لتحطيم كلّ هذا الهراء. أتريدين فعلا العودة إلى العمل؟».

قالت: «نعم، إنّ الأمر أفضل هكذا. أودّ أن أرتّب كلّ شيء أوّلًا... أمر سخيف، أعرف ذلك...لكن... سأكون بحال أفضل إذا رتّبتُ كلّ شيء وكتبتُ بعض الرّسائل، ثمّ... إذا مكثتُ هناك حتّى السّادسة مساءً، فلن يشكّ أحد في شيء ولن يذهب للبحث عنّي. واللّيلة، يمكننا أن نذهب إلى كريمس أو سانت بولتن أو إلى فيينا. مازال بحوزتي بعض المال يكفي لغرفة جيّدة. سنتعشّى سويّا. ونقوم بما نرغب فيه للمرّة الأخيرة. لا بدّ أن ينتهي الأمر بصورة لطيفة تمامًا. وعندما يعثرون على جثّتينا غدًا صباحا، فلن يهمّ أيّ شيء. مُرّ عليّ عند السّادسة مساء. لا يهمّني إذا رأونا معا. دعهم يقولون ويفكّرون في ما يريدون. سأغلق الباب خلفي. وأترك وراءه كلّ شيء. وحينها فقط، سنشعر بأنّنا حُرّان». ظلّ يحدّق فيها مليّا، وقد جعل تصميمُها المفاجئ قلبه يخفق بشدّة.

«حسنًا»، قال لها. «سآتيك في السّادسة مساء. وفي انتظار الموعد، سأتمشّى قليلًا وأحظى بنظرة على العالم. لذا... وداعًا».

ركضتْ نحو الطّريق، وهي تشعر بالصّفاء والرّاحة. وعندما التفتت إليه كان ما يزال يراقبها. أمسك بمنديله. ولوّح به قائلا: «إلى اللّقاء... إلى اللّقاء».

مشت كريستين في طريقها. يبدو الآن كلّ شيء مريحًا: المكتب والكرسيّ والحاجز الزّجاجيّ والميزان والهاتف وأكوام الوثائق... لم تعد كلّ تلك الأشياء تنتظرها كالعدوّ. لقد توقّفت فجأة عن السّخرية منها في صمت، مثلما فعلت من قبل آلاف المرّات. أدركت الآن أنّ الباب مفتوح بطبيعته. ولا تفصلها عن الحرّيّة سوى خطوة واحدة.

شعرت بهدوء رائع، كأنّها في مرج تكتنفه الظّلال مساءً. بدا العمل سهلا وشبيها بلعب أطفال. كتبت بعض الرّسائل، واحدة لشقيقتها، وأخرى لمكتب البريد، وثالثة لفوكستالر كي تودّعه. واندهشت من خطّها الجميل وثبات الأسطر فيه، والمسافة الدّقيقة التي تفصل بين الكلمات، وكيف كانت تنجز عملها بيسر، كما كانت تقوم بواجباتها المنزليّة قديمًا في المدرسة. وفي أثناء هذا كلّه، كان النّاس يتوافدون بالرّسائل وطلبات الاتّصال الهاتّفية، ويُكوِّمون الرّزم فوق الحاجز الزّجاجيّ، ويدفعون الفواتير. فتساعدهم في كلّ مرّة بانتباه ولطف، دون أن تعي ذلك. أرادت من أولئك البائسين أن يحتفظوا بِذكرى جميلة عنها: توماس، السّيدة هوبر، مساعد حارس الغابة، صبيّ البقال وزوجة القصّاب. كان ذلك هو الأثر الأخير لشعورها الأنثويّ بالكبرياء، كلمة وداعا وهي تتردّد بينها وبين شخص آخر.

ابتسمت ابتسامة وجيزة ومميّزة، لأنّها تستنشق الآن هواءً مختلفًا. إنّه هواء الخلاص. ثمّ رفعت الملفّات العالقة. وراحت تعدّ وتحصي وتنظّم كلّ شيء. لم يكن مكتبها مرتّبا بهذا الشّكل من قبل أبدا. بل إنّها نظّفت حتى بقع الحبر. وصحّحت وضع التّقويم على الحائط. لن يشتكي الموظّف الذي سيأتي بعدها من أيّ شيء. وذلك لأنّها كانت سعيدة. كانت تنظّم حياتها. وتضع عليها اللّمسات الأخيرة.

عملت بسعادة شديدة وحيويّة وعناية، حتّى إنّها فقدت شعورها بالوقت. واندهشت عندما سمعت صوت الطّرق على الباب.

«هل هي السّادسة الآن؟ يا إلهي! لم أشعر بالوقت. بعد عشر دقائق أو عشرين، سأنتهي من كلّ شيء. أودّ أن أترك كلّ شيء منظّما كما ترى. دعني أغلق السّجلاّت وأفحص الخزينة. ثمّ أكون ملكا لك».

كان على وشك أن يخرج لينتظرها. «لا، لا، اجلس هنا. سأغلق مصاريع النّوافذ في الخارج. ولا يهمّ إذا رأونا نغادر المكان سويّا. غدا يكتشفون كلّ شيء على أيّ حال».

ابتسم. «غدًا؟! أنا سعيد لأنّه لا غد بعد الآن، بالنّسبة إلينا على الأقلّ. كانت جولتي رائعة... يا للسّماء والألوان والغابات! إنّ الرّبّ مهندس معماريّ من الطّراز القديم حقًّا. لكنّه أفضل من أيّ شيء كان بإمكاني أن أصيره».

اصطحبته إلى الغرفة الدّاخليّة خلف الزّجاج، حيث لم تطأ قدما أحد أبدًا. «ليس لديَّ مقعد كي أعرض عليك الجلوس. فجمهوريّتنا العزيزة ليست كريمة إلى هذا الحدّ. ولكن يمكنك أن تجلس على عتبة

النّافذة وتدخّن سيجارة. سأنهي كلّ شيء في غضون عشر دقائق». وتنهّدت من الانشراح. «سأنهي كلّ شيء».

ملأت الخانات الواحدة تلو الأخرى. وتمّ الأمر سريعًا وسهلًا. ثمّ أخرجت حقيبة النّقود من درج الخزينة. ودوّنت الحسابات في الدّفاتر. كوّمت الأوراق المالية، على اختلاف فئاتها، الخمسة والعشرة والمئة وكذلك الألف، على سطح المكتب، وبلّلت إصبعها بالإسفنجة. وطفقت تحصي الأوراق الزّرقاء برشاقة وخبرة، سريعًا وبشكل آليّ: عشرة، عشرون، ثلاثون، أربعون، خمسون، ستّون... ودوّنت باختصار ناتج كلّ فئة من الأوراق الماليّة، لتقارن في النّهاية مجموع الإحصاء بما هو مدوّن في السّجلاّت. ثمّ خطّت الخطّ السّفليّ الأخير بقلمها الرّصاص. وسمعتْ صوتًا من خلفها. رفعت بصرها لتجد فردينان ينظر من فوق كتفها. كان يتنفّس بصعوبة. قالت منزعجة: «ما الأمر؟».

«اسمحي لي... (وكان الصّوت جافًا) اسمحي لي أن أنظر لدقيقة. مرّ وقت طويل منذ أن شاهدتُ ألفًا من الشّيلنغات، ولم أر أبدًا هذا المبلغ الضّخم دفعة واحدة». أمسك بواحدة من العملات بحرص بين أصابعه، كأنّه يخشى أن تنكسر. لاحظت كريستين يده مرتجفة. ماذا أصابه؟ كان ينظر بغرابة شديدة إلى العملة الزّرقاء، وقد اهتزّ منخراه وومض بريق غريب في عينيه.

«إنّه مبلغ كبير جدًا! هل تستقبلون دومًا مبالغ ضخمة مثل هذه؟».

«نعم بالطّبع، بل إنّ هذا المبلغ ليس كبيرا حقًا... 11570 شيلنغ

فحسب. ففي نهاية كلّ ثلاثيّة عندما يدفع مزارعو الكروم ضرائبهم أو عندما ترسل المصانع مرتّبات العمّال، لا يقلّ المبلغ عن أربعين أو خمسين أو حتّى ستين ألفًا. وقد وصل المبلغ مرّة إلى ثمانين ألفًا». حدَّق في المكتب. وأبقى يديه خلف ظهره، كأنّه متوجّس من شيء مّا.

«ألا... ألا تشعرين بالتّوتّر من وجود كلّ هذا المبلغ في مكتبك؟ ألا تخافين؟».

«أخاف؟ ممّ؟ البناية محميّة... أترى تلك القضبان الحديديّة السّميكة؟ بالإضافة إلى أن فايدنهولف وأسرته يعيشون فوق البقالة في البناية المجاورة. وبإمكانهم أن ينتبهوا دون شكّ إذا ما حاول أحدهم اقتحام المكان. أمّا في الليل، فإنّ المال يوضع دومًا في مكانه المعتاد... لا، لا شيء سيحدث».

قال متوتّرًا: «لو كنت مكانك، لشعرت بالخوف».

«هراء... ممَّ؟».

«من نفسي».

نظرت إليه فوجدت فمه نصف مفتوح، وهو يشيح بنظره عنها.

«لم أكن لأتحمّل هذا، ولو لساعة واحدة. لم أكن لأتنفّس بشكل طبيعيّ وكلّ هذا المال من حولي. سأفكّر طيلة الوقت أنّ مجموعة قليلة من تلك الأوراق تساوي ألف شيلنغ وبإمكانها أن تحرّرني تمامًا إذا دسستها داخل جيبي، لثلاثة أشهر مثلًا... أو نصف سنة، أو حتّى سنة كاملة. كنت سأفعل بها ما أريده، وتعود لي حياتي، مع كلّ هذا المبلغ... ماذا قلتِ؟ 11570 شيلنغ؟ مع كل هذا المبلغ، يمكننا أن نعيش

لعامين أو لثلاثة أعوام. يمكننا أن نرى العالم، ونحيا حقًا في كلّ دقيقة، لا بالطّريقة التي نحيا بها الآن، بل بالشّكل الذي نريده. نستطيع أن نحيا تلك الحياة التي ولدنا من أجلها، ونترك تلك الشّخصيّة الأصليّة تخرج إلى النور... نصير مثلهم بدلًا من هذا الخراء... كلّ ما عليكِ فعله هو أن تمدّي يدك وتأخذي المال... حركة واحدة صغيرة، ثمّ تنصرفين إلى الحرّيّة... لا، لم أكن لأتحمل هذا أبدًا. كان الأمر سيُفضي بي إلى الجنون لو ظللتُ أنظر إلى المال هكذا وهو ملقى بين يديّ، أتشمّم رائحته وأشعر به عالمًا أنّه ينتمي إلى تلك الدّمية الحمقاء، الحكومة التي لا تتنفّس ولا تحيا ولا تريد أن تفهم شيئًا... إنّها مُؤلَّفة من أغبى البشر على الأرض. ولا تفعل شيئًا سوى طحن النّاس وتمزيقهم إربًا. كنت سأجنّ... أحبس نفسي في المساء، كي أمنعها من أخذ المفتاح وفتح الدّرج... وأنتِ... تمكّنت طيلة هذا الوقت من التّعايش مع كلّ هذا المال! ألم تفكّري أبدًا في ذلك؟».

قالت مصدومة: «لا، أبدًا».

«حسنًا، إنّ الحكومة محظوظة. فالأوغاد موجودون دوما. ولكن هيّا أنهي عملك!». قال ذلك بنوع من الغضب تقريبا، «أنهي عملك! وأبعدي المال! لم أعد أطيق النّظر إليه».

أغلقت الدّرج سريعًا بأصابع مرتعشة. ثم ذهبا صوب محطّة القطار. كان الظّلام مخيّما والنّاس جالسين لتناول العشاء عند النّوافذ المضيئة. وبينما كانا يمرّان أمام النّافذة الأخيرة، انسابت في آذانهما همهمة خافتة. إنّها صلاة المساء. لم يقل شيئًا، وكذلك هي لم تنطق بكلمة. بدا الأمر كأنّهما برفقة آخرين. كانت هناك فكرة تشغلهما معا.

تطوّقهما من كلّ الجهات. وتهتزّ بداخلهما. ورافقتهما وهما يقطعان طريقهما مغادرين القرية، يُحثّان الخطى دون تفكير.

غرقا في الظّلام المتخفّي خلف آخر منزل. كانت السّماء أكثر توهّجا من الأرض، والأشجار منتصبة على امتداد الطّريق، ينعكس على سطحها نور المصابيح فتبدو مثل أصابع متفحّمة. تلوح قضبان الأغصان العارية صامتة في الهواء. وتتحرّك مجموعات متفرّقة من الفلاّحين والعربات في الطّريق. فيسمع صوتها من خلف صورتها الغائمة. وكان ذلك يذكّرهما بأنّهما ليسا بمفردهما.

«أما من طريق يؤدّي إلى المحطّة عبر الحقول؟ طريق لا يسلكه أحد؟».

أجابت كريستين: «نعم، انعطف هنا جهة اليمين». أحسّت بالسّعادة لأنّه خرج عن صمته. ولوهلة، توقّفت عن التّفكير في تلك الفكرة الخطيرة التي ظلّت تطاردها في صمت منذ أن غادرا مكتب البريد.

سار فردينان إلى جانبها صامتًا. كأنّه بمفرده. ولم يمسك بيدها حتّى. ثم سألها فجأة. وكان وقع الكلمات ثقيلا كالصّخرة: «هل تعتقدين أنّ المبلغ يمكن أن يتجاوز ثلاثين ألفا بنهاية الشّهر؟». وفهمت في ما يفكّر. لكنّها تحكّمت في نبرة صوتها. وأجابته: «نعم، أظنّ ذلك». «وإذا تأخّرتِ في الإيداع أيضًا... في حال انتظرتِ الضّرائب أو أيّا كان ما لديك هناك لبضعة أيّام أخرى... لن يتابع أحد سير الأمور عن كثب كما هو معهود في النّمسا... فكم بإمكانك أن تُحصّلي من المال وقتها؟». فكّرت قليلا. ثمّ قالت: «حسنًا، أربعين

ألفًا على الأقلّ. وقد يصل المبلغ إلى خمسين. ولكن لماذا؟». ردَّ بنوع من الحزم: «تعرفين السّبب».

لم تجرؤ على معارضته. فقد كان على حقّ. إنّها تعرف السّبب. استمرّا في سيرهما صامتين. عبرا مستنقعًا، حيث يعلو نقيق الضّفادع قويّا، ساخرا ومزعجا. ثم توقّف فردينان فجأة.

«كريستين، دعينا لا نسخر من بعضنا البعض. تبدو الأوضاع سيّئة بالنّسبة إلى كلينا... سيّئة فعلًا. لذا فعلينا أن نتحلّى بالصّراحة... فلنفكّر بهدوء ووضوح».

أشعل سيجارة. وكان بإمكانها أن ترى في ضوئها ما بدا على وجهه من توتّر. «دعينا نفكّر، نعم... لقد عقدنا اليوم عزمنا على إنهاء كلّ شيء. ومن المفترض أنّنا في طريقنا الآن إلى «إنهاء حياتنا» -إذا ما استخدمنا تلك العبارة النّمطيّة- ولكنّ ذلك غير حقيقيّ. نحن لم نرد أن ننهي حياتينا، لا أنا ولا أنتِ. لقد أردنا فقط أن نتخلّص أخيرًا من هذه الحياة المحطّمة. ولم نجد أيّ طريقة أخرى. رغبنا في أن نتخلّص من الفقر، لا من الحياة في حدّ ذاتها... بل تلك الحياة العبثيّة البغيضة غير المحتملة المحتّمة علينا. هذا كلّ ما في الأمر. وقد وجدنا في المسدّس الحلّ الوحيد لمشكلتنا. ولكنّنا كنّا مخطئين. ونعلم الآن بوجود طريق آخر... فرصة أخيرة. إنّ السّؤال الوحيد المتبقّي لنا: هل نتحلّى بالشّجاعة الكافية لنستغلّ الفرصة أم لا؟ وكيف يكون ذلك؟». ظلّت صامتة بينما واصل التّدخين.

«علينا أن ندرس الأمر ونمعن التّفكير فيه بكلّ برودٍ وواقعيّة، كأنّنا نحلّ مسألة رياضيّة. لن أخفي عنكِ شيئًا. وعليَّ أن أقول إنّ هذا

الأمر يقتضي شجاعة أكبر ممّا تقتضيه الطّريقة الأخرى. فهي سهلة. ولا تعتمد إلاّ على إصبع فوق الزّناد... ثم يظهر الوميض. وينتهي كلّ شيء. أمّا هذا فأصعب بكثير، لأنّه أطول وأشدّ تعقيدا. وسيظلّ المرء متوتّرا، لا لثانية واحدة وإنّما لأسابيع طويلة، بل لأشهر بأكملها. سنضطرّ إلى الاختفاء وحماية أنفسنا طيلة الوقت. ما هو غير مضمون يكون دومًا أسوأ ممّا هو مُحدّد وحتميّ. كما أنّ خوفا شديدا ينقطع بسرعة هو أقلّ وطأة من خوف غامض لكنّه لا يتلاشى. لذلك علينا أن نفكّر أوّلا ما إذا كنّا أقوياء بما يكفي، وما إذا كان في قدرتنا تحمّل الضّغط العصبيّ، وما إذا كان الأمر يستحقّ أم لا، وما إذا كان علينا أن ننهي حياتنا بسرعة ونعومة، أم نحاول البدء من جديد... هذا ما يشغلني حقّا».

استأنف السّير. فلحقته بشكل آليّ. أمّا عقلها، فقد ظلّ عاجزًا ينتظر ما سيقوله فردينان بعد ذلك. كانت مذعورة جدّا، ومنهكة الإرادة تمامًا، حتّى إنّها لم تستطع التّفكير في شيء.

توقفَ مرّة أخرى. وقال لها: «لا تسيئي فهمي. لا يساورني أيّ تردّد أخلاقي عندما أشعر بأنّني حرّ تمامًا. لقد ارتُكبتْ جرائم شنيعة في حقّنا وفي حقّ جيلنا. لذلك نملك نحن أيضا الحقّ في فعل أيّ شيء. لست قلقا بشأن الضّرر الذي سيخلّفه الأمر. فكلّ ما سنفعله هو أنّنا نعوّض أنفسنا عن بعض الأضرار التي طالت جيلنا المسحوق بأكمله. من علّمني أن أسرق وأجبرني على ذلك إذا لم تكن الدّولة؟ «مصادرة»... هذه هي الكلمة التي كانوا يستخدمونها إبّان الحرب أو... «تجريد من الملكيّة». وقد أطلقت عليه فرساي[1] «الإصلاح».

---

(1) معاهدة فرساي Versailles التي وقّعت بعد الحرب العالميّة الأولى.

من غير الدّولة علّمنا كيف نغشّ؟ لو لا الدّولة لما عرفنا أنّ المال الذي أُدّخر لثلاثة أجيال يمكن أن يصبح فجأة بلا قيمة. لقد سلبت العائلات مزارعها ومنازلها وحقولها التي كانت ملكها لمائة عام... حتّى إذا قتلتُ شخصًا مّا، من علّمني ذلك؟ ستّة أشهر في ميدان الرّماية ثمّ أعوام على الجبهة! لدينا حجج قويّة جدًا ضدّ الدّولة. وسوف نفوز بأيّ قضيّة نخوضها ضدّها في أيّ محكمة بحقّ الرّبّ! لا يمكنها أبدًا أن تسدّد دينها الهائل لنا.. لا يمكنها أن تردّ ما سلبته منّا. كنّا لنشعر بتأنيب الضّمير، لو كانت الدّولة بمثابة الحارس الأمين، ولو كانت مزدهرة وتتعامل معنا بشكل لائق وطريقة صائبة. أمّا والحال كما ترين، فإنّها تشبه قاطع الطّريق. ولدينا كلّ الحقّ في أن نصبح قاطعي طرق أيضًا. أنت تفهمين قصدي... أليس كذلك؟ لا يوجد سبب يمنعنا من اغتنام هذه الفرصة. لا يساورني أدنى شكّ بخصوص هذا. ولا أعتقد أنّ عليك أن تتردّدي أيضا. لماذا لا أذهب وأستردّ بنفسي حقّي في التّعويض على الإصابة التي لحقت بي؟ إنّه حقّي، رغم أنّ الخزينة المقدسّة تنكر ذلك...، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى والدينا... إنّه حقّي المكتسب بالولادة، والذي سُرق منّي ومن الجميع. لا، إنّ ضميري صافٍ. هل تهتمّ الدّولة بحياتنا أو موتنا، حتّى وإن متنا ميتة بائسة؟ وإذا سرقنا مائة من تلك العملات الزّرقاء، أو ألفا أو عشرة آلاف، لن يزداد فقر أيّ شخص في تلك الدّولة، ولن يشعروا بالأمر حتّى، تمامًا كما لا يفتقد المرجُ العشبَ الذي تكشطه البقرة في طريقها. لذلك فإنّ الأمر لا يزعجني إطلاقًا. وأظنّ أنّني إذا سرقت عشرة ملايين، سأنام قرير العين تمامًا كمدير بنك، أو جنرال خسر ثلاثين معركة.

كلّ ما أفكّر فيه الآن هو نحن: أنا وأنتِ. لا يجب أن نخسر كلّ شيء، كموظّف مبيعات مراهق قام بسرقة عشرة شيلنغات من درج الخزينة وبذّرها في غضون ساعة دون أن يعرف سبب فعلته. لقد كبرنا على ذلك. لم تتبقّ في حوزتنا سوى بطاقتان للّعب، إمّا أن نستخدم هذه البطاقة وإمّا الأخرى. وعلينا أن نفكّر مليّا قبل أن نتّخذ قرارنا».

ومضى في طريقه ليُلملم شتاته. كانت تشعر باستغراقه في التّفكير. أمّا منطقه البارد، فكان يصيبها بالقشعريرة. واستسلمت كما لم تفعل من قبل لهيمنته.

«سندرس الأمر برويّة يا كريستين، خطوةً فخطوة. لا يمكننا أن نُغرق أنفسنا. لا يجب أن نتعلّق بالخيال أو الآمال الكاذبة. فكّري في الأمر! كنّا نوشك أن ننهي كلّ شيء اليوم... بحركة واحدة صغيرة، تنتهي الحياة. إنّها فكرة رائعة حقّا. مازلت أتذكّر الطّريقة التي اعتاد بها معلّم المدرسة الثّانويّة أن يعظني عندما يقول إنّ الجانب الوحيد الذي يتفوّق فيه الإنسان على الحيوان هو أنّه يستطيع أن يموت عندما يريد، وليس فقط عندما يتحتّم عليه ذلك. ربّما هي الحرّية الوحيدة التي يمكن للمرء أن يعتمد عليها؛ حرّيّة أن يتخلّص من الحياة. ولكنّنا مازلنا شابّين، لم يكتشفا بعد شكل الحياة التي يريدان التّخلّص منها. نريد فقط أن نتخلّص من حياة لم نردها، حياة رفضناها. وبالرّغم من ذلك، مازال بحوزتنا احتمال وجود حياة قد نُقبل عليها. الحياة مع المال أمر مختلف... على الأقلّ، هذا ما أعتقده... وأحسب أنّك توافقينني الرّأي. وإذا كنّا نعتقد شيئًا فـ... أتفهمينني؟ إذا كنّا نعتقد في شيء، فهو أنّ رفضنا للحياة ليس حقيقيّا تمامًا، وأنّنا كنّا سندمّر

شيئًا مّا ليس لدينا الحق في تدميره؛ إنّها تلك الحياة التي لم نعشها... فرصة اختبار شيء جديد، ربّما يكون عظيمًا. يمكن لحفنة الأموال هذه أن تدفع بشيء مّا إلى الازدهار، شيء ينمو بداخلي، لا يمكنه أن يظهر الآن... إنّه يذبل كسويقة نبتة... انتزعتُه من الجذر... يذبل لأنّني انتزعتُه فحسب... شيء بإمكانه أن يترعرع في داخلي... وماذا عنكِ؟ ربّما تنعمين بأطفال... ربّما، من يدري؟... والحقيقة الوحيدة أنّه ما من طريقة تكشف لنا حقيقة ما ينتظرنا... أنتِ تفهمينني. أعتقد أنّ نمط الحياة هذا ليس جديرا بأن يعاش... أقصد الزّحف المؤلم التّعيس من أسبوع إلى آخر، من يوم العطلة إلى ذلك الذي يليه، ولكن ربّما... ربّما من الممكن أن نحدث فرقًا في وجودنا. يتطلّب الأمر الشّجاعة فحسب... شجاعة تفوق تلك التي يتطلّبها الطّريق الأوّل. وإذا لم ينجح الأمر على أيّة حال، فلن يكون من الصّعب أن نجد مسدّسًا. فما رأيك إذن؟ إذا كان المال وفيرًا إلى حدّ مّا ويستدعي الاستيلاء عليه، فلم لا نقوم بذلك؟».

«نعم، لكن... إلى أين يمكننا أن نمضي بالمال؟».

«إلى الخارج. أجيد عدّة لغات أجنبيّة... إنّني أتكلّم الفرنسيّة... أتكلّمها جيّدًا، وأجيد الرّوسيّة تمامًا، وشيئا من الإنجليزيّة أيضًا. ويمكننا أن نتعلّم لغات أخرى».

«نعم، لكن... لكنّهم سيحقّقون في الأمر. ألا تعتقد أنّهم سيمسكون بنا في النّهاية؟».

«لا أعرف، لا يمكن لأحد أن يجزم. من الممكن، أو من المحتمل أن يحدث ذلك... وقد لا يحدث أيضا... أعتقد أنّ الأمر يعتمد

أكثر علينا... ما إذا كان في استطاعتنا تدبّر ذلك، وما إذا كنّا نتحلّى بما يكفي من الذّكاء والحذر، وما إذا كنّا نحسن التّخطيط... بالطّبع سوف يكون كّل ذلك عبئا ثقيلًا علينا... ربّما لا تكون الحياة عظيمة جدّا إذا كنّا مُطارَدين وفي حالة فرار دائمٍ... لا يمكنني التّحدّث بالنّيابة عنك. ولكن، هل لديكِ الشّجاعة لفعل ذلك؟ عليكِ أن تكوني حاسمة».

حاولت كريستين التّفكير. كان كلّ شيء مباغتًا. قالت: «ليست لديَّ الشّجاعة لفعل أيّ شيء بمفردي. فأنا امرأة. ولا يمكنني فعل أيّ شيء من أجلي أنا وحدي... يمكنني فقط أن أفعل شيئًا لشخص آخر أو من أجل قضيّة مّا، أو بمعيّة أحد... ولكن... من أجلك أنت تحديدا، يمكنني أن أقوم بأيّ شيء. لذا فإن كان هذا ما تريده...».

استأنف مشيه، قائلا: «لا أعلم ما إذا كان هذا هو ما أريده حقّا أم لا! تقولين إنّ الأمر أسهل بالنّسبة إليك عندما تكونين بصحبة شخص آخر. أمّا في نظري أنا، فقد يكون أسهل عندما أكون بمفردي، لأنّني لا أعرف مسبقا ما يمكن أن أقحم نفسي فيه. إنّها حياة مدمّرة مشوّهة... حسنًا، فلنتخلّص منها سريعًا إذن! لكنّني أشعر بالقلق من أن أجرّك معي في ما لا تريدينه. إذ لم تكن فكرتك في البداية، بل فكرتي أنا. ولا أودّ أن أورّطك في أيّ شيء. إذا كنتِ ستُقدمين على فعل هذا، فعليكِ أن تنجزيه من أجلك أنت فقط، وليس من أجلي».

أشرقت بعض الأضواء الخافتة من خلف الأشجار. كانا يوشكان

على الوصول إلى نهاية الطّريق الواصل بين الحقول. وسيصيران في المحطّة قريبا.

لم يغادر الذّهول كريستين: «ولكن... كيف ستفعل ذلك؟»، قالت في قلق، «لا أعرف... إلى أين سنذهب؟ أقرأ دومًا في الصّحف تلك الأخبار عن القبض... كيف تتصوّر الأمر؟».

«لم أبدأ حتّى في التّفكير فيه. إنّك تبالغين في تقديرك لي. تأتي الأفكار في رمشة عين. هذا صحيح. ولكنّ الحمقى هم من يقتفونها دون تمعّن، ولهذا يتمّ القبض عليهم دوما. هناك نوعان من الجرائم كما هو شائع: جرائم عاطفيّة، وأخرى تسبق بالتخطيط والدّرس. قد تبدو جرائم العاطفة أجمل. ولكنّ أغلبها يؤول إلى الفشل. أولئك الموظّفون الذين يسرقون الخزائن من أجل الذّهاب إلى السّباقات، يخمّنون أنّهم سينجحون في ذلك وأنّ رئيسهم في العمل لن يتفطّن إليهم. جميعهم يؤمنون بالمعجزات. لكنّني لا أؤمن بها. أعرف أنّنا وحيدان تمامًا في مواجهة مؤسّسة ضخمة، ثبتت أعمدتها عبر القرون. وهي تسيطر على خبرات وتجارب آلاف من المحقّقين الأكفّاء... وقد يكون المحقّق أحمق. قد أكون أذكى منه مئات المرّات وأكثر فطنة. لكنّهم محنّكون ويعضدهم النّظام. إذا قرّرنا القيام بذلك حقّا، ولاحظي أنّني ما زلتُ أفترض فقط، فلا يمكن أن نقوم به بطيش وتصابٍ. ما يُفعل بتهوّر ينتهي إلى السّوء. وعلينا أن نخطّط للأمر حتّى في أدقّ تفاصيله. علينا أن نفكّر في كلّ احتمال ممكن. إنّها مسألة احتمالات. فلنفكّر في الأمر بعناية ودقّة، تعالي إلى فيينا يوم الأحد، وسنقرّر حينها. دعينا لا نقرّر الآن».

توقّف ولان صوته فجأة. لقد كان ذلك الصّوت الآخر الطّفوليّ الذي بداخله، الصّوت الذي أحبّته.

«أليس الأمر مدهشًا؟ عدتِ بعد الظّهيرة إلى العمل. وذهبتُ أنا لأتمشّى. نظرتُ إلى العالم مجدّدًا، لقد كانت المرّة الأخيرة. هكذا كنت أفكّر. بدا العالم مشرقًا ورائعًا مليئًا بالدّفء والحياة، وها أنا ذا، ما زلتُ شابًا إلى حدّ مّا، مليئًا بالحركة والحيويّة. لقد فكَّرتُ في كلّ شيء. وسألت نفسي ما الذي حقّقته فعلًا في هذا العالم، وكانت الإجابة مؤسفة. يحزنني القول إنّني لم أحقّق شيئًا ولم أفكّر حتّى في نفسي على الإطلاق. اتّبعتُ في المدرسة ما أراده لي المعلّمون. وفكّرتُ في ما أرادوا أن يجعلوني أفكّر فيه. وفي الحرب أعطوني الأوامر، ومررتُ بكلّ التّدريبات العسكريّة. وعندما كنت أسيرًا كان لديَّ فقط حلم واحد جامح... يومًا مّا سأخرج من هذا المكان! ولكنّني أنهكتُ من الخنوع، وعندما عدتُ إلى الوطن ظللتُ أكدح من أجل الآخرين بلا تفكير أو هدف، فقط من أجل لقمة عيش وأجر زهيد حتى أستطيع الاستمرار في هذه الحياة. سأتمتّع يوم الأحد بفرصتي الأولى حتّى أفكّر لوهلة في شيءٍ مّا يعنيني وحدي، أنا وأنتِ، وأنا أتطلّع حقًا لذلك. أتعرفين، أريد أن نشيّد الأمر مثل جسر، كلّ مسمار ولولب يجب أن يكون في مكانه، وأيّ خلل حتّى ولو بمقدار ملّيمتر واحد سيدفع البناء إلى التّداعي يجعل البناء يتداعى. أودّ أن أشيّد هذا البناء كي يستمرّ لأعوام. إنّها مسؤوليّة عظيمة، أعرف ذلك. لكنّها مسؤوليّتي أنا للمرّة الأولى، وكذلك هي مسؤوليتك، وهي ليست بسيطة بائسة مثل كتلك التي يكلّفوننا بها في الجيش أو

في الشركات عندما نكون مجرّد نكرة نجيب على أشخاص لا نعرفهم حتّى.

هذا ما سيتحتّم علينا النظر فيه، سواء أقمنا بتنفيذ الخطّة أم لا، ذلك أنّ مجرّد التّفكير في الأمر، والتّمعّن فيه، واتّخاذ قرار بشأنه، وتقدير العواقب والبدائل... سيبعث فينا سرورا لا مثيل له. من الجيّد أنني جئتُ اليوم».

توقّفا قرب المحطة، يمكن تبيّن أضوائها بوضوح.

«من الأفضل ألّا تأتي معي، فمنذ نصف ساعة، لم أكن أبالي ما إذا رآنا شخص مّا. الآن فلا يمكنني أن أدع أحدًا يراني معكِ (يضحك) هذا جزء من خطتنا العظيمة. لا يجب أن يشكّ أحد بوجود من يشاركك في الجريمة. وإذا استطاع أن يُدلي بأوصافي فلن يكون ذلك في صالحنا. كريستين... علينا أن نبدأ التّفكير في كلّ شيء الآن. قلت لكِ إنّ الأمر لن يكون سهلًا، على الإطلاق وإنّ الطّريقة الأخرى أسهل بكثير. ولكنّني في المقابل لم أعرف... نحن لم نعرف أبدا كيف تكون الحياة حقّا. لم أر المحيط أبدًا، ولم أسافر إلى الخارج، ولم أعرف ما الحياة أصلًا... كنتُ أفكّر طيلة الوقت في كلفة هذه الأشياء... أي إنّنا لم نشعر بحرّيتنا أبدا. قد لا نعرف قيمة الحياة قبل أن نحقّق ذاتنا. استعدي واهدئي، لا تقلقي، سأفكر في كل شيء حتّى أصغر التفاصيل، وربما أدوّن ذلك على الورق أيضًا. سنراجع الأمر سويًا نقطة نقطة ونزن الاحتمالات. وبعد ذلك نتخذ قرارنا، موافقة؟».

«نعم»، قالت بصوت واضح.

كان الانتظار حتى يوم الأحد أمرًا يفوق احتمال كريستين. شعرت للمرّة الأولى بالخوف من نفسها، ومن النّاس، والأشياء. صار يرعبها أن تفتح الخزينة في الصّباح وتتعامل مع النّقود. أهي لها؟ أم للحكومة؟ أمازالت جميعها في مكانها؟ أحصت الأوراق الزّرقاء مرارا وتكرارا، ولم تصل أبدًا إلى نهايتها. كانت يدها ترتعشُ في كلّ مرّة فترتبك وتتشوّش الأرقام في ذهنها. لقد تلاشت ثقتها تماما. وأصبحت مرتبكة، مضطربة، خيّل إليها أن الجميع مطّلعون على نواياها، من علامات الخوف المرتسمة على وجهها، يراقبونها ويتجسّسون عليها. تعقّلت الأمر في نفسها وقالت: «هذا جنون، مازلتُ لم أفعل شيئا. لم نفعل شيئا بعدُ. كلّ شيء مرتّب في مكانه وكلّ ورقة ماليّة محفوظة في الخزينة. فلم الخوف؟». لكن هذا لم يجد نفعًا؛ لم تستطع تحمّل عيون الآخرين المصوّبة نحوها، وعندما رنّ جرس الهاتف شعرت بالفزع واحتاجت إلى أن تستجمع كلّ قواها حتّى ترفع السّماعة. كادت أن يُغمى عليها عندما جاء إليها رجل شرطة على نحو مفاجئ في صباح الجمعة، يسير بخطوات ثقيلة ويصلصل سلاحه. أمسكتْ بالطاولة بكلتا يديها كأنّها تتشبّث بحياتها الثّمينة، لكنّ رجل الشّرطة بسيجارة الفرجينيا في فمه، لم يكن يريد شيئا سوى إرسال بعض المال إلى عشيقته ووالدة طفله. «إنّه أجرها الشّهريّ»، قال ممازحا وملمّحا إلى منحة المتعة تلك. لكنها لم تستطع أن تضحك وارتجفت يدها وهي تملأ الاستمارة. وعندما أغلق الباب من خلفه، تنفّست الصّعداء وسحبت الدّرج لتتأكّد من أنّ المال ما يزال في مكانه: 32712 شيلنغ و40 غروشين

بالضبط كما هو مدوّن في الدفتر. وفي المساء لم تستطع النوم بسهولة، حين نجحت في ذلك داهمتها أحلام مريعة، فالمخيلة تنشئ دوما ما هو أكثر رعبا من الواقع، وما سيحدث يخيف المرء أكثر مما حدث فعلًا.

كان فرديناند ينتظر في المحطة صباح يوم الأحد. نظر إليها عن كثب وقال: «يا للكِ من مسكينة! تبدو حالتك سيّئة جدّا وأعصابك محطّمة تماما. استولى عليكِ القلق... أليس كذلك؟ هذا ما كنتُ أخشاه. ربما كان من الخطأ أن أخبرك بكل هذا مسبقًا، لكن كلّ شيء سينتهي سريعًا. سنتّخذ اليوم قرارنا وينتهي الأمر».

نظرت إليه مليّا. كانت عيناه تبرقان نشاطا وملامحه مفعمة بالحرّيّة. ولاحظ ذلك. فقال لها:

«نعم، أظنّني بخير. لقد مرّت أعوام طويلة منذ أن شعرت بأنّني على ما يرام، فأنا أختبر الآن على الأقلّ سعادةَ أنْ أفكّر في شيء من أجل نفسي، من أجلي وحدي، بدلًا من التّفكير في تفاصيل مشروع لا أبالي به على الإطلاق؛ بل في شيءٍ مّا أشيّده من البداية حتّى النهاية، لصالحي أنا لا من أجل أيّ شخص آخر. إنها قلعة مشيّدة في الهواء. وقد تتهاوى في غضون ساعة واحدة. هذا كلّ ما أعرفه. وربّما بإمكانك تدميرها بكلمة واحدة... ربّما سنهدمها سويّا.

لكن حتّى إذا دمّرناها، فقد كانت نتاج عملي الخاصّ. وكان من المِتع القيام بذلك. قضّيتُ وقتًا عصيبًا في التّفكير في كلّ تفصيل، وتجهيز حملة ضدّ كلّ جيش، وكلّ حكومة وشرطة وصحيفة، واختبار الأمر نظريّا ضدّ أيّ قوّة أرضيّة. وأنا جاهز الآن لخوض حرب

حقيقيّة. سنخسر في أسوأ الأحوال... نعم، ولكن متى انتصرنا قبل ذلك؟ حسنًا، سنرى قريبًا!».

تركا المحطة. غلّفَ الضّباب البنايات بلون رماديّ فاتر. وكان الحمّالون والمنتظرون واقفين بوجوه خاوية في تلك البرودة الكئيبة التي تحوّل كلّ كلمة إلى نفخة من بخار، حيث ينفد كلّ دفء العالم. تناول ذراعها كي يقودها عبر زحام الشارع، فجفلت بعصبية.

«ماذا بكِ؟ ما الأمر؟».

«لا شيء. أنا خائفة جدًا. أشعر أنّني مراقبة كلّما تحدّث معي أيّ شخص. ويشبّه إليّ أنّ الجميع يعرفون ما أفكّر فيه. أعلم أن ذلك سخيف، لكني أشعر أن كل شيء مكتوب على جبهتي، وأصاب بالفزع من أن يكتشف سكّان القرية الأمر برمّته. عندما سألني مساعد حارس الغابة في القطار: «إذن لماذا أنتِ ذاهبة إلى فيينا؟» احمرّ وجهي تماما حتّى إنّه شرع في الضّحك فسعدت لذلك، من الجيّد أنه اعتقد شيئًا آخر. أخبرني يا فرديناند (واقتربت منه) لن يكون الأمر دوما على هذه الشّاكلة، أليس كذلك؟ أقصد إذا... إذا حسمنا قرارنا. فأنا أعرف أنّني لست قوية بما يكفي... لا أحتمل الحياة في قلب الخوف بهذا الشّكل، مرعوبة من الجميع، غير قادرة على النّوم، متوجّسة من سماع الطّرق على الباب. لن يسير الأمر بهذه الطّريقة، أليس كذلك؟».

«لا، لا أظنّ ذلك. يحدثُ هذا هنا، حيث تواصلين حياتك القديمة. ولكن ما أن تضعي ثيابًا جديدة ويصبح لك اسم مختلف في عالم آخر، ستنسين شخصيّتك القديمة. لقد أخبرتني بنفسك كم

كنتِ مختلفة تمامًا ذات يوم. يكمن الخطر في أن تُقدمي على هذا بضمير مكدّر. إذا كنتِ تشعرين بأنّه من الخطأ أن تسرقي ذلك البارون اللّصّ أو الدّولة، فهذا أمر سيّء حقّا، وسأعتبر ذلك انسحابًا منكِ. أمّا بالنّسبة إليّ، فإنّني أعتقد بحقّي الكامل في فعل ذلك. أعرف جيّدا أنّهم قد نكّلوا بي، وأنّي أخاطر بجلدي هذه المرّة لحسابي الخاصّ، لا في حرب تندلعُ من فكرة ميّتة، ولا من أجل منزل آل هابسربرغ، ولا من أجل أوروبا الوسطى أو أيّ فكرة سياسيّة مجرّدة لا شأن لي بها. ولكن، كما قلتُ لك من قبل، لم يُحسم قرارنا بعد. وحتّى الآن، مازلنا نلعب بالأفكار فحسب. ومن المفترض أن يكون اللّعب أمرا ممتعا. فارفعي رأسك إذن! أعرف أنّ بإمكانك أن تكوني شجاعة».

أخذت نفسًا عميقًا: «أعتقد أنّني أستطيع تحمّل مقدار معيّن... أنت محقّ... كما أنّني أعرف جيّدا أنّنا لن نخسر شيئًا في النّهاية. لقد تحمّلت الكثير. وهذا هو القسم العسير من الحكاية... إنّه الشّكّ والتّردّد. وما أن أحسم أمري معه حتّى يمكنك الاعتماد عليَّ». وأكملا طريقهما. سألته: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

فابتسم لها: «أمر غريب! كان الأمر برمّته سهلا جدّا. كم ممتع أن يفكّر المرء في جميع البدائل الممكنة في ما يتعلّق بالهروب والاختفاء وتأمين نفسه. أعتقد حقّا أنّني فكّرت في كلّ تفصيل بعناية شديدة. ويمكنني أن أقول بكلّ ثقة إنّ الخطّة سليمة. وستنجح. وجدت حلّا لِكلّ مشكلة. كان التّخطيط لتدبّر أمرنا بعد الحصول على المال مجرّد لعب أطفال بالنّسبة إليّ. ومع ذلك، فقد ظلّ أمر واحد عجزت عن القيام به، وهو أن أجد مكانًا، أربعة جدران، غرفة مّا حيث يمكننا

أن نناقش المسألة في أمان. ومرّةً أخرى، اتّضح لي أنّه من الأسهل أن يحيا المرء عشر سنوات وهو يملك المال من أن يعيش يومًا واحدًا من دونه. حقًا يا كريستين... (وابتسم لها بنوع من الفخر) إنّ العثور على غرفة تكتم سرّنا أشدّ صعوبة من كلّ ما خطّطنا له. لقد فكّرت في كلّ الخيارات الممكنة. إنّ الجوّ بارد جدًا. ولا يسمح لنا بالتّسكّع طيلة الوقت في الشّوارع أو الذّهاب إلى فندق قد يسمعنا فيه أحد. كما أنّني أعرف أنّكِ ستكونين حينئذ قلقة ومنزعجة. والحال أنّنا في حاجة إلى التّركيز. وإذا ذهبنا إلى إحدى الحانات، قد يراقبنا العملة هناك، خاصّة إذا كانت فارغة. أمّا في الخارج، فإنّنا نجذب الانتباه بجلوسنا في البرد. نعم كريستين... ليس بإمكان أحد أن يتخيّل صعوبة البقاء وحيدا ومفلسا في مدينة تحتوي على ملايين البشر. لقد ابتدعتُ أغرب الأفكار، حتّى إنّني فكّرت كذلك في تسلّق برج كنيسة القدّيس ستيفان. لا أحد يصعد هناك في هذا الضّباب. ولكنّها فكرة سخيفة جدًا في الحقيقة... لجأت أخيرًا إلى الحارس في موقع عملي القديم الذي تمّ إغلاقه. إنّ لديه كوخا خشبيًا هناك فيه موقد من الحديد المسبوك ومنضدة. وأعتقد أنّ هناك مقعدا وحيدا كذلك. إنّني أعرف الرّجل جيّدًا. وقد ساعدته من قبل في التّعامل مع سيّدة بولنديّة ثريّة تعرّفت عليها زمن الحرب، وهي تعيش بصحبة زوجها في فندق ساشير... سيّدة أشدّ أناقة من أن تقبل بالظّهور معي في الشّارع. وبإمكانك إذن أن تتخيّلي دهشة ذلك الأبله، الذي اعتبر العمل لديها شرفًا عظيمًا دون شكّ. عرفنا بعضنا البعض لوقت طويل، وقد أنقذته مرّتين من الطّرد. من عادته أن يترك المفتاح

أسفل الألواح الخشبيّة عند العتبة ومعه التّصريح أيضا. لذا سنكون بأمان حتّى إذا حدث أمر غير متوقّع. لقد وعدني أن يُشعل الموقد في الصّباح. سنكون بمفردنا هناك. صحيح أنّ المكان غير مريح. ولكن، بما أنّنا نوشك أن ندرك حياة أجمل، فعلينا أن نتحمّل الزّحف داخل وكر الكلاب ذاك بضعة ساعات فحسب. لن يسمعنا أو يرانا أحد. ونستطيع أن نتّخذ قراراتنا هناك بسلام».

كان موقع البناء مهجورا وبعيدا عن وسط المدينة في فلوريد-سدورف. تشبه البناية البائسة هيكلا تطلّ منه مئات النّوافذ الفارغة مثل عيون عمياء. هناك براميل من القطران وعربات يدويّة وأكوام من أكياس الإسمنت، والآجرّ المتناثر على الأرضيّة الطّينيّة، كأنّ كارثة طبيعيّة قد أوقفت فورة البناء. يعتبر السّكون المطبق أمرًا غير مألوف في مكان كهذا. وُضع المفتاح أسفل الألواح الخشبيّة. لكنّ الضّباب الرّطب كان يعيق الأعين المتفحّصة. أخيرا، فتح فردينان باب الكوخ الخشبيّ الصّغير؛ فوجد الموقد مشتعلًا فعلًا والمكان دافئًا ومريحًا، مفعما برائحة الخشب الزّكيّة. أغلقَ الباب خلفهما. وألقى بعض القطع الخشبيّة في الموقد. ثمّ قال: «إذا قدم شخص مّا فجأة، سألقي الأوراق في الموقد على الفور. لن يحدث أيّ سوء. فلا تقلقي... وعلى أيّة حال، لن يأتي أحد، إنّنا بمفردنا تمامًا».

وقفت كريستين في الغرفة، وهي تشعر بغربتها عن المكان. وبدا كلِّ شيء لها غير حقيقيّ، ما عدا فرديناn الذي أخرج من جيبه قطعا من الورق الكبير. ثمّ فتحها، قائلا: «اجلسي رجاءً يا كريستين! وانتبهي لما سأقوله! هذه هي الخطّة. وقد أعددتها بدقّة شديدة. ودوّنتها ثلاث

مرّات، أربعا، بل خمس مرّات. وأعتقد أنّها أصبحت واضحة جدّا. أريدك أن تقرئي كلّ نقطة فيها بعناية شديدة. وإذا رأيت أيّ خطإ فيها، فسأدوّن اعتراضك وأسئلتك على اليمين. ثمّ نناقشها معا عندما تنتهين. إنّ الأمر خطير جدّا. والارتجال ممنوع كلّيّا. ولكن قبل كلّ شيء، هناك أمر آخر ليس مدوّنا في هذه الأوراق. وهو يخصّنا كلينا. وعلينا أن نناقشه أوّلًا. حسنًا، سنقوم بهذا الأمر سويّا، أنا وأنتِ. يعني ذلك أنّنا سنكون مذنبين بنفس القدر. لكنّني أخشى أنّ القانون يعتبرك أنت المجرمة الحقيقية في كلّ هذا، بما أنّك الموظّفة الرّسميّة بمكتب البريد. سيبحثون عنكِ. ويطاردونك. وستصبحين مجرمة كذلك في نظر أسرتك، بل في نظر الجميع. وقد لا يعرف أحد شيئًا عن مشاركتي في الجريمة والتّخطيط لها. ولهذا تملكين دورا أكبر في العمليّة. لديكِ وظيفة تعيلك ومعاش يسمح لك بشقّ طريقك حتّى النّهاية، بينما لا أملك أنا شيئا. وأجازف إذن بشكل أقلّ منك أمام القانون وأمام الـ.... فلأقل أمام الرّبّ. ولذلك فإنّ دور كلّ واحد منّا ليس مساويا للآخر. ستتحمّلين العبء الأكبر في النّهاية. ومن واجبي أن أحذّرك من ذلك مسبقًا». ورآها تُخفض رأسها وتنظر إلى الأسفل.

«كان عليَّ أن أكون صارما في حديث كهذا، وسأظلّ كذلك، أعلن لك كلّ المخاطر الممكنة. ما ستفعلينه منذ اللّحظة الأولى، بل ما سنفعله معا لا يمكن التّراجع عنه أبدًا. ليس هناك طريق عودة. حتّى لو ربحنا الملايين بهذا المبلغ وأعدناه مضاعفا خمس مرّات، فلن تتمكّني من الرّجوع إلى هنا أبدًا، ولن يغفر لك أحد. سوف ينبذنا إلى الأبد كلّ المواطنين المستقيمين الشّرفاء الجديرين بالثّقة. وسوف

نكون طوال حياتنا في خطر دائم. عليكِ أن تعي ذلك جيّدًا. وبغضّ النّظر عن الحذر العظيم الذي نتحلّى به، يمكن لمصادفة تافهة أو شيء آخر غير متوقّع تماما أن ينتزعنا من حياتنا الجديدة المريحة، ويلقي بنا في السّجن والعار كما يقولون. لا مكان للطّمأنينة في مغامرة كهذه. لن نكون آمنيْن حتّى وإن عبرنا الحدود. لسنا في أمان اليوم. ولن نكون كذلك غدًا وإلى الأبد. عليكِ أن تنظري إلى الأمر مثلما ينظر المبارز إلى مسدّس خصمه. قد تغفله الطّلقة. وقد تصيبه أيضا. لكنّه في كلتا الحالتين مضطرّ إلى تثبيت بصره في فوهة السّلاح». توقّفَ ثانيةً. وحاول أن ينظر مباشرة في عينيها. كانت تحدّق في الأرض، ويدها ثابتة على الطّاولة.

«إذن، ومرّةً أخرى، لا أريدك أن تتعلّقي بأيّ آمال كاذبة. ليس هناك أيّ ضمانات لأيّ منّا. وإذا شرعنا في الأمر سويّا، فهذا لا يعني أنّنا سنرتبط إلى الأبد. إنّنا نعدّ هذه الخطّة كي نصبح أحرارا ونعيش في كنف الحرّيّة. وقد نرغب في أن نتحرّر من بعضنا البعض يومًا مّا. وقد يحدث هذا قريبًا. لا أستطيع أن أضمن نفسي، لأنّني لا أعرف من أكون أصلا. ولن أعرف ما سأكونه عندما أتذوّق طعم الحرّيّة. قد يكون الاضطراب الذي يعتمل في داخلي مجرّد شيء يريد أن ينفلت إلى الخارج. ولكن، من المحتمل أيضا أن يظلّ كامنًا في مكانه. ولعلّه ينمو ويتطوّر أكثر من قبل. مازلنا لا نعرف بعضنا البعض بشكل جيّد. فقد التقينا منذ زِمن وجيز. وسيكون من الجنون أن نقول إنّنا نستطيع أن نحيا معا إلى الأبد، أو إنّنا نرغب في ذلك حقّا. كلّ ما يمكنني أن أعدك به هو أن أكون صديقًا وفيّا لكِ، بمعنى أنّني لن أخونك أبدًا ولن أجبرك على

فعل شيء لا تريدينه. فإذا أردتِ أن تفارقيني لن أمنعك من ذلك. وفي المقابل، لن أعدك بأنّني سأبقى معكِ دوما. لا يمكنني أن أعد بشيء. ولا أستطيع أن أضمن لك نجاح الخطّة، أو أنّكِ سترجعين سعيدة دون هواجس في ما بعد، أو حتّى أنّنا سنظلّ إلى النّهاية. ما من وعود إذن. ولهذا السّبب، لا أورّطك في شيء، بل على العكس من ذلك، إنّني أحذّرك، لأنّ موقفك أسوأ من موقفي. وستكونين أنت المجرمة، بالإضافة إلى أنّك امرأة ووضعك أكثر هشاشة. إنّك تقدمين على مجازفة خطيرة. ولا أريدك أن تنظري إلى الأمر بشكل مختلف. لا أحاول إقناعك بشيء. ولذا اقرئي الخطّة رجاءً. ثمّ فكّري فيها مليّا. واتّخذي قرارك. ولكن، كما أخبرتك، عليكِ أن تدركي أنّ قرارك لا رجعة فيه».

وضع الأوراق على الطّاولة. وقال: «رجاء، اقرئيها بانتباه شديد وتفحّص دقيق. افترضي أنّها صفقة سيّئة ولا ثقة لك في العقد. سأتمشّى قليلًا أثناء ذلك. وأتفحّص البناية. سأتركك بمفردك حتّى لا تشعري بأيّ توتّر». نهض من مكانه. وخرج دون أن ينظر إليها. فأخذت تتأمّل الأوراق الكبيرة المطويّة أمامها والمكتوبة بخطّ أنيق. وانتظرت عدّة دقائق حتّى تهدأ دقّات قلبها.

كانت المخطوطة المجعّدة مكتوبة بإتقان شديد، كأنّها وثيقة عتيقة، والعناوين الرّئيسيّة مكتوبة بالأحمر:

1 - الجريمة في حدّ ذاتها.

2 - تجنّب الاعتقال.

3 - خطط الحياة في الخارج... إلخ.

4 - خطط للاتّباع عند الفشل أو اكتشاف الأمر.

5 - الملخّص.

قُسّم الفصل الأول، «الجريمة في حدّ ذاتها» بدوره إلى عدّة أقسام فرعيّة: (أ)، (ب)، (ج)... إلخ. وجميعها مكتوبة ومرتّبة بشكل واضح، كأنّها بنود عقد رسميّ. رفعت كريستين الوثيقة. وقرأتها من أوّلها إلى آخرها.

1 - الجريمة في حدّ ذاتها

(أ) اختيار الموعد: من الواضح أنّ الأمر يجب أن يتمّ إمّا في يوم سبت وإمّا في يوم سابق لعطلة رسميّة. سيؤخّر ذلك اكتشاف الجريمة أربعا وعشرين ساعة، على الأقلّ. كما سيوفّر لنا الوقت الضّروريّ للهروب. يغلق مكتب البريد في السّادسة، ممّا يسمح لنا بأن نصل إلى سويسرا أو فرنسا في قطار اللّيل السّريع. ويمكن للغسق المبكّر في شهر نوفمبر أن يخدمنا في عمليّة الهروب. فهو أسوأ الشّهور في ما يتعلّق بالسّفر. ويُرجّح إلى حدّ كبير أن نكون في مقصورة القطار بمفردنا، أثناء عبورنا النّمسا في اللّيل. ولذلك سيكون هناك عدد قليل من الشّهود الذين بإمكانهم توفير أوصافنا الدّقيقة للشّرطة، ما أن تنشر الصّحف الخبر. العاشر من نوفمبر، اليوم الذي يسبق عيد الاستقلال -أي العطلة الرّسميّة- سيكون يومًا مناسبًا جدّا، كي نكون خارج البلاد في يوم من أيّام العمل. حينئذ، نقتني كلّ ما نحتاج إليه. ونغيّر مظهرنا بعيدًا عن تطفّل الآخرين. وطبقًا لذلك، يجدر بك أن تؤخّري تسليم كلّ الواردات حتّى ذلك التّاريخ دون لفت الانتباه، بهدف زيادة كمّيّة المال إلى أقصى قدر ممكن.

(ب) الرّحيل: طبعا، يجب على كلّ منّا أن يرحل بمفرده ويشتري تذكرة المسافات الوجيزة باتّجاه لينز، ومن لينز إلى إنسبروك[1] أو إلى الحدود، ومن الحدود إلى زيورخ. حاولي أن تشتري تذكرتك إلى لينز قبل الموعد بعدّة أيام. قد يكون من الأفضل أن أشتريها لك. وبهذا الشّكل، لن يستطيع موظّف التّذاكر الذي يعرفك قطعًا أن يزوّد الشّرطة بأيّة معلومات عن وجهتك. يمكنك أن تقرئي القسم الثّاني لتعرفي الإجراءات الأخرى المتعلّقة بالتّضليل وإخفاء الأثر. سأستقلّ القطار من فيينا، وأنتِ من سانت بولتن. ولن نكلّم بعضنا البعض طيلة اللّيل، ما دمنا داخل الحدود النّمساويّة. من المهمّ ألاّ يعرف أو يشكّ أحد أنّ شخصا آخر قد اشترك في الجريمة. وهكذا ستظلّ التّحقيقات اللاّحقة مركّزة على اسمك وأوصافك، لا على الزّوج الذي سيتّضح لهم أنّه نحن، عندما نصير خارج البلاد. وحتّى نعبر إلى حدود أيّ دولة أخرى بسلام، فإنّ علينا أن نتجنّب إظهار أيّ نوع من العلاقة بيننا أمام المراقبين والموظّفين، باستثناء موظّف الجمارك الذي سنُقدّم له جواز سفر مشترك.

(ج) الوثائق: سيكون من الأفضل قطعًا أن نحصل على جوازات سفر مزيّفة، بالإضافة إلى جوازاتنا السّليمة. ولكنّ الوقت لا يكفي من أجل ذلك. وعندما نعبر الحدود إذن، سنتدبّر هذا الأمر. ولكن يجب قطعًا ألاّ يظهر اسم «هوفلينر» في أيّ نقطة من نقاط التّفتيش. أمّا بالنّسبة إليّ، فيمكنني أن أتقدّم باسمي الحقيقيّ الذي سيظلّ خلوا من أيّ شبهة. لذلك سأجري تغييرًا طفيفًا على جواز سفري: أضيف

(1) إنسبروك Innsbruck: إحدى مدن مقاطعة تيرول بالنمسا.

اسمك وصورتك. أستطيع أن أصنع الختم المطاطيّ بنفسي. فقد درست النّقش على الخشب في ما مضى. يمكنني أيضًا أن أحوّل حرف الفاء في لقبي العائليّ إلى حرف الكاف بإضافة خطّ صغير ليصبح «كارنر». أنا متيقّن من قدرتي على فعل ذلك، ممّا سيجعل جواز السّفر مختلفا تمامًا وصالحا للاستعمال في حالة مفترضة، رغم استبعادي لإمكان حدوثها (انظري في القسم الثّاني). سيكون جواز السّفر صالحًا إذن لكلينا باعتبارنا زوجين. وسيفي بالغرض كذلك حتّى نحصل على جوازات مزيّفة من إحدى المدن الساحليّة. إذا كان المال الذي بحوزتنا يكفي لعامين أو ثلاثة، فلن نواجه أيّ صعوبة.

(د) نقل المال: حبّذا أن تتوخّي الحذر في الأيّام الأخيرة -إذا كان ذلك ممكنا- بجمع الآلاف وعشرات الآلاف في أوراق نقديّة ذات أعلى قيمة ممكنة، حتّى لا يزداد وزن المبلغ أثناء الهروب. وأثناء الرّحلة، سوف توزّعين الأوراق الماليّة سواء أكانت من فئة الخمسين أم المائتين حسب فئاتها، داخل حقيبة سفرك وحقيبة يدك وحتّى داخل قبّعتك إذا لزم الأمر. سيكون هذا كافيًا بالطّبع لتخطّي الفحص الحدوديّ البسيط. من جهتي، سأستبدل بعض النّقود بعملات أجنبيّة، في محطّات قطار زيورخ وبازل. وعندما نصل إلى فرنسا، يكون معنا ما يكفينا للقيام بأهمّ المقتنيات دون أن نضطرّ إلى تحويل كمّيّة مريبة من العملة النّمساويّة في مكان واحد.

(هـ) جهة الوصول الأولى: أقترح باريس. يمكن إدراك هذه المدينة بسهولة بواسطة القطار المباشر، دون تغيير المحطّات. سوف نصل إلى هناك قبل أن يكتشفوا السّرقة بستّ عشرة ساعة، وربّما قبل

أن يصدروا أيّ مذكّرة اعتقال بأربع وعشرين ساعة. وسيكون لدينا كلّ الوقت الكافي لإنهاء التّرتيبات المتعلّقة بتغيير المظهر الخارجيّ (هذا الأمر يخصّك أنت فحسب). يمكنني أن أتحدّث الفرنسيّة بطلاقة. لذا سيكون بإمكاننا تجنّب الفنادق السّياحيّة التّقليديّة والذّهاب إلى إحدى فنادق الضّواحي، كي نتوارى عن الأنظار. هناك ميزة أخرى تخصّ باريس، وهي أنّها تكون مزدحمة جدّا في أيّام العطل. وهذا ما يجعل من محاولة تتبّع أيّ شخص مستحيلة عمليًّا. وقد علمتُ من بعض الأصدقاء أنّ تسجيل تغيير الإقامة يعدّ أمرًا مألوفًا تمامًا في فرنسا، خلافا لألمانيا، حيث سادة الأراضي -بل الشّعب بأكمله- فضوليّون بطبيعتهم ومتطلّبون للتّفاصيل. بالإضافة إلى ذلك، من المحتمل أن تقدّم الصّحف الألمانية وصفًا مفصّلا لسرقة بمكتب بريد نمساويّ أكثر ممّا ستفعل الصّحف الفرنسيّة. وعندما تنشر هذه المعلومات الأوّليّة، نكون على الأرجح قد غادرنا باريس. (انظري القسم الثّالث).

2 - تجنّب الاعتقال

من الضّروري أن نعقّد على السّلطات تحقيقاتها. ويجب أن نجعلها تتوه بعيدًا، إذا أمكن ذلك. أيّ مسلك مزيّف سوف يؤخّر من تقدّم التّحقيق. وبعد بضعة أيّام، ينسى النّاس في النّمسا وخارجها طبعا كافّة الأوصاف الشّخصيّة لمرتكب الجريمة. لهذا السّبب، يجب أن نتخيّل منذ البداية جميع الإجراءات التي سوف تقوم بها السّلطات، ونتّخذ احتياطاتنا بواسطة إجراءات مضادّة. سوف تواصل السّلطات تحقيقاتها عبر قنوات ثلاث رئيسيّة: (1) التّفتيش الدّقيق للبنايات، (2) استجواب كلّ المعارف، (3) البحث عن متورّطين آخرين في الجريمة. ولذلك، لن

يكفينا التّخلّص من كافّة الوثائق الموجودة في المكان؛ بل على العكس من ذلك، علينا أن نتّخذ الإجراءات اللاّزمة لإرباك المحقّقين ووضعهم على المسار الخاطئ. ويتضمّن هذا الأمر ما يلي:

(أ) التّأشيرة: عندما تُرتكب أيّ جريمة، تستعلم الشّرطة من القنصليّات كي تعرف ما إذا كان الشّخص المعنيّ بالاتّهام (هاء) قد طلب تأشيرة خلال الآونة الأخيرة. وبما أنّني أملك تأشيرة فرنسيّة على جواز سفري أنا، لا على جواز سفر الشّخص المعنيّ (انظري القسم الخامس) فلن أثير انتباههم، لفترة أوّليّة على الأقلّ. ويكفي ألّا يتمّ طلب تأشيرة للشّخص المعنيّ بالاتّهام. ومع ذلك، بما أنّنا نودّ أن نوجّه أشرعتهم باتّجاه الشّرق، فسوف أحصل لكِ على تأشيرة إلى رومانيا، ممّا سيركّز تحقيقات الشّرطة في هذا البلد أوّلا، ومن ثَمّ في دول البلقان.

(ب) لكي ندعّم هذه الفرضيّة، يُستحسن أن ترسلي برقيّة قبل عيد الاستقلال بيوم واحد إلى برانكو ريزيتش، محطّة بوخارست، عبر دائرة التّوصيل العامّ[1]. وتقول البرقيّة هذه الكلمات: «سأصل غدا بعد الظّهر، ومعي كافّة أمتعتي. نلتقي في المحطّة». فمن المفترض أن تراجع السّلطات كلّ المراسلات الأخيرة والمكالمات الهاتفيّة من مكتب البريد الذي تعملين به. وحينئذ، تعثر على هذا الاتّصال المثير للشّكوك، والذي يمنحها الاعتقاد باكتشاف شريكك في الجريمة أوّلا ووجهة سفرك ثانيا.

(ج) ولنثبّت هذه الخدعة -وهو أمر هامّ بالنّسبة إلينا- سوف

(1) دائرة في البريد تحتفظ بالرّسائل إلى أن يطلبها أصحابها.

أكتب لكِ رسالة طويلة بخطّ زائف. وعليك أن تمزّقيها بعناية إلى قطع صغيرة وتُلقي بها في سلّة المهملات. يبحث المحقّقون دون شكّ في سلال القمامة. وسوف يعيدون تجميع المِزَق، ليجدوا تأييدًا واضحا لذلك المسار الخاطئ في التّحقيق.

(د) سوف تستعلمين بحذر، قبل رحيلك بيوم واحد، عن القطارات المتوجّهة مباشرة إلى بوخارست وعن أسعارها. يمكننا أن نضمن تمامًا أن موظّف السّكك الحديديّة سيقدّم نفسه باعتباره شاهدا، ممّا سيزيد من ارتباك المحقّقين.

(هـ) نحتاج إلى مسألة صغيرة جدّا وبسيطة، كي نقطع أيّ صلة تربطك بي، رغم أنّك تسافرين وتسجّلين أوراقك بوصفك زوجتي. حسب معرفتي، ما من أحد قد رآنا معا من قبل. ولا أحد مطلقًا باستثناء زوج شقيقتك يعرف أنّنا نعرف بعضنا البعض. وحتّى نضلّله، سأذهب إلى منزله اللّيلة. وأودّعه. سأقول له إنّني وجدت أخيرًا وظيفة مناسبة في ألمانيا وإنّني مسافر إلى هناك. سأسدّد كذلك ديوني لصاحبة البيت. وأريها برقيّة تؤكّد ما أدّعيه. وطالما أنّني أختفي قبل الحادثة بثمانية أيّام، فستُستبعدُ أيّ صلة ممكنة بيننا.

3 - خطط الحياة في الخارج... إلخ

لا نستطيع تقييم الموقف بدقّة حتّى نصل إلى هذه النّقطة؛ وهذه بعض النّقاط العامّة على الأقلّ:

(أ) المظهر الخارجيّ: بالنّسبة إلى الملابس وطريقة التّصرّف والسّلوك، علينا أن نظهر بهيئة أناس ميسوري الحال من الطّبقة

الوسطى، لأنّهم يثيرون أقلّ انتباه ممكن. يجب ألاّ يكون مظهرك أنيقًا بشكل مفرط ولا متواضعًا كذلك. وسوف أدّعي أنّني أنتمي إلى طبقة نادرًا ما ترتبط بمثل هذه الممارسات أو بالمال. سوف أدّعي أنّني رسّام. أشتري من باريس محمل رسم صغيرًا ومقعدًا يُطوى ولفائف للرّسم ولوحة ألوان. وهكذا تكون مهنتي منذ النّظرة الأولى، أينما ذهبتُ، دون الحاجة إلى طرح سؤال واحد. كما أنّه في جميع المناطق الرّومانسية بفرنسا، يوجد آلاف الرّسّامين على مدار السّنة. لن يجذب ذلك الانتباه إذن. بل سوف يثير منذ الوهلة الأولى شيئا من التّعاطف الشّبيه بما يشعر به المرء إزاء غريبي الأطوار اللّطفاء.

(ب) علينا أن نرتدي ثيابًا تتوافق مع ما سبق ذكره، أي قماشا مخمليّا ناعما أو كتّانا يشير ببساطة إلى وظيفتي ويجنّبني الشّكوك. سوف تتظاهرين بأنّك مساعدتي. فتحملين محمل الرّسم وآلة التّصوير. لا أحد يسأل هذا الصّنف من النّاس عن أفعالهم وأصولهم. ولا أحد كذلك يندهش إذا رآهم يقيمون في أوكار غريبة. وحتّى إذا تحدّثوا لغة أجنبيّة، فإنّهم لا يجلبون أيّ انتباه.

(ج) اللّغة: من المهمّ جدّا ألاّ نتحدّث مع بعضنا البعض قدر الإمكان، إلاّ إذا كنّا بمفردنا. ويجب ألاّ يضبطنا أيّ شخص، في أيّ حال من الأحوال، ونحن نتكلّم في ما بيننا بالألمانيّة. ويُستحسن إذن أن نستخدم لهجة محلّيّة في حضور الآخرين، لا تكون غير مفهومة فحسبُ، وإنّما يعجز الآخرون أيضا عن التّعرّف عليها. أمّا في الفنادق، فيجب أن نقيم في غرف منزوية إذا أتيح لنا ذلك، أو على الأقلّ في غرف لا تسمح لأحد من جيراننا بالتّجسّس علينا.

(د) تغيير مكان الإقامة باستمرار: يجدر بنا أن نغيّر مكان إقامتنا بلا توقّف، لأنّ جملة من المشاكل سوف تطرح نفسها علينا، بعد فترة من الزّمن على الأرجح. وهذه المشاكل هي في الغالب دفع الضّرائب والتّثبّت من الهويّة. صحيح ألاّ صلة لها بقضيّتنا. ولكنّها قد تثير الشّكوك وتجلب المتاعب. ولهذا السّبب، فإنّ عشرة أيّام أو أسبوعين - شهرا في أقصى الحالات في المدن الصّغيرة جدّا- هي فترة المكوث المناسبة. وسوف يكون هذا الخيار كفيلا بعدم معرفة العاملين بالفنادق لنا.

(هـ) المال: يجب أن يظلّ مُقسّما في ما بيننا إلى أن ننجح في كراء صندوق أمانات بإحدى البنوك، الأمر الذي يشكّل خطرا بالنّسبة إلينا خلال الأشهر الأولى. ولا مجال طبعا لحمل المال في جيوب الملابس أو المحفظة، بل في بطانة ثيابنا وفي قبّعاتنا وأحذيتنا. فإذا حدث تفتيش مفاجئ أو طارئ غير متوقّع، لا يمكن حينئذ اكتشاف مبالغ كبيرة تثير الشّكوك من حولنا. ويجب ألاّ نغيّر العملة إلاّ ببطء وحذر شديدين، وفي مدن كبرى مثل باريس ومونتي كارلو ونيس، لا في المدن الصّغيرة.

(و) علينا أن نتجنّب قدر المستطاع إنشاء صلات بالآخرين، في البداية على الأقلّ، إلى أن نحصل على أوراق ثبوتيّة جديدة. (يمكن فعل ذلك بسهولة في المدن السّاحلية حيث الموانئ). ثم نغادر فرنسا باتّجاه ألمانيا أو أيّ بلاد مناسبة أخرى.

(ز) لا حاجة إلى أن نحدّد سلفا أهداف حياتنا المستقبليّة وخططها. ووفق حساباتي الحاليّة، يمكن للمبلغ إذا عشنا حياة هادئة

متوسّطة المستوى أن يكفينا لأربع سنوات أو خمس. وسوف يتقرّر مستقبلنا خلال هذه الفترة. وبدلًا من أن نحمل المبلغ كلّه معنا نقدًا -ولا شيء أخطر من ذلك- علينا أن نسعى إلى إيداعه في أقرب وقت ممكن. ولن يكون ذلك ممكنا حقًا إلاّ عندما نجد السّبل الآمنة. نحتاج في الفترة الأولى بشكل أساسيّ إلى توخّي الحذر الشّديد والتّحفّظ بلا هوادة والتّحكّم بالنّفس إلى درجة قصوى. وبعد مرور ستّة أشهر، نستطيع التّحرّك بحرّيّة، لأنّ مذكّرات الإيقاف سوف تكون منسيّة. علينا أيضًا أن نستغلّ هذه الفترة لتحسين معرفتنا باللّغات الأخرى، حتّى نبدّل خطّ الكتابة ونطرد الشّعور بالغربة والتّردّد. ويجدر بنا كذلك أن نكتسب كفاءة أخرى تمكّننا من اتّباع نمط مختلف في الحياة أو عمل مهنة جديدة.

4 - خطط للاتّباع عند الفشل أو اكتشاف الأمر

في مهمّة كهذه تتضمّن العديد من العوامل الهشّة غير الموثوق بها، يجب التّفكير في الفشل منذ البداية، باعتباره إمكانا قائما. إذ لا نستطيع أن نتنبّأ بالمواقف الطّارئة الخطيرة وتوقيتها، ولا من أيّ جهة سوف تنجُم. ولهذا ينبغي أن نعالجها حالة بحالة عند وقوعها. ومع ذلك، يمكن أن نذكر بعض المبادئ الأساسيّة في التّعامل معها:

(أ) إذا تسبّب حادث مّا أو مصادفة تقع خلال رحلتنا أو أثناء تغِيير مكان إقامتنا في انفصالنا، فعلينا أن نعود فورًا إلى المكان الذي قضّينا فيه اللّيلة السّابقة، وننتظر بعضنا البعض في محطّة القطار أو نتراسل عن طريق مكتب البريد المركزيّ في المدينة التي نكون فيها.

(ب) إذا تمّ، بأيّ شكل من الأشكال، اقتفاء أثرنا والقبض علينا، يجب أن نكون قد اتّخذنا سلفا كافّة الإجراءات اللاّزمة لإنجاز الخطوات الأخيرة. لن يغادر المسدّس جيبي مطلقا. وسوف أبقيه دوما بجوار السّرير. وتحسّبًا لأيّ ظرف ممكن سوف أعدّ لك سُمًّا من سيانيد البوتاسيوم كي تحمليه معك دوما في علبة المساحيق. إنّ إحساسنا بالتّأهّب الدّائم لتنفيذ قرارنا المدروس سلفا في أيّ لحظة ممكنة يمنحنا الثّقة والاطمئنان. وبالنّسبة إليّ، فقد عقدتُ العزم تمامًا على ألّا أعود أبدًا لأقبع خلف سياج شائك أو قضبان حديديّة. فإذا تمّ اعتقال أحدنا، ينبغي على الآخر أن يقوم بواجبه بإخلاص ويهرب على الفور. يتمثّل الخطأ العظيم في أن يسلّم أحدنا نفسه بدافع من مشاعريّة خرقاء، كي يشارك رفيقه المصير. يجتاز الشّخص المفردُ الاختبار بيسر أكبر دوما. ويمكنه عند التّحقيق أن يختلق الأعذار والأكاذيب بسهولة أكبر. في المقابل، يملك من يظلّ طليقا منّا إمكانيّة إنقاذ الآخر ومحو الآثار وإبلاغه بالمستجدّات وأخيرا مساعدته على الهرب إذا توصّل إلى ذلك. سوف يكون جنونا محضا أن يتخلّى الواحد منّا عن الحرّيّة التي قدّمنا من أجلها كلّ هذا. وفي النّهاية، سوف يكون هناك دوما متّسع من الوقت للانتحار.

5 – الملخّص

نوشك على تنفيذ مهمّة خطيرة والمجازفة بحياتنا من أجل الحرّيّة، لفترة من الزّمن على الأقلّ. ويشمل مفهوم الحرّيّة بشكل عامّ حرّيّة ارتباط الواحد منّا بالآخر بوصفنا أفرادا. قد تتحوّل حياتنا المشتركة

إلى عبء أو أمر لا يتحمّله أحدنا لأسباب جوّانيّة أو خارجيّة. ولهذا، من الممكن أن ينفصل أحدنا تمامًا عن الآخر. سيقوم كلّ منّا بهذه المغامرة بإرادته الفرديّة، دون أيّ إكراه أو ضغط من الطّرف الثّاني. وكلانا مسؤول عن نفسه فحسب. ولن يلقي باللّوم في ما يتعلّق بمصيره على الطّرف الآخر، سواء أكان ذلك على نحو صريح أم بشكل ضمنيّ. ومثلما نتشارك منذ البداية المال الذي يؤمّن حرّيّتنا، فإنّنا نتشارك أيضا تحمّل المسؤوليّة والمجازفة. وسوف يقبل كلّ منّا النّتائج والعواقب التي تنزل به أو بشريكه.

في ما يتعلّق بالتّخطيط للمستقبل، سوف تبقى مسؤوليّتنا الفرديّة أمرًا ثابتا. وثابتةٌ كذلك قناعتُنا الرّاسخة بأنّنا لم نسئ للدّولة ولا لأنفسنا. لكنّنا فعلنا ما هو طبيعيّ ومناسب في مثل موقفنا وظروفنا. لا معنى لأن يقدم المرء على مغامرة كهذه بضمير مؤنّب. ولن ننطلق في هذه العمليّة إلاّ إذا توصّل كلّ منّا، بشكل مستقلّ عن الآخر وبعد تفكير عميق، إلى الاقتناع بأنّ هذه الخطوة هي الطّريق الوحيد الممكن والسّليم.

***

وضعت الأوراق على الطّاولة. ورفعت بصرها. لقد عاد، وهو يدخّن سيجارة. «اقرئي ثانية من البداية إلى النّهاية». واستجابت لطلبه. وما أن أتمّت ذلك حتّى، سألها: «هل كلّ شيء واضح ودقيق؟».

«نعم».

«هل أغفلتُ ذكر أيّ تفصيل؟».

«لا، لقد أمعنتَ التّفكير في كلّ شيء».

«كلّ شيء؟ لا...»، ابتسمَ، «هناك شيء مّا نسيته».

«ما هو؟».

«ليتني أعرفه. فهناك أمر مّا مفقود دوما في كلّ خطّة وثغرة كامنة في كلّ جريمة. لكن لا يستطيع المرء أن يكتشف ذلك مسبقا. لا بدّ أن يرتكب كلّ مجرم، بغضّ النّظر عن فطنته، خطأً بسيطًا جدّا. إنّه يعدم أوراقه كلّها. لكنّه ينسى جواز سفره. يفكّر في كلّ شيء بشكل مجرّد. لكنّه يغفل عن أكثر الأمور وضوحًا وبساطة. ينسى الجميع شيئًا مّا. وربّما نسيت أنا أيضا أهمّ الأشياء».

حَفَلَت نبرتُها بالمفاجأة، وهي تقول: «أتعتقد إذن... أتعتقد أنّ الخطّة لن تنجح؟».

«لا أعرف... وكلّ ما أعرفه أنّ الأمر سيكون صعبًا. كان الطّريق الآخر ليكون أسهل بكثير. ولهذا، يفشل المرء دوما عندما يتمرّد على قانونه الخاصّ. لستُ أفكّر في أروقة العدالة ولا في قانون الدّولة أو الشّرطة. إذ يمكن التّعامل مع هؤلاء حتّى النّهاية. ولكن لكلّ إنسان قانونه الخاصّ. هناك من هو موجّه إلى الأعلى. وهناك من ينحدر إلى الأسفل. من يجدر به أن يصعد، سوف يفعل ذلك. ومن يجدر به أن يسقط سوف يسقط في النّهاية. وحتّى هذه اللّحظة، لم أنجح أبدًا في أيّ شيء. وكذلك أنتِ. ربّما... أو على الأرجح... نكون قد نُذرنا نحن الاثنين للفشل. وإذا أردتِ الصّراحة، سأقول لك لا أعتقد أنّني ممّن وُلد ليكون يوما مّا سعيدا على نحو مثاليّ. لعلّ السّعادة لا تناسبني

أصلا. ولكنّني سوف أكون مقتنعا وراضيا بسعادة تدوم شهرا واحدا أو سنة أو سنتين. في حال أقدمنا على هذه المغامرة، لن أفكّر في العيش بسعادة إلى الأبد، في منزل عائليّ صغير ومريح في الرّيف. ولكن، كلّ ما أريده هو بضعة أسابيع فقط، بضعة أشهر أو بضع سنوات تجاوز المصير الذي كان يعدّه لنا ذلك المسدس».

نظرت إليه بهدوء. وقالت: «شكرًا يا فرديناند، لأنّك كنتَ نزيهًا معي. لو أنّك عرضت كلّ هذا عليّ بحماسة، لكنتُ أشكّ الآن فيك وفي ما تقوله. أنا أيضا لا أعتقد أنّنا سننجح إلى الأبد. ففي كلّ مرّة أردتُ فيها التّقدّم والصّعود إلى أعلى، وقعتُ وتقهقرتُ إلى الخلف. قد تكون مغامرتنا هذه بلا جدوى. ولا معنى لها. ولكنّ الامتناع عن القيام بها ومواصلة الحياة بهذا الشّكل أكثر عبثيّة. لستُ أرى ما هو أفضل منها. ولذلك يمكنك أن تعتمد عليَّ».

تأمّلها بنظرة مشعّة صافية، ولكنّها تخلو من البهجة. ثمّ قال: «قرار نهائيّ؟».

«نعم».

«إذن، الأربعاء... العاشر من الشّهر، على السّاعة السّادسة!».

نظرت إليه بمثل نظرته. ومدّت يدها. وقالت:

«نعم».

ستيفان زفايغ

التحوّل

ما الذي كان يدور في ذهن ستيفان زفايغ وهو يخطُّ آخرَ حرفٍ في رواية «التحوّل»، قبل أن يُنهي حياته في منفاه الاختياريّ بالبرازيل؟ ترى هل كان يكتبُ وصّيتَهُ الأخيرة، مُوَقِّعًا على شهادةِ إدانةٍ مكتومة، شهادة تُدين عالمًا لا يُحرّكه الحبُّ، بل أباطرةُ المال والنفوذ المسعورون؟ أم تراهُ كان يتشوّفُ نهاية ذلك العالم، عالمه هو، بأبشع طريقةٍ ممكنة، وبلاده النمسا تترنّحُ أمام نظامٍ نازيٍّ قادم لابتلاعها؟

في الواقع، لم يُنه زفايغ روايتَهُ مُطلَقًا، وحتّى العنوانُ نفسهُ لم يضعهُ هو، وكأنّنا به يُعلن استسلامهُ أخيرًا أمام وحشيّة الحرب، وتحوّلات عالمهِ القديم.

هذه الرواية ليست قصّةً رومانسيّةً حالمة عن فتاة تتغيّر حياتها رأسًا على عقب، فتتحوّل من موظّفة بسيطة في مكتب بريد إلى برغيّ ضئيل في آلة جبّارة، أو عن حبيبها الذي دمّرت الحرب آخر حصون الإنسانيّة فيه، بل هي شهادة زفايغ نفسه، شهادة مكلومة، اختارَ أن تكون حياتُهُ هي خاتمتها الوحيدة.

وليد أحمد الفرشيشي

ISBN: 978-9938-24-111-2
9 789938 241112
مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution
مسكيلياني